العصور

مجلة علمية نصف سنوية ، محكمة ، تعنى بنشر البحوث التاريخية و الآثارية و الحضارية

المجلد الحادى عشر

١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م

دار المريخ للنشر

تصدر عن : دار المريخ للنشر - لندن

العصور

مجلة علمية نصف سنوية، مُحَكّمة، تعنى بنشر البحوث التاريخيّة والآثاريّة والحضاريّة

المجلد الحادي عشر

الجـزء الأول

ينـايـر ٢٠٠١م

شـوال ١٤٢١هـ

دار المريخ للنشر

تصدر عن دار المريخ للنشر - لندن

١ - « العصور » مجلة نصف سنوية تتولى نشرها دار المريخ للنشر بالرياض وتصدر عن مكتبها بلندن .

٢ - تقدم البحوث والمقالات والترجمات مطبوعات على الآلة الكاتبة على مسافتين من أصل وصورتين علي ورق مقاس ٢١ × ٢٩.٧ سم (A4) وعلى وجه واحد فقط ، ترقم جميع الصفحات شاملة الجداول والصور التوضيحية .

٣ - يراعى ألا يتجاوز عدد صفحات أي بحث أو مقال ٣٠ صفحة (أي في حدود ٧٠٠٠ كلمة) ، أما بالنسبة للكتب المحققة فيراعى ألا يتجاوز عدد صفحاتها ٥٠ صحة (أي في حدود ١٢.٠٠ كلمة) .

٤ - يرفق الباحث ملخصاً لبحثه في حدود ٢٠٠ كلمة (مائتي كلمة) تتصدر البحث باللغتين العربية ولأجنبية .

٥ - ترسم الخرائط والأشكال والرسوم البيانية بالحبر الصيني على ورق « كلك » حتى تكون صالحة للطباعة ، أما الصور الفوتوغرافية فيراعى أن تكون مطبوعة على ورق لماع ، وإذا كانت ملونة فلابد من تقديم الشريحة الأصلية .

٦ - يراعى وضع خطوط متعرجة تحت العناوين الجانبية ، وكذلك الألفاظ والعبارات التي يراد طبعها ببنط ثقيل ، كما توضع خطوط عادية أسفل عناوين الكتب والدوريات .

٧ - يراعى كتابة علامات الترقيم بعناية (النقطة ، علامة الاستفهام ، علامة التعجب ... الخ) في كتابة البحث وبصفة عامة يتبع أسلوب ال« MLA » في الكتابة .

٨ - الحواشي

تطبع الحواشي على الآلة الكاتبة وعلى مسافتين في صفحات مستقلة في نهاية البحث ولا تقبل قائمة للمراجع كل حاشية تمثل جملة مستقلة ولا تشمل على نقط بداخلها .

ويأخذ الترتيب العام للحاشية الشكل الآتي :

اسم (أسماء) المؤلف (ين) ، عنوان الفصل أو الجزء من الكتاب ، عنوان الكتاب ، أسم (أسماء) المحرر (ين) ، المترجم (ين) ، المعد (ين) ؟ رقم الطبعة المستخدمة ، رقم السلسلة عدد المجلدات ، مدينة النشر ، الناشر ، سنة النشر ، رقم المجلد ، وأرقام الصفحات ، ويتبع في الحواشي النظام الآتي :

البحوث

عبد المحسن مدعج ، علي بن الفضل ودعوته في اليمن (٢٦٨ - ٣٠٣ هـ) . « العصور » مجلد ٣ جزء ١ ، ١٩٨٨ م . ص ص ٨٣ - ١٠٦ .

الكتب

المقريزي . تقي الدين أحمد بن علي النقود القديمة والإسلامية ، تحقيق رأفت محمد النبراوي ، العصور ، المجلد الثالث ، الجزء الأول ١٩٨٨ م . ص ص ١٤٩ - ١٥٣ .

محمود محمد الروسان ، القبائل الثمودية والصفوية : دراسة مقارنة (الرياض : جامعة الملك السعود ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م) . ص ص ٢٥ - ٢٧ .

عاطف وصفي الثقافة والشخصية (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٧ م) . ص ٧ .

بعد الذكر الأول للحاشية مشتملة على جميع البيانات المرجعية يشار إليها بعد ذلك في الشكل المختصر وهو يشتمل على اسم العائلة للمؤلف يتبعه أرقام الصفحات المطلوب الاشارة إليها .

(١٧) نوصير ، ص ص ٢٧ - ٥٣ .

وفي حالة وجود عمل أو أكثر للمؤلف نفسه في المقال نفسه فإن الشكل المختصر للحاشية يشتمل بالضرورة على مختصر العنوان بعد اسم العائلة للمؤلف مباشرة .

(٢٨) نوصير . مدرسة جركسية ص ص ٢٧ - ٥٣ .

تأخذ الحواشي أرقاماً مسلسلة حتى نهاية البحث دون استخدام نجوم أو أية رموز أخرى وتطبع في المتن في موضع أعلى قليلاً من السطر بعد علامات الترقيم .

في حالة الكتب التي تفتقر إلى بيانات النشر ، يشار إلى أحدها أو أكثر من الاختصارات الآتية :

د . م . = بدون تاريخ النشر ، د . ص = بدون اسم ناشر . د . ت = بدون تاريخ النشر ، د . ص = بدون أرقام صفحات .

٩ - أصول البحوث والمقالات وترتيبها داخل العدد لاعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الكاتب .

١١ - لما كانت المجلة تصدر نصف سنوية بصفة دورية ، وتوزع في موعد محدد فإن ذلك يتطلب ضرورة جمع موضوعاتها وتنسيقها وإخراجها وطباعتها في وقت يسبق موعد التوزيع بفترة كافية .

١٢ - لا تقبل المجلة نشر البحوث أو المقالات أو الترجمات التي سبق نشرها . كما لا يجوز إعادة النشر في مجلات علمية أخرى بعد إقرار نشرها في هذه المجلة إلا بعد الحصول على إذن كتابي من رئاسة تحرير المجلة .

١٣ - تقبل البحوث المكتوبة باللغتين العربية والانجليزية .

١٤ - تأمل رئاسة التحرير من السادة الأساتذة الباحثين والكتاب الذين يرغبون في نشر بحوثهم ومقالاتهم في الاعداد القادمة من المجلة أن يلتزموا بالقواعد هذه . لأن هذا يساعد رئاسة تحرير المجلة على أداء عملها كما يساهم في خدمة أهداف المجلة وسنعتذر عن قبول أي مقالة أو بحث لا يلتزم مؤلفها بتلك التعليمات .

١٥ - يقوم المؤلفون بمراجعة تجارب الطبع الأخيرة بمطابقتها على الأصول ، مع مراعاة عدم إجراء أي تغييرات فيها تختلف عما ورد في الأصول ، سواء بالإضافة أو الحذف ، على أن تعاد تجربة الطبع خلال ٤٨ ساعة فيما او رأت رئاسة التحرير غير ذلك .

١٦ - تمنح إدارة الجلة لمؤلف كل بحث أو مقالة نسخة مجانية من المجلد الذي نشر به البحث أو المقال .

١٧ - توجه جميع المراسلات الخاصة بالمجلة إلى : دار المريخ للنشر - ص ب ١٠٧٢٠ ، الرياض ١١٤٤٣ ، المملكة العربية السعودية .

العصور

مجلة علمية، مُحَكّمة نصف سنوية، تعنى بنشر البحوث التاريخيّة والآثاريّة والحضاريّة

المجلد الحادي عشر

الجزء الأول

يناير ٢٠٠١م

شوال ١٤٢١هـ

دار المريخ

تصدر عن: دار المريخ للنشر - لندن

بسم الله الرحمن الرحيم

* ما ينشر في هذه المجلة من مواد تعبر عن آراء أصحابها

تكون جميع المراسلات والاشتراكات لجميع دول العالم على العنوان التالي :

- دار المريخ للنشر - ص . ب ١٠٧٢٠ الرياض : ١١٤٤٣ - المملكة العربية السعودية
- دار المريخ للنشر - ٤ ش الفرات - مدينة المهندسين - جمهورية مصر العربية هاتف ٣٢٧٦٥٧٩ فاكس ٧٦٠٩٤٥٧
- الدار العربية للنشر والتوزيع - ٤٩ جولد هوك رود ، لندن - W128QP المملكة المتحدة

الاشتراكات السنوية :

- المملكة العربية السعودية (١٠٠) ريال سعودي
- الدولة العربية (٣٥) دولار أمريكياً أو ما يعادلها .
- الدول الأوربية (٤٠) دولاراً أمريكياً .
- أمريكا وكندا (٤٥) دولاراً أمريكياً .
- استراليا وجنوب شرق آسيا (٥٠) دولاراً أمريكياً .

العصور، المجلد الحادى عشر، الجزء الاول، ١ - ١١٧ (٢٠٠١ م)

المحتـويـات

القســم العربـــي

العصور، المجلد الحادى عشر، الجزء الاول، ٧ - ٤٢ (٢٠٠١ م)

نقوش عربية جنوبية قديمة من شعب النغرة [(١)]

للدكتور سالم بن أحمد بن طيران

ملخص البحث : يتناول هذا البحث دراسة وتحليل مجموعة من النصوص أو المخربشات (Graffiti) الجديدة المدونة بالقلم المسند، حيث تم نقل معانيها إلى اللغة العربية الفصحى ، ودراسة الدلالات اللغوية والدينية لأسماء الأعلام التي وردت في هذه النصوص ، ومحاولة ضبطها وتشكيلها ومقارنتها بمثيلاتها في النقوش العربية القديمة والموروث العربي، وكذلك في اللغات السامية الأخرى .

يقع شعب النَّغرَة أو النَغَرة في منطقة عسير على بعد خمسين ميلاً تقريباً شرق مدينة النماص[(٢)]. ويأتي موقع الشعب في نقطة التقاء خط الطول ‵٤٣°٢٣ شرقاً ودائرة العرض ‵١٩°١٠ شمال خط الاستواء.

يوجد في هذا الشعب بئران كبيرتان منحوتتان في الصخر تتجمع فيهما المياه الجارية من الجبال عند سقوط الأمطار في المنطقة . ولذلك من المرجح أن هذا الشعب كان مستراحاً أو مكان استراحة للبدو الرحل، وكذلك القوافل التجارية في طريقها من الجنوب إلى الشمال والعكس . ومن الجدير بالذكر أيضاً أن شعب النغرة ذا الطبيعة الجبلية الصخرية يوجد به عدد من مناجم الحديد القديمة ، ويمكن رؤية ذلك بوضوح من خلال آثار التعدين الكثيرة المتناثرة بالقرب من تلك المناجم والمتمثلة في كميات كبيرة من خبث الحديد وبعض القوالب المستخدمة في صناعة التعدين .

وعلى جانبي شعب النغرة على الصخور على الصخور الجرانيتية الملساء توجد كثير من الكتابات العربية الجنوبية القديمة من نوع المخربشات السبئية بالإضافة إلى بعض الكتابات العربية الشمالية القديمة والمعروفة اصطلاحاً بالثمودية[(٣)] . وقد تعرض جزء من هذه الكتابات

(١) في صيف عام ١٤١٦هـ كان لي شرف مرافقة أستاذي الدكتور عبد الرحمن الطيب الأنصاري وبعض الأخوة الزملاء في رحلة إلي جنوب المملكة العربية السعودية . خلال إقامتنا في مدينة النماص أخبرنا الأستاذ فايز بن عبد الله الشهري صاحب حصن نتومة للتراث بوجود كتابات قديمة في شعب النغرة . وقد أرشدنا إلى موقع هذه الكتابات حيث تم تصوير ما شاهدناه منها .

(٢) على طريق النماص – بيشة القديم – والذي أفتتح في عام ١٣٨٠هـ حيث يمر هذا الطريق بوادي العوجا الذي يتفرع منه شعب النغرة (النغرة الشرقية) الموجود به الكتابات موضوع البحث ، والممتد شرقاً حتى وادي نعفا .

(٣) بلغت الكتابات الثمودية جنوبا على امتداد طرق التجارة القديمة نواحي نجران وشمالي اليمن بالإضافة إلى وجودها في غربي ووسط شمال الجزيرة العربية وخاصة مدين ، وحول واحة تبوك، وتيماء وحائل ، والحجر (مدائن صالح) ، والعلا (ديدان). ويمكن إرجاع تأريخ النصوص المتأخرة منها إلى حوالي القرن الرابع الميلادي ، بينما تؤرخ النصوص المبكرة إلى حوالي القرن السادس قبل الميلاد .

وللمزيد من المعلومات عن الثمودية انظر :

1st. Van den Branden · Les Inscriptions thamoudéennes, Bibliotheque du Muśeon, Vol 25 (Louvain, 1950); A. Van den Branden : Les textes thmoudéennes de Philby. Vol. I – II, Bibliotheque du Muśeon, Vol. 40 et 41, (Louvainm 1965).

والنقوش للتلف والانطماس بسبب عوامل التعرية المختلفة وجريان مياه الأمطار عليها من أعلي الجبل ، بالإضافة إلى وجود بعض هذه النقوش في أسف الجبل مما يجعلها بين الحين والآخر عرضة لمياه السيول المتجمعة في هذا الجزء من الوادي .

النقوش وتاريخها :

توجد غالبية نقوش هذه المجموعة على صخور الجانب الشرقي لشعب النغرة . وهي عبارة عن نقوش أو مخربشات Graffiti بالخط المسند الجنوبي(٤) ، سجلها المارة وأرباب القوافل التجارية الذين كانوا يقصدون هذا المكان للتزود بالماء والاستراحة فيه من عناء السفر . ويلاحظ أن هذه النقوش تحمل في مجملها أسماء أعلام قديمة منها ما هو معروف سابقاً في الكتابات العربية الجنوبية القديمة وخاصة السبئية المبكرة ومنها ما يظهر هنا للمرة الأولى . فهي إذن نصوص بسيطة لها دلالات لغوية تفيدنا كثيراً في مجال دراسة الأعلام العربية القديمة Onomasticon بوجه خاص .

والمعروف لدينا في النقوش العربية الجنوبية القديمة ذكر اسم الشخص فاسم أبيه ثم اسم البطن أو القبيلة التي ينتسب إليها صاحب النقش مسبوقاً بكلمة بنو أو ذو أو ذو آل . أما في هذه المجموعة فيلاحظ أن نصوصها لا تقدم لنا سلاسل نسب كاملة ، بل أسماء أعلام منفردة لا تربط بينها كلمة البنوة "بن" . كما أن القليل منها الذي يذكر اسم البطن أو القبيلة التي ينتسب إليها صاحب النص . ولدنا في هذه المجموعة عشرة نقوش فقط يرد فيها ذكر اسم البطن أو القبيلة أي بما نسبته ١٩,٢٣% من المجموع الكلي للنقوش . في خمسة منها يذكر الاسم مسبوقاً بالأداة ذ(ذو) التي تعني النسبة إلى البطن أو القبيلة ، وهذه النقوش هي أرقام (١٧) ، (٢٤) ، (٣٨) ، (٤١) ،(٥٢) .

أما النقوش الخمسة الأخرى فإن ثلاثة منها وهي أرقام (٢٦) ، (٤٤) ، (٤٥) تذكر اسم العلم واسم البطن أو القبيلة ، يفصل بينهما الخط العمودي الفاصل بين الكلمات في نقوش الخط المسند من جنوب الجزيرة العربية . وفي النقش رقم (٤٣) نجد اسم العلم يتبعه مباشرة اسم البطن أو القبيلة بدون فاصل بينهما . أما في النقش رقم (٤٩) فقد كُتب اسم البطن أو القبيلة تحت اسم العلم مباشرة .

ومما لا شك فيه أنه يصعب كثيراً على دارسي النقوش القديمة تحديد عمر دقيق لهذه النقوش أو المخربشات إستناداً إلى علم دراسة تطور الخطوط ، حيث يتعذر إثبات الفوارق الزمنية بين أشكال هذه النقوش وغيرها من النقوش في أماكن أخرى من الجزيرة العربية بشكل دقيق . إلا أننا إذا أمعنا النظر في حروف نقوش هذه المجموعة

= ولمزيد من المراجع أنظر محمود الروسان، القبائل الثمودية والصفوية : دراسة مقارنة (الرياض : جامعة الملك سعود ١٤٠٧ هـ/١٩٨٧م)، ص ص ٣٣ – ٨٦ .

Walter W. Müller, Das Frühnordarabische, Grundriss der arabische Philologie, Bd.1, (Wiesbaden, 1982) PP.18 – 20.

(٤) ويرى بيستون أن مخربشات الخط المسند الجنوبي هي عبارة عن نصوص حفرتها أيدٍ غير خبيرة وبالتالي فهي عبارة عن محاولات لم يحالفها التوفيق لمحاكاة النمط الهندسي الجميل لخط النقوش التذكارية . انظر

A. F.L. Beeston, Sabaic Grammar, (University of Manchester, 1984) P.5.

نجد أنها تشبه إلى حد كبير حروف النقوش السبئية المبكرة خصوصا ما كتب منها وفق طريقة المحراث boustrophedon [٥] ولدينا في هذه المجموعة أربعة نقوش من هذا النوع هي أرقام (٩) ، (١٦) ، (٣٩) ، (٥٠) – هذا التشابه يظهر جليا في أشكال بعض الحروف مثل : الألف والسين والكاف التي تتميز بقواعدها الكبيرة 𐩱 ، 𐩪 𐩫 . الميم ذات المثلثات الجانبية الحادة الزوايا في الغالب 𐩣 𐩣 𐩣 . الدال ذات المثلث الجانبي الحاد الزوايا 𐩵 أو المربع الجانبي المنحرف 𐩵 كذلك الفوهة المخروطية الشكل في حروف الحاء 𐩢𐩢 والخاء 𐩭 ، والهاء 𐩠 . والدوائر الكبيرة الحجم في حروف العين 𐩲 ، والقاف 𐩤 ، والياء 𐩺 . بالإضافة إلى الشكل المميز لحرف الصاد والمتمثل في دائرة كبيرة يخرج من أسفلها ثلاثة خطوط متباعدة تشبه الأشعة الصادرة من قرص الشمس. 𐩮 𐩮 . وتظهر هذه الأشكال المميزة للحروف المذكورة آنفا في نصوص سبئية مبكرة بعضة مكتوب وفق خط سير المحراث أو الطريقة الحلزونية ، ومن تلك النصوص :

GL 1719+1717+1718; GL 1563=RES 4907; YM 546.

وهي نصوص تعود إلى عهد المكرب السبئي يدع إل ينوف بن كرب إل أي حوالي ٧٥٥–٧١٠ قبل الميلاد . وبناءا على ذلك يمكن القول إن نقوش شعب النغرة تعود إلى فترة مبكرة من تاريخ جنوب الجزيرة العربية ربما تكون ما بين القرنين السابع والخامس قبل الميلاد[٦] .

قراءة النقوش وتحليلها :

النقش رقم (١)
النص بالحرف العربي : م ق ح م
نقل المعنى : مقحم
الحاشية :

يتكون هذا النقش من كلمة واحدة هي م ق ح م. وهو اسم علم مشتق من الكلمة العربية قحم بمعنى رمى بنفسه في الأمر فجأة بلا روية[٧] . ولعل

---

(٥) تتميز بعض نقوش المرحلة السبئية المبكرة بأنها مكتوبة وفق خط سير المحراث boustrophedon أي التناوب. فيكون إتجاه الكتابة من اليمين إلى اليسار في الأسطر الوترية، ومن اليسار إلى اليمين في الأسطر الشفعية. وبالتالي فإن اتجاه بعض الحروف ينعكس حتى يتوافق مع اتجاه الخط.

(٦) حسب تصنيف فون فيسمان لأشكال حروف الخط المسند فإن حروف نقوش هذه المجموعة تتوافق مع ما يسمى بحروف المرحلة الأولى Buchstaben der Stufe I والتي أرخها بالفترة ما قبل منتصف القرن الثامن ق.م. بينما ترى جاكلين بيرين أن حروف هذه المرحلة تعود إلى حوالي القرن الخامس ق.م وللمزيد حول هذا الموضوع انظر :

H. von Wissmann, Die Geschichte des Sabäerreichs und der Feldzug des Aelius Gallus, Aufstieg und Niedergang der römischen Welt. Geschicte und Kultur Roms im Spiegel der neuren Forschung. II. Principat. 9. Bd. (1.Halbband), hrsg. von H. Temporini and W. Haase, (Berlin, 1976), PP.318 – 322.

وكذلك :

J. Pirenne, Paléographie des inscriptions sud-arabes, Tome I, (Bruxelles, 1956), PP. 109, 283.

(٧) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري، لسان العرب، إعداد وتصنيف يوسف خياط (بيروت : دار لسان العرب، د.ت)، المجلد الثالث ، ص ٢٥.

الاسم يُقرأ على وزن مِفعال إستناداً إلى الاسم العربي مِقحام [٨]. ومبلغ علمي أنه لا يوجد لهذا الاسم نظير في الكتابات العربية الجنوبية القديمة، غير أن هناك أسماء أخرى ترد في كتابات الجزيرة العربية القديمة من الجذر ق ح م منها ق ح م في النقش السبئي RES 4993/2 [٩] والنقش القتباني RES 3566/28، ق ح م في النقش الصفوي WH 150 [١٠] والنقش الثمودي HU 666 [١١]، وأسماء الأعلام قَحْمٌ وقاحم في الكتب العربية [١٢].

النقش رقم (٢)

النص بالحرف العربي : ص د ق م

نقل المعنى : صادقم

الحاشية :

يحتوي هذا النقش على كلمة واحدة مكونة من أربعة أحرف هي الصاد والدال والقاف والميم. وقد رُسم حرف الصاد بالشكل المعروف في النقوش السبئية وهو دائرة أو نصف دائرة تخرج منها ثلاثة أرجل قصيرة 𐩮. والنقش عبارة عن اسم شخص مكون من الكلمة ص د ق تلحقها الميم أو ما يعرف لدى علماء الكتابات العربية القديمة وفي مجال علم دراسة أسماء الأعلام بالتمييم [١٣] Mimation.

ويرجح أن قراءة الاسم على وزن فاعل أي صادقم بمعنى الصادق الذي يخبر بالواقع دون كذب والمخلص في المودة والنصيحة [١٤]. وهو يماثل الاسم العربي صادق للمذكر وصادقة للمؤنث [١٥].

ويرد ص د ق م كإسم علم في نقش سبئي مبكر على مذبح قرابين عثر عليه في جوف اليمن [١٦]، كما يرد أيضا في النقوش القتبانية عدة مرات مثل النقش Ja 214 [١٧]. وعُرف هذا الاسم أيضاً في النقوش الأمورية بصيغة Za-du-Kum [١٨] وفي النقوش الاوجاريتية بصيغة ص د ق م [١٩]. ويجدر بالذكر أن هذا الاسم يظهر

---

(٨) عبود أحمد الخزرجي، أسماؤنا، أسرارها ومعانيها، الطبعة الثالثة، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٠ م)، ص ٥٧٩.

(٩) Rèpertoire d'Épigraphie Sémitique publié par la Commission du Corpus Inscriptionum Semiticarum, Tome V. VI. VII. VIII. (Paris 1929. 1938. 1950. 1968)

(١٠) F. V. Winnett – G. Harding, Inscriptions from Fifty Safaitic Cairns, Near and Middle East Series 9, (Toronto: University of Toronto Press, 1978).

(١١) Van den Branden, Les inscriptions, P. 335.

(١٢) الفيروزابادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، الطبعة الثانية (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ص١٤٨٠. وللمزيد من المعلومات عن اسم العلم ق ح م انظر:

S.A.Tairan, Die Personennamen in den altsabaischen Inschriften. Texte und Studien zur Orientalistik, Band 8, (Hildesheim, 1992), P. 178.

(١٣) التمييم أو إضافة الميم في آخر الاسم يرد كثيراً في أسماء الأعلام العربية الجنوبية القديمة على وجه الخصوص. وهو يقابل التنوين أو عدم التعريف في الأسماء العربية. وللمزيد من=

= المعلومات في هذا الموضوع انظر:

Beeston, Sabaic Grammar, PP. 30-31, Maria Höfner, Altsüdarabische Grammatik, (Osnabruck, 1976),PP.114-115

(١٤) ابن منظور، مج ٢، ص ص ٤٢٠ – ٤٢١.

(١٥) معجم أسماء العرب، موسوعة السلطان قابوس لأسماء العرب، الطبعة الأولى، (بيروت: مكتبة لبنان، مسقط: جامعة السلطان قابوس ١٤١١هـ/١٩٩١م)، مج ٢، ص ص ٩٨٦ – ٩٨٧.

(١٦) J. Ryckmans, Une table à libation avec inscription sabeenne provenant du Ǧawf du Yemen, On both Sides of al-Mandab. Ethiopian, South-Arabic and Islamic Studies presented to O. Löfgren on his 90 birthday, 13 may 1988 by colleagues and friends. Swedish Research Institute in Istanbul. Transactions. Vol. 2 (Stockholm, 1988) PP. 69-81.

(١٧) A. Jamme, Pièces épigraphiques de Heid bin ʿAqil, la necropole de Timna ʿ (Hagar Kohlān), Bibliothèque du Muséon, Vol. 30, (Louvain, 1952).

(١٨) I. J. Gelb, Computer-Aided Analysis of Amorite Assyriological Studies, (Chicago,1980),P.365

(١٩) F. Gröndahl, Die Personennamen der Texte aus Ugarit, Studia Pohl 1, (Rom, 1967), P. 188.

أيضا بدون الميم في آخره في النقوش الصفوية مثل WH 2392 وفي النقوش العربية الجنوبية وبعض النقوش السامية الأخرى[٢٠].

النقش رقم (٣)
النص بالحرف العربي: ع ن د هـ م و
نقل المعنى: عنيدهمو
الحاشية:

هذا النقش البسيط يتكون من كلمة واحدة فقط وهي اسم العلم ع ن د هـ م و. وهو اسم علم مركب من كلمة ع ند والضمير المتصل لجمع الذكور - هـ م و وعَنِدَ في اللغة العربية أي عتا وطغى وجاوز قدره، وكذلك أن يعرف الرجل الشيء فيأباه ويحيد عنه فهو عنيد وعاند[٢١]. ولعل الاسم يُقرأ (عنيدهمو) أو عنادهمو (عنادهم)[٢٢]. وقد سبق أن ورد هذا الاسم في واحد من النقوش السبئية المكرة وهو النقش الموسوم بـ RES 4555 = GL 748[٢٣].

ومن أسماء الأعلام المشتقة من الجذر ع ن د نجد الاسم ع ن د م (عنادم أو عنيدم) في النقش السبئي المبكر المكتوب وفق خط سير المحراث boustrophedon والموسوم بـ GL A683/1[٢٤]، وفي النقوش القتبانية[٢٥]، وكذلك في واحد من مخربشات جبل طويق بالقرب من قرية (الفاو) JA 2615 h[٢٦] ولا زالت تستعمل اليوم الأسماء عاندة وعنيدة (مؤنث)، عنّاد، عِناد وعنيد في بعض مناطق الوطن العربي[٢٧].

النقش رقم (٤)
النص بالحرف العربي: ع ب د م
نقل المعنى: عبدم
الحاشية:

هذا النص كسابقه يتكون من كلمة واحدة فقط تقرأ ع ب د م. وهو الإنسان حراً كان أو رقيقا لأنه مربوب لله عز وجل[٢٨]. وقد اشتق من هذه الكلمة في اللغة العربية عدد غير قليل من أسماء الأعلام منها عَبْد، عبّاد، عُباد وعُبادة[٢٩].

وفي النصوص العربية الجنوبية القديمة يرد الاسم ع ب د في النقش السبئي CIH 817[٣٠]، وفي النقوش المعينية مرات عديدة مثل RES 2995=M218/1 براقش، وفي نقوش معينية أخرى من شمال الجزيرة العربية كالنقش RES 3282= M289/1 من العلا، كذلك في النقش Ja 2551 b[٣١] من جبل طويق المشرف على (قرية الفاو).

أما في النصوص العربية الشمالية القديمة فنجد الاسم ع ب د في النقوش اللحيانية والنقوش الصفوية والنقوش الثمودية[٣٢]. كما يظهر هذا الاسم في بعض النقوش

---

(٢٠) S.Al-Said, Die Personennamen in den minäischen Inschriften. Akademie der Wissenschaften und der Literatur. Mainz. Veröffentlichungen der Orientalischaen Kommission. Band 41, (Wiesbaden, 1995), P. 130.

(٢١) ابن منظور، مج ٢، ص ٨٩٧.

(٢٢) Tairan, P 173.

(٢٣) K. Grebenz, Die Kleinen Fragmente aus Glasers Tagebuch XI (Marib), WZKM 42, 1935, P. 91

(٢٤) H. Tschinkowitz-Nagler, Kleine Fragmente (II Teil), SEG 1, SBAWW301/2Abh, (Wien, 1975), P.21.

(٢٥) G. L. Harding, An Index and Concordance of Pre Islamic Arabian Names and Inscriptions Near and Middle East Series, 8, (Toronto : University of Toronto Press, 1971) P 444.

(٢٦) A. Jamme. Miscellanees dàncient (sic) arabe. IV, (Washington, D.C, 1973), P. 39.

(٢٧) معجم أسماء العرب، مج ٢، ص ص ١١٠٤، ١٢٢٥، ١٢٣١.

(٢٨) ابن منظور، مج ٢ ص ٦٦٤.

(٢٩) إبراهيم السامرائي، الأعلام العربية، بحث في أسماء الناس، الطبعة الأولى، (بيروت : دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٠م)، ص ص ٢١٦ - ٢١٧.

(٣٠) Corpus Inscriptionum Semiticarum. Pars quarta. Inscriptiones himyariticas et sabaeas continens. Tomus I.II.III., (Parisiis, 1889. 1911 1929).

(٣١) Jamme, Misc IV, P. 21.

(٣٢) Harding, Index, P. 397.

السامية الأخرى حيث نجده في العهد القديم بصيغة קדם (٣٣)، وفي النقوش العمونية(٣٤)، وفي النقوش اليونية (٣٥)، وفي نقوش مدينة الحضر(٣٦) ، وفي النقوش النبطية(٣٧).

النقش رقم (٥)
النص بالحرف العربي: ا ل ق د م
نقل المعنى: إل قدم
الحاشية:

يحمل هذا النقش اسم العلم ا ل ق د م . وهو من الأسماء المعروفة في النصوص السبئية وخاصة المبكرة منها مثل النص الموسوم بـ GL 1522/1 (٣٨) من جدفر بن منيخر في جوف اليمن. ويظهر اسم العلم هذا في النقوش الحضرمية مثل Ca Th 53 (٣٩)، وفي النقوش القتبانية مثل Ja 169/1 كما يظهر أيضا في النصوص الصفوية بصيغة ق د م ا ل في النقش WH 15 ، وبصيغة ق د م ل في النقش LP1174 (٤٠). والاسم ا ل ق د م علم مركب من الكلمة السامية إل وتعني إله أو معبود (٤١)، والفعل ق د م (٤٢) بمعنى قدم، فيصبح الاسم في شكل جملة فعلية إل قدم : أي أن المعبود تقدم أو في المقدمة على كل شيء . أو يكون المعنى هو التمني من المعبود بأن يجعل حامل الاسم يتقدم أو في المقدمة (ليجعل المعبود حامل الاسم في المقدمة). ونجد شبيها لهذا الاسم في لغات سامية أخرى ، فمثلاً يرد الاسم קַדְמִיאֵל في العهد القديم (٤٣). كذلك نجد في نقوش الحضر الاسم ق د م أ ح و {هـ ي}(٤٤) وفي النصوص الأمورية نجد الاسم AN-NU-KU-und-mi(٤٥).

النقش رقم (٦)
النص بالحرف العربي: م ق ح م
نقل المعنى: مقحم
الحاشية:
كُتب هذا النص بأسلوب بسيط وبحروف كبيرة من اليمين إلى اليسار وهو عبارة عن كلمة واحدة

---

(٣٣) M. Noth, Die israelitischen Personennamen im Rahmen der gemeinsemitischen Namengebung, (Stuttgart , 1928 , Nachdruck , Hildesheim , 1966),P.137.

(٣٤) K. P. Jackson, Ammonite Personal Names in the Context of the West Semitic Onomasticon, The Word of Lord Shall Go Forth Essays in Honor of D. N. Freedman in Celebration of his Sixtieth Birthday, Ed., C. Meyers and M.O' connor, (Philadelphia, 1983), P. 514.

(٣٥) F. Benz, Personal Names in the Phoenician and Punic Inscriptions, Studia Phol 8, (Rome, 1972), P. 184.

(٣٦) S. Abbadi, Die Personennamen der Inschriften aus Hatra. Texte und Studien zur Orientalistik I, (Hildesheim, 1983), P. 135.

(٣٧) سليمان بن عبد الرحمن الذييب، نقوش نبطية قديمة، دراسة تحليلية، (الرياض : مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م) ، ص ١٠٩ .

(٣٨) M. Höfner – J. M.Sola Sole, Inschriften aus dem Gebiet zwischen Marib und dem Gauf, SEG II, SBAWW238/3. Abh., (Wien, 1961), P. 21.

(٣٩) Caton Thompsom, G., The Tombs and Moon Temple of Hureidha (Hadhramaut), Reports of the Research Committee of the Society of Antiquaries of London, No. XIII, (Oxford, 1944).

(٤٠) E. Littmann, Safaitic Inscriptions (Leiden: Publications of the Princeton Untiversity Archaeological Expeditions to Syria in 1904 – 05 and 1909, 1943), Division IV, Semitic Inscriptions. Section C.

(٤١) إل : اسم جنس يشير إلى أحد المعبودات التي عرفت في الجزيرة العربية وخارجها . وقد جاء ذكره في النقوش الاكادية والاوجاريتية، وفي النصوص الكنعانية والارامية القديمة كما أنه يدخل في تركيب العديد من أسماء الأعلام المركبة في النصوص السامية. وللمزيد عن المعبود السامي إل انظر :
M. Höfner, Südarabien. Wörterbuch der Mythologie I, Hrsg. H. W. Haussig, (Stuttgart, 1965), P. 511.
وكذلك
M. Maraqten, Die semitischen Personennamen in den alt – und reichsarämaischen Inschriften aus Vorderasien, Texte und Studien zur Orientalistik 5, (Hildesheim, 1988), P. 44.

(٤٢) A.F.L. Beeston, M. A. Ghul, W.W. Müller, J. Ryckmans, Sabic Dictionary (Louvain – al – Neuve, Beyrouth, 1982) P.103.

(٤٣) Noth, P. 256.

(٤٤) Abbadi, P. 158.

(٤٥) Gelb, P. 341.

تمثل اسم العلم م ق ح م الذي سبق وروده في النص رقم (١)

النقش رقم (٧)
النص بالحرف العربي : ا ل ي ث ع
نقل المعنى : ال يثع
الحاشية :

كُتب هذا النص البسيط على يسار النص رقم (٢). وهو يتكون من كلمة واحدة فقط هي اسم العلم ا ل ي ث ع. يظهر الاسم ا ل ي ث ع حتى الآن في النقش المعيني MAFRAY-Kamna 10/4-5,6,9 من كمنا[٤٦]، وكذلك في أحد المخربشات الديدانية[٤٧]. وهو اسم مركب في شكل جملة فعلية تتكون من إل، والفعل ي ث ع الذي نجده فقط في أسماء الأعلام العربية والعربية الجنوبية القديمة. ويمكن تفسير هذا الاسم إما عن طريق الفعل العبري ישע (عاون، ساعد)[٤٨] فيكون معناه عندئذ (ساعد الإله أو عاون الإله)، أو عن طريق المعنى المقترح من قبل فالتر موللر للفعل العربي الجنوبي ي ث ع، ليكون معني الاسم (رفع الإله)[٤٩]. وقد وجد الاسم أيضاً بصيغة عكسية ي ث ع ا ل في النقوش السبئية مثل JA 823 B من محرم بلقيس[٥٠]، والنقوش المعينية مثل BR-Yanbuq بصيغة ي س {ع أ} ل[٥١].

النقش رقم (٨)
النص بالحرف العربي: ش م م
نقل المعنى: شمّام
الحاشية:

كُتب هذا النص بشكل عمودي من أعلى إلى أسفل تحت النص رقم (٧). وهو عبارة عن كلمة واحدة مكونة من ثلاثة حروف. حرف الشين المتجه في رسمه إلى أعلى، وحرفا الميم المتجهان في رسمهما إلى أسفل. ويرجح أن تكون الكلمة اسم علم بسيط ش م م على وزن فعّال أي شمّام وهو الحاد الشم، وكذلك نبات له ثمر بيضاوي الشكل تقريباً وقشر مخطط ويتميز بطيب الرائحة وقوتها[٥٢] ويرد شمم في النص السبئي المبكر RES 3943/3 كاسم أحد الأودية الغرينية (ذ هـ ب) لمدينة يثل و يائل في وادي الجوف[٥٣].

---

(٤٦) Al-Said. P. 20.
و(كَمْنَا) ترد في النقوش السبئية ك م ن هـ و (CIH 377/2)، وعند بيلني Caminacum وقد ذكرها الهمداني في كتابة صفة جزيرة العرب ص ٣١٤. وتقع أطلالها اليوم شمال شرقي خربة السوداء، وتعرف خربة كَمْنَا. وللمزيد من المعلومات انظر :
A. Al-Scheiba, Die Ortsnamen in den altsüdarabischen Inschriften (mit dem Versuch ihrer Identifizierung und Lokalisierung), ABADY IV, 1987, P.49.

(٤٧) W. Caskel, Lihyan und Lihyanisch, Arbeitsgemeinschaft für forschung des Landes Nordrhein – Westfalen. Geistwissenschaften, Heft 4, (Köln, 1945), P. 148

(٤٨) L. Koehler – W. Baumgartner, Hebräisches und aramäisches Lexikon zum Alten Testament, Lieferung I-IV, (Leiden, 1967-1990), P. 148

(٤٩) اقترح فالتر موللر تفسير كلمة ي ث ع في أسماء الأعلام العربية الجنوبية القديمة بمعنى "رفع، على" ككلمة مرادفة =

= لكلمة ي ف ع. واستند في رأيه هذا على مقارنة أسماء الأعلام المركبة من العنصر ي ث ع واسم المعبود، بتلك التي يدخل في تركيبها كلمة ي ف ع مثل ا ل ي ف ع ، وللمزيد حول هذا الرأي انظر :
Walter W. Müller, Abyata^c und andere mit y t ^c gebildete Namen in Frühnordarabischen und altsüdarabischen, WO 10, 1979, P. 28.

(٥٠) A. Jamme, Sabaean Inscriptions from Mahram Bilqîs (Mârib). Publications of the American Foundation for the Study of Man. Vol. 111, (Baltimore, 1962)

(٥١) M. Bafaqih – Chr. Robin, Inscriptions inédits de Yanbuq (Yémen démocratique), Rāydan 2, 1979, P. 21.

(٥٢) معجم أسماء العرب ، مج ١ ، ص ٩٤٥ .
انظر كذلك الخزرجي ، ص ٣٨٧ .

(٥٣) Al-Scheiba, P. 37.

النقش رقم (٩)

النص بالحرف العربي: ت ب ع أ ←
ر م →

نقل المعنى: تبع أ
مر

الحاشية :

كتب هذا النص البسيط وفق خط المحراث boustrophedon حيث نجد في السطر الأول من اليمين إلى اليسار حروف التاء والباء والعين والألف، بينما في السطر الثاني اسم العلم ت ب ع أ م ر الذي لم يسبق ذكره في النقوش، لكن إضرابه من الأسماء مثل تبع كرب وتبع إل ترد كثيرا في النقوش العربية الجنوبية القديمة(٥٤). والاسم ت ب ع أ م ر علم مركب من جزأين، الأول هو كلمة تبع(٥٥) ولعل معناها (قوي، شجاع جسور) استنادا للفعل الحبشي ተበዐ (٥٦)، والثاني هو كلمة أ م ر ومعناها كما في العربية (أمر ، فيصبح معنى الاسم تبع أمر 'بع م(القوى الشجاع) أمر.

النقش رقم (١٠)

النص بالحرف العربي : ي ث ع م

نقل المعنى : يثعم

الحاشية :

هذا النص عبارة عن كلمة واحدة هي اسم العلم ي ث ع م والذي ربما يقرأ يثعم. وهو اسم بسيط يتكون من كلمة ي ث ع المعروفة في أسماء الأعلام العربية والعربية الجنوبية القديمة(٥٧)، والميم في آخر الاسم للتمييم. ويرد الاسم ي ث ع م بكثرة في النقوش السبئية المبكرة مثل Ja 2913 d/2(٥٨)، وفي النقش السبئي DJE 17/2 من الحقة (٥٩). كذلك يرد هذا الاسم في أحد المخربشات الثمودية من وادي حبونه Philby، وفي النقش القتباني RES 4569 ، وفي النقش الحضرمي Ca Th 61a بالصيغة ي س ع م. أما الاسم ي ث ع بدون الميم فيظهر في النقوش العربية الجنوبية والشمالية القديمة وغيرها من النقوش السامية الأخرى(٦٠).

النقش رقم (١١)

النص بالحرف العربي: ي ق د م ا ل

نقل المعنى : يقدم ال

الحاشية :

نص من كلمة واحدة تمثل اسم العلم ي ق د م ا ل الذي يرد بكثرة في النقوش السبئية المبكرة مثل النقش Schm/Samasara 1/1 من معبد ودم ذو مسمعم(٦١). كذلك يأتي الاسم ي ق د م ا ل في النقوش السبئية التي عثر عليها في الحبشة مثل RIE 39/2 (٦٢)، وفي النقش المعيني M 30/6=RES 3318 من مدينة السوداء(٦٣).

---

(٥٤) Harding, Index, P. 37.

(٥٥) وردت كلمة تبع في القرآن الكريم، سورة الدخان الآية ٣٧ كاسم لملك من الملوك، بينما وردت في الكتب العربية كاسم لملوك اليمن، انظر ابن منظور، مج ١، ص ٣١١. ومن الجدير بالذكر هنا هو أن كلمة ت ب ع لم تأت حتى الآن في النقوش كاسم لملك أو حاكم .

(٥٦) W. Leslau, Comparative Dictionary of Ge ͑ ez (Classical Ethiopic), (Wiesbaden, 1987), P. 569.

(٥٧) انظر :الاسم ا ل ي ث ع في النقش رقم(٧) من هذه المجموعة.

(٥٨) A.Jamme,Miscellanees dáncient(sic) arabe.XI, (Washington, D. C., 1980), P. 33.

(٥٩) Walter W. Müller, Neuentdeckte sabäische Inschriften aus al-Huqqa, NESE 1, 1972, P. 104.

(٦٠) Tairan, P. 283.

(٦١) Walter W. Müller, Die Inschriften vom Tempel des Waddum Dū masma ͑ im, ABADY 1, 1982, P. 101.

(٦٢) E. Bernand – A. J. Drewes – R. Schneider, Recueil des inscriptions de l'Éthiopie des périodes pré – Axoumite et Axoumite, Académie des Inscriptions et Belles – Letters, Tome I – Les Documents, Tome II – Les Planches, (Paris, 1991).

(٦٣) G. Garbini (Edit.), Iscrizioni sudarabiche, vol. I. Iscrizioni minee, Pubblicazioni del Seminario di Semitistica, Ricerche 10, (Napoli, 1974).

والعلم ي ق د م ال اسم في شكل جملة فعلية مركب من جزأين الأول ي ق د م : وهو فعل مضارع من الجذر ق د م (تقدم، إقتدم، سبق، كان في الطليعة [٦٤]. والثاني هو كلمة إل الدالة على المعبود أو الإله . وبذلك يصبح معنى الاسم يَقدم إل (أي ليجعل المعبود (حامل الاسم) في الطليعة أو المقدمة) أو المقصود أن المعبود يتقدم على كل شيء. وتوجد صيغة مختصرة لهذا الاسم هي ي ق د م (يَقدمُ) ترد في النقوش الصفوية مثل WH 3352، وفي مخربشات جبل طويق بقرية الفاو Ja 2804K [٦٥] بالإضافة إلى وجود الاسم يَقدُم في الكتب العربية[٦٦].

النقش رقم (١٢)
النص بالحرف العربي: ر ح ب م
نقل المعنى: رَحْبم
الحاشية:

هذا النص يمثل اسم العلم ر ح ب م الذي يظهر في النقش السبئي المبكر CIH 555/7-8 والنقش السبئي RES 4752 .وهو اسم اشتق من الجذر ر ح ب (رَحْب، واسع) [٦٧]، وربما يُقرأ رُحبُم أو رَحبُم. ويظهر الاسم في نصوص ر ح ب حيث نجده في النقش المعيني Ry 720=J s a L 33=J a 2269 من المخزَم[٦٨]، والنقش الحضرمي Ja 2492[٦٩]، والنقش اللحياني JS 33 [٧٠] والنقش الصفوي SIJ 572 [٧١]. وتذكر الكتب العربية أسماء أعلام مشتقة من نفس الجذر هي رَحْب، رُحب ورُحَب[٧٢]. كذلك يمكن هنا أن نذكر اسم العلم רָחָב في العبرية[٧٣] .

النقش رقم (١٣)
النص بالحرف العربي: ي ر ف أ
نقل المعنى: يرفأ
الحاشية:

يحتوي هذا النص على كلمة واحدة هي اسم العلم ي ر ف أ . ومبلغ علمي أن ي ر ف أ لم يرد قبلاً كاسم شخص في النقوش العربية الجنوبية القديمة. وهو اسم على وزن المضارع يفعل من الفعل رفأ. وفي العربية رفأ الثوب أي لأم خرقه وضم بعضه إلى بعض. ورفأ بينهم أصلح. يرفأ كيمنع مولى عمر ابن الخطاب رضي الله عنه[٧٤]. يظهر الاسم ي ر ف أ كاسم علم في

---

(٦٤) Beeston, Sabaic Dictionary, P. 103.

(٦٥) Jamme, Misc. IV. 117.

(٦٦) ابن دريد، أبوبكر محمد بن الحسن، الاشتقاق، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، الطبعة الثالثة (القاهرة : مكتبة الخانجي، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م) ص ص ٩٠ ، ١٦٩ .

(٦٧) Beeston, Sabaic Dictionary, P. 116.

(٦٨) Al – Said, P. 31.

(٦٩) A. Jamme, Miscellancees d'ancient (sic!) arabe III, (Wahington, D. C. 1972).

(٧٠) A. Jaussen – R, Savignac, Mission archéologique en Arabie, Vol. I – II, Publications de la Société Française des Fouilles Archeologiques), (Paris, 1909 – 1914).

(٧١) F. V. Winnett, Safaitic Inscriptions from Jordan, Near and Middle East Series. 2, (Toronto : University of Toronto Press, 1957).

(٧٢) Y. M. Abdallah, Die Perssonennamen in al-Hamdanis al – Iklil und ihre Parallelen in den altsüdarabischen Inschriften (Dissertation), (Tübingen, 1975), P. 60

(٧٣) J. J. Stamm, Beitrage zur hebräischen und altorientalischen Namenkunde. Zu seinem 70 Geburtstag (Orbis Biblicus et Orientalis 30), hrsg. von E. Jenni und M. A. Klopfenstein, (Freiburg / Schweiz und Göttingen, 1980), P. 132.

(٧٤) الفيروز أبادي، ص ٥٢ . وقد ورد الفعل ر ف أ كذلك في النصوص السبئية بمعنى حفظ أو صان ، انظر :
Beeston, Sabaic Dictionary, P. 158.

النقش اللحياني رقم ٧٥ من مدائن صالح [٧٥] . بينما يأتي في النقش القتباني RES 4328 كإسم مكان أو قبيلة ، وفي النقش المعيني GL M 396/5 = 1023/4 كإسم لمنطقة أو مكان جاءت منه إحدى النساء الاجنبيات في النصوص المعينية من معبد ر ص ف في معين . هذا المكان أو هذه المنطقة ربما تكون واقعة على طريق البخور التجاري[٧٦] . بالإضافة إلى ذلك فإن الاسم ر ف أ يرد أيضاً في النقش الثمودي JS 531 كإسم لمكان أو قبيلة .

النقش رقم (١٤)
النص بالحرف العربي : ع ب د م
نقل المعنى : عبدم
الحاشية :

يحتوي هذا النقش على كلمة مكونة من أربعة أحرف مكتوبة من اليمين إلى اليسار ، هي اسم العلم ع ب د م وقد رُسم حرف الميم من اليسار إلى اليمين أي في الاتجاه المعاكس .

والاسم ع ب د م سبق أن ورد في النقش رقم (٤) من هذه المجموعة .

النقش رقم (١٥)
النص بالحرف العربي : هـ ف ع ث ت
نقل المعنى : هف عثت
الحاشية :

هذا النص عبارة عن اسم علم مركب من عنصرين ، الأول هو الفعل المزيد بالهاء هـ ف (هـ و ف) من الجذر و ف ى بمعنى "منح ، حمى، نجى"[٧٧] ، والثاني ع ث ت وهو اسم مختزل للمعبود عثتر . وعليه فإن قراءة هذا الاسم تكون : هوفي عثت أي "منح وأعطى عثت أو حمى ونجى عثت" . وتوجد لهذا الاسم نظائر في الكتابات العربية الشمالية القديمة حيث نجد الاسم هـ ف ع ت في النص الصفوي CIS1181 [٧٨] .

النقش رقم (١٦)
النص بالحرف العربي : أ ل أ ←
ر م →
نقل المعنى : أ ل أ
مر
الحاشية :

كتب هذا النص في سطرين وفق خط سير المحراث boustrphedon وهو عبارة عن اسم العلم ا ل أ م ر . وقد عرف هذا الاسم في النقوش السبئية فقط وخاصة المبكرة منها مثل النقش الموسوم بـ Ja 2931a/1 من جبل العمود [٧٩] . وهو اسم مركب من ال أي الإله أو المعبود ، والفعل أ م ر "أمر" ، فيكون معنى الاسم أمَر الإله المعبود . ويجدر الإشارة هنا إلى أن الاسم ا ل ا م ر قد ظهر على أحد الأختام العبرية[٨٠] .

النقش رقم (١٧)
النص الحرف العربي : ب ع ث ت ر
ذ ي ث ل
نقل المعنى : بعثتر
(من قبيلة) ذو يثل أو يائل
الحاشية :

يحتوي هذا النقش البسيط على سطرين غير متناسقين حيث ينتهي السطر الثاني تحت حرف الباء في بداية السطر الأول . وكل سطر منهما

---

(٧٥) G. L. Harding, The Thamudic and Lihyanite Texts, Bulletinof the Institute of Archaeology of the University of London 10, 1971 [1972], P. 50.

(٧٦) Al – Scheiba, P. 61.

(٧٧) Beeston, Sabaic Dictionary, P. 158.

(٧٨) Corpus Inscriptionum Semiticarum Pars quinta. Inscriptiones saracenicas continens, (Paris, 1950)

(٧٩) Jamme, Misc. XI, P. 33.

(٨٠) J.D. Fowler, Theophoric Personal Names in Ancient Hebrew, A Comparative Study. Journal for the Study of the Old Testament, Supplement Series 49, (Sheffield, 1988),P.337.

عبارة عن كلمة واحدة . هاتان الكلمتان هما اسم العلم ب ع ث ت ر واسم القبيلة ذ ي ث ل .

ب ع ث ت ر اسم علم مركب من حرف الجر (ب) واسم المعبود عثتر أي أن معنى الاسم "بالمعبود عثتر" . يظهر هذا الاسم كثيراً في النقوش العربية الجنوبية القديمة وخاصة النقوش السبئية المبكرة المكتوبة وفق خط سير المحراث مثل النقش الموسوم بـ Ja 2905a/1 من جبل العمود . كذلك جاء الاسم ب ع ث ت ر في النقوش المعينية مثل النقش Y.90.B.A3/1 من براقش(٨١) . وفي النقوش الثمودية مثل النقش Philby 279 ap . وينبغي هنا الإشارة إلى ورود الاسم ب ع ث ت (ب+ع ث ت) في النقش السبئي RES4920/1 . وقد طرأ على هذا الاسم الحذف حيث أن أصله ب ع ث ت ر (ب+ع ث ت ر) . والأسماء المركبة من حرف الجر (ب) واسم المعبود معروفة في الكتابات العربية القديمة حيث نجد في النقوش أسماء الأعلام التالية : ب إل، ب ا ل هـــــــ، ب ش م س ، ب ع م ، ب ي ث ع(٨٢) . وقد ورد في الكتب العربية العلم بالله كإسم لابنة الشاعر المشهور أبي العتاهية(٨٣) .

أما السطر الثاني من النقش فيحتوي على الاسم ذ ي ث ل الذي يرجح أن يكون اسماً لقبيلة، ويُقرأ ذو يَثّل أو ذو ياثل . ولعل المقصود بهم أهل مدينة يَثّل أو ياثل(٨٤) . ومبلغ علمي أن اسم القبيلة ذ ي ث ل لم يرد حتى الآن في النقوش العربية الجنوبية القديمة .

النقش رقم (١٨)
النص بالحرف العربي : ك ل ب م
نقل المعنى : كلبم
الحاشية :

يحتوي هذا النقش على كلمة واحدة هي اسم العلم ك ل ب م . وهذا الاسم يظهر كثيراً في النقوش السبئية مثل CIH 391/1 ، وفي النقوش القتبانية مثل Ja 244 ، بالإضافة إلى النقوش الحضرمية مثل Ca Th 67b/1 . ويُقرأ هذا الاسم على الأرجح كَلْبُم ، وهو يماثل اسم العلم العربي المعروف كَلْب(٨٥)، الذي يرد كثيراً في النقوش العربية الجنوبية والشمالية القديمة. إضافة إلى وروده في النقوش السامية الأخرى حيث نجد الأسماء ك ل ب و ، ك ل ي ب و في النصوص النبطية والآرامية والتدمرية والفينيقية البونية والاوجاريتية والامورية(٨٦) .

النقش رقم (١٩)
النص بالحرف العربي : م ش ك م م
نقل المعنى : مشكمم
الحاشية :

نقش مكون من كلمة واحدة هي اسم العلم م ش ك م م ، وهو اسم مشتق من الجذر ش ك م "أعطى، جازى" . والشُكم : العطية وقيل الجزاء(٨٧) . والميم الأخيرة فيه للتمييم . والأرجح أنه يُقرأ على وزن مِفعل مِشكم بمعنى "عطية" . ورد الاسم م ش ك م م في النقش السبيئ المبكر المكتوب وفق خط سير المحراث MAFRAY-al-Asahil 8/1(٨٨) . وكذلك في النقوش

(٨١) Al – Said, P. 23.

(٨٢) Tairan, P. 85.

(٨٣) هزاع بن عيد الشمري، جمهرة أسماء النساء وأعلامهن، الطبعة الأولى، (الرياض : دار أمية للنشر والتوزيع، ١٤١٠ هـ/١٩٩٠) ، ص ٧٠.

(٨٤) ي ث ل (حاليا براقش) هي مدينة يمنية قديمة وموقع أثريهام في وادي الفرضة على الجانب الأيسر من طريق صنعاء - مأرب بوادي الجوف. لم يذكرها المؤرخ اليمني الهمداني باسمها القديم في كتابيه صفة جزيرة العرب والاكليل، وإنما سماها براقش. وهو الاسم الذي يحمل هذا الموقع الأثري إلى اليوم. وللمزيد من المعلومات انظر:
Al – Scheiba, PP. 60 – 61.

(٨٥) تعتبر أسماء الحيوان ونعوتها من أكثر المواد حضوراً في الإعلام العربية القديمة. فمن أسماء الحيوان إضافة إلى كلب نجد أسد وحمار وذئب وثعلب وغيرها. ومن نعوت الحيوان الأحب وهو البعير المحب الذي يبرك فلا يبرح، والجرفاس والليث والعرندس وكلها من أسماء الأسد، والسيد والعملس من أسماء الذئب ، والأرقم والحُباب وهما ضرب من الحيات وغير ذلك من النعوت. وللمزيد في هذا الموضوع انظر : السامرائي ، ص ص ٣٦ - ٥٣ .

(٨٦) Tairan, P. 187.

(٨٧) ابن منظور ، مج ٢ ، ص ٣٤٩ .

(٨٨) Chr Robin – J. Ryckmans, Les incriptions de al-Asâhıl, al-Durayb et Hirbat Sa ͨ ud (Mission archéologique française en République du Yémen : prospection des antiquités préislamiques, 1980) Raydān 3, 1980, P.P 113 – 181.

الحضرمية مثل Ja 944/3 من منطقة العقلة[٨٩] . ويظهر في النقوش القديمة أيضاً الاسم م ش ك م بدون التمييم وهذا نجده في النقوش الحضرمية[٩٠] ، وكذلك في النقوش المعينية مثل النقش RES 2819= M73/1,10.

النقش رقم (٢٠)
النص بالحرف العربي : هـ ل ك ي د ع
نقل المعنى : هلك أو هالك يدع
الحاشية :

النص مكتوب من اليمين إلى اليسار ويحتوي على كلمة واحدة هي اسم العلم هـ ل ك ي د ع، الذي عُرف حتى الآن من النقش السبئي المبكر Schm/Marib 12[٩١] . هذا الاسم مركب من عنصرين في شكل جملة فعلية. الأول هو كلمة هـ ل ك التي تأتي في النقوش السبئية فقط في أسماء الأعلام . وفي النقوش القتبانية يظهر الفعل هـ ل ك بمعني "مشى، سار" ، و س هـ ل ك بمعنى "أتم، أكمل، أنجز، نفذ"[٩٢] ولعل الاسم منه "هالك" فيكون اسم فاعل بمعنى "المنجز أو المتم أو المنفذ (للأمور والأشياء) وهي صفة من صفات المعبود . والعنصر الثاني من الاسم هو الجذر السامي ي د ع بمعنى "عرف، علم"[٩٣] .

النقش رقم (٢١)
النص بالحرف العربي : أ م ر أ ل
نقل المعنى : أمرَ إل
الحاشية :

هذا النص عبارة عن اسم العلم أ م ر أ ل. وهو اسم مركب غير معروف حتى الآن في النقوش العربية الجنوبية القديمة . يتركب هذا الاسم من الفعل أ م ر "أمر" واسم المعبود "إل" . ولعله يُقرأ أمَر إل أي أمر الإله أو المعبود[٩٤]. والاسم أ م ر أ ل معروف في النقوش الثمودية مثل النقش TIJ51[٩٥]، وكذلك في النقوش الصوفية مثل النقش LP336 . بالإضافة إلى ظهور الاسم أ م ر ل في النقش الصفوي SIJ1006، وهو اسم طرأ عليه الحذف وأصله أ م ر ا ل . والاسم معروف أيضاً في بعض النقوش السامية الأخرى، حيث يمكن أن نقارن هنا A-mar-I-LI في الأمورية، Am-mar-ilu في الأشورية، Am-ma-mar-ilu في البابلية القديمة، وأخيراً أ م ر ا ل في العمونية[٩٦] .

النقش رقم (٢٢)
النص بالحرف العربي : ع م أ ن س
نقل المعنى : عم أنس
الحاشية :

نص من كلمة واحدة هي اسم العلم ع م أ ن س الذي يرد في النقوش السبئية كثيراً وخاصة المبكرة منها مثل النقش الموسوم بـ RES 4228/2-3 . والعلم ع م أ ن س مركب من جزئين هما ع م ، أ ن س . فاللفظ ع م من الأسماء الدالة على القرابة في اللغات السامية

---

(٨٩) A. Jamme, The al- ^c Uqlah Texts Documentation sud-arabe III, (Washington, 1963).

(٩٠) A. Jamme, Documentation sud-arabe V, RSO 40, 1965, P.249, No. 33/1

(٩١) Walter W. Müller, Sabäische Felsinschriften vom Gabal Balaq al-Ausat, ABADY 1, 1982, P. 69.

(٩٢) S. D. Ricks, Lexicon of Inscriptional Qatabanian, Studia Pohl 14, (Roma, 1989), P. 45.

(٩٣) في النقوش السبئية هـ ي د ع "أعلم، خبّر (أحداً)، وفي القتبانية ي د ع، وفي الحبشية [illegible] ، وفي العبرية [illegible] وفي الأكادية e d u انظر :

= Beeston, Sabaic Dictionary, P. 167.

وكذلك :

Ricks, P. 81; Leslau, P. 626; Koehler – Baumgartner, P. 373; W. von Soden, Akkadisches Handworterbuch. Unter Beutzung des lexikalischen Nachlasses von Bruno Meisner. 3 Bde., (Wiesbaden, 1959-1981), P. 187.

(٩٤) انظر : الاسم ا ل أ م ر في هذه المجموعة .

(٩٥) G. L. Harding, Some Thamudic Inscriptions from the Hashimite Kingdom of Jordan, with Collaboration of E. Littmann, (Leiden, 1952).

(٩٦) Tairan, P. 64.

وواحد من المعبودات القديمة الثلاثة الرئيسية في جنوب الجزيرة العربية وهو يمثل المعبود القمر. وكثيراً ما نجده يدخل في تركيب الأعلام في النقوش العربية الجنوبية القديمة(٩٧). أما اللفظ أ ن س فمعناه "السكون إلى الشخص وذهاب الوحشة به، والجليس المؤنس"(٩٨). ويمكن أن يقرأ إما على صيغة الفعل الماضي أَنَس أو أَنِس. أو على صيغة اسم المفعول المطلق على وزن فعيل أي أنيس. وقد عُرف العلم ع م أ ن س في النقوش القتبانية مثل النقش RES 5015/1 ، والنقوش المعينية مثل النقش RES 2819 = M 73/10 ، والنقوش الحضرمية مثل النقش Ca Th 49/1 . كذلك يرد هذا الاسم في واحد من النصوص الصخرية من منطقة نجران(٩٩). وجاء في كتاب الاصنام أن عم أنس أو عميانس صنم لخولان كان يُقسم له من الأنعام والحرث قسم ويُعطى الآخر لله(١٠٠).

النقش رقم (٢٣)
النص بالحرف العربي : (هـ / ح) ت ا ل
نقل المعنى : هت (حت) إل
الحاشية :

هذا النص مكون من كلمة واحدة، الحرفان الأول والثاني فيهما متشابهان ومتصلان مع بعضهما البعض . فالحرف الأول يمكن أن يكون هاء أو حاء في حين أن الثاني هو حرف التاء . وعليه فإن هذا الاسم المركب يُقرأ إما هـ ت ا ل أو ح ت ا ل . وقد تكون القراءة الأولى هي الأكثر قبولاً نظراً لظهور الجزء الأول منه (هـ ت) كإسم علم بيسط في النقوش الصفوية مثل النقش CIS 3451 .

ويتركب الاسم هـ ت ا ل من الجذر هـ ت < هـ ت ت واسم المعبود إل . وفي اللغة هتّ الشيء يهُتّه هتاً : أي وطئه بشدة فكسره . والهتُّ كسر الشيء حتى يصير رفاتاً . والهت الصّب . والسحابة تَهُتُّ المطر إذا تابعت صبّه(١٠١). وبذلك يكون معنى الاسم هتّ إل أما كسر الإله أو صب الإله أي أنزل المطر والغيث .

فإذا قُرأ الاسم ح ت ا ل ، حت إل ، فإنه يكون مشتقاً من الجذر ح ت < ح ت ت ، وحتّ الشيء فركه وقشره وحكه . وحت الله ماله حتاً أي أذهبه فأفقره(١٠٢) . وقد وردت في المصادر العربية والإسلامية أسماء أعلام مشتقة من هذا الجذر مثل حتّ(١٠٣) والحُتات(١٠٤) .

النقش رقم (٢٤)
النص بالحرف العربي : ع ز ز م ق ر و ب ح ض م
نقل المعنى : عزيزم (من قبيلة) قر و بحضم
الحاشية :

نص مكون من سطر واحد مكتوب من اليمين إلى اليسار وبخط واضح وكبير. ولذلك فإن القراءة المعطاة لهذا النص مؤكدة .

ع ز ز م : اسم علم بسيط مشتق من الجذر السامي ع ز ز "قوي، عظيم، منيع"(١٠٥)، ويقرأ على وزن فعيل أي عزيزم. والميم الأخيرة هي ما يعرف بالتمييم . وقد ظهر الاسم عز ز م أكثر من مرة في النقوش السبئية وخاصة المبكرة منها مثل Ja 2922 f من جبل العمود . كما أننا نجد هذا الاسم في النقوش الحضرمية مرة بصيغة ع ز ز م كما في النص REA 5081 وأخرى بصيغة ع ذ ذ م كما في النص Ca Th 10/2-3. كذلك يرد الاسم ع ز ز بدون الميم في آخره في النقوش

(٩٧) وللمزيد من المعلومات عن المعبود عم ، "ع م" ، انظر :

Höfner, Südarabien, P P. 494 – 495.

وكذلك : Maraqten, P. 57.

(٩٨) ابن منظور ، مج ١ ، ص ١١٢ .

(٩٩) H. St. J. B Philby – A. S. Tritton, Najran Inscriptions, JRAS, 1944, P. 125, No. 118.

(١٠٠) ابن الكلبي، هشام بن محمد بن السائب، كتاب الأصنام، تحقيق د. محمد عبد القادر أحمد وأحمد محمد عبيد (القاهرة، د. ت)، ص ٥٧.

(١٠١) ابن منظور ، مج ٣ ، ص ٧٦٧ .

(١٠٢) ابن منظور ، مج ١ ، ص ٥٦١ .

(١٠٣) الهمداني، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب، كتاب الاكليل، الجزء الأول، تحقيق وتعليق محمد بن علي الأكوع ابن الحسين، الحوالي، الطبعة الثالثة، (بيروت : منشورات المدينة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م)، ص ٦٥ .

(١٠٤) ابن دريد ، ص ٢٤٢ .

(١٠٥) ابن منظور، مج ٢ ، ص ٧٦٤ .
وفي النقوش السبئية هـ ع ز ز بمعنى عزّز، قوّى، وفي الحبشية HHO ، انظر :

Beeston, Sabaic Dictionary, P. 24; Leslau, P. 81.

المعينية والحضرمية والنقوش العربية الشمالية القديمة ، بالإضافة إلى أسماء الأعلام ع ز ي، ع ز ي ز وفي النبطية، ع ز ي ز في التدمرية، وفي الأشورية A-zi-zu ، وفي الأمورية A-za-zum (١٠٦) .

ذ ق ر : الذال هي ذو التي تعني النسبة إلى البطن أو القبيلة في النقوش العربية الجنوبية القديمة . ق ر اسم البطن أو القبيلة التي ينتسب إليها ع ز ز م . ومبلغ علمي أن الاسم ق ر يرد هنا للمرة الأولى.

و ب ح ض م : الواو حرف عطف . ب ح ض م اسم علم بسيط اشخص ، مشتق من الجذر ب ح ض بمعنى "دخل أرضاً أو أغار على أرض أو اقتحم أرضاً"(١٠٧) . وفي هذه الحالة يمكن أن يقرأ في صيغة اسم الفاعل أي باحضم بمعنى مقتحم أو غازي . وقد ورد اسم العلم ب ح ض م قبلاً في النقش السبئي GL/1220 (١٠٨).

ويمكن أن يكون ب ح ض م اسماً لبطن أو قبيلة فقد ورد ب ن و / ب ح ض م في النقش السبئي CIH 449/1,3 . وهناك أسماء أعلام أخرى مشتقة من الجذر ب ح ض وردت في النصوص السبئية مثل ا ب ح ض و م ب ح ض في النص CIH 448/6 و ب ح ي ض م في النص RES 4400/1 .

النقش رقم (٢٥)
النص بالحرف العربي : {ا ب} ق د م
نقل المعنى : أب قدم
الحاشية :

كتب هذا النص تحت النص السابق . وهو يحتوي على كلمة واحدة ، يمكن قراءة الحروف الثلاثة الأخيرة منها وهي القاف والدال والميم . ويرجح أن ما انطمس من حروف في بداية الكلمة، حرفان اثنان هما الألف والباء . وعليه فإن هذه الكلمة عبارة عن اسم العلم ا ب ق د م . ومبلغ علمي أن هذا الاسم يرد للمرة الأولى في النقوش العربية الجنوبية القديمة . فهو مركب من عنصرين : الأول لفظة أب وهي الصفة الدالة على المعبود القمر عند عرب جنوب الجزيرة العربية القدماء الذين كانوا يطلقون على معبودهم صفة الأب والعم والخال من باب التقرب إليه (١٠٩) . أما العنصر الثاني فهو الفعل الماضي ق د م "قدم" وبناءً عليه يصبح الاسم في كل جملة فعلية أب قدم أي أن أب (المعبود) تقدم أو في المقدمة على كل شيء، أو التمني من الأب (المعبود) بأن يجعل حامل الاسم يتقدم أو في المقدمة .

النقش رقم (٢٦)
النص بالحرف العربي : أ ل ش هـ ر/ذ م ر
نقل المعنى : إل شهر (من قبيلة) ذمر
الحاشية :

نص مكتوب بخط واضح وكبير من اليمين إلى اليسار . وهو مكون من كلمتين يفصل بينهما خط عمودي . ويلاحظ أن الحرف الثالث في الكلمة الأولى وهو الشين قد كتب في الاتجاه المعاكس .

ا ل ش هـ ر : اسم علم مركب من اسم المعبود إل وكلمة ش هـ ر "هلال ، مطلع شهر"(١١٠) .

---

(١٠٦) Tairan, P. 157.

(١٠٧) Beeston, Sabaic Dictionary. P. 27.

(١٠٨) G. J. Botterwick, Altsüdarabische Glaser – Inschriften, Orientalia 19, 1950. P. 439 .

(١٠٩) إبراهيم محمد الصلوي، أعلام يمانية قديمة مركبة، دراسة عامة في دلالاتها اللغوية والدينية، ريدان، العدد السادس ١٩٩٤ ، ص ١٢٣ .

(١١٠) Beeston, Sabaic Dictionary. P 162 .
والشهر في اللغة العربية القمر أو الهلال، وفي الحبشية ሥህር ، وفي السريانية ܣܗܪܐ . وللمزيد من المقارنات انظر: الفيروزآبادي، ص ٥٤٠.

ويحتمل أن يُقرأ هذا العلم المركب إما على صيغة جملة فعلية يكون الفاعل فيها مقدماً أي إل شَـهَر "الإلـه (المعبود) ظهر أو طلع" ، أو على صيغة جملة اسمية إل شَـهْر "الإلـه (المعبود) هو الشهر أو الهلال" .

ومبلغ علمي أن العلم إل هـ ر يظهر للمرة الأولى في النقوش العربية الجنوبية القديمـة . ويوجد اسم علم مشابه لهذا الاسم ولكن بصيغة معكوسة هو ش هـ ر إل ، عُرف في النصوص الحضرمية مثل Ja 925/1 ، والنصوص الصفوية مثل CIS 1260 .

ذ م ر : هذه الكلمة ربما تكون اسماً للبطن أو القبيلة التي ينتسب إليها إل ش هـ ر . وبمعنى ذ م ر في النصوص السبئية "حمى ، دافع عن"(١١١) . وترد كثيراً في أسماء الأعلام المركبة في النقوش العربية الجنوبية القديمة مثل ذ م ر ا ل ، ذ م ر ك ر ب ، ذ م ر ي د ع وغير ذلك من الأسماء(١١٢) .

النقش رقم (٢٧)

النص بالحرف العربي : ظ ب ي م

نقل المعنى : ظبيم

الحاشية :

يحتوي هذا النص على كلمة واحدة فقط كتبت من اليمين إلى اليسار بخط واضح وكبير في داخل إطار مستطيل الشكل .

ظ ب ي م : اسم علم بسيط مشتق من كلمة ظبي تلحقه الميم في آخره للتنكير . وهو يماثل اسم العلم ظبي (أي الغزال) المعروف في المصادر العربية القديمة(١١٣) . ولذلك يعتبر هذا الاسم من أسماء الأعلام التي اشتقت من أسماء الحيوان . وهذا النوع من الأسماء معروف في التراث العربي القديم (١١٤) . وقد ورد الاسم بهذه الصيغة في النصوص السبئية مثل النص Ja586/11 ، والنص القتباني Ja47 . وكذلك يظهر في النصوص الصفوية كثيراً بدون الميم أي ظ ب ي كما في النص ISB367 (١١٥) .

النقش رقم (٢٨)

النص بالحرف العربي : {ق} د م ا ل و ي ف ع م

نقل المعنى : قدَم ال و يفعم

الحاشية :

يتألف هذا النقش من سطرين الأول منهما تأثر كثيراً بعوامل التعرية مما أدى إلى عدم وضوحه وانطماس الحرف الأول في بدايته . في حين أن السطر الثاني والذي يبدأ مباشرة تحت نهاية السطر الأول يبدو في حالة جيدة يمكن معها قراءته بوضوح . الأرجح أن يكون حرف القاف هو الحرف الناقص في بداية النص .

= Leslau, P. 528; J. Payne Smith, Acompendious Syriac Dictionary, founded upon the Thesaurus Syriacus of R. Payne Smith, D. D., (Oxford, 1957), P. 362.

وفي اللهجة اليمنية الدارجة اليوم تعني كلمة الشهر "القمر أو الهلال" أنظر :

I. Al-Selwi, Jemenitische Wörter in den Werken von al-Hamdāni und Našwān und ihre Parallelen in den semitischen Sprachen, Marburger Studien zur Afrika – und Asienkunde, Serie B, Bd. 10, (Berlin, 1987) P. 127

(١١١) Beeston, Sabaic Dictionary, P. 162 .

(١١٢) Harding, Index, P. 256 .

(١١٣) الخزرجي ، ص ٤٣١ .

(١١٤) انظر : لينو ليتمان، أسماء الأعلام في اللغات السامية، مجلة كلية الآداب، جامعة فؤاد الأول، المجلد الحادي عشر، الجزء الأول، مايو ١٩٤٩م، ص ص ١ ـ ٥ ، ص ص ١٣ ـ ١٥ .

(١١٥) W. G. Oxtoby, Some Inscriptions of the Safaitic Bedouin American Oriental Series 50, (New Haven, 1968).

ق د م ا ل : اسم علم مركب من الجذر قدم بمعنى قدَم ا ل أي "أن المعبود إل يتقدم كل شيء؛ أو التمني من المعبود بأن يجعل حامل الاسم يتقدم أو في المقدمة" . وقد تكرر كثيراً ذكر الاسم ق د م ا ل في النقوش الصفوية مثل LP 610 [١١٦].

و : الواو في نهاية السطر الأول للعطف .

ي ف ع م : اسم علم بسيط مشتق من الجذر ي ف ع "رفع ، أقام ، عالٍ ، مرتفع"[١١٧] ، تلحقه الميم في أخره للتنكير . ويرجح أن قراءة الاسم على صيغة اسم الفاعل يافعم بمعنى "عالٍ ، عليّ، مرتفع" . يظهر العلم يفعم في النقش السبئي RES4613 ، كما يأتي كإسم لبطن أو قبيلة في النقش القتباني RES3878/20 . ويلاحظ أنه يرد في النقوش العربية الجنوبية والشمالية القديمة الاسم يفع بدون الميم ، حيث نجده في النقش الثمودي JS507 ، والنقش الصفوي WH572 . بالإضافة إلى وروده في واحد من مخربشات قرية الفاو Ja619k . كذلك فقد جاء الاسم ي ف ع في المصادر التوراتية بصيغة יָפִיעַ [١١٨]، وفي نصوص أوجاريت بصيغة ypc [١١٩] ، وفي النصوص الأمورية بصيغة Ia-pa [١٢٠] .

النقش رقم (٢٩)

النص بالحرف العربي : ع ل هـ م و

نقل المعنى : عاليهمو

الحاشية :

نص يحتوي على كلمة واحدة هي اسم العلم ع ل هـ م و . وهو اسم مكون من الجذر ع ل و / ع ل ي "علا ، صعد ، رفع"[١٢١] ، وضمير الجمع المتصل للغائبين – هـ م و . ويرجح أن هذا الاسم يُقرأ بصيغة التفضيل ، عاليهمو أي "الأعلى بين إخوته وأقرانه" . ويجدر بنا الإشارة هناأن أسماء الاعلام المنتهية بضمير الجمع المتصل للغائبين هي أسماء تعبر عن صفة معينة يتمناها الوالدان لمولودهما . وهذا النوع من الأسماء معروف في النقوش العربية الجنوبية القديمة وعلى وجه الخصوص السبئية المبكرة منها [١٢٢] . وقد ورد اسم العلم ع ل هـ م و وعدة مرات في النقوش السبئية المبكرة مثل النقش المكتوب وفق خط سير المحراث والموسوم بـ CIH 549/1 . كما يوجد اسم علم شبيه له هو ع ل هـ م بدون الواو في آخره ، وهذا نجده في النقوش الحضرمية مثل CaTh69a2 ، والنقوش الصفوية مثل ISB154 والنقوش الثمودية مثل Philby 167t2 .

النقش رقم (٣٠)

النص بالحرف العربي : ي هـ ص ب ح

نقل المعنى : يُهَصْبِحْ

الحاشية :

يتألف هذا النص من كلمة واحدة هي اسم العلم ي هـ ص ب ح . وهو اسم على صيغة الفعل المضارع للفعل المزيد بالهاء هـ ص ب ح . وعليه يرجح أن تكون قراءة هذا الاسم يُهَصْبِحْ أي يُصْبِحْ ومعناه "الذي يأتي أعداءه ويُغير عليهم صباحاً أو الذي يسقي القوم الصّبوح، وهو اللبن أو كل ما أكل أو شرب غدوة" [١٢٣] . ويأتي ي هـ

---

(١١٦) وللمزيد من الأدلة النقشية انظر : Harding, Index, P. 478.

(١١٧) Beeston, Sabaic Dictionary. P.168. كذلك انظر : W. Müller, Abyata ͨ , P. 28.

(١١٨) Noth, P. 247 .

(١١٩) Gröndahl, P. 144.

(١٢٠) Gelb, P. 273 .

(١٢١) Beeston, Sabaic Dictionary, P. 15 .

(١٢٢) وللمزيد من المعلومات عن هذه النوعية من الأسماء انظر : ليتمان ، ص ٢٠ ، ص ٤٢٦؛ كذلك : Tairan, PP. 76 – 77.

(١٢٣) ابن منظور ، مد ٢ ، ص ٤٠١ وما بعدها .

ص ب ح كإسم لشخص في النقش السبئي RES4128 ، والنقش القتباني RES3566/31 . كذلك يأتي ي هـ ص ب ح كلقب بعد اسم العلم وهذا نجده في النقش السبئي Ja562/1 ، والنقش القتباني RES4976/2 .

النقش رقم (٣١)
النص بالحرف العربي : ع م ش ب م
نقل المعنى : عم شبام
الحاشية :

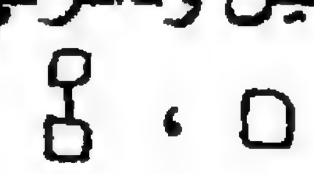
نص مكون من كلمة واحدة هي العلم ع م ش ب م الذي يرد في النقوش السبئية مثل CIH307/1، والنقوش القتبانية مثل RES3693/4 . وهو اسم علم مركب من المعبود ع م "عم" وكلمة ش ب م. والشَبَمُ : البَرْدُ، وبَرْدُ الماء . الشَبِمُ أي البارد[١٢٤]. وهذا المعنى في اللغة العربية لا يقدم لنا أية احتمالات مناسبة لشرح معنى هذا العلم ، غير أن كلمة ش ب م التي تعني "عالٍ ، مرتفع" في لهجات حضرموت ودثينة يمكن أن تعطي معنىً ملائماً لتفسير الاسم ع م ش ب م . وعليه فإن هذا العلم يُقرأ على صيغة جملة اسمية عم شبام أي "عم عالٍ أو مرتفع"[١٢٥] ، وربما تكون بمعنى إله شبام المدينة الحضرمية المعروفة . ويوجد في نقوش جنوب الجزيرة العربية القديمة أسماء أعلام أخرى مركبة من اسم المعبود وكلمة ش ب م مثل أ ب ش ب م ، خ ل ش ب م[١٢٦].

النقش رقم (٣٢)
النص بالحرف العربي : ع ب د م
نقل المعنى : عبدم
الحاشية :

يحتوي هذا النص على كلمة واحدة هي اسم العلم عبدم "عَبْد". وقد سبق أن ورد هذا الاسم في النقوش أرقام (٤) و (١٤) من هذه المجموعة .

النقش رقم (٣٣)
النص بالحرف العربي : ب ع ث ت ر
نقل المعنى : بعثتر
الحاشية :

نص مكون من كلمة واحدة هي اسم العلم ب ع ث ت ر . ويلاحظ أن الكاتب رسم دائرة حرف العين ودائرتي حرف الثاء في شكل مربع هكذا :

 .

وقد ورد الاسم ب ع ث ت ر قبلاً في النقش رقم (١٧) من هذه المجموعة .

النقش رقم (٣٤)
النص بالحرف العربي : ا ل ع ز
نقل المعنى : ال عز
الحاشية :

يحتوي هذا النص البسيط على كلمة واحدة هي اسم العلم ا ل ع ز . وهو اسم مركب من المعبود إل والجذر ع ز < ع ز ز أي "قوي ، عظيم ، شديد"[١٢٧] . ويرد اسم ا ل ع ز في نصوص الاسم بصيغة جملة اسمية إل عزّ أي "إل قوي أو عظيم" . ويرد الاسم ا ل ع ز في نصوص جنوب الجزيرة العربية القديمة حيث نجده في النصوص

---

(١٢٤) ابن منظور ، مج ٢ ، ص ٢٦٥ .

(١٢٥) وللمزيد عن اللفظ ش ب م في أسماء الأعلام انظر : Al-Said, P. 123.

(١٢٦) Harding, Index, P. 12 and 226

(١٢٧) ابن منظور ، مج ٢ ، ص ٧٦٤ .

السبئية مثل CIH545/1 ، والنصوص المعينية مثل RES 4745 ، والنصوص القتبانية كما في النص AM60.659[١٢٨]. ويرد في النصوص الحضرمية بصيغة ا ل ع ذ كما في النص RES4852/5 . إضافة إلى ذلك فإن ا ل ع ز يظهر في النصوص النبطية[١٢٩] ، والنصوص العمونية [١٣٠] .

النقش رقم (٣٥)
النص بالحرف العربي : ي هـ ص ب ح
نقل المعنى : يُهصبِحْ
الحاشية :

هذا النص البسيط يحتوي على كلمة واحدة هي اسم العلم ي هـ ص ب ح ، يُهصبِحْ، الذي سبق وروده في النقش رقم (٣٠) من هذه المجموعة .

النقش رقم (٣٦)
النص بالحرف العربي : ع ل م هـ م و
نقل المعنى : عاليهمو
الحاشية :

يحتوي هذا النص البسيط على كلمة واحدة هي اسم العلم ع ل هـ م و، عاليهمو ، الذي سبق الحديث عنه في النقش رقم (٢٩) من هذه المجموعة .

النقش رقم (٣٧)
النص بالحرف العربي : ع م ذ خ ر
نقل المعنى : عَمْ ذخَر أو ذاخِر
الحاشية :

كتب هذه النص البسيط في داخل إطار مستطيل الشكل ، وهو نص يحتوي على كلمة واحدة فقط، هي اسم العلم ع م ذ خ ر. والعلم ع م ذ خ ر اسم مركب من اسم المعبود ع م "عَمّ" ، والجذر ذ خ ر في أسماء الأعلام تعني "أعطى بوفرة أو بغزارة" استناداً إلى كلمة "مذاخر" التي أوردها الهمداني عند وصفه لسد مأرب في الجزء الثامن من كتاب الاكليل . وقد شرحها الاستاذ محمد بن علي الأكوع بأنها في لغة مأرب وما حولها تعني مناسح المياه ومدافعه[١٣١] . وعلى ذلك يرجح أن يكون تفسير العلم ع م ذ خ إما على صيغة اسم الفاعل عم ذاخر أي "عم مانح أو واهب بسخاء" أو على صيغة الفعل الماضي عَمْ ذخَر أي "عم منح أو وهب بسخاء"[١٣٢] ، والعلم ع م ذ خ ر متكرر الذكر في النقوش العربية الجنوبية القديمة فيرد في النقوش السبئية مثل CIH29/1 ، والنقوش القتبانية مثل RES3878/17 ، والنقوش المعينية مثل RES3060/1 = M293 ، والنقوش الحضرمية مثل Ja919/7 . كما أن هذا الاسم يأتي بصيغة معكوسة ذ خ ر ع م في النقش السبئي Ist7630/5 [١٣٣] .

---

(١٢٨) A. Jamme, Miscellanees d'ancient (sic!) arabe II, (Washington, D. C. 1971), P. 123.

(١٢٩) J. Cantineau, Le Nabateen, vol. II, (Paris, 1932), P. 129.

(١٣٠) Jackson, No. 20

(١٣١) الهمداني ، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب، كتاب الاكليل ، الجزء الثامن، تحقيق وتعليق محمد بن علي الأكوع ابن الحسين الحوالي، (بيروت : منشورات المدينة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م)، ص ٩٦ .

(١٣٢) إبراهيم الصلوي، أعلام يمنية قديمة مركبة، دراسة في الدلالة اللغوية والدينية، الاكليل ٢ ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م ، ص ص ١٥٩ - ١٦٠

(١٣٣) A. F. L. Beeston, Four Sabaean Texts of the Istanbul Archaeological Museum, Le Muséon 65, 1952, P.227.

النقش رقم (٣٨)

النص بالحرف العربي : ذ ر أ س م ع ذ ي ص د
ك ب ر ي س xxx

نقل المعنى : ذرأ سمع (من البطن أو القبيلة) ذو يصيد كبير (الشعب) يســ xxx

الحاشية :

نص مكتوب من اليمين إلى اليسار ومكون من سطرين. نهاية السطر الثاني مطموسة بحيث لا يمكن قراءة الحروف المتبقية في آخر السطر .

ذ ر أ س م ع : اسم علم يظهر للمرة الأولى في النقوش العربية الجنوبية القديمة .وهو مركب من عنصـرين ، الأول هو الجـذر ذرأ ومعـناه "خلق"(١٣٤) . والثاني هو المعبود س م ع "سميع أو السامع" المعروف لدى الثموديين، والواسع الانتشار في جنوب الجزيرة العربية. وقد فسره بعض العلماء بأنه الإلـه القمر(١٣٥). وبناءاً على ذلك فإن العلم ذ ر أ س م ع يمكن أن يُقرأ على صيغة الفعل الماضي ذرَأ سميع أو سامع أي "خلق (المعبود) سمع أو سامع" .

ذ ي ص د : الراجح ذو يصيد وهو اسم البطن أو القبيلة التي ينتمي إليها ذ ر أ س م ع. وقد ورد ي ص د كعلم في النقش القتباني RES4573 .

ك ب ر : أي كـبير ، وهـو لفـظ يطـلق عـلى منصب معين في النقوش ، يقصد به غالباً منصب إداري رسمي في شعب ما (١٣٦) .

ي س ... : من هذه الكلمة الأخيرة في السطر الثاني يمكن قراءة حرفان فقط هما الياء والسين. أما باقي حروف الكلمة فهي غير واضحة تماماً . وعلى أية حال فإن هذه الكلمة ربما تشير إلى اسم الشعب الذي يتولى فيه ذرأ سمع منصبه الكبير.

النقش رقم (٣٩) :

النص بالحرف العربي : ب ع ث ←
ر ت →

نقل المعنى : بعثتر

الحاشية :

كتب هذا النص البسيط وفق خط سير المحراث boustrophedon ويحتوي على كلمة واحدة هي اسم العلم ب ع ث ت ر ، وقد ورد هذا الاسم قبل ذلك في النقوش أرقام (١٧) و (٣٣) من هذه المجموعة .

النقش رقم (٤٠)

النص بالحرف العربي : ك ل ب م

نقل المعنى : كلبم

الحاشية :

يحتوي هذا النص على كلمة واحدة هي اسم العلم ك ل ب م "كلب" . وقد ورد الاسم سابقاً في النقش رقم (١٨) من هذه المجموعة .

---

(١٣٤) الفيروز أبادي، ص ٥١ . وترد في النصوص السبئية كلمة م ذ ر أ ت ، وجمعها م ذ ر أ بمعنى حقل مزروع أو أراضي مزروعة انظر : Beeston, Sabaic Dictionary, P. 40
كما أن الجذر ذرأ قريب الصلة لغوياً بالجذر العربي زرع، والحبشي HGK HGO ، والعبري זרע ، والأكادي zero(m) "زرع، نسل" انظر :
Leslau, P. 642 ; Koehler – Naumgartner, P. 270; von Soden, P. 1521.

(١٣٥) وللمزيد من المعلومات عن المعبود س م ع انظر :
Höfner, Südarabien, P. 528.
وكذلك الروسان ، ص ١٦٩ .

(١٣٦) eeston, Sabaic Dictionary, P. 70 .
ويرى جواد علي أن الكبير هو ممثل عن الملك على رأس كل مقاطعة من المقاطعات، ويختص بالشؤون السياسية ذات الصلة بالمسائل المتعلقة بحقوق الملك والشعب،
انظر : جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، (بيروت : دار العلم للملايين، ١٩٨٠م) الجزء الثاني، ص ص ١٠٩ _ ١١٠.

النقش رقم (٤١)

النص بالحرف العربي : ر ب {ب} هـ م و

ذ ح ب ر

نقل المعنى : ربيبهمو

(من البطن أو القبيلة) ذو حبر

الحاشية :

كتب هذا النص البسيط في سطرين . الأول منهما يحتوي اسم العلم ر ب ب هـ م و، مكتوب بخط صغير وباهت نتيجة لتصدع الصخرة وتأثير عوامل التعرية المختلفة . أما السطر الثاني فقد كتب بخط أكبر من خط السطر الأول ، ويمكن قراءته بوضوح . ويتضمن كلمة واحدة أيضاً هي ذ ح ب ر .

ر ب ب هـ م و : اسم علم مركب من كلمة ر ب ب أي "ربيب" وضمير الجمع المتصل للغائبين – هـ م و . وكلمة ربيب تعني في العربية "المَربُوب ، والمُعَاهَد ، والملك ، وابن امرأة الرجل من غيره [١٣٧]" وعليه فإن هذا الاسم يُقرأ ربيبهمو أي "ربيبهم ، حليفهم ، ملكهم" ومبلغ علمنا أن العلم ر ب ب هـ م و يظهر للمرة الأولى في الكتابات العربية الجنوبية القديمة والكتابات العربية الشمالية المبكرة .

ذ ح ب ر : يرجح أنه اسم بطن أو قبيلة . وقد ورد ذ ح ب ر ن (ذو حُبران) في النص السبئي RES4524 ولعل النون في ذ ح ب ر ساقطة . وقد ذكر الهمداني في نسب همدان حُبران بن نوف بن همدان[١٣٨] .

(١٣٧) الفيروز آبادي ، ص ١١٢ .

(١٣٨) الهمداني، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب، الاكليل، من أخبار اليمن وأنساب حمير، الكتاب العاشر، في معارف همدان وأنسابها وعيون أخبارها، (بيروت : دار المناهل للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م) ، ص ٤٥ .

النقش رقم (٤٢)

النص بالحرف العربي : ج ح {م} م

نقل المعنى : جحمم

الحاشية :

هذا النص يحتوي على كلمة واحدة هي اسم العلم ج ح م م . وقد أصاب التلف الحرف الثالث منها، فلا يظهر غير أثر بسيط للجزء السفلي منه. ويرجح أن يكون هذا الحرف هو الميم.

والعلم ج ح م م اسم بسيط مشتق من الجذر ج ح م يلحق آخره التمييم. والغالب أن الاسم يُقرأ على صيغة اسم الفاعل جَاحِمُمْ أي "شاخص النظر" [١٣٩] . ويرد الاسم ج ح م بدون التمييم عدة مرات في النقوش الصفوية مثل WH670 .

النقش رقم (٤٣)

النص بالحرف العربي : غ ث ر ن م ذ ك ر م

نقل المعنى : غثران (من البطن أو القبيلة) مَذْكرم

الحاشية :

كتب هذا النص بخط واضح من اليمين إلى اليسار ما عدا حرف النون فقد كتبت مقلوبة أي في الاتجاه المعاكس .

غ ث ر ن : اسم علم يرد للمرة الأولى في النصوص العربية القديمة . ولعل تفسيره يكون على وزن فُعلان من الجذر غ ث ر . والأغثَر : الذي فيه غُبْرة ، والغُثْرة : غُبرة إلى خضرة . والغَثْراء وغَثّار : الضبع [١٤٠] .

م ذ ك ر م : الأرجح أن م ذ ك ر م اسم بطن أو قبيلة . ونعرف من النص السبئي NNN15/1 [١٤١] القبيلة أو البطن ذ م ذ ك ر م ، ذو مذكرم. وقد أورد الهمداني في الأكليل الاسم

(١٣٩) الفيروز آبادي ، ص ١٤٠٣ .

(١٤٠) ابن منظور ، مج ٢ ، ص ٩٥٨ .

(١٤١) خليل يحيى نامي ، نشر نقوش سامية قديمة من جنوب بلاد العرب وشرحها، (القاهرة، ١٩٤٣م) .

مذكر بن يأم بن أصبى من بنود دافع بن مالك بن جشم بن حاشد[١٤٢]. واستناداً عليه فإن هذا الاسم يُقرأ على وزن مَفْعَل من الجذر ذ ك ر "ذكَر"[١٤٣] ويظهر العلم م ذ ك ر كإسم اشخص في النصوص العربية الجنوبية والشمالية القديمة، حيث نجده في النص السبئي Ja 613/1، والنص المعيني RES2819/9-10=M73، والنص الحضرمي Ja1086 [١٤٤]، وفي واحد من مخربشات قرية الفاو Ja 2545 b، بالإضافة إلى وروده في النص الصفوي SIJ496، والنص الثمودي JS319 .

النقش رقم (٤٤)

النص بالحرف العربي : ن س ر م/ن د ب هـ م و

نقل المعنى : نسرم (من البطن أو القبيلة) ندبهمو

الحاشية :

يتألف هذا النص من كلمتين هما ن س ر م، ن د ب هـ م وكتبتا من اليمين إلى اليسار . ويفصل بينهما الخط الفاصل بين الكلمات في كتابات الخط المسند الجنوبي .

ن س ر م : اسم علم بسيط يلحق آخره ميم التنكير . وهو من اسماء الطيور المستخدمة في الأعلام، فالنسر طائر جارح كبير الحجم حاد البصر . وقد ظهر العلم ن س ر م في النصوص السبئية كاسم لشخص كما في النص CIH434/7 وأيضاً كإسم لقبيلة : ب ي ت / ب ن ي / ن س ر م في النص Ist.7630/1 . إضافة إلى ذلك فإن العلم ن س ر بدون الميم في آخره يرد في النصوص الصفوية مثل WH1149، وفي النصوص الثمودية مثل TIJ121 . وعند العرب نَسْر من الأسماء المعزوفة. ويرد في الكتب العربية سفيان بن نَسْر وتميم بن نَسْر صحابيان[١٤٥]. وقد كان لحمير صنم يقال له نَسْرا، عبدوه بأرض تدعى بَلْخَع[١٤٦].

ن د ب هـ م و : الأرجح أن تكون هذه الكلمة اسماً لبطن أو قبيلة، وسوف نصادف هذا الاسم مرة أخرى في النقش رقم (٤٨) من هذه المجموعة. ومبلغ علمي أن الاسم ن د ب هـ م و يظهر للمرة الأولى في النصوص العربية الجنوبية القديمة. وهو اسم مشتق من الجذر ن د ب متصلاً به ضمير الجمع للغائبين – هـ م و. وفي اللغة السبئية ن د ب (فعل) يعني أنشأ عمل[١٤٧]. والنَدبُ : الخَطَرُ، والنَّدبُ : أثر الجرح ؛ ورجلٌ نَدبٌ : خفيفٌ في الحاجة، سريع، ظريف، نجيبٌ[١٤٨]. والنَدبُ : قبيلة من الأزْد، وهي النَّدَبُ بن الهُون[١٤٩]. والعلم ن د ب معروف في النصوص الصفوية مثل SIJ464، والنصوص الثمودية مثل Hu581,89/4، وفي النص السبئي RES4294 .

النقش رقم (٤٥)

النص بالحرف العربي : ك ل ب م / م ل أ ك م

نقل المعنى : كلبم (من البطن أو القبيلة) ملأكم

الحاشية :

(١٤٢) الهمداني، الاكليل ١٠، ص ٧٥ .

(١٤٣) Beeston, Sabic Dictionary, P. 38 .

(١٤٤) A. Jamme, The South-Arabian Collection of the University Museum (Cambridge, England) Documentation sud-arabe IV, RSO 40, 1956, P. 53.

(١٤٥) الفيروز آبادي، ص ٦٢٠ .

(١٤٦) ابن الكلبي، ص ٢٧ .

(١٤٧) Beeston. Sabaic Dictionary, P. 91.

(١٤٨) ابن منظور، مج ٣، ص ٦٠٥ .

(١٤٩) هادي عطية مطر الهلالي، دلالة الالفاظ اليمانية في بعض المعجمات العربية، (صنعاء : مركز الدراسات والبحوث اليمني، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)، ص ١١٨ .

يتألف هذا النص من سطر واحد مكون من كلمتين، كتبتا من اليمين إلى اليسار، ويفصل بينهما الخط العمودي الفاصل بين الكلمات في الخط المسند.

ك ل ب م : اسم علم لشخص وهو يماثل الاسم العربي المعروف كلب. وقد ورد هذا الاسم سابقاً في النقش رقم (١٨) من هذه المجموعة.

م ل أ ك م : لعله اسم لبطن أو قبيلة. وهو هنا يظهر للمرة الأولى في النقوش العربية القديمة. وربما يُقرأ على وزن مَفْعَل من الجذر ل أ ك. فالمَلأكَةُ : الرسالة، والمَلأكُ : المَلَكُ، لأنه يُبَلِّغ عن الله سبحانه وتعالى[١٥٠].

النقش رقم (٤٦)

النص بالحرف العربي : ا ل أ م {ر}

نقل المعنى : إل أمَر

الحاشية :

نص من كلمة واحدة مكتوب تحت النص السابق مباشرة. وعلى الرغم من أن حروف هذا النص البسيط باهتة بعض الشيء وخاصة الحرف الأخير، إلا أنه بالإمكان تمييزها وقراءتها قراءة مرضية. والكلمة التي يحتويها النص هي اسم العلم ا ل أ م ر االذي سبق الحديث عنه النقش رقم (١٦) من هذه المجموعة.

النقش رقم (٤٧)

النص بالحرف العربي : × ر ض ر س م

ق س أو (أ) ع أو (و)

د م ق أو (ي) ن أو (س) و

نقل المعنى : لم نتمكن من الخروج بقراءة مناسبة لهذا النص

الحاشية :

يوجد هذا النص على ارتفاع عالٍ جداً في أعلى اللوحة الصخرية المكتوبة وقد تعرض لعوامل التعرية المختلفة مما أدى إلى انطماس حروف كثيرة منه وخاصة في بدايات سطوره الثلاثة. ومع ذلك فإن معظم حروف السطر الأول وبعض حروف السطرين الثاني والثالث يمكن تمييزها إلى حدٍ ما، وما عدا ذلك فهو غير واضح وبالتالي لا يمكن الخروج منها بنتيجة مقبولة.

النقش رقم (٤٨)

النص بالحرف العربي : ص د ق أ م {ر}

نقل المعنى : صادق أمَر

الحاشية :

يوجد هذا النص تحت النص السابق مباشرة. وقد تعرضت حروفه هو الآخر للانطماس من جراء عوامل التعرية المختلفة. إلا أنه أمكن تمييزها والخروج منها بقراءة مُرضية. ويحتوي هذا النص على كلمة واحدة هي اسم العلم ص د ق أ م ر. وهو اسم مركب من اللفظ ص د ق، "صادق"، وهو صفة دالة على المعبود، والفعل الماضي أ م ر "أمَر". وعليه فإن الاسم يُقرأ بصيغة جملة فعلية صادق أمَر.

والعلم ص د ق أ م ر ظهر قبل ذلك في النقوش السبئية المبكرة مثل النقش CIH494/3 من خربة سعود. كما أن اللفظ ص د ق يأتي كصفة دالة على المعبود في كثير من أسماء الأعلام المركبة في النقوش العربية الجنوبية القديمة، ومن هذه الأسماء ص د ق ذ خ ر، ص د ق ذ ك ر ، ص د ق ر أ ب، ص د ق ي د ع في الحضرمية، والأسماء ص د ق ث و ب، ص د ق

---

(١٥٠) الفيروز آبادي، ص ١٢٢٩

ر د م في القتبانية، والاسم ص د ق ي ف ع في المعينية[١٥١] .

النقش رقم (٤٩)

النص بالحرف العربي : ي ق د م ا ل
ن د ب هـ م و

نقل المعنى : يَقْدُم إل
نَدْبَهمو

الحاشية :

نص يتألف من كلمتين كتبتا فوق بعضهما البعض من اليمين إلى اليسار، باستثناء حرف النون في بداية الكلمة الثانية، حيث كتب متجهاً إلى اليمين.

ي ق د م إ ل : اسم علم لشخص ورد قبلاً في النقش رقم (١١) من هذه المجموعة.

ن د ب هـ م و : اسم لبطن أو قبيلة، سبق وروده في النقش رقم (٤٥) من هذه المجموعة.

النقش رقم (٥٠)

النص بالحرف العربي : ي م ع د أ ←
xxx س ل →

نقل المعنى : يمعد إ
ل (من البطن أو القبيلة) س xxx

الحاشية :

كتب هذا النص وفق خط سير المحراث. فالسطر الأول مكتوب من اليمين إلى اليسار، ويحتوي على خمسة أحرف. في حين أن ما يمكن قراءته من السطر الثاني وهما حرفي اللام والسين قد كتبا من اليسار إلى اليمين .

ي مْ ع د ا ل : إذا صحت قراءة هذا العلم فإنه بذلك يكون قد ظهر لنا للمرة الأولى في النصوص العربية الجنوبية القديمة. وعليه فهو اسم علم مركب من الجذر م ع د "قوي، عظيم"[١٥٢] في صيغة الفعل المضارع، والمعبود إل. ولذلك الاسم يَمعد إل أي "إل يقوّي أو إل يمنح القوة والعظمة". وفي النصوص العربية الجنوبية القديمة عدد كبير من أسماء الأعلام التي يدخل في تركيبها الجذر م ع د مثل م ع د ا ل، م ع د ك ر ب، م ع د ش ب م، م ع د ر د م، م ع د ذ ك ر ... إلخ [١٥٣].

س ... : بعد اسم العلم الأول يمكن قراءة حرف واحد هو السين والذي ربما يكون الحرف الأول من اسم القبيلة أو البطن .

النقش رقم (٥١)

النص بالحرف العربي : أ س د ع ز

نقل المعنى : أسَدْ عِزّ

الحاشية :

يتألف هذا النص البسيط من كلمة واحدة فقط هي اسم العلم أ س د ع ز والذي يظهر للمرة الأولى في النقوش العربية الجنوبية القديمة. وهو اسم علم مركب من اللفظ أ س د "محارب، مقاتل، رجل"[١٥٤]، الذي يأتي كصفة للمعبود في أسماء الأعلام السبئية المبكرة فقط، والجذر ع ز < ع ز ز "قوي، عظيم، شديد". وعليه يمكن قراءة هذا الاسم بصيغة جملة اسمية أسد عِزّ أي "أسد (المعبود) قوي أو عظيم". ويدخل اللفظ أ س د كصفة للمعبود في تركيب بعض أسماء الأعلام

(١٥١) وللمزيد عن الاسم ص د ق أ م ر وأسماء الأعلام التي يدخل في تركيبها اللفظ ص د ق انظر : Tairan, P P 147 – 149

(١٥٢) الفيروز آبادي ، ص ٤٠٨ .

(١٥٣) Harding, Index. P P 552 – 553 .

(١٥٤) Beeston, Sabaic Dictionary, p. 7 ، كذلك : Ricks , P 16

السبئية المبكرة مثل أ س د أ م ن، أ س د ذ ك ر، أ س د ك ر ب، أ س د ي د ع [١٥٥].

النقش رقم (٥٢)

النص بالحرف العربي : ع م و ك ل

ذ ح ب ر

نقل المعنى : عَمْ وكل

(من البطن أو القبيلة) ذو حبر

الحاشية :

يتكون هذا النقش البسيط من سطرين مكتوبين من اليمين إلى اليسار وبحروف كبيرة نوعاً ما. وقد بدأ بشكل جليّ وواضح تأثر حروف النقش بعوامل التعرية المختلفة.

ع م و ك ل : اسم شخص مركب من المعبود ع م "عَمْ" والجذر و ك ل "وكَل، أوكل"[١٥٦] وعليه يمكن أن يُقرأ هذا الاسم بصيغة جملة فعلية عَمْ وكَل أي "عَمْ (المعبود) أوكل أو عَهد الحماية (الإلهية لحامل الاسم)". وقد ورد الاسم ع م و ك ل قبل ذلك في النقش السبئي Schm/Marib7/2 من جبل لبق الأوسط[١٥٧]. ويحسن بنا الإشارة إلى أن اللفظ و ك ل يدخل في تركيب أسماء أعلام أخرى في النقوش العربية الجنوبية القديمة مثل و ك ل ا ل في السبئية والمعينية، إ ل و ك ل في القتبانية و م ع د و ك ل في الحضرمية[١٥٨].

ذ ح ب ر : اسم لبطن أو قبيلة. وقد سبق أن ورد هذا الاسم في النقش رقم (٤١) من هذه المجموعة.

الاختصارات غير العربية :

ABADY	Archaologische Berichte aus dem Yemen.
Abh.	Abhandlung
Bd.	Band
hrsg.	herauasgegben
JRAS	Journal of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland.
NESE	Neue Ephemeris für Semitische Epigraphik
RSO	Rivista degli Studi Orientali
SBAWW	Sitzungsberichte der Österreichischen Akademie der Wissenschaften in Wien
SEG	Sammlung Eduard Glaser
WO	Welt des Orients
WZKM	Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes

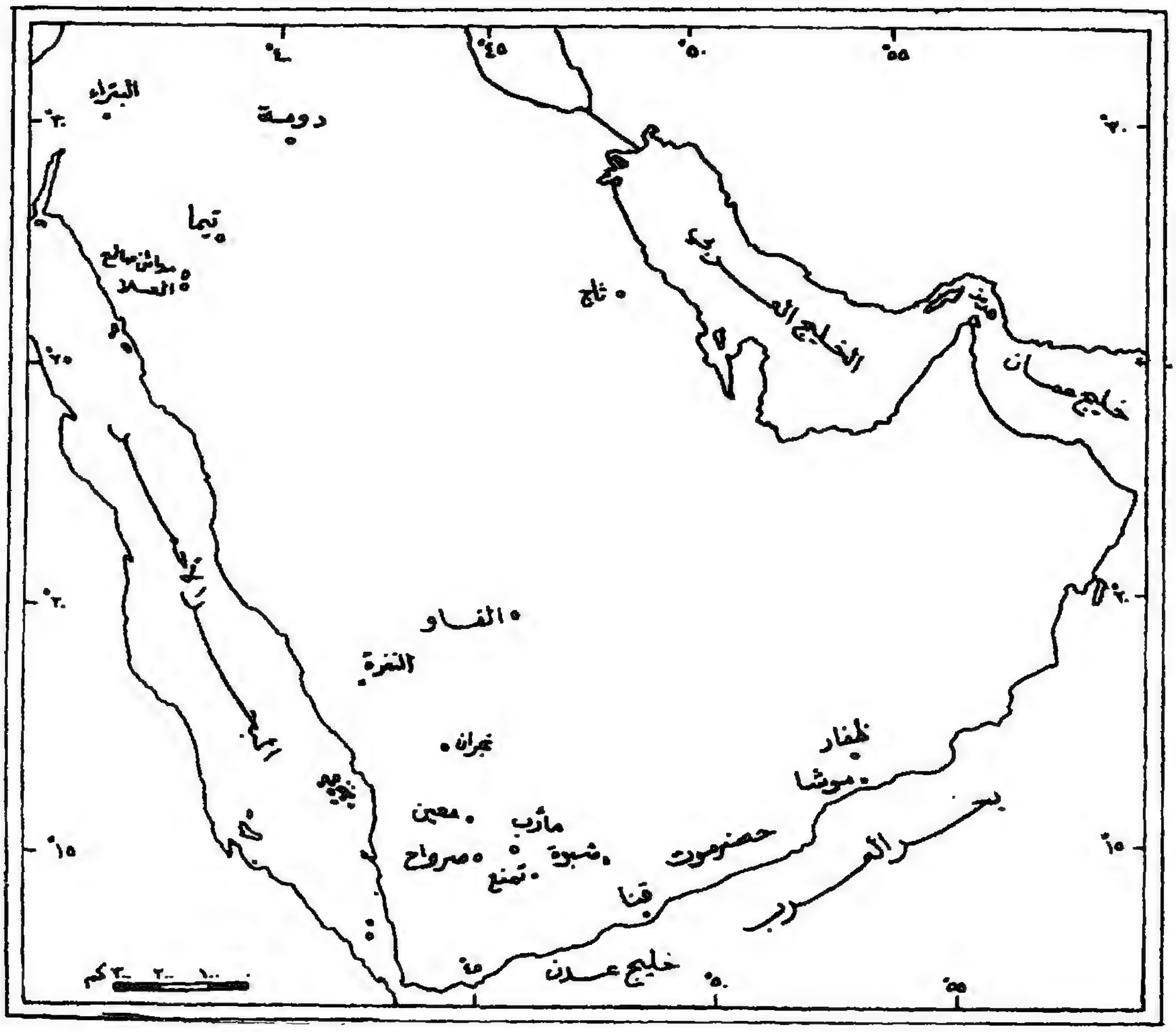
---

(١٥٥) Tairan, P P. 61 – 63 .

(١٥٦) الفيروز ابادي، ص ١٣٨١ . وفي السبئية و ك ل تعني "وكل أو سأل فضلاً من إله" انظر : Beeston, Dabaic Dictionary, P. 160. ويأتي هذا الجذر في الحبشية بنفس المعنى ተወከለ ، وفي الاكادية = wakalu, waklu بمعنى "مراقب، مشرف، وكيل" وللمزيد من المقارنات انظر : Leslau, P. 612; von Soden, P. 1456.

(١٥٧) Müller, Sabäische Felsinschriften, P. 68.

(١٥٨) Tairan, P. 232. وكذلك Al-Said, P. 178.



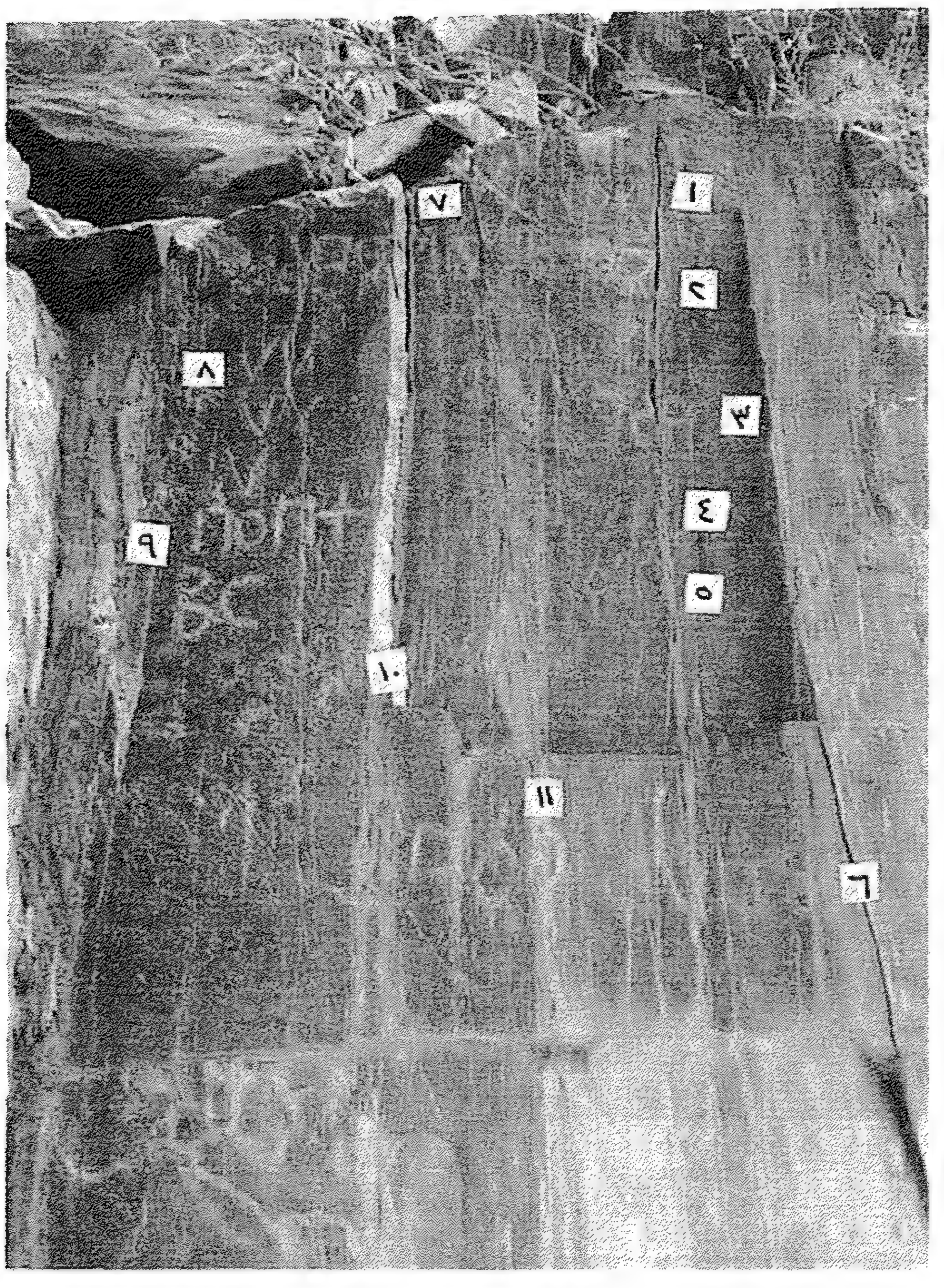
موقع النغرة في منطقة عسير .ومواقع المناطق الأثرية

في الجزيرة العربية المعاصرة للفترة موضع البحث

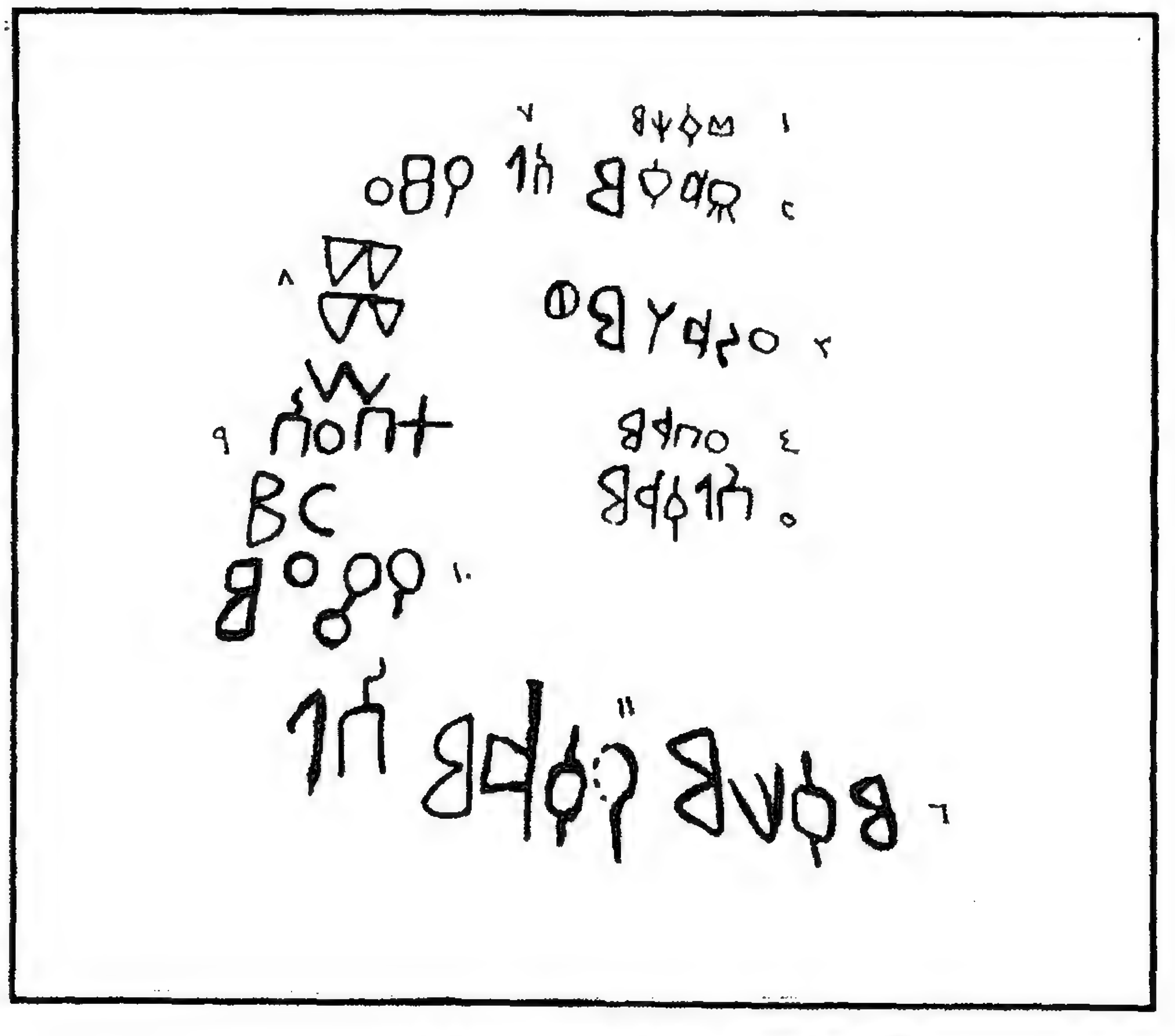
أسماء الأعلام الواردة في النصوص

١- أسماء الأشخاص :

٢- أسماء القبائل والبطون :



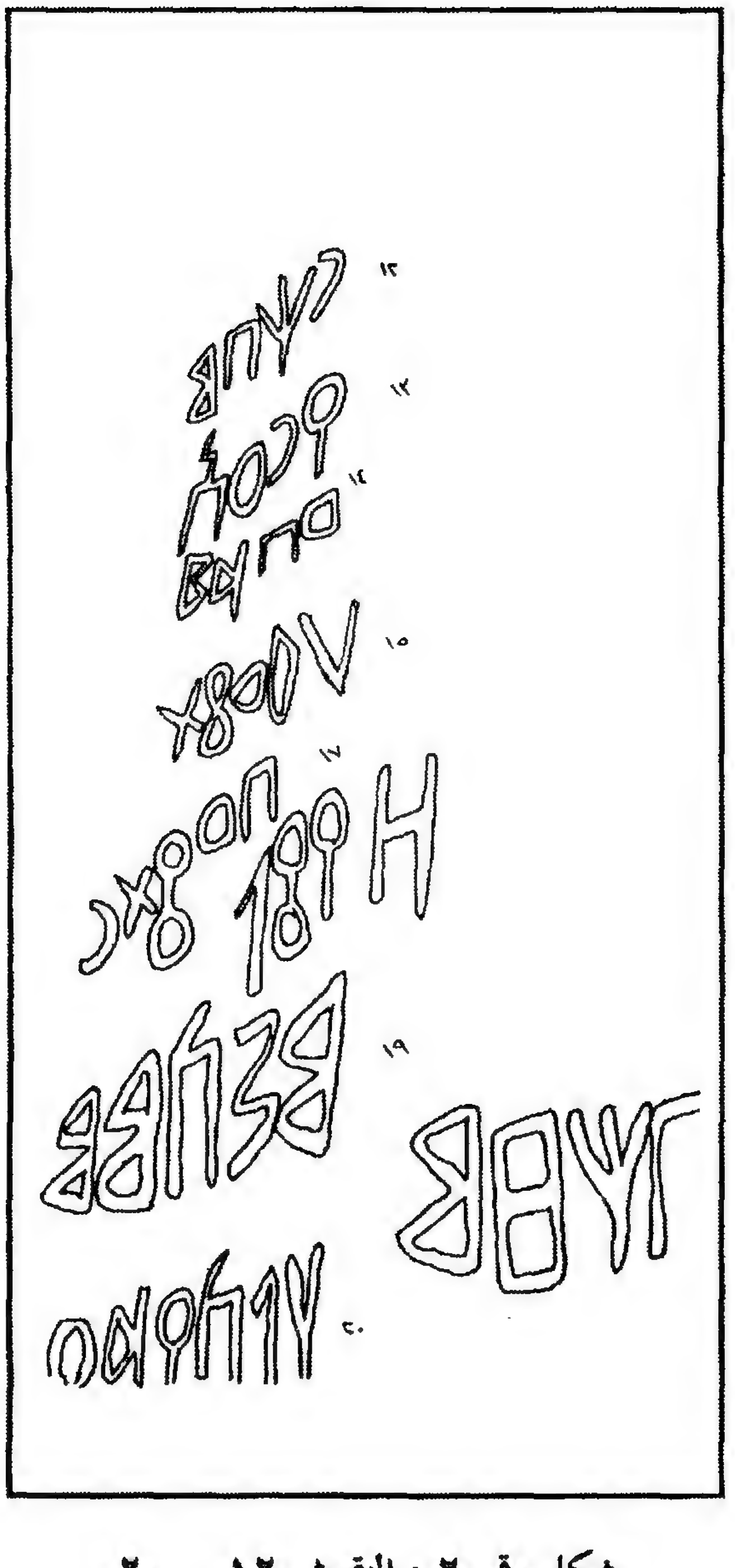
صورة رقم ١ : النقوش ١ – ١١



شكل رقم ١ : النقوش ١ – ١١



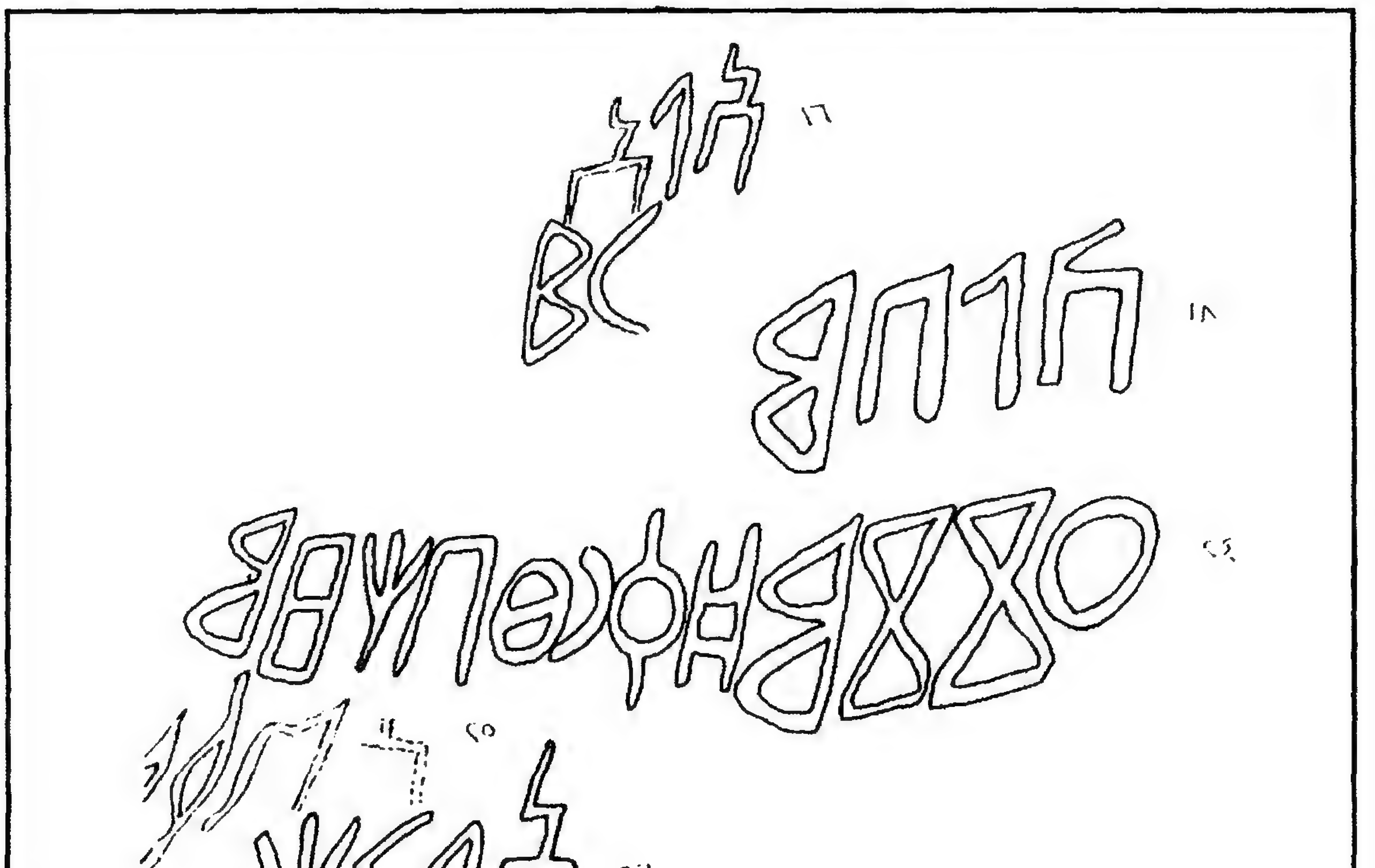
صورة رقم ٢ : النقوش ١٢ – ٢٠



شكل رقم ٢ : النقوش ١٢ – ٢٠



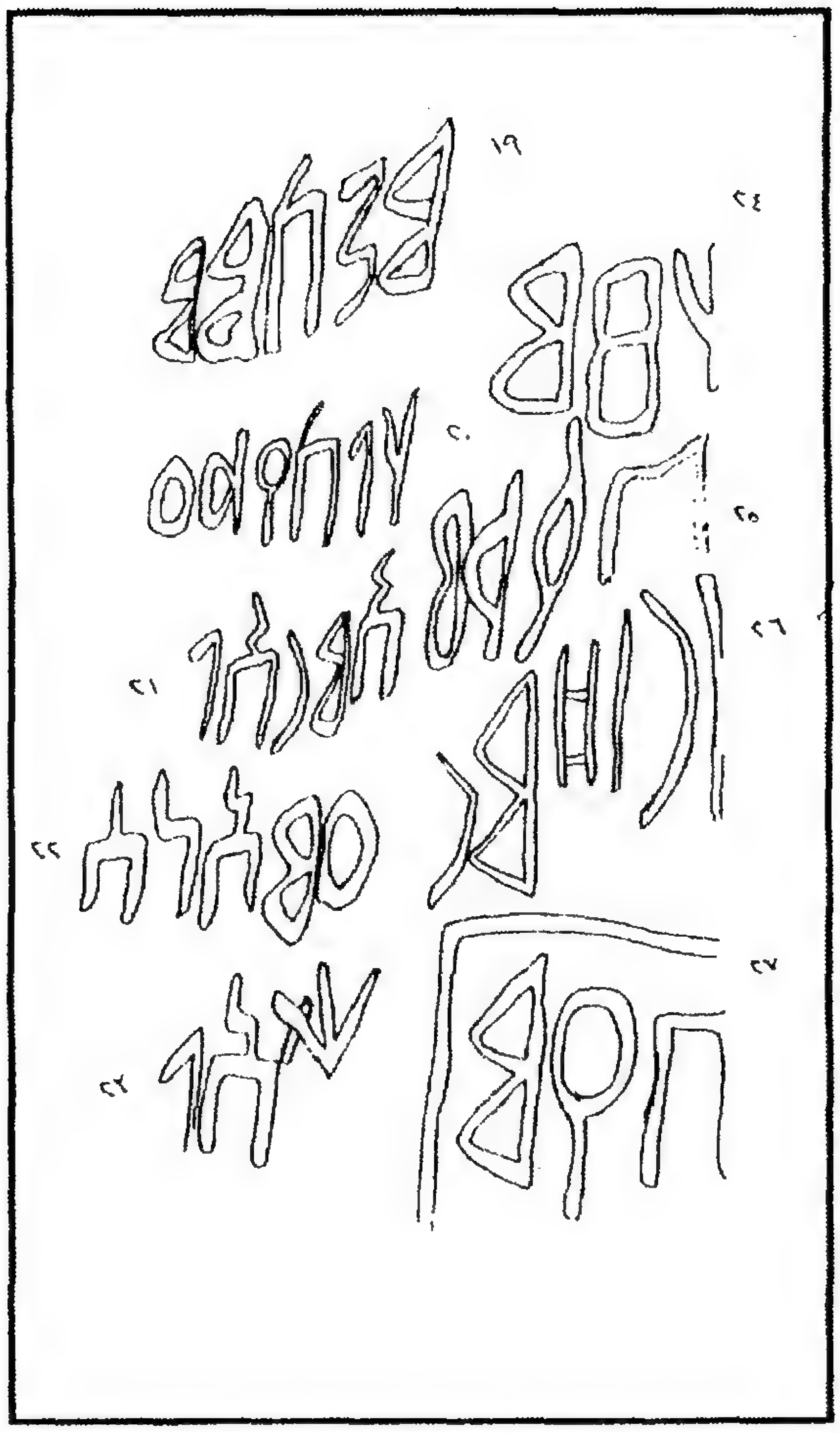
صورة رقم ٣ : النقوش ١٦ – ٢٦



شكل رقم ٣ : النقوش ١٦ – ٢٦



صورة رقم ٤ : النقوش ١٩ – ٢٧



شكل رقم ٤ : النقوش ١٩ – ٢٧



صورة رقم ٥ : النقوش ٢٢ - ٢٣



شكل رقم ٥ : النقوش ٢٢ - ٢٣



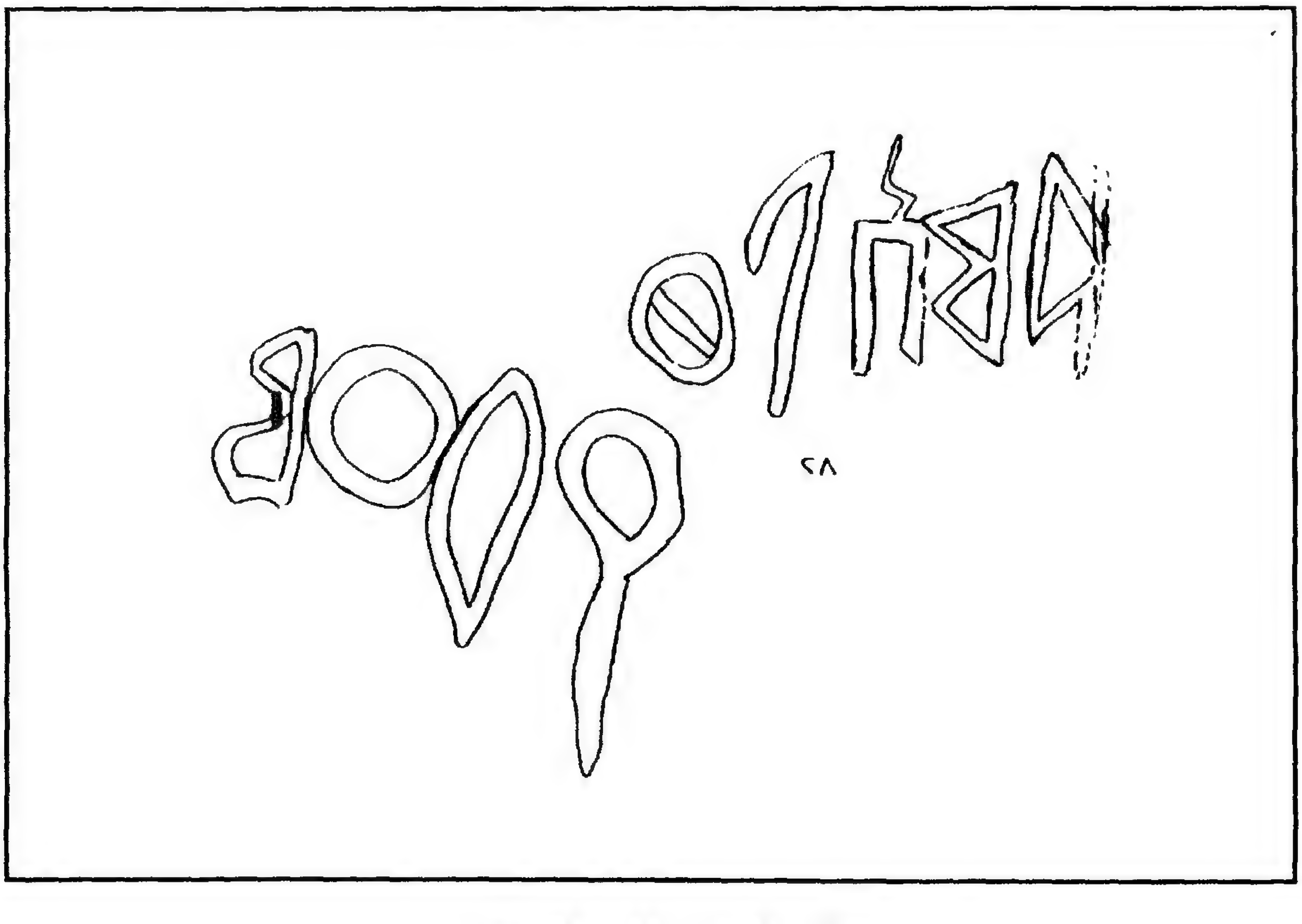
صورة رقم ٦ : النقوش ٢٦ – ٢٧



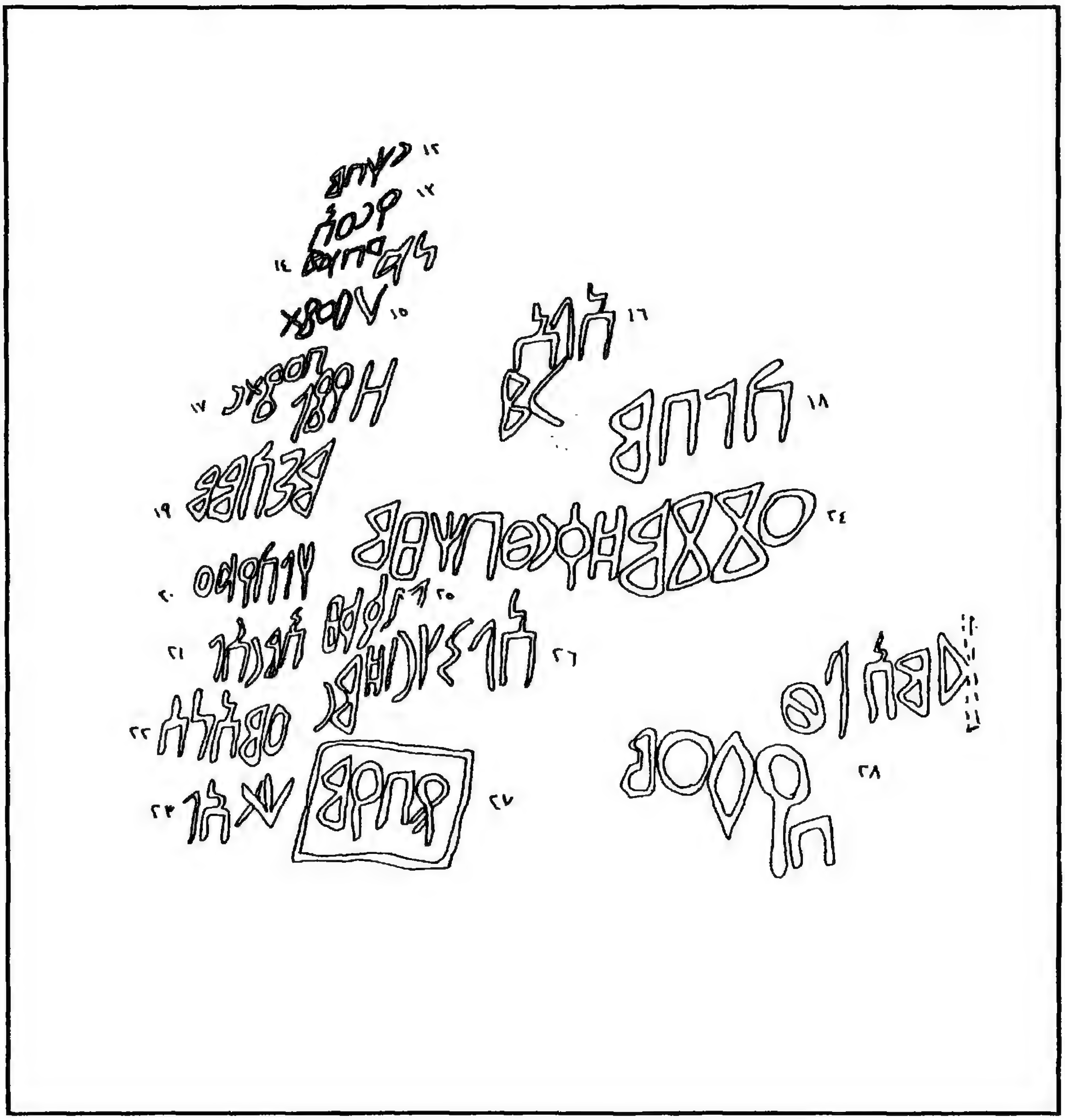
شكل رقم ٦ : النقوش ٢٦ – ٢٧



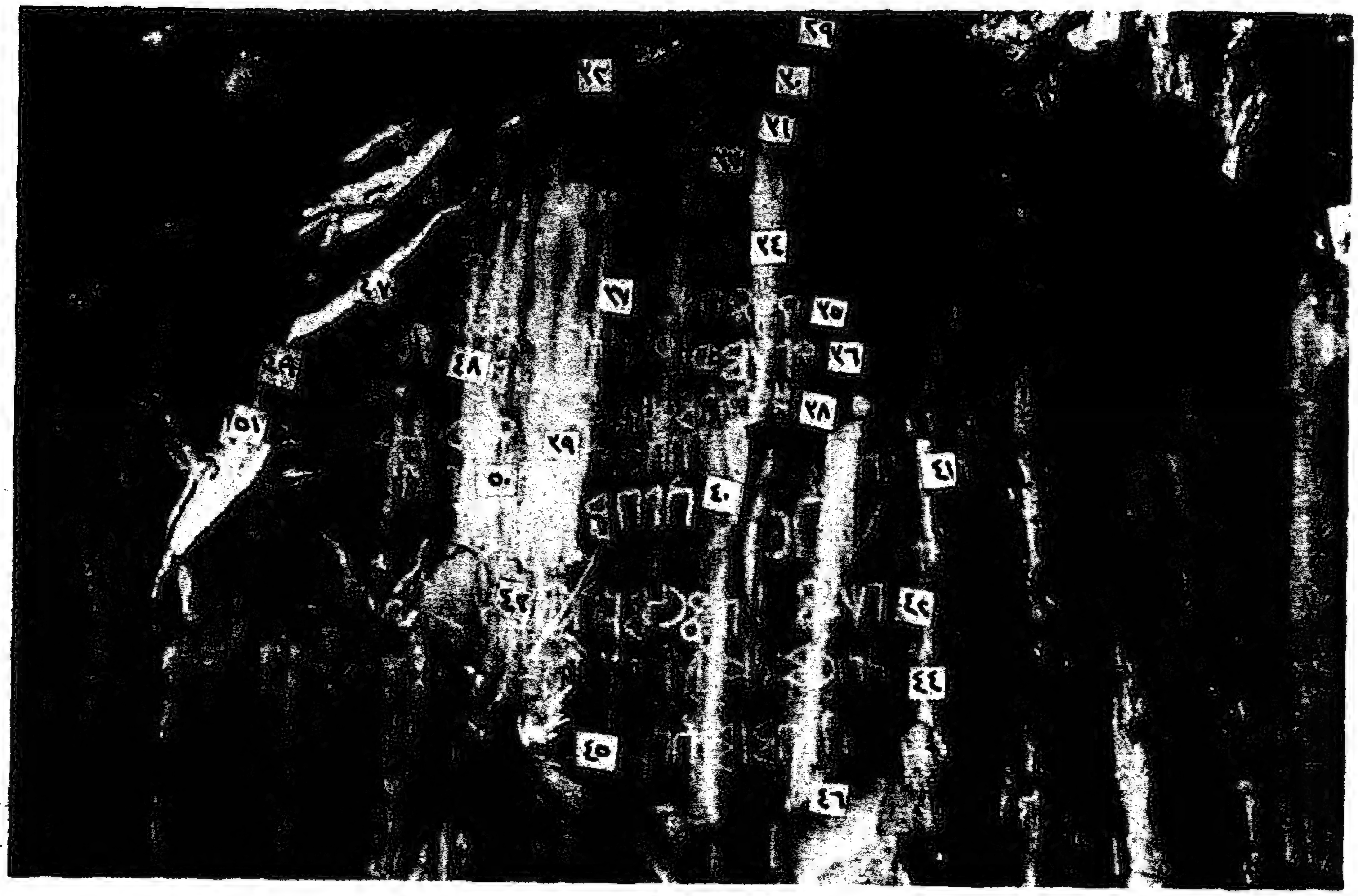
صورة رقم ٧ : النقش رقم ٢٨



شكل رقم ٧ : النقش رقم ٢٨



شكل رقم ٨ : النقوش ١٢ – ٢٨



صورة رقم ٨ : النقوش ٢٩ – ٥١



شكل رقم ٩ : النقوش ٢٩ – ٥١



صورة رقم ٩ : النقش رقم ٥٢



شكل رقم ١٠ : النقش رقم ٥٢

العصور، المجلد الحادى عشر ، الجزء الاول ، ٩١ - ١١٣ (٢٠٠١ م)

يهود الأندلس في ظل الحكم الإسلامي
٩٢ - ٨٩٧هـ/ ٧١١ - ١٤٩٢م

الدكتور : **هشام فوزي عبد العزيز**

ملخص البحث: تعتبر دراسة أوضاع يهود الأندلس وأحوالهم في ظل الحكم الإسلامي من المواضيع المهمة التي تستحق الالتفات إليها؛ وذلك لأنها توضح الموقف العربي والإسلامي من تلك الأقلية، والذي اتسم في الغالب بالإيجابية بشكل عام، حيث أن يهود الأندلس تمتعوا بقسط وافر من الحرية الدينية، وأتيح لهم المجال للمشاركة في النشاطات السياسية، والاقتصادية والثقافية، والتعليمية، وقد ترتب على ذلك أن كانت نشاطاتهم في تلك المجالات ملموسة، وإسهاماتهم فيها واضحة. وفي المقابل فإن بعض اليهود في الأندلس استغل المناخ الإيجابي في ظل الحضارة العربية الإسلامية، لتحقيق أهدافهم الدينية والسياسية، والتي تمثلت آنذاك بالحنين والرغبة بالعودة إلى فلسطين لإنشاء "دولتهم الموعودة" فاعتبروا أن وجودهم في الأندلس مؤقتاً، وأنهم ينتظرون الفرصة للهجرة منها، وهي قيم ومبادئ واتجاهات تتعارض مع المفاهيم الإسلامية لها.

١- يهود الأندلس قبل الفتح الإسلامي

عاش اليهود في أسبانيا منذ أزمنة طويلة يصعب تحديدها على وجه الدقة. وقد كثرت جماعاتهم هناك في المراكز الحضرية المتطورة مثل طليطلة وغرناطة واليسنة وبياتة والبيرة وأشبيلية وطرقونة، وتلك الأماكن كانوا يجتمعون فيها إبان الفتح الإسلامي.(١)

وفي الفترة القوطية، تعرضت الأقلية اليهودية في أسبانيا للمضايقة والتشديد والاضطهاد، فعقدت لهم المجالس الكنسية تباعا، ففي المجلس الكنسي الذي عقد في مدينة البيرة عام ٣٠٤م، نصت قراراته على عدم زواج المسيحيات من اليهود إلا بعد تنصيرهم، وعدم السماح لليهود بمباركة المحاصيل الزراعية للمسيحيين، وعدم مخالفة اليهود في الأكل والشرب، إضافة إلي منع اليهود من ممارسة شعارهم الدينية.(٢)

---

(١) مجهول، **أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم**، تحقيق ابراهيم الأبياري، القاهرة، ص ٢١-٢٣؛ ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق ج. س. كولان وليفي بروفنسال، بيروت، دار الثقافة، جـ٢، ص ١٢؛ شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق حسين نصار، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤م، جـ٢٣، ص ٤٤-٥٠؛ لسان الدين ابن الخطيب، **الإحاطة في أخبار** = **غرناطة**، تحقيق محمد عبد الله عنان، القاهرة، دار المعارف، م١، ص ١٠٧، ١٠٢؛ أحمد بن محمد المقري، **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق احسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٦٨، جـ١، ص ٢٦٣-٢٦٩؛ عبد الواحد ذنون طه، **الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال أفريقيا والأندلس**، بغداد، دار الرشيد، ١٩٨٢م، ٨٥ - ٨٦.

(٢) E.H. Lindo, *The History of the Jews of Spain and Portugal*. New York, Burt Franklin, 1970, pp. 10-15.

وعندما اعتنق الملك ريكاردو الأول Recardo 1 (٥٨٦ - ٦٠١م) المسيحية الكاثوليكية ، أخذ يعمل على اضطهاد اليهود في أسبانيا، حيث تقدم باقتراحات إلى المجلس الكنسي الذي عقد في طيلطلة عام ٥٨٩م، منها: عدم زواج اليهود من المسيحيات، ومنع استخدام العبيد اليهود في المزارع المسيحية، والعمل علي تمييز اليهود عن غيرهم من السكان، وطرد العمال اليهود من مختلف الوظائف والمهن.(٣)

وفي فترة حكم الملك يسبست Sisebut (٦١٠-٦٢٠م) ازداد الضغط والتشديد على اليهود في أسبانيا مما اجبر اليهود، إما على اعتناق المسيحية أو الهجرة إلى الشمال الإفريقي وفرنسا. وقد شهد حكم الملك سوانتيلا Saintala (٦٢١-٦٣١م) انفراجا لليهود، حيث تسامح معهم ولم يضيق عليهم الوضع، مما شجع بعض اليهود الأسبان الذين هاجروا إلى مناطق أخرى للعودة إليها ولكن سرعان ما تغيرت أحوال اليهود في عهد الملك سيسنارد Siesnard (٦٣١-٦٣٦م) فشدد الخناق عليهم بعد عقد المجلس الكنسي عام ٦٣٣م الذي أخذ بتطبيق قرارات المجالس الكنسية السابقة بحق اليهود.(٤)

وبقيت أحوال اليهود في عهد قانطلا Chantila(٦٣٦-٦٤٠م) كما كانت عليها في السابق، فقد عقد المجلس الكنسي السادس عام ٦٣٨، والذي أصدر قرارات مناهضة لليهود، لكن سرعان ما أعلنوا ولاءهم وإخلاصهم للكنيسة المسيحية.(٥)

وخلال حكم ايرونج Erwing (٦٨٠-٦٨٧م)، عقد المجلس الكنسي الثاني عشر، الذي اتخذت فيه مجموعة من القرارات ضد اليهود منها: العمل على تنصيرهم، وعدم السماح لهم بممارسة شعائرهم الدينية. ومنعهم من العمل أيام العطل المسيحية، ومنع قيام أي ارتباط أو علاقة بين المسيحيين واليهود، كما أنهم منعوا من مزاولة الأعمال التجارية على مختلف أنواعها. ولعل سبب عدم السماح لليهود بممارسة الأعمال التجارية هو الحيلولة دون أن يصبح اليهود ذا تأثير كبير على الفعاليات الاقتصادية، يضاف إلى ذلك أن يهود أسبانيا اتهموا في عهد أخيكا بالاشتراك في تدبير مؤامرة مع اليهود القاطنين في الشمال الأفريقي ضد المسيحيين في أسبانيا(٦).

وخلاصة لما سبق يمكن القول بأن اليهود في أسبانيا بعامة، خلال العهد القوطي، قد تعرضوا للاضطهاد والتشديد والمراقبة، ولم تتح لهم الحرية بممارسة نشاطاتهم الاقتصادية والاجتماعية والدينية.

٢- موقف اليهود من الفتح الإسلامي للأندلس:

رحب يهود الأندلس (٧) بالفتح الإسلامي نتيجة معاناتهم المريرة من قبل القوط، ويبدو أن المسلمين قد استفادوا من اليهود في بعض المهمات المحدودة مثل الحصول على معلومات حول الطبيعة الجغرافية للأندلس، وحول تحركات النصارى. ويذكر الدكتور حسين مؤنس بأن طارقا أفاد من اليهود الذين وجد فيهم الإدلاء الذين يقودونه في أبطاح الأندلس الفسيحة التي لم يكن المسلمون يعرفون الكثير عنها، ويؤكد على

(٣) Max. I. Margolis and Alexander Marx, *A History of Jwish people*, New York, 1927, pp. 304-305.

(٤) Ibid., p. 305

(٥) Ibid., p. 306.

(٦) Lined. The history of the Jews, PP. 21-22.

(٧) قدر عدد اليهود في الأندلس عشية الفتح الإسلامي بـ ١٠٠ ألف يهودي. انظر : جوزيف ماك كيب، **مدينة المسلمين في أسبانيا**، ترجمة تقي الدين الهلالي ، الرباط، ١٩٨٥، ص ٩٥.

أن يهود أشبلية وتدمير الذين كانوا يقومون بحراسة الحاميات، قد قاموا بفتح أبوابها أمام الجيوش الإسلامية.[٨] ويرد في بعض المصادر العربية الأندلسية بأن المسلمين عندما سيطروا عل مدن: قرطبة وأليسنه وطليطلة وأشبيلية، كانوا يعمدون بضم سكانها اليهود إلى المدافعين عنها.[٩]

ويظهر أن قصة مساعدة اليهود للجيش الإسلامي الذي افتتح الأندلس، قد وجدت مبالغة كبيرة من قبل بعض المؤرخين الغربيين، حيث قالوا: بأنها مؤامرة قد حيكت بين اليهود والمسلمين لتسليم الأندلس للعرب المسلمين. ولم تجد تلك الادعاءات أي دعائم لها حتى أنها رفضت من قبل المؤرخين اليهود أنفسهم، باعتبارها من الأساطير المعادية للإسامية.[١٠]

٣ ـ الأوضاع السياسية ليهود الأندلس :

تندر المعلومات المتعلقة بالأوضاع السياسية لليهود في الأندلس خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة واعتباراً من القرن الرابع الهجري بدأ النشاط اليهودي في ذلك المجال بالبروز وهذا يعزى إلى ظهور طبيب يهودي استطاع أن يكسب ود الخليفة عبد الرحمن الثالث (٣٠٣ـ٣٥٠ هـ/ ٩١٢ـ٩٦١م)، ويحظى بثقته، ويدعى هذا الطبيب اسحق بن عزرا بن شبروط (٣٠٣ـ٣٥٩ هـ/ ٩١٥ـ٩٧٠م)، واشتهر باسم حسداي بن شبروط. وقد ولد في مدينة جيان، وهاجر مع عائلته صبيا إلى قرطبة عاصمة الأندلس، ودرس الطب هناك ومارسه. وفي عام (٣٤٠هـ/ ٩٥١م) ترجم حسداي كتاب الطب الذي ألفه باليونانية ديوسقوريدس، حيث حازت الترجمة على إعجاب عبد الرحمن الثالث، فكافأه بتعيينه طبيباً في القصر. وانتفع بدرايته باللغة اللاتينية عند استقباله لرسل وأمراء أوروبا الناطقة باللاتينية، كما أن الخليفة كان يستشيره في أمور الدولة الداخلية والخارجية.[١١] كما أرسله في سفارات إلى الممالك النصرانية، منها توجهه إلى صاحب برشلونة المسمى ثتيير بن غيفريد عام (٣٢٨هـ/ ٩٣٩م) لمهادنته . كما أرسل في العام نفسه إلى رذمير الثاني (٣٢٠ـ٣٣٩هـ/٩٣١ـ٩٥١م) حاكم جليقة، من أجل فك أسر محمد بن هاشم ، أحد رجالات عبد الرحمن، حيث نجح في مهمته واستطاع عقد الصلح مع رذمير . ويصف ابن حيان حسداي بن شبروط بقوله: " وهو واحد العصر، الذي لا يعدل، خادم الملك في الأدب، سعة الحيلة ولطف المدخل، وحسن الولوج".[١٢].

---

(٨) مونس، **فجر الأندلس**، ص ٨٧ـ٨٨ ٩٢ . وانظر أيضا: **عبادة كحيلة، تاريخ النصارى في الأندلس**، القاهرة، المؤلف، ١٩٩٣م ص٤٥.

(٩) ابن عذاري، **البيان المغرب**، م٢ ص١٢؛ مجهول، اخبار مجموعة، ص ٢٣؛ النويري؛ **نهاية الأرب**؛ جـ ٢٤، ص ٤٨، ٥٠؛ ابن الخطيب **الإحاطة في أخبار غرناطة**، م٣ ص ٥٢٩؛ **الملحمة البدرية في الدولة النصرية**، القاهرة، المكتبة السلفية، ١٣٤٧هـ، ص ١٦؛ المقري، **نفح الطيب**، جـ١، ص ٢٦٣، ٢٦٩.

(١٠) ذنون طه، **الفتح والإستقرار**، ص ١٧٢ـ١٧٣. وانظر أيضا: لورد، **أسبانيا: شعبها وارضها**، ص ٧٠ح موريس لومبار، **الإسلام في مجده الأول**، ترجمة اسماعيل العربي، الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٧٩، ص١١٧.

(١١) آرثر كوستلر، **امبراطورية الخزر وميراثها**، ترجمة حمدي متولي مصطفى، بيروت، **منشورات فلسطين المحتلة**، ١٩٧٦، ص ٨٠ـ٨١، د. دنلوبن **تاريخ يهود الخزر**، ترجمة سهيل زكار، دمشق، دار الفكر، ١٩٨٧، ص ١٧٦ـ١٧٧؛ عبد المجيد، **اليهود في الأندلس**، ٢٣. Raymound Scheindlin, the Jews in Muslim Spain, in: the Legacy of Muslim Spain, Edited by Salma Jayyusi, Leiden, 1992, p. 190

(١٢) ابن حيان القرطبي ، **المقتبس في أخبار أهل الأندلس**، تحقيق شالميتا، مدريد، المعهد الأسباني، ١٩٧٩، جـ٥، ص ٤٥٤ـ٤٥٥ ، ٤٦٦ـ٤٦٧، ٤٧٢ـ٤٧٣.

وكان حسداي من المبرزين في مجال التجارة الأندلسية وشؤونها الخارجية بالرغم من أنه كان يقوم بعمل وزير الخارجية والتجارة، لكنه لم يمنح لقبا رسميا، لتلك النشاطات. وقد استطاع أن يجمع أموالا طائلة ويصبح من أغنياء زمانه. كما أنه نافس أغنياء المسلمين في اقتناء الكتب والتفاخر بمكتبته، وقلد حاكم العرب باتخاذه شعراء يمدحونه مقابل إغداق الأموال عليهم. وكان من أوائل الشعراء الذين مدحوه مناحيم بن سروق واسحق بن قفرون.[١٣]

وبعد أن انهارت الخلافة الأموية في قرطبة ظهرت في الأندلس دول و إمارات الطوائف ابتداء من القرن الرابع الهجري/ الحادي عشر الميلادي.إذ رأى بعض اليهود أن من مصلحتهم توسيع شقة الخلافة في هذه الإمارات، فقاموا بنصيب وافر في إشعال نار الفرقة بين الأمراء، فازداد نفوذهم وبخاصة في دولة بني زيري بغرناطة (٤٠٣ـ٤٨٣هـ/ ١٠١٢ـ١٠٩٠م) حيث برز شموئيل بن نغريلة (٣٨٢ـ٤٤٨هـ/ ٩٩٣ـ١٠٥٦م)، وهو من أسرة يهودية ثرية عاشت في قرطبة، ثم هاجر إلى مالقه - مدينة على الساحل الجنوبي من شبه جزيرة الأندلس - وافتتح هناك متجرًا وراح يمارس مهنة التجارة ليكسب معيشته، وقد صادف أن كان متجر ابن نغريلة في مكان غير بعيد عن قصر أبي القاسم ابن العريف وزير حبوس بن ماكس بن زيري (٤١٠ـ٤٣٠هـ/ ١٠١٩ـ١٠٢٨م) فاكتشف هذا الوزير معرفة ابن نغريلة باللغة العربية وجودة أسلوبه في التحرير بها اضافة إلى إتقانه العبرية واللاتينية، ومعرفته في علم الفلك والمنطق؛ ولذلك عينه الوزير كاتباً له وكان يستشيره في بعض أمور الولاية، فذاع صيته بين يهود مالقة، وعينه رئيسا لهم، ونظرًا لإعجاب ابن العريف بابن النغريلة فقد قدمه إلى حبوس أمير ولاية مالقة التي تتبعه فاعجب حبوس بذكائه وكياسته فجعله مسؤولا عن جباية الضرائب في إمارته[١٤].

وعندما مات حبوس، حدث خلاف بين ولديه ماخان وباديس على الإمارة فوقف ابن نغريلة إلى جانب باديس الذي نجح في التغلب على أخيه؛ ثم الوصول إلى سدة الحكم. وعندما تولى باديس الإمارة (٤٣٠ـ٤٦٦هـ/١٠٢٨ـ١٠٧٣م) لم ينس جميل ابن نغريلة في مناصرته له فعينه وزيرًا في إمارته،وبذلك أصبح شموئيل بن نغريلة أول يهودي أندلسي وصل إلى منصب الوزارة رسميا حيث كان مسؤولا أمام باديس عن شؤون الإمارة الداخلية والخارجية وذلك في عام (٤١٨هـ/ ١٠٢٨م). كما انيطت به مهمة أمور الجيش، فقاد الحملات العسكرية ضد أعداء إمارته، وفي العام نفسه عين رئيسا للطائفة اليهودية في غرناطة.[١٥]

وفي أثناء تولي ابن نغريلة الوزارة توافد عليها الكثير من اليهود يبتغون فضله، فكان يعطف على

---

(١٣) ابن حيان، **المقتبس**، جـ٥ ، ص ٤٥٤ـ٤٥٦، ٤٦٦ـ٤٦٧، ٤٧٢ـ٤٧٣؛ الفتح بن خاقان، **قلائد العقيان**، د.ن، د.ت، ص ١٨٢ـ١٨٥؛ ابن سعيد المغربي، **المغرب في حلي المغرب**، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٨، جـ١، ص ٤٤١؛ ابن بسام الشنتريني، **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، تحقيق احسان عباس، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٩، ق٣ن م١ن ص ٤٥٧ـ٤٩٨ ؛ المقرى نفح الطيب، م١ن ص ٦٤٠ـ٦٤٣؛ صاعد ابن أحمد بن صاعد، طبقات الأمم، ص ١٣٣ـ١١٤؛ ابن ابي أصيبعة، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، بيروت، ١٩٦٥، ص ٤٩٨؛ عبد المجيد، اليهود في الندلس، ص ٢٢ـ٢٤.

(١٤) Eliyahu Ashtor. *The Jews of Muslem Spain* Translated from Hebrew by Aaron Klein, the Jewish publication society of America. phladelphia. 1979. Vol. 2. 7-16. Scheindlin . the Jews in Muslim . P. 190J191.

(١٥) مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري بغرناطة المسماة بكتاب التبيان، نشرة ليفي بروفنسال، دار المعارف، ١٩٥٥، ص ٣١ـ٥١؛ ابن بسام، **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة** ق١، ص ٧٦٦ـ٧٧٩؛ ابن سعيد، المغرب في حلي المغرب، جـ١. ص ١١٤ـ ١١٥؛ ابن عذاري، البيان المغرب. جـ١ن ص ٢٦١، ٢٧٥ـ٢٧٦. Ashtor. the Jews inMuslem Spain. Vol 2P. 61-66.

فقرائهم ويكرم علماءهم ويغدق الأموال على شعرائهم، وعهد إلى بعض اليهود بوظائف حكومية مهمة، مما أدى بالتالي إلى ازدياد مكانته وشعبيته واتساع نفوذه بين اليهود وبقي ابن نغريلة يمارس منصبه حتى وفاته عام (٤٥٩هـ/ ١٠٦٦م).(١٦) فخلفه ابنه يوسف وتولي الوزارة من بعده، أيضا، والذي يصفه ابن الخطيب بأنه مدبر الدولة الزيرية في غرناطة.(١٧) وقد افتعل يوسف الكثير من المشاكل والانقسامات السياسية، إذ كان يدبر الاغتيالات السياسية ضد معارضيه، كما فرض الضرائب المرتفعة على المسلمين، كما انه كان يجهر بمعاداة الإسلام، إضافة إلى اضطهاده لبعض الفقهاء ونفيهم من الأندلس، ومن هؤلاء الفقيه إبراهيم بن مسعود أبي الإسحاق الألبيري الذي نظم قصيدة استثار فيها همم المسلمين ضد استبداد يوسف وأعوانه من اليهود في شؤون الدولة الزيرية. (١٨) ومما جاء فيها:

ألا قل لصنهاجة أجمعين
بدور الندى وأسد العرين
لقد زل سيدكم زلة
تقر بها أعين الشامتين
تخير كاتبه كافرا
ولو شاء كان من المسلمين
فعز اليهودية وانتخوا
وتاهوا وكانوا من الأرذلين
ونالوا مناهم وجازوا المدى
فحان الهلاك وما يشعرون
فكم مسلم فاضل قانت
لا رذل قرد من المشركين.(١٩)

ونتيجة لما سبق فقد ثار أهل غرناطة من المسلمين على يوسف ابن نغريلى وأعوانه من اليهود، وقتلوا الكثير منهم(٢٠).

وكان لليهود في الدولة الزيرية في غرناطة النفوذ الواسع لاسيما في المجالين السياسي والاقتصادي، إذ تقلد بعضهم وظيفة الخازن والتي هي أشبه بوزارة المالية اليوم. وتشير مذكرات الأمير عبد الله ابن بلقين (٤٦٦-٤٨٣هـ/١٠٩٠م) إلى أن أبا الربيع اليهودي كان خازنا للأموال في دولته.(٢١) والسؤال الذي نطرحه هنا، هو لماذا ازداد نفوذ اليهود في الدولة الزيرين؟ ويبدو أن هناك عوامل عدة وراء ازدياد ذلك النفوذ لعل من أهمها: انعدام ثقة دولة الزيرين بالعرب، وإلى المقدرة الفائقة التي امتاز بها اليهود في معالجة المسائل الاقتصادية والمالية، وبخاصة أن مملكة غرناطة كانت ترزح آنذاك تحت نير الأعباء المالية. ومنها أيضا النفوذ الذي باشرته الثقافة اليهودية على الشعب البربري الذي لم يكن قد تم تعريبه بعد. إلا أن أهم ما مكن اليهود في غرناطة أن الزيريين كانوا يعتنقون مذهب التشيع والذي كان بينه وبين اليهودية صلة قديمة، إذ تأثر الشيعة منذ نشأتهم بتعاليم الديانة اليهودية (٢٢).

ويظهر أن المرابطين في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري وبداية القرن السادس

---

(١٦) المصادر المذكورة آنفا.

(١٧) ابن الخطيب، **الإحاطة**، جـ١، ق٤، ص ٤٤٧.

(١٨) مذكرات الأمير عبد الله، ص ٥١-٥٥؛ ابن بسام؛ **الذخيرة**، ق١ن م٢ن ص ٧٧٦؛ ابن سعيد، **المغرب في حلي المغرب**، ص ١١٥؛ ابن الخطيب، الإحاطة، جـ١، ق٤، ص ٤٤٧.

(١٩) ديوان ابي اسحاق الالبيري الأندلس، تحقيق محمد رضوان الداية، دمشق دار قتيبة، ١٩٨١، ص ٨٩-٩٢.

(٢٠) المصادر المذكورة في هامش رقم (٨١).

(٢١) مذكرات الأمير عبد الله، ص ٣٠.

(٢٢) اسماعيل العربي **دولة بني زيري ملوك غرناطة**، الجزائر، ديوانه المطبوعات الجامعية، ١٩٨٢، ص ٨١-٨٢، محمود علي مكي، **التشيع في الأندلس إلى نهاية ملوك الطوائف**، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، ع١-٢، م٢ ص ١٣٠-١٣١.

الهجري، قد غيروا من وضع اليهود في الأندلس، ولعل مرد ذلك أن عمل اليهود في الإدارة المالية في الأندلس خلال فترة ملوك الطوائف، وتعسفهم في جباية الضرائب وسيطرتهم الاقتصادية هناك، كانت من العوامل التي أدت إلى بغضهم. ولما فتح المرابطون الأندلس فرضوا على اليهود ضرائب باهظة، حيث وجد ذلك العمل مساندة الفقهاء، ويضاف إلى ذلك مساعدة يهود الأندلس للنصارى ضد المسلمين كما حدث في معركة الزلاقة (٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م)[٢٣]. وفي أثناء العهد الموحدي، شددت الرقابة على اليهود حيث لم تعقد لهم ذمة، ولم يظهر لليهود إخلاص في إسلامهم، فلم يكفوا عن أذى المسلمين والتجسس عليهم، كما أنهم أيدوا بعض الحركات الانفصالية والمعارضة مثل حركة ابن هشك عام (٥٥٧هـ/ ١١٦١م)، إضافة إلى أنهم وقفوا إلى جانب ابن مردنيش حاكم مرسيه وبلنسيه في الثورة التي قام بها بعدما اغتنم غياب ابن سعيد بن عبد المؤمن الموحدي، ولكن تلك الثورة سحقت حيث استعاد الموحدون غرناطة[٢٤].

وتجدر الإشارة إلى أن حركة الجلاء اليهودية عن الأندلس قد ظهرت في القرنين الخامس والسادس الهجريين، نتيجة الضغوط التي تعرضوا لها، فهاجروا إلى صقلية والمشرق الإسلامي وإلى الممالك المسيحية، وإلى جنوب فرنسا[٢٥].

أما بالنسبة لأوضاع اليهود السياسية في ظل الدولة النصرية (بنى الأحمر) (٨٢٦-٨٩٧هـ/ ١٢٣١-١٤٩٢م)، فإن بني الأحمر كانوا أكثر من سابقيهم تسامحا، حيث حافظوا على مصالح اليهود وأمّنوا لهم حرية شعائرهم وتقاليدهم، ففي عام (٧٦٦هـ/١٣٦٤م)، استقبل محمد الخامس (٧٥٥ - ٧٦٠ هـ و ٧٦٣ - ٧٩٣ / ١٣٥٤ م ١٣٥٨/١٣٦١م - ١٣٩٠م) ٣٠٠ عائلة يهودية هربت من اضطهاد القشتاليين ولجأت إلى غرناطة. وفي عام ٧٩٢هـ/١٣٨٩م شهدت مناطق قشتالة وقطلونية وجزر البليار موجه اضطهادات ضد اليهود حملت الناجين منهم على الهرب إلى مملكة بني الأحمر.[٢٦]

وعلى الرغم من تعرض اليهود في الممالك النصرانية إلا أن بعض الأمراء المسيحيين استخدمهم في مناصب سياسية رفيعة، إذ عمل بعضهم كسفراء لهؤلاء الأمراء منهم إبراهيم بن يعقوب السفير الأسباني اليهودي إلى الأمير أوتوا الكبير عام (٣٥٥هـ/٩٦٥م).[٢٧] كما عمل اليهودي إبراهيم بن الفخار، سفيرًا لملك طيلطلة النصراني، بينه وبين ملوك المغرب.[٢٨] كما

---

(٢٣) ابن عذاري، **البيان المغرب**، حـ٣، ص ٢٦٤-٢٦٥؛ المراكشي، المعجب، ص ١٣٤؛ ابن أبي الزرع الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاسي**، الرباط، دارا لمنصور، ١٩٧٣، ص ٩٧؛ **ديوان ابن سهيل الأندلسي**، بيروت، دار صادر، ١٩٦٧، ص ١٥١؛ مؤلف مجهول، **الحلل الموشية**، ص ٢٥،٥٧.

(٢٤) المراكشي، **المعجب**، ص ٣٠٥؛ النويري، **نهاية الأرب**، جـ٢، ص ٢١٧؛ ابن الخطيب، **اللمحة البدرية**، ص ٨٤؛ المقري، **نفح الطيب**، جـ١، ص ٢٢٣؛ شفيق محمد رقيب، **شعر الجهاد في عصر الموحدين**، عمان، ١٩٨٤، ص ٢٢-٢٣؛ عز الدين أحمد موسى، **النشاط الاقتصادي في الغرب الإسلامي**، بيروت، دار الشروق، ١٩٨٣، ص ١١٤.

(٢٥) **اسرائيل ولفنسون**، موس بن ميمون، القاهرة، ١٩٣٦م، ص ٧-٤؛ موسى، **النشاط الإقتصادي**، ص ١١٤.

(٢٦) يوسف شكري فرحات، **غرناطة في ظل بني الأحمر**، بيروت، المؤسسة الجامعية، ١٩٨٢؛ ص ١١٦.

(٢٧) دنلوب، **تاريخ يهود الخزر**، ص ٣٠٥؛ كوستلر، **امبراطورية الخزر**، ص ١٦٠-١٦١.

(٢٨) ابن سعيد، **المغرب في حلي المغرب**، جـ٢، ص ٢٣، المقري، نفح الطيب، جـ١، ص ٥٢٧.

استخدم الكثير من اليهود كجباة لأمراء النصارى.[٢٩]

٤ ـ الأوضاع الاقتصادية ليهود الأندلس :

لقد عرفت الطائفة اليهودية في الأندلس، في مجموعها حياة أكثر اطمئنانا واستقرارًا، بشكل عام، كما لم تعرفها في مكان آخر نظرًا للوضع القانوني المتسامح بعامة، إضافة إلى إتقانهم العديد من اللغات الدارجة هناك، وعلاقاتهم بإخوانهم اليهود في أسبانيا المسيحية والدول الأوروبية الأخرى، وفي الشمال الأفريقي وبلاد الشام، مما مكنهم من أن يلعبوا دوراً هاماً في الحياة الاقتصادية الأندلسية.[٣٠]

ونتيجة لاستقرار أعداد كبيرة من اليهود في أرياف الأندلس، فقد فرض عليهم العمل الزارعي وما يتصل به من رعي وصيد[٣١]. وعمل اليهود في الحرف والمهن المختلفة مثل الخياطة والنسيج والأقمشة والدلالة في الأسواق، وفي نسخ الكتب وتجليدها، وأساقفة، وحمالين وكيالين.[٣٢] وبرز اليهود أكثر من غيرهم في مجال الذهب وصياغته، حيث أقاموا أسواقا خاصة بذلك[٣٣]. حتى أن أحد الأمثال الأندلسية يشير إلى أن جل الصاغة كانوا من اليهود وإذا تفاخر مسلم بهذه المهنة احتقره الناس[٣٤].

وقد تقلد بعض اليهود مناصب اقتصادية حساسة مثل منصب الخازن، وأشير إلى ذلك سابقا. وقام بعض رؤساء اليهود بجباية الأموال والضرائب المستحقة من أبناء جلدتهم.[٣٥] كما عمل بعض اليهود في مجال ضرب النقود (السكة).[٣٦]

واستخدم ملوك النصارى اليهود في جمع الضرائب من رعاياهم، إضافة إلى الأموال التي كانت تجمع من المسلمين. وقد تمتع يهود قشتالة بوضع افضل من وضع اليهود في الممالك المسيحية الأخرى، حيث كانوا يشكلون ثقلاً اقتصادياً هاماً. فقد استخدم الفونسو السادس (٤٥٨ـ٥٠٢هـ/١٠٦٥ـ١١٠٩م)، اليهودي ابن شالب في جباية الضرائب من رعاياه ومن المسلمين، وكان يعد من الخبراء في مجال النقد في عصره.[٣٧] كما وضع الفونسو العاشر (٦٥٠ـ٦٨١هـ/ ١٢٥٢ـ١٢٨٢م) اليهودي سالمون بن صادوق في منصب كبير الجباة،

---

(٢٩) ابنالكرديوس، **الإكتفاء في أخبار الخلفاء**، تحقيق أحمد مختار العبادي، صحيفة معهد ا لدراسات الإسلامية، م٣، ١٩٦٥ـ١٩٦٦، ص ٨٩؛ محمد بن عبج الله الحميري، **صفة جزيرة الأندلس**، منتخبة من كتاب **الروض المعطار**، نشرة لافي بروفنصال، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف، ١٩٣٧، ص ٨٤.

(٣٠) أ. س. ترتون، **أهل الذمة في الإسلام**، ترجمة حسن حبشي، دار الفكر العربي، د.ت، ص ٩٩.

(٣١) ابن عذاري، **البيان المغرب**، جـ٤، ص ٣٦، ٧١؛ هشام ابو رميلة، **علاقات الموحدين بالممالك النصرانية والدول الإسلامية في الأندلس**، عمان، ١٩٨٤، ص ٣٦٩.

Ashtor. The Jews of Muslem Spain, Vol. 2p 167.

(٣٢) اسماعيل بن الأحمر، **بيوتات فاس الكبرى**، الرباط، دار المنصور، ١٩٧٣، ص ٢٤؛ ابن بسام، **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، ١٩٧٩، ق١، م١، ص ٤١٨، ابن عذاري، **البيان المغرب**، جـ٣،ص ٦٥؛ الحميري، **الروض المعطار**، ص ٤٤؛ جهاد غالب الزغول، **الحرف والصناعات في الأندلس منذ الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة**، رسالة ماجستير، غير منشورة، الجامعة الأردنية ـ قسم التاريخ، ١٩٩٤م، ص ٩٠.

(٣٣) أبو الحسن علي يوسف الحكيم، **الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة**. تحقيق حسين مؤنس، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، م٦، ١٩٦٨، ع١ـ٢، ص ١٧٧ـ١٧٨؛ س.د = جوايتاين، **دراسات في التاريخ الاسلامي**، تعريب عطية القوصي الكويت، ١٩٨٠، ص ١٦٢؛ رجب عبد العليم، **العلاقات بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف** القاهرة، د.ت، ص ٤٢٧؛ الزغول، **الحرف والصناعات** ص ٩٠.

Ashtor. The Jews of Muslem Spain. Vol. 141.

(٣٤) أبو يحي عبيد الله بن محمد أحمد الزجالي، **أمثالا لعوام في الأندلس**، حققها ونشرها محمد بن شريفة. ق١. ١٩٧٥م. ص ٢١٦

(٣٥) أبو حيان القرطبي، **المقتبس في أخبار الأندلس**، تحقيق عبد الرحمن الحجي، بيروت، ١٩٧١، ص ١٤٩؛ مذكرات الأمير عبد الله، ص ٣٠.

Ashtor. The Jew of Muslem Spain, 141 Vol.3. p 75—76.

(٣٦) ابن الحكيم، **الدوحة الشبكة**، ص ٥٩ـ٦٠.

(٣٧) مؤلف مجهول، **الحلل الموشية**، ص ٤١ـ٤٢؛ ابنالكرديوس، **الإكتفاء**، ص ٨٩؛ المقري، **نفح الطيب**، جـ٤، ص ٣٥٨، ٣٤٦؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٨٤؛ النويري، **نهاية الأرب**، جـ٢٣، ص ٤٥٠؛ ابن الخطيب، **الإحاطة**، م٣، ص ١١٠؛ محمد بن عبود، التاريخ السياسي والإجتماعي لإشبلية في عهد الطوائف، تطوان، ١٩٨٣، ص ٢٥٢، ٢٧٤؛ يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة محمد عنان، القاهرة ١٩٥٨، ص ١١٥.

فانتهج ملوك قشتالة ممن جاءوا بعده النهج نفسه، فقد عين بدور الرابع، اليهودي شموئيل هاليفي رئيسا للجباة. ولعب الممولون اليهود والمنصرون منهم دورًا هاماً في توفير الأموال التي احتاجت إليها الملكة ايزابيلا Isabella (١٥٧٤ - ١٦٠٩م) للقضاء على المسلمين في غرناطة.(٣٨)

واشتهر التجار اليهود بنقل الأقمشة الحريرية والملابس الفاخرة والأدوات والحلي من أسواق قرطبة إلى نساء الحكام والأمراء النصارى، حيث كن ينتظرن وصول التجار اليهود بفارغ الصبر.(٣٩) وصاحب هؤلاء التجار جيوش نبرة وقشتالة وليون يبيعون ويشترون ما تصل إليه يد الجنود من مغانم الحرب وأسلابها، وما أكثرها في ذلك الحين، خصوصا وإن الحرب كانت لا تكاد تنقطع بين المسلمين بعضهم وبعض، وبينهم وبين النصارى، فكانت لهم مراكز تجارية يتمركزون فيها مثل برشلونة، حيث يلتقي بهم هناك تجار من اليونان ومرسيليا وجنوة وبيزة وصقيلية ومصر وفلسطين، بغية البيع والشراء.(٤٠)

وبالنسبة لتجارة يهود الأندلس الخارجية، فإنهم أقاموا شبكة من العلاقات التجارية مع الجماعات اليهودية على طول وادي الرون، والبلاد الواقعة عليه. وكان هؤلاء التجار يقومون بنشاط واسع في مجال تجارة العبيد، في المنطقة الممتدة بين نهر الألب وبلاد الأندلس. ومن جهة أخرى فإن شبكة تجارية من اليهود كانت تمتد من أسبانيا حتى المغرب الأقصى، وتشمل السوس الأقصى والصحراء والسودان، حيث عملت في تجارة الذهب والعبيد السود دون أن يقطع نشاطها ما يجري في تلك البلاد من الصراعات السياسية.(٤١)

ولم يقتصر عمل اليهود في الأندلس على الزراعة والحرف والتجارة، بل امتد إلى مجالات اقتصادية أخرى، منها العمل في مجال الفلك والطب والتنجيم والموسيقى والغناء(٤٢).

ونتيجة لما سبق فلا غرو أن نجد من بين اليهود بعض الأفراد والعائلات التي اشتهرت بثرائها نذكر منهم حسداي بن شبروط وشموئيل بن نغريلة وابنه يوسف.. حتى أن بعض المدن

(٣٨) Lindo, The History of the Jews of Spain, P 140-170.

(٣٩) المقري، **نفح الطيب**، جـ١، ص ٧، ٩٣-٩٤؛ عبد العليم، العلاقات، ص ٤٧٠-٤١٢.

(٤٠) بروفنسال، **الإسلام في المغرب والأندلس**، ص ٢-٣؛ موسى، **النشاط الإقتصادي**، ص ١١٠-١١٧؛ عبد العليم، **العلاقات بين دول الأندلس** ص ٤٧٠-٤١٢.

Ashtor, The Jew of Muslem Spain, Vol 3, p.67.

(٤١) أبو عبيد البكري، **جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك**، تحقيق عبد الرحمن الحجي، بيروت، دار الرشاد، ١٩٦٨، ص ٦١؛ الأدريسي، **نزهة المشتاق**، ص ٢٩٩؛ ترتون، **أهل الذمة**، ص ٩٩؛ أحمد فكري، **قرطبة في العصر الإسلامي**، الإسكندرية، دت، ص ٢٤٦؛ جوليتاين، **دراسات في التاريخ الإسلامي**، ص ١٧٣-٢١٤؛ لومبار، **الإسلام في مجده الأول**، ص ١١٨، ص ٣٠٥-٣١٧.

= S M. Imamuddin, *the Economic History of Spain Under Umayyads*, Decca, 1963, P 337-338, 342 Rpbert Burns, Muslime. *Christians and Jews in the Crusader Kingdom of Valencia*, Cambridge, Cambridge University press, 1984, p. 126-161.

(٤٢) ابن سعيد، **المغرب في حلي المغرب**، جـ١، ص ١٢٧، **عيون الأنباء**، ص ٤٩٧، **طبقات الأمم**، ص ١١٣-١١٦؛ ابن أبي الزرع، **الأنيس المطرب**، ص ١٣٠-١٣١؛ عباس، **تاريخ الأدب الأندلسي في عصر الطوائف**، ص ٥٣.

لـتي كـانت تسـكنها أغلـبية يهوديـة تميـزت بازدهارها الاقتصادي مثل وادي اش واليسنة.[٤٣]

٥ ـ الأوضاع الثقافية والفكرية والفنية

كـان مـن نـتيجة الانـتعاش الاقتصـادي لـليهود خـلال الحكم الإسـلامي، أن اخذوا يفكـرون فـي إنشاء مراكز ثقافية يهوديـة ينافسون بها المراكز التقـليدية لـليهود فـي الشـرق وبـدءوا يشـجعون العلماء اليهود بـالأموال لجذبهم مـن الشـرق إلى الأندلس. واختار يهود الأندلس قرطبة التي كانت تعج بالعلماء اليهود والفلاسفة المسلمين، مركزًا لإنعاش الدراسات اليهودية، وقد دفعهم إلى اختيار هذه المدينة مركزًا ثقافيا لهم، وجود جالية يهودية كـبيرة العـدد، إضـافة إلى ازدهارهـا الـثقافي والعلمي آنذاك، ووجـود مكتبة غنية تضم آلاف المخطوطات في مختلف أنواع الفنون والآداب. وقد أدرك اليهود منذ بدايـة الحكم الإسـلامي أن الـتفقه فـي الـلغة العربية وآدابها هو الطـريق إلى الوظـائف الحكوميـة والسـبيل إلى الـتقرب إلى الحكـام فانكـبوا عـلى دراسـة العـربية وعـلومها بجانب العبرية ، فنبغ منهم الكثير.[٤٤]

وفيما يتعلق بالتعليم اليهودي في الأندلس، كـان الكـنيس مـن أقـدم المؤسسـات التعـليمية اليهوديـة هـناك، ففـي بدايـة التعـليم كـان الطلـبة يدرسـون القراءة والكتابة ثم يتدرجون بدراسـة المواضـيع الديـنية كالـتوراة، وفـي مرحـلة لاحقـة يدرسـون المشـنا.[٤٥] إضـافة إلى قواعـد اللغـتين العـربية والعبرية، وبدأت تظهر في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، مؤسسات تعليمية متقدمة على الكنيسـة وهـي المـدارس التـلمودية، الـتي كـانت تركـز جـل اهـتمامها عـلى دراسـة التـلمود بـتعمق.[٤٦] ومـن أبـرز تـلك المـدارس، مدرسـة قرطبة التلمودية [٤٧]. ويلاحظ أن عددًا لا بأس به مـن يهـود الأندلـس قـد اتجهـوا صـوب الشـمال الأفريقي وبلاد الشام بغية إكمال تحصيلهم العلمي في مجال الدراسات الدينية والدنيوية.[٤٨]

ولعل وجود حسداي بن شبروط في الأندلس قد ساعد على تقدم وبزوغ الآداب والثقافة اليهوديـة هـناك. يقـول عنه ابـن أبي أصـيبعة بأنـه: " مـن أحبار اليهود متقدما في علم شريعتهم ، وهو أول من فتح الأندلـس منـهم (اليهـود) بـاب علـمهم مـن الفقه والتاريخ حتى انهم كانوا قبل ذلك يضطرون في فقه دينهم وسني تاريخ ومواقيت أعيادهم إلى يهود بغداد ، فيحضرون من عندهم حساب عدة من السنين يتعرفون بـه مراحل تـاريخهم ومبادئ سنيهم. ولمـا توصـل حسداي إلى الحكـم توصـل إلى استجلاب مـا شاء من تـأليف يهود المشرق، فعـلم حينـئذ يهـود الأندلـس مـا كـانوا يجهـلونه واسـتغنوا عـن عـلوم اليهـود فـي المشـرق".[٤٩] ومن أهم إنجازات حسداي إنشاء مدرسة التلمود في قرطبة ، وكـان سخيا في إغداق الأموال على أسـاتذتها، ومن أبرز من تولى رئاستها موسى بن حـنوخ العـالم اليهـودي التـلمودي . واسـتمرت مدرسـة قرطبة فـي مركـز الصـدارة، وتوسـعت

(٤٣) **مذكرات الأمير عبد الله** ، ص ٣٨؛ الأدريسي، **نزهة المشتاق**، ص ٢٢٩؛ ابن عبود، **التاريخ السياسي**، ص ٧٤.

(٤٤) عبد المجيد، **اليهود في الأندلس**، ص ٢٢ـ٤٠.

(٤٥) المشنا. القانون اليهودي المشتمل على الأحكام التي استمدت من العهد القديم إضافة إلى أقوال المفسرين والشارحين التي انتقلت من السلف إلى الخلف عن طريق الرواية الشفهية إلى أن دون المشنا بالكامل فـي النصف الثاني من القرن الثاني الميلادي: هشام فوزي عبد العزيـز ، التعليم اليهودي العام حتى نهايـة المرحلة الثانوية في فلسطين ١٩٢٠ـ١٩٤٨، رسالة دكتوراة غير منشورة، الجامعة الأردنية ـ قسم التاريخ، ١٩٩٣، ص ٢٤٣.

(٤٦) **التلمود**: مجموعة من الشرائع والتفاسير والروايات المتعلقة بـتاريخ اليهود وديانتهم، نقلها اليهود مشـافهة، ونـتيجة لاتسـاعه وصـعوبة حفظـه وخوفـا مـن نسيانه، فقد دونـه علـماء اليهـود، والتـلمود يشـتمل على المشـنا والجمـارا. عبد العزيـز ، التعليم اليهودي العام، ص ٢٤٤.

(٤٧) Ashtor, The Jew of Muslem Spain. Vol. 2p 77-80

(٤٨) I bid, p 4

(٤٩) ابن بي أصيبعة، **عيون الأنباء**، ص ٤٩٨.

حتى أصبحت بمثابة دار للإفتاء في مجال الشريعة اليهودية، وفي القرن الخامس الهجري/ الحادي الميلادي، انشأ اليهود مراكز أخرى للدراسات اليهودية بجانب مدرسة قرطبة ، منها المدرسة اللغوية واللاهوتية في اليسنة التي كان من أساتذتها الشاعر اليهودي اسحق بن مارشاعول(٥٠).

وأسهم يهود الأندلس بقسط وافر في مجال الأدب والشعر والفلسفة والتفسير والموسيقى، فقد برز من بين الشعراء اليهود شموئيل بن نغريلة كشاعر قرض الشعر باللغتين العربية والعبرية ، حيث اقسم على أن ينظم القرآن الكريم في أشعار وموشحات يُغنى بها، وهي محاولة يهودية خبيثة بغرض الإساءة إلى القرآن الكريم. ومن شعره الذي نظم به القرآن قوله:

نقشت في الخد سطراً من كتاب الله موزون
لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون (٥١)

ويرى الدكتور محمد بحر عبد المجيد أن شموئيل ابن نغريلة قد استطاع تطعيم الشعر العبري بفنون جديدة اقتبسها من الأدب العربي كالشعر والقصص والخمريات والأخوانيات والغزل ووصف المعارك ووصف الطبيعة والرثاء وتعتبر خمريات ابن نغريلة من أفضل ما كتب في العبرية في هذا الفن من الشعر، وإن كان فيه تحريض على الإباحية وعدم التمسك بالفضائل، وهو أمر لا يهتم به اليهود منها ما يلي:

خصصوا نصف النهار لله، ونصفه
لأعمالكم ، ما الليل فأجعلوه للخمر
أن من حظكم التعس أيها البلهاء
أن خلا القبر من نديم وشعر وخمر (٥٢)

كما برز سليمان بن جبرويل (ت ٥٤هـ/ ١١٤٥م) ، الذي كتب كثيرا من الأشعار العبرية التي تناولت مواضع متعددة(٥٣).

ويهودا اللاوي (٤٧٧ ـ ٥٣٧هـ/ ١٠٨٤ـ ١١٤٢م) ، الذي كني من قبل العرب بابي الحسن اللاوي، الذي يعد من أعظم شعراء اليهود في القرون الوسطى حيث درس الطب وولع بالشعر وقضى معظم حياته في قرطبة فذاع صيته هناك، وتكمن أهمية أشعاره من أنه نظمها في قوالب وموضوعات عربية. ويرى الدكتور سيد فراج أن اللاوي قد أدخل فكرة الهجرة في مؤلفه العربي الكبير وعنوانه "الصحة والدليل في نصرة الدين الذليل" ، والذي كتب بالعربية، وبحروف عبرية. ويبدو أن اللاوي قد أراد من عنوان الكتاب أن يجعل من نفسه مدافعاً عن الديانة اليهودية، لذا ضمنه آراءه الفلسفية الدينية الإسلامية والإغريقية التي تأثر بها.(٥٤)

كما برز موسى بن عزرا (ت ٥٤٢هـ/١١٤٧م) الشاعر اليهودي الذي تغنى بالخمر والهوى والمسرة ولذات العيش ، والذي ألف في مجال الفلسفة مثل كتاب "الحديقة في معنى المجاز والحقيقة" حيث رجع في تأليفه إلى ما كتبه علماء العرب والإغريق، وله مؤلفاً آخر في تاريخ الأدب العبري يسمي كتاب "كتاب المحاضرة والمذاكرة" بالإضافة إلى كتابه في النقد الأدبي

---

(٥٠) Lindo. The History of the Jews. p. 67-159 Simon Dubnov. History of the Jews. London. 1968. Vol. 2. p 762-608.

(٥١) ابن سعيد، **المغرب في حلي المغرب**، ص ١١٤.

(٥٢) عبد المجيد، **اليهود الأندلس**، ص ٤٥ـ٤٦.

(٥٣) صاعد، **طبقات الأمم**، ص ١٤٤؛ ألفت محمد جلال ، **الأدب العبري القديم والوسيط**، القاهرة، عين شمس، ١٩٧٨، ص ١٣١ـ١٣٥؛ **بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي**، ص ٤٩٩ـ٥٠٢.

(٥٤) راشد، **القدس إسلامية**، ص ١٤٠.

العربي.[٥٥] ويعد موسى بن ميمون (٥١٩ - ٦٠٠هـ/ ١١٢٥- ١٢٠٣م) من مشاهير علماء اليهود، الذي ألف في المجالات الفلسفية والدينية والأدبية حيث أصبح ابن ميمون مرجعاً أساسياً في مسائل الديانة اليهودية وفلسفتها. ومن أهم الكتب التي ألفها باللغة العبرية كتاب "دلالة الحائرين" الذي تضمن آراء فلسفية أثار فتنة بين علماء اليهود التقليديين إلى درجة إعلانهم إياه بالتكفير.[٥٦] أما يهود الحريزي (ولد ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م) الشاعر والناقد اليهودي، فقد جمع تجاربه في قصة خيالية على غرار مقامات الحريري والتي عرفت باسم "المعلم الكبير".[٥٧]

ويلاحظ أن الكثير من الأدباء والمفكرين اليهود قد تأثروا باللغة العربية وبالدين الإسلامي في كتاباتهم وترى هافا لازاروس يافة أستاذة الدراسات اليهودية الوسيطة في الجامعة العبرية في مقالة لها بعنوان "الفكر الإسلامي والفكر اليهودي : بعض جوانب التأثير الثقافي المتبادل" بأن الثقافة اليهودية الوسيطة بعامة: "ليست مجرد يهودية كتبت بالعربية، وإنما ثقافة يهودية إسلامية... بل أن إنتاجهم (اليهود) ينبغي أن يدرس باعتباره ثمرة فترة تكونت على مدى مئات السنين في الإبداع والخصوبة الثقافية التي ازدهرت في ظل الدينين - وكذلك ينبغي النظر إلى أن استخدام هؤلاء اليهود للغة العربية لم يكن مجرد وسيلة استخدموها للتعبير عن آرائهم، بل باعتباره جزأ لا يتجزأ من ثقافة دينية استوعبوها وتمثلوها". وتتوصل الباحثة في نتائج دراستها إلى أن الثقافة اليهودية ينبغي أن تدرس على أنها ثقافة إسلامية رعاها اليهود الذين عاشوا في ظل الإسلام حيث تكلموا العربية وتأثروا بها بعمق في مختلف الجوانب كالفلسفة الإسلامية، وتأثروا بالديانة الإسلامية كدين في أوسع معنى للكلمة.[٥٨]

وامتد نشاط اليهود أيضًا إلى مجال الترجمة، إذ عرفت طليلطة بأنها إحدى المراكز المهمة للترجمة من العربية إلى العبرية ومن العبرية إلى اللاتينية. فقد ترجم إبراهام بن ليفي بن حسداي كتاب "ميزان العمل" للغزالي، وأعمال ابن رشد إلى اللغة العبرية.[٥٩]

وبرع يهود الأندلس في مجال الطب، وبخاصة حسداي بن شبروط، الطبيب الخاص لعبد الرحمن الناصر، ومناحيم بن الفوال، الذي برز في مجال الطب والفلك، وإسحاق بن قسطار (ت ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م) الذي كان طبيباً لمجاهد العامري (٤٠٨-٤٣٢هـ/ ١٠١٧-١٠٤٠م) وأبنه إقبال الدولة (٤٣٦ - ٤٦٨ هـ/١٠٤٤ - ١٠٧٥م).[٦٠]

ويوسف ابن أحمد بن حسداي الذي هاجر من الأندلس إلى مصر وأصبح يعمل لدى الحاكم بأمر الله الفاطمي (٤٩٠-٥٢٥هـ/١٠٤٠م)، إذ ترجم له العديد من الكتب الطبية اليونانية.[٦١]

---

(٥٥) Dubnov, *History of the Jews*, p. 472j476.

(٥٦) جمال الدين القفطي، **تاريخ الحكماء**، بغداد، مكتبة المثنى، ١٩٠٣، ص ١٢٩-٣١٧؛ ولفنسون، موسى بن ميمون؛ إيلان هاليفي، **المسألة اليهودية**، ترجمة فـإد جديد، دمشق، ١٩٨٦، ص ١٠٢-١٠٣؛ كيب، **مدينة المسلمين**، ص ٩٦-٩٧، ٥٣؛ عبد المجيد ، **يهود الأندلس**، ص ٩٢-٩٤.

(٥٧) سيد فرج راشد، **القدس عربية إسلامية**، الرياض، دار المريخ ١٩٨٦، ص ١٣٧-١٤٧؛ شعبان محمد سلام، **الأثر العربي في الشعر العبري**، ط١، ١٩٨١. Scheindlin, *The Jews in Muslim Spain*. p. 194.

(٥٨) هافا لازاروس - يافة، **الفكر الإسلامي والفكر اليهودي: بعض جوانب التأثير الثقافي المتبادل، الإجتهاد**، سنة ٧ ع ٢٨، ١٩٩٥، ص ١٧٩-٢٠٩.

(٥٩) بالنثيا، **تاريخ الفكر الأندلس**، ص ٥٠٢-٥٠٣؛ لومبار، **الإسلام في مجده الأول**، ص ١١٩.

(٦٠) صاعد، **طبقات الأمم**، ص ١١٣-١١٥ .

(٦١) ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء**، ص ٤٩٨-١١٥.

والطبيب إبراهيم بن الفخر، الذي عمل طبيبا لدى آلفون السادس ملك ليون واشتريس.[٦٢]

وفي مجال الفلك استفاد الحكام والأمراء من خبرات اليهود في هذا المجال إذ حسنوا آلات رصد الكواكب والنجوم، وأجهزة توجيه السفن، كما وضعوا الجداول الألفونسية لحركات النجوم والكواكب[٦٣].

وبرز بعض اليهود في مجال الموسيقى والغناء، منهم على سبيل المثال لا الحصر منصور اليهودي الذي كان مغنيا عند الحكم بن هشام (١٨٠-٢٠٦-٧٦٩-٨٢٢م).[٦٤] وإسحاق بن شمعون اليهودي القرطبي الذي وصف بأنه: "أحد عجائب الزمان في الاقتدار على الألحان"، حيث كان يغني بالعود، وهو من حُذّاق العارفين بطرائق الموسيقى.[٦٥]

٦ ـ التنظيم الطائفي ليهود الأندلس :

منح الحكم الإسلامي في الأندلس اليهود حق إدارة شؤونهم الطائفية دون تدخل منهم وتشير الروايات اليهودية إلى أن رئيس الطائفة اليهودية في الأندلس كان يسمى بـ " ناسئ" Nasi وهي كلمة عبرية تعني الرئيس، الذي كان يختار إما من قبل الطائفة اليهودية أنفسهم أو بتوصية من الحاكم المسلم. وقد تمتع هذا الرئيس، بحكم منصبه بشيء من النفوذ السياسي والاقتصادي والاجتماعي في الأندلس.[٦٦] ومنذ مطلع القرن الرابع الهجري/ الحادي عشر الميلادي، أصبح يطلق على رئيس الطائفة اليهودية في الأندلس اسم نجيد Nagid ، والتي تعني بالعبرية الزعيم.[٦٧] وإن غلب عليها الطابع الديني، أكثر من الدنيوي، ولعل تغيير التسمية، مرتبط باستقلال يهود الأندلس دينيا عن يهود المشرق، كما وردت في رواية ابن أبي أصيبعة آنفة الذكر.[٦٨] ويشير ابن بسام في رواية له عن شموئيل بن نغريلة أنه "قد تسمى من خططهم الشرعية بالناجيد معناه المدبر بالعربية ، خطة تحاماها قدماؤهم وتطأطأ عنها قديما زعماؤهم[٦٩].

وكان لكل مجمع يهودي رئيس يدع "المقدم" يعين بوساطة الانتخاب، ثم أصبح السابقون منهم يعينون من يخلفهم، وكانت مدة ولايته عاما. وكانوا مسؤولين أمام الحكومة الإسلامية عن كل ما يتعلق بالجماعة اليهودية من ضرائب والتزامات أخرى.[٧٠]

ولليهود قوانينهم وقضاتهم، إذ كان الرئيس الديني لهم يسمى "الحاخام" الذي تولى تطبيق الأحكام اليهودية المتعلقة ، بالديانة. على أبناء

---

(٦٢) ابن سعيد، **المغرب في حلي المغرب**، ط١، ص ٢٣؛ المقري، **نفخ الطيب**، ط١، ص ٥٢٧.

(٦٣) صاعد، **طبقات الام**، ص ١١٣-١١٥؛ ابن سعيد، **المغرب في حلي المغرب**، ط١، ص ٣٣٦؛ بولاك، **اسرائيل**، ص ٨٦-٨٨؛ كيب، **مدينة المسلمين**، ص ٩٧-٩٨؛ لومبار، **الإسلام في مجده الأول**، ص ١١٨-١١٩.

(٦٤) إحسان عباس، **تاريخ الأدب الأندلس، عصر سيادة قرطبة**، بيروت دار الثقافة، ١٩٦٠، ص ٣٨؛ هنري جورج فارمر، **تاريخ الموسيقى العربية**، ترجمة جرجيس فتح الله بيروت، دار الحياة، دزت، ص ٢٠٢.

(٦٥) ابن سعيد، **المغرب في حلي المغرب**، ط١، ص ١٢٧-١٢٨؛ عباس، **تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين**، ص ٥٣.

(٦٦) Ashtor. *The Jews of Muslem Spain*. Vol 372-90.

(٦٧) ابن بسام، **الذخيرة**، ق١. ص ٧٦٧؛ وجيه جلادي، **اسرائيل نحو الإنفجار الداخلي**، القاهرة، دار البيادر، ١٩٨٤، ص ٢٤.

(٦٨) ابن أصيبعة، **عيون الأنباء** ص ٤٩٨.

(٦٩) ابن بسام **الذخيرة**، ق١، م٢، ص ٧٦٧.

(٧٠) Dubnov. *History of the Jews*, p. 616-620

جلدته. وفي حالة وقوع خلاف بين المسلمين واليهود، كانت القضية ترفع إلى قاضي المسلمين(٧١) ويبدو أن المرجع الديني لليهود في الأندلس خلال الفترة الإسلامية الحاخام الذي تولى إدارة مدرسة قرطبة الدينية.(٧٢)

٧ - يهود الأندلس وعلاقاتهم بيهود العالم

لم تنقطع علاقات يهود الأندلس بيهود العالم طيلة الفترة الإسلامية، سواء كان بوساطة العلاقات التجارية والتبادل الثقافي، وبخاصة تبادل المؤلفات والفتاوى بين أحبار اليهود، مما وطد العلاقات بينهم، وقد أشير إلى ذلك مسبقًا.

وارتبط يهود الأندلس بفلسطين نتيجة دوافع دينية، حيث كان البعض منهم يذهب إلى فلسطين لإقامة يشيبات (مدارس تلمودية)، أو للإقامة هناك بقية عمرهم.(٧٣)

ومما هو ملفت للنظر أن بعض الأدباء اليهود في الأندلس، قد كتب الأناشيد والأشعار التي يظهرون فيها الحنين والشوق لفلسطين. فهذا يهودا اللاوي يقول في قصيدته المعروفة باسم "الصهيونية" وهي تقرأ حتى اليوم في التاسع من شهر آب كل عام، وهو يوم ذكرى خراب بيت المقدس، مايلي:

صهيون، هل تردين تحية سباياك.
الذين يقرئونك السلام، وهم البقية من قطيعك.
تقبلي سلامهم الموجه من الشرق والغرب
والشمال والجنوب
القريب والبعيد من كل حدب وصوب
سلام سجين الأمل الذي يذرف الدمع كطل.
سأسجد بوجهي على أرضك أتوق
إلى أحجارك واطلب الرحمة من ترابك.
تجول في سهولك وبساتينك حتى اصل جلعاد
هواؤك ينفث الحياة في روحي، أتوق إلى الحرية.
رمالك زكية. عسلا يسيل من جداولك
ما أسعدني لو ذهبت عاريا حافي القدمين
إلى جبالك المتهدمة وإلى قدس أقداسك
حيث كان تابوت العهد مكنوزًا(٧٤)

وهكذا يظهر أن يهودًا اللاوي على الرغم مما كان ينعم به في الأندلس من النعيم والترف الذي تمتع به، كان يصور الأماكن التي يعيش فيها في كل أنحاء العالم بأنها بمثابة السجن، وان الحنين والشوق لفلسطين قد بلغا ذروتهما، وأن زيارة فلسطين هي الهدف الأسمى لحياته.

وهذا سليمان بن جبرويل يعبر عن حنينه للعودة للقدس، في قصيدة له بعنوان "أسيرة بين صهيون" حيث يتضرع فيها إلى الرب لينقذ اليهود ولن ينساهم، إذ أنه سيرسل لهم المسيح المخلص (ماشيح)(٧٥) ليجمع يهود الشتات في القدس، وفيها يقول على لسان الله:

أسيرة بنت صهيون القدس
مصهورة في أتون الفقر

(٧١) ابن بسام، **الذخيرة**، ق١، م١، ص ٤١٨؛ محمد عبد الوهاب خلاف، **تاريخ القضاء في الأندلس**، القاهرة، المؤسسة العربية الحديثة، ١٩٩٢، ص ٤٠٦ – ٤١٥.

(٧٢) Dubonov, History of the Jews, p. 220-227

(٧٣) حاييم الزعفراني، ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب، ترجمة أحمد شحلان وعبد الغني أبو العزم، الدار البيضاء، ١٩٨٧، ص ٢٩.

(٧٤) جلال، ادب العبري القديم والوسيط، ص ١٣٧-١٣٨.

(٧٥) المسيح المنتظر: تقوم هذه الفكرة على أن شخصا يطلق عليه اسم "المسيح المخلص" في اليهودية، يظهر ويخلص اليهود من أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية السيئة وينصرهم على أعدائهم، ويجمعهم في فلسطين، وتعد هذه الفكرة من أصول اليهودية، لمزيد من المعلومات انظر: منى ناظم، المسيح اليهودي ومفهوم السيادة الإسرائيلية، أبو ظبي، مؤسسة اتحاد، د.ت.

اقســـــم آبـــــاؤك
كمـــا أقسمت من أجـلك
سمعــــت صرخـتـــك
وصعدت إلى مقــــري
وأحبــك لأنـــي رحيـم
....
هـــا قـــد أقسـمـت
أن اجمع شعبي الأسير
ألا يقــوم الملوك آنـــذاك
بتقـديـــم هديـــة لــك.
وهـاهــو شاهـد للأمــم
وضعـتــه المقـــدس
وهنا رأيت ابن يسّى.(٧٦)

وهكذا ينطبق الحال عند ابن جبرويل الذي يعد عيشه في نعيم الأندلس أسرًا له، وأنه يتحين الفرصة المناسبة ليعود إلى القدس مع إخوانه اليهود الذين يعيشون في الشتات.

وقامت علاقات تجارية ومراسلة ما بين يهود الأندلس ويهود الخزر، وهم شعب اعتنق اليهودية وامتدت أراضيهم على ضفاف الفلغا. وكانت المراسلات ما بين حسداي بن شبروط وحاكم الخزر المسمى بـ "يوسف". وفي تلك المراسلات معلومات مهمة عن مملكة الخزر إضافة إلى أوضاع اليهود في الأندلس.(٧٧) وأهم ما فيها أن حسداي بن شبروط كان ينتظر بفارغ الصبر عودة المسيح المنتظر الذي يعيدهم إلى دولتهم، حيث يقول: "هل ثمة حقا مكان فوق هذه الأرض يستطيع الإسرائيلي المضطهد؟ أن يحكم فيه نفسه، حيث لا يكون خاضعا لأي إنسان، وإذا قيضت لي أن أعلم أن هذه هي الحقيقة بالفعل، فلن أتردد أن اهجر كل مظاهر التكريم، وأن أتخلى عن منصبي الرفيع، وأن اعتزل أسرتي وأسافر فوق الجبال وأعبر السهول، حتى ابلغ المكان الذي يحكم مولاي الملك (ملك يهود الخزر)... ولي رجاء واحد آخر: أن تخبرني عما إذا كان لديك أي علم عن التاريخ المحتمل للمعجزة الأخيرة (رجوع المسيح)، الذي نسعى من بلد إلى بلد نرقبه، وعلينا نحن المنبوذين المستذلين؟ في شتاتنا، أن نصغي في صمت لهؤلاء الذين يقولون: لكل شعب وطنه الخاص، وأنتم الوحيدون الذين لا تملكون ولا حتى ظلًا لوطن فوق هذه الأرض".(٧٨)

وثمة عوامل عدة دفعت اليهود إلى رفع شعار العودة إلى القدس منها العوامل الدينية التي تمثلت آنذاك برغبة اليهود بالإقامة في القدس التي تعتبر من أهم الأماكن المقدسة بالنسبة لهم، كما أن فكرة المسيح المنتظر كانت تقتضي تواجد اليهود في فلسطين عند ظهوره، لذلك أرادوا التجمع في القدس انتظارًا لمهديهم يضاف إلى ذلك تعرض اليهود في بعض الأوقات للمضايقة والتشديد كما حدث في أواخر فترة يوسف بن نغريلة، وفي الدولة المرابطية والموحدية. هذا إلى جانب اتصال يهود الأندلس بأبناء جلدتهم في مختلف أنحاء العالم، الأمر الذي شجعهم على إقامة روابط بين هؤلاء اليهود، وبالتالي تشجيع فكرة الانفصال عن المجتمعات التي كانوا يعيشون فيها. كما أن حقد اليهود وكراهيتهم للعرب والمسلمين قد حفزهم على ترك الأندلس والتوجه إلى القدس، للالتقاء مع أبناء دينهم.

---

(٧٦) راشد، القدس عربية إسلامية، ص ١٣٨_١٣٩.
(٧٧) عن المراسلات الخزرية: انظر: كورستلر، امبراطورية الخزر، ص ٧٩_٩٩، دنلوب، تاريخ يهود الخزر، ص = ١٧٣، ١٧٦ _ ١٧٩، ١٨٥ _ ١٨٩.
(٧٨) كوستلر، امبراطورية الخزر، ص ٨٦_٨٧.

العصور، المجلد الحادى عشر، الجزء الاول، ٤٣ - ٥٦(٢٠٠١ م)

الهجرات المغولية إلى مصر وآثارها الثقافية والاجتماعية في العصر المملوكي

للدكتور علي السيد علي السيد

ملخص البحث : شهدت مصر طوال العصر المملوكي "٦٤٨ – ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ – ١٥١٧ م" هجرات عديدة لكثير من أبناء العناصر المغولية المختلفة، هذه الهجرات امتدت لتشمل العصر المملوكي بشقيه، أي دولة المماليك الأولى أو البحرية، ودولة المماليك الثانية أو الجراكسية، وتفاوتت تلك الهجرات ما بين هجرات جماعية ضخمة تعد بالآلاف، وهجرات صغيرة تعد بالمئات، وهجرات يمكن وصفها بأنها هجرات فردية تعد بالعشرات أحيانا. وكما تفاوتت هذه الهجرات في أعدادها تفاوتت كذلك في الدوافع المسببة لها والمؤدية إليها، سواء كانت هذه الدوافع خاصة بأبناء العناصر المغولية نفسها، كالبحث عن مأوى آمن لهم، أو اضطهاد الحكام لهم، أو الصراعات السياسية التي نشبت بين البيوت الحاكمة عندهم؛ أو ما يتعلق بطبيعة هؤلاء المغول، أو ازدحام الأقاليم بهم. أو منها ما يتعلق بالكوارث الطبيعية وانتشار المجاعات والأوبئة والطواعين، وما كان ينتج عنها من حالات القحط. أو منها ما كان يعلق بسياسة سلاطين المماليك لتفتيت أعدائهم والترحيب بالعناصر المناوئة للحكام المغول، أو للأستفادة من العناصر المغولية كعناصر لها شهرتها وخبرتها الحربية والقتالية. أو ما كان لمصر من جاذبية خاصة في ذلك العصر نظراً لما تمتعت به من أمن ورخاء واستقرار ومركز ديني ممتاز. وقد كان لأبناء العناصر المغولية آثارهم الواضحة في شتى مجالات الحياة في ذلك العصر وبخاصة ما يتعلق منها بالنواحي الثقافية والاجتماعية. وهذا سوف تكشف عنه هذه الدارسة .

ترجع البدايات الأولى لظهور المغول في مصر إلى أيام السلطان الصالح نجم الدين أيوب " ٦٣٧ – ٦٤٧هـ/١٢٤٠ – ١٢٤٩م" وفي ذلك يقول المقريزي : "فلما كثرت وقائع التتر في بلاد المشرق والشمال وبلاد القبجاق وأسروا كثيراً منهم وباعوهم تنقلوا في الأقطار واشترى الملك الصالح نجم الدين أيوب جماعة منهم سماهم البحرية ومنهم من ملك ديار مصر وأولهم المعز أيبك ..."[١] ومن المرجح أن المقريزي يقصد بذلك ما حدث من جنكيزخان من حروب ومنازعات مع أبناء جنسه حتى يصل إلى غايته وهي زعامة المغول التي تمت له سنة ٦٠١هـ/ ١٢٠٤م.

وأن يجعل منهم قوة ظن المعاصرون أنها لا تهزم، وبهذه القوة الخارقة استطاع أن يكتسح البلاد شرقاً وغرباً حتى ترك لأولاده إمبراطورية شملت ما بين بحر الصين والبحر الأسود. ثم ما حدث بين خلفاء جنكيزخان من صراعات حول العرش، وما نجم عنها من تشريد المنافسين

(١) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ)، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، المسماة بالخطط المقريزية، طبع (بولاق - القاهرة)، جـ٢، ص ٢٢١.

والمناوئين أو بيعهم وأتباعهم لتجار الرقيق(٢). والذين حملوهم إلى كثير من أنحاء العالم الإسلامي وبخاصة مصر والشام.

ويستطرد المقريزي حديثه قائلاً : "ثم كانت لقطز معهم الواقعة المشهورة على عين جالوت وهزم التتار وأسر منهم خلقاً كثيراً صاروا بمصر والشام ثم كثرت الوافدية في أيام الملك الظاهر بيبرس وملؤا مصر والشام، وخطب للملك بركة ابن يوشى بن جنكيزخان على منابر مصر والشام والحرمين فغصت أرض مصر والشام بطوائف المغل وانتشرت عاداتهم بها وطرائقهم ... "(٣) أو بعبارة أخرى أنه إذا كانت مصر قد عرفت أبناء العناصر المغولية كرقيق تم جلبهم للبلاد أيام الصالح نجم الدين الأيوبي عن طريق تجار الرقيق، فإن موقعة عين جالوت عام ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م أدت إلى دخول أعداد كبيرة منهم إلى مصر كأسرى وسبايا حرب؛ وفي عهد الظاهر بيبرس البندقداري "٦٥٨-٦٧٦هـ/١٢٦٠-١٢٧٧م" - ونتيجة لتحالفه مع خان القبيلة الذهبية أو مغول القبجاق والذي كانت بلاده تمتد من تركستان شرقاً إلى شمال البحر الأسود غرباً، وعاصمتها مدينة صراي في شمال غرب بحر قزوين، وتبادل معه الهدايا والبعوث وتزوج ابنته، وأمر بالدعاء له على منابر القاهرة والقدس ومكة والمدينة، هذا التحالف كان موجهاً ضد دولة إيلخانات فارس التي يحكمها هولاكو خان وأولاده(٤). ثم وفدت جماعات من مغول القبجاق مستأمنة إلى مصر وهي التي أطلقت عليها المصادر المعاصرة "الوافدية" أو المستأمنة"، وجلب هؤلاء المغول معهم نظمهم وعاداتهم التي كان لها آثارها الكبيرة في مصر في ذلك الوقت بدليل قول المقريزي "ثم كثرت الوافدية أيام الملك الظاهر بيبرس، فغصت أرض مصر والشام بطوائف المغل وانتشرت عاداتهم وطرائقهم"(٥). ومنذ عهد الظاهر بيبرس شهدت مصر العديد من الهجرات المغولية وحتى قرب أواخر العصر المملوكي الثاني أو دولة المماليك الجراكسة، سواء كانت هذه الهجرات كبيرة أو صغيرة أم هجرات فردية وهذا ما سيوضحه الجدول التالي :

---

(٢) ابن ايبك الدواداري، أبو بكر بن عبد الله، **الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر** (القاهرة جمعية المستشرقين الألمانية ١٩٧٢م، ص ٢٧٢ – ٢٨١؛ أحمد مختار العبادي، **قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام**- الاسكندرية : مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٢م، ص ١٤٥، حاشية ١.

(٣) فؤاد عبد المعطي الصياد، **المغول في التاريخ** (بيروت : دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ١٩٧٠م)، جـ١ ص ص ١٦٤ – ٢٢٧.

(٤) المقريزي، المواعظ، جـ٢ ، ص ٢٢١ .

(٥) ابن واصل، جمال الدين محمد (ت ٦٩٧هـ)، **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، تحقيق جمال الدين الشيال (القاهرة : ١٩٥٣ – ١٩٦٠م)، جـ٢، ص ٤٠٩ ؛ المقريزي، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق محمد مصطفى زيادة (القاهرة، ١٩٣٦م)، جـ١، ص ٤٦٥ .

م	السنة	عدد المهاجرين	المصدر
١	٦٥٩هـ	أعداد صغيرة – غير محددة	بيبرس المنصوري، التحفة الملوكية، ص ٧.
٢	٦٦٠هـ	٢٠٠ فارس من الأويراتية	ابن واصل مفرج، جـ٢، ص ٤٠٦-٤٠٧؛ المقريزي، السلوك، جـ١، ص ٤٧٣-٤٧٤.
٣	٦٦١هـ	١٣٠٠ فارس	المقريزي، السلوك، جـ١، ص ٥٠.
٤	٦٦٢هـ	جماعتان من المغل	المقريزي، السلوك، جـ١، ص ٥١٥.
٥	٦٦٢هـ	جماعة من شيراز	ابن تغري بردي، النجوم ، جـ٦ ، ص ٢١٩
٦	٦٧٢هـ	الأمير شمس الدين بهادر في جماعة	بيبرس المنصوري، التحفة ، ص ٧٨ .
٧	٦٧٣هـ	جماعة من أقارب شمس الدين بهادر منهم أبوه	ابن تغري بردي، المنهل ، جـ٣ ، ص ٤٢٧.
٨	٦٧٤هـ	جماعة مع سكتاي وقرمشي	النويري، نهاية الأرب ، جـ٣١ ، ص ٩٠
٩	٦٧٦هـ	جماعة من التتار من الأبلستين	المقريزي، المقفي الكبير، جـ٢ ، ص ٢٩٤ .
١٠	٦٨٠هـ	٢٠٠ فارس بنسائهم وأولادهم	ابن أيبك، الدرة الزكية ، ص ٢٤٨ .
١١	٦٨٠هـ	مجموعة صغيرة أثناء وقعة حمص	النويري، نهاية الأرب، جـ٣١، ص ٣٢ .
١٢	٦٨١هـ	جماعة من أولاد المغل	ابن الفرات، جـ٧ ، ص ٢٥٠
١٣	٦٨٢هـ	١٩ نفراً بصغارهم	بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، جـ٩، ص ٣٢٧.
١٤	٦٨٢هـ	٣٠٠ فارس بأسرهم	ابن الفرات، جـ٨ ، ص ٢٠٢
١٥	٦٩١هـ	هجرة أويراتية صغيرة	المقريزي، السلوك جـ١ ، ص ٢٧٦؛ ابن الفرات ٢٥٠/٧.
١٦	٦٩٥هـ	ما بين ١٠,٠٠٠ – ١٨,٠٠٠ من الأويراتية	النهج السديد، ٥٨٨؛ السلوك، ٨١٢/١؛ الخطط، ٢٢/٢ ؛ المنهل، ٣٨١/٦
١٧	٦٩٨هـ	الأمير سلامش ومعه ٥٠٠	ابن أيبك ، الدر الفاخر ، ص ٩٠٨
١٨	٧٠٣هـ	الأمير جنكلي بن الباب وأتباعه	ابن كثير ، ١٣٣/١٤؛ المنهل، ٢٢/٥؛ النجوم، ٢٧٦/٩ .
١٩	٧٠٤هـ	٢٠٠ من المقفزين	السلوك، ٢١/٥ ، النهج السديد : ٣٠٧
٢٠	٧١٧هـ	١٠٠ ومعهم نساؤهم وأطفالهم	السلوك، ١٤٧/٢ ؛ الدرر : ١٧٦/٢ ؛ ابن الفرات، ٤٥٣/٩
٢١	٧١٧-٧٢٨هـ	هروب أعداد كبيرة من مغول فارس إلى مصر	تاريخ الدولة المغولية في إيران، ٢٢٣ - ٢٢٧

م	السنة	عدد المهاجرين	المصدر
٢٢	٧٢١هـ	الأمير باورد بن براجوا ومعه جماعة	السلوك، ٢٣٦/٢
٢٣	٧٢٢هـ	أخت جنكلي بن البابا ومعها جماعة	السلوك، ٣٨٨/٢
٢٤	٧٢٦هـ	ظهر بغا المغلي وأقاربه	الدرر ، ٣٤٦ ـ ٣٤٨
٢٥	٧٢٨هـ	دمرداش بن جوبان وأتباعه	الدر الفاخر، ٣٤٦ ـ ٣٤٨
٢٦	٧٤١هـ	هجرة ضخمة بسبب الطاعون	السلوك، ٥١٥/٢
٢٧	٧٤١هـ	هجرة ضخمة بسبب المجاعة	السلوك، ١٤٧/٢ ؛ الدرر : ١٧٦/٢
٢٨	في القرن التاسع	وصول أعداد من أبناء المغل	الضوء اللامع ، ١٧/٣ ، ٢٨٤

واضح من هذه الإحصائية التي قمنا بها أن الهجرات المغولية إلى مصر في العصر المملوكي قد بلغت ما يقرب من الثلاثين هجرة، وهي التي أتيح لنا رصدها من المصادر التي أمكننا الاطلاع عليها، وأن هذه الهجرات اختلفت فيما بينها من حيث كونها هجرات ضخمة مثل هجرات أعوام ٦٩٥هـ، ٧٤١هـ، وهجرات كبيرة العدد، مثل هجرات أعوام ٦٦١هـ، ٦٩٨هـ، ٧١٧-٧٢٨هـ، وهجرات متوسطة العدد مثل هجرات أعوام ٦٦٠هـ، ٦٨٠هـ، ٦٨٢هـ، ٧٠٤ هـ، وهجرات قليلة في أعدادها مثل هجرات أعوام ٦٦٢هـ، ٦٧٢هـ، ٦٧٣هـ، ٦٧٤هـ. ولو أنه قدر لنا أن نتعرف على الأعداد الفعلية للهجرات مجهولة العدد لأدركنا ضخامة الأعداد التي وفدت من أبناء العناصر المغولية إلى مصر في ذلك العصر، خصوصاً إذا وضعنا في اعتبارنا الأعداد الكبيرة التي كان يأتي بها تجار الرقيق. نتيجة لبيع هؤلاء المغول أولادهم وبناتهم لهؤلاء التجار، حيث أدركوا أنه ستكون لهؤلاء فرصة أكبر وأعظم مما لو أنهم وفدوا إلى مصر كأحرار، إذ كانت فرص الانضمام إلى فرق المماليك السلطانية أمامهم أكبر وأعظم، فضلاً عن أن هؤلاء المماليك السلطانية كان منهم كبار الأمراء والسلاطين مما يعني ثروة أكبر ومكانة اجتماعية أفضل(٦).

وهذا ما أشار إليه بعض المؤرخين المعاصرين، فالمقريزي يذكر أنه بسبب ما كان يتم دفعه في المملوك الواحد من مبلغ كبير يتراوح ما بين ٢٠,٠٠٠ – ٤٠,٠٠٠ درهم لذا فقد "فسد بذلك المغل فيما بينهم"، وفي موضع آخر يقول : "فأعطى المغل أولادهم وبناتهم وأقاربهم للتجار، وباعوهم منهم رغبة في سعادة مصر ..." كما أن ابن تغري بردي يردد نفس المعنى بقوله إنهم أعطوا أولادهم وأقاربهم للتجار رغبة في السعادة(٧).

(٦) ابن واصل، مفرج الكروب، ص ٤٠٦ ـ ٤٠٧؛ المقريزي، **المواعظ**، جـ٢ ، ص ٢٢١ .

(٧) David Ayalon, **Studies on the Mamluks of Egypt (1250 – 1517)**, (London, 1977) P. 104

وفي تصورنا أن مثل هذا الأسلوب كان بمثابة تهجير لأبناء هذه العناصر من مواطنهم، أو من البلدان التي استقروا فيها بعد حركة الانتشار الكبيرة التي قاموا بها في أعقاب غزواتهم الأولى، يضاف إلى هذا تلك الأعداد التي تم الحصول عليها من الحروب الدفاعية التي شنها بعض السلاطين المماليك على مغول إيران، ولنأخذ مثلاً على ذلك بما حدث عام ٦٧١هـ / ١٢٧٢م أيام السلطان الظاهر بيبرس، فعندما علم أن طائفة من المغول "مقدار ثلاثة آلاف فارس على شط الفرات مما يلي الجزيرة، فرحل عن منبج يوم الأحد ثامن عشري جمادي الأولى ووصل شط الفرات، وتقدم إلى العسكر بخوضها، فخاض الأمير سيف الدين قلاوون الألفي والأمير بدر الدين بيسرى في أول الناس، ثم تبعهما هو بنفسه وتبعته العساكر، فوقعوا على التتار فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأسروا تقدير مائتي نفس، ولم ينج منهم إلا القليل ... "[٨].

ومن جهة أخرى يتضح لنا من خلال هذا الجدول أن الهجرات الكبيرة لم يكن آخرها تلك الهجرة الأويراتية التي حدثت عام ٦٩٥هـ كما يذكر أحد الباحثين المحدثين[٩]. بل أعقبتها هجرات كبيرة أخرى مثل تلك التي حدثت بين أعوام ٧١٧ – ٧٢٨هـ، وتلك التي حدثت عام ٧٤١هـ بسبب انتشار المجاعات والأوبئة والتي أشارت إليها المصادر المعاصرة بأنها كانت هجرة "عالم عظيم"[١٠]. كما أن هذه الهجرات لم تحدث في معظمها في فترة حكم اثنين من سلاطين المماليك وهما بيبرس البندقداري، والعادل كتبغا، حيث كان الأول منهما معجباً بالنظم المغولية، أما الثاني فقد كان نفسه واحداً من المغول وكما يزعم البعض[١١] بل إنها شملت العصر المملوكي الأول بكامله وامتدت إلى العصر المملوكي الثاني، وكما هو واضح من تاريخ هذه الهجرات على الرغم مما تميز به العصر المملوكي الثاني من كثرة أعداد الجراكسة أو العثمانية .

أما عن الدوافع التي أدت إلى هجرة تلك العناصر المغولية إلى مصر فهي متعددة، يأتي في مقدمتها ما يتعلق بالشعوب المغولية المختلفة من تتار، وكرايت، ومركيت، وأويرات، ونايمان، ومغول. والمعروف أن الموطن الأصلي لهذه الشعوب امتاز بقسوة المناخ وتطرفه في معظم السنة؛ بل هناك أيضاً الرياح الشديدة التي تهب في معظم أيام السنة، فتحمل الحصى، وترسله إلى مسافات بعيدة. وتكون بذلك مواجهتها مستحيلة، وأحياناً تتحول إلى أعاصير عاتية لدرجة يصعب معها بقاء الرجل في سرجه. مما تتطلب أن تعيش هذه الشعوب في الأقاليم الشرقية من آسيا عيشة بدوية كلها نزاع وصراع بسبب تنازع البقاء، واستلزمت هذه الحياة كثرة الهجرة والانتقال من مكان لآخر[١٢] أو بعبارة أخرى أن الظروف المناخية هذه طبعتها بطابع القبائل الرحالة، التي تنتقل في فترات متتابعة طلباً لحياة أفضل، وعلى هذا الأساس فإنهم عندما جاءوا إلى سلطنة المماليك في مصر كمهاجرين فقد كان هدفهم الأول البحث لأنفسهم عن مأوى ليطيب لهم العيش[١٣].

---

(٨) المقريزي، **السلوك** ، جـ٢ ، ص ٥٢٥؛ قسم ٢ ، ص ص ٥٢٤ – ٥٢٥ .

(٩) ابن تغري بردي، جمال الدين يوسف (ت ٨٧٥هـ)، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** (القاهرة : الهيئة المصرية ، ١٩٧٢م)، جـ٧ ، ص ١٥٩ .

(١٠) Ayalon, **Studies on the Mamluks**, P. 101 .

(١١) المقريزي، **السلوك** ، جـ٢ ، ص ٥١٥ .

(١٢) السيد الباز العريني، المماليك (بيروت : دار النهضة العربية، ١٩٦٧م)، ص ص ٥٩؛ ٦٠ Ayalon, **Studies on the Mamluks** : PP. 90 - 91

(١٣) الصياد ، **المغول** ، جـ ١ ، ص ص ٢٥ – ٣٤ .

ومن الدوافع التي أدت إلى هجرات بعض العناصر المغولية خوف أبناء هذه العناصر من اضطهاد بعض حكام المغول لهم، فالمقريزي في حديثه عن هجرة الأويراتية إلى مصر عام ٦٩٥ هـ يقول : "وكان من خبر هذه الطائفة أن بيدو بن طرغاي بن هولاكو لما قتل في ذي الحجة سنة أربعة وتسعين وستمائة وقام في الملك من بعده على المغل الملك غازان محمود بن خربنده بن إيغاني تخوف منه عدة من المغل يعرفون بالأويراتية وفروا عن بلاده إلى نواحي بغداد فنزلوا هناك مع كبيرهم طرغاي، وجرت لهم خطوب آلت بهم إلى اللحاق بالفرات فأقاموا بها هنالك، وبعثوا إلى نائب حلب يستأذنوه في قطع الفرات ليعبروا إلى ممالك الشام فأذن لهم وعدوا الفرات ..."[١٤].

أو بعبارة أخرى فإنه لم يكد بايدوخان يتولى العرش الإيلخاني "١٦ جمادى الأولى ٦٩٤هـ – ٢٣ ذي الحجة ٦٩٤هـ/١٢٩٥ – ١٢٩٦م" حتى نازعه الأمير غازان بن أرغون، وكان والياً على خراسان. وكانت النتيجة هزيمة بايدو وقتله حسب أوامر غازان الذي تولى العرش، وأخذ يتعقب أتباع بيدو وهم الأويراتية لينزل بهم أشد أنواع الاضطهاد والعذاب، ففروا صوب مصر وأظهروا رغبتهم في اعتناق الإسلام لكي يسمح لهم بدخول البلاد[١٥].

ومنها ما حدث عام ٧٠٤هـ أيام الناصر محمد ابن قلاوون : "وفيها في تاسع شهر جمادى الأولى وصل من التتار مقدمين ومعهم نحو من مائتي نفر بنسائهم وأولادهم، وذكروا أن فيهم أربعة من سلحدارية غازان ومن جملتهم ابن سنقر الأشقر، وأخبروا أخبار طيبة". وكان السبب في هذه الهجرة أنهم فروا بسبب خوفهم من أن تتكشف المؤامرة التي دبها بعض كبار أمراء المغول – ومنهم هؤلاء السلحدارية – ضد غازان خان بعد هزيمة قواته أمام قوات السلطان الناصر محمد في وقعة مرج الصفر قرب حمص ٧٠٢هـ. "وكان قد تغير على الأمرا المغل والتوامين من أيام الكسرة وشرع يهددهم ويعنفهم فاتفقوا مع زوجته على هلاكه، فسمته في منديل ....."، فاخافوا أن ينالهم أشد أنواع الاضطهاد على يد أخيه خدا بندا الذي خلفه على عرش السلطنة عام ٧٠٣هـ[١٦].

ولعنا لا نغالي القول في أن مثل هذه الهجرات قد شجع عليها نجاح السلطان الناصر محمد بن قلاوون في اتخاذ بعض مسلمي المغول في المناطق المتاخمة لحدود سلطنة المماليك مع دولة مغول إيران، ليكونوا عيوناً على هؤلاء المغول؛ فقد أشار ابن أيبك على أنه في أواخر عام ٧٠٣هـ هاجر الأمير جنكلي بن البابا إلى الأبواب العالية السلطانية، وصحبته جماعة من كبار التتار، من جملتهم أخو الأمير سيف الدين قطلوبك. وكان الأمير جنكلي بن البابا له مدة يكاتب الأبواب السلطانية الشريفة. بالإضافة إلى أن هذه العناصر كان قد ساءها كثيراً غزوات غازان خان التي أدت خراب كثير من بلاد الشام، بما لا يتفق مع إسلامه، بدليل ما جاء في الرسالة التي وجهها الملك خدابنده أخو غازان إلى الناصر محمد يقول فيها : "إن أخي غازان ما كان له عقل في خراب

---

(١٤) Ayalon : **Studies on the Mamluks**, p. 90 .

(١٥) المقريزي : **الخطط** ، جـ ٢ ، ص ٢٢ .

(١٦) أبو الفدا، عماد الدين اسماعيل (ت ٧٣٢هـ)، **المختصر في أخبار البشر** (القسطنطينية، ١٢٨٦هـ)، جـ٤ ، ص ٣٤ : عبد السلام عبد العزيز فهمي، **تاريخ الدولة المغولية في إيران** (القاهرة : دار المعارف، ١٩٨١م)، ص ص ١٨٦ - ١٨٩ .

البلاد، وكان مسلم الظاهر كافر الباطن، وما دخوله الشام برضاي ولا برضا أمراء المغل، فلذلك قتله الله تعالى ..."[١٧].

كما كانت السياسة التي اتبعها سلاطين المماليك الأوائل ابتداء من الظاهر بيبرس، لها أثرها الواضح في تشجيع المغول على الهجرة إلى الديار المصرية. هذه السياسة كان هدفها الأول هو التغلغل داخل صفوف المغول، واستمالة العناصر المناوئة لنظم الحكم القائمة لديهم، بحيث أمكن الاستفادة من رصد كل تحركاتهم الداخلية، وليكون جهاز المخابرات المملوكي على علم بكل حركاتهم وسكناتهم، سواء كانت هذه الاستمالة عن طريق الترغيب أو الترهيب أو بذل الأموال والهدايا وهذا ما يفسر لنا هجرة عام ٦٧٢هـ، حيث أشار المؤرخ بيبرس المنصوري إلى أنه عندما كان السلطان الظاهر بيبرس في دمشق ذلك العام وصل إليه الأمير شمس الدين بهادر في جماعة من أتباعه هارباً من مغول فارس، وذلك لأنه كاتب السلطان مناصحاً، فاطلعوا على أمره وأمسكوه وأرسلوه إلى الأردو، فهرب وقصد الأبواب السلطانية، فأحسن السلطان إليه وأعطاه إمرة عشرين فارساً في الديار المصرية[١٨] وظلت هذه السياسة قائمة حتى بعد توقيع الصلح بين الطرفين عام ٧٢٣هـ، إلا أنها اتخذت اتجاهاً جديداً تمثل في احتضان المناوئين للحكم والخارجين عليه من أمراء المغول في فارس بوجه خاص، والجدير بالذكر أن هذا الاتجاه استغله المماليك في الحرب الباردة التي كانت مستمرة بين الطرفين، وكرد فعل مضاد لسياسة المغول في احتضان الفارين من أوجه السلطنة من أمراء العربان والمماليك.

نذكر من ذلك على سبيل المثال ما حدث عام ٧٢٨هـ أيام الناصر محمد بن قلاوون في سلطنته الثالثة، حيث تشير المصادر المعاصرة إلى أنه في هذا العام كان وصول الأمير دمرداش بن جوبان صاحب الروم وما معها. والذي كان أبوه جوبان قد تزعم مؤامرة للإطاحة بعاهل مغول فارس أبي سعيد لكنه فشل، فما كان من أبي سعيد إلا أن أخذ في مطاردة جوبان وأقاربه في كل مكان، فلم يتردد دمرداش هذا في مكاتبة الأبواب السلطانية "وسير يسأل المراحم الشريفة السلطانية – التي لا زالت ملجأ القاصدين وبحر الواردين – في الدخول إلى الأبواب الشريفة، فأنعم مولانا السلطان بالجواب بقبول سؤاله ..." وعندما وصل إلى الديار المصرية كان في صحبته عدد كبير من أتباعه من المغول، فأنزلوا بالقلعة المحروسة، ورتب لهم السلطان الرواتب الكثيرة جداً من ساير المآكل الفاخرة. فأقام دمرداش ومن معه في أنعم عيش وأرغده[١٩].

كما كان سطوع نجم أحد أبناء العناصر المغولية في مصر لدى أحد من السلاطين المماليك سبباً في بعض الهجرات الصغيرة، ولنضرب على ذلك بعض الأمثلة. فابن تغري بردي في حديثه عن الأمير جنكلي بن البابا يذكر أنه أصبح عظيم الدولة الناصرية محمد بن قلاوون، ورأس الميمنة بعد الأمير أقوش نائب الكرك، ولم يزل هكذا معظماً مبجلاً حتى في عهد أبناء الناصر محمد إلى أن توفى عام ٧٤٦هـ/ ١٣٤٥م[٢٠]. وكان هذا أهم الأسباب في هجرة

---

(١٧) ابن أيبك، **الدر الفاخر**، ص ١٢٨؛ ابن أبي الفضائل "المفضل"، كتاب **النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد** (باريس : لوشيه، ١٩١١م) ص ٣٠٧ .

(١٨) ابن ايبك ، **الدر الفاخر**، ص ص ١٢٧ – ١٢٨ .

(١٩) بيبرس الدوادار المنصوري (ت ٧٢٥هـ)، **التحفة الملوكية في الدولة التركية**، نشره د. عبد الحميد صالح حمدان (الدار المصرية اللبنانية، ١٩٨٧م)، ص ٧٨ .

(٢٠) ابن ايبك ، **الدر الفاخر**، ص ص ٣٤٦ – ٣٤٨ .

عام ٧٢٢هـ، حيث قدم البريد في هذا العام من دمشق بحضور أخت هذا الأمير من الشرق وصحبتها جماعة تتارية، غير أنها ماتت بعد قدومها بثلاثة أيام، فاستدعى الناصر محمد بن قلاوون جماعتها هذه إلى القاهرة وأقطع أفرادها إقطاعات من أجل خاطر الأمير جنكلي(٢١). وكذلك الحال بالنسبة للأمير يلبغا اليحياوي الذي حظى كذلك عند أستاذه الملك الناصر محمد بن قلاوون، فاستقدم والده الأمير سيف الدين طابطا ابن عبد الله ولديه الأمير سيف الدين أسند مر بن عبد الله العمري، والأمير قراكز وبعض أهله إلى الديار المصرية(٢٢). وما يشير إليه ابن حجر العسقلاني في ترجمته للأمير ظهر بغا المغلي، أحد الأمراء بالديار المصرية والذي حضر إلى القاهرة عام ٧٢٦هـ، فقدمه السلطان وكان يقرأ على السلطان كتب بوسعيد التي ترد بالمغلي ويكتب الأجوبة وكان يفد عليه من أقاربه على مدى الأيام من عشرة إلى مائة فيبرهم ويصلهم وظل هكذا إلى أن توفى عام ٧٣٨هـ(٢٣).

كذلك تشير المصادر المعاصرة إلى أنه كان من نتيجة عقد الصلح بين سلطنة المماليك في مصر على أيام الناصر محمد بن قلاوون وبين مغول إيران، أثره الواضح في جذب أعداد كبيرة من مغول إيران إلى مصر والإقامة بها، لما وجدوه من ترحيب وحسن عيش، وترغيب من أقاربهم بها، إلى جانب ما لقوه من ترحاب من السلطات الحاكمة في مصر، والاستفادة منهم ومن خبراتهم الحربية التي أهلتهم للانخراط في سلك الجندية، وتوليهم المناصب المختلفة، فضلاً عن الإقطاعات والإمرة(٢٤).

كما كان لكوارث الطبيعة ونكباتها من حدوث قحط شديد أو مجاعات يتبعها في الغالب انتشار كثير من الأوبئة والطواعين، أثره الواضح في هجرات أبناء العناصر المغولية إلى سلطنة المماليك بوجه عام والديار المصرية بوجه خاص، ذلك لأنها كانت أكثر خصباً وأوفر ثروة من المواطن التي كانت تسكنها العناصر المغولية المختلفة في ذلك العصر(٢٥) خصوصاً وأن دولة الإيلخانيين كان قد أصابها الكثير من الخراب، وتوقفت المؤسسات الحكومية عن العمل السليم الجاد في بداية عهد السلطان أبي سعيد، وانشغال رجال الحكم والبلاط بمشكلاتهم الخاصة، وكثرة تغيير الوزراء، مما كان سبباً في إغارة بعض أمراء المغول من حكام الدولة الجغتائية في التركستان والقبيلة الذهبية في جنوب روسيا على أطراف الدولة الإيلخانية. ومحاولتهم المتكررة الاستيلاء على السلطة والعرش الإيلخاني، وجاءت كوارث الطبيعة لتزيد الطين بلة(٢٦). ذلك أنه نزل بآسيا الصغرى في عامي ٧١٨ – ٧١٩ هـ/١٣١٨-١٣١٩م قحط شديد ومجاعة مخيفة، ثم تلى ذلك عام ٧٢٠هـ/١٣٢٠م أعاصير مدمرة وزوابع غريبة(٢٧) وهذا يفسر لنا السبب في الهجرات التي تمت في أعوام من ٧١٨-٧٢٧هـ، وحتى ٧٢٨هـ والتي سبق أن أشرنا إليها. وفي سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م – وهي السنة التي توفي فيها السلطان الناصر محمد بن قلاوون – جاءت

(٢١) ابن تغري بردي، **المنهل**، جـ ٥ ، ص ٢٢ .

(٢٢) المقريزي : **السلوك** ، جـ ٢ ، ص ٢٣٦؛ العريني : **المماليك** ، ص ٦٢.

(٢٣) ابن تغري بردي ، **المنهل** ، جـ٦ ، ص ٣٦٨ .

(٢٤) ابن حجر العسقلاني ، شهاب الدين أحمد (ت ٨٥٢هـ)، **الدرر** = **الكامنة في أعيان المائة الثامنة** (حيدر أباد الدكن، ١٣٤٨هـ)، جـ٢ ، ص ٣٣٨ .

(٢٥) ابن حجر : **الدرر الكامنة**، جـ٢ ، ص ص ٣٣٧ – ٣٣٨؛ جـ٣، ص ١٢٦ – ١٢٧ .

(٢٦) الصياد، **المغول** ، جـ ١ ، ص ٣١ ، ٣٣ .

(٢٧) عبد العزيز فهمي، **تاريخ الدولة المغولية** ، ص ص ٢٢٢ – ٢٢٣ .

موجة كبيرة من الهجرات من أبناء العناصر المغولية بسبب المجاعة التي انتشرت في بلاد الشرق. فجاء عالم عظيم من المغول حيث وفدوا إلى شواطئ نهر الفرات وإلى إقليم حلب. فتدفقوا إلى إقليم حلب وبعض الأقاليم الأخرى في بلاد الشام. ووصلت منهم مجموعة إلى مصر. فأخذ السلطان بعضهم وضمهم إلى مماليكه السلطانية، وأعطى بعضهم للأمراء(٢٨).

وأخيراً تجب الإشارة إلى أنه كان لمصر جاذبيتها الخاصة لدى كل مسلم، وبوجه خاص منذ أن غدت مقراً للخلافة العباسية، مما حفز بعض المسلمين من مغول فارس، والقفجاق إلى الوفود إليها، ورغبوا في الاستقرار فيها من ذلك ما يشير إليه ابن الفرات عام ٦٨١هـ/١٢٨٢م في عهد السلطان المنصور قلاوون من قول : "وفيها وفد إلى خدمة السلطان المنصور بمصر المحروسة شخص من أولاد الأويراتية يسمى الشيخ علي كان قد دخل في دين الإسلام وخدم المشايخ وعانا أسباب الرياضة والانقطاع فظهرت له كرامات الفقراء فتبعه جماعة من أولاد المغل فخرج بهم من تلك البلاد إلى الشام ثم إلى الديار المصرية ومثلوا بين يدي الملك المنصور فأحسن إليهم منهم الأقوش وتمر وعمر ثلاثة إخوة وجوبان وجماعة رتب الملك المنصور بعضهم في جملة الخاصكية وتنقلوا إلى الإمرة ثم ظهر من الشيخ على أمور أنكرت عليه فسجن الأقوش ومات تمر وعمر في الخدمة ..."(٢٩) وهناك بعض الإشارات في المصادر المعاصرة عن هجرة بعض أبناء العناصر المغولية من المسلمين إلى مصر ليعيشوا في منطقة إسلامية بعيداً عن عبدة الأصنام والكواكب سواء من بلاد التتار الشمالية أو مغول إيران قبل إسلامهم بالكامل(٣٠).

أثر الهجرات المغولية في الحياة الثقافية

لعبت العناصر المغولية التي جاءت إلى مصر دوراً مهماً وبارزاً في الحياة الثقافية بشتى جوانبها المختلفة، وتأثروا بما شهدته البلاد من ازدهار ثقافي في ذلك العصر. ولعل أول ما يشد انتباه الباحث هو حرصهم الشديد على الإسهام في شتى نواحي الحياة الثقافية، وتشييد كثير من المنشآت الثقافية التي تحمل أسماءهم، والتي خصصوا لها الكثير من الأوقاف حتى تؤدي رسالتها على خير وجه. ولم يكن هذا الحرص قاصراً على الرجال منهم، بل شاركهم فيه كثير من النساء كذلك(٣١). وفي تصورنا أن مبعث هذا الحرص لم يكن اعتناقهم الإسلام فحسب، بل والعمل على أن ينسى لهم معاصروهم ماضيهم المرير، عندما خرج آباؤهم من مواطنهم الأولى ودمروا مراكز الحضارة الإسلامية الأولى التي دانت لهم بالخضوع(٣٢) كما أنهم كانوا مجرحين بسبب ما اقترفوه هم وآباؤهم من ضروب القسوة البالغة التي أدت إلى انقراض دول، وذهاب عروش، وتقتيل آلاف عديدة من السكان، وتخريب أمهات المدن، وكان عليهم أن يصلحوا ما أفسدوه هم وأسلافهم، فضلاً عن أنهم أدركوا أن مركز الدراسات الإنسانية كان قد انتقل إلى مصر بعد سقوط بغداد، فأقبلوا يساهمون بنصيبهم في إنهاض الحضارة الإسلامية في شتى

(٢٨) ابن تغري بردي، **المنهل**، جـ٣، ص ٢٥٠ ؛ فهمي، **تاريخ الدولة المغولية**، ص ٢٣٠ .

(٢٩) المقريزي، **السلوك**، جـ ٢، ص ص ٥١٥ _ ٥١٦ ؛ Ayalon : **Studies on the Mamluks**, pp. 101 - 103

(٣٠) ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم **تاريخ ابن الفرات**، تحقيق قسطنطين رزيق (بيروت، ١٩٤٢م)، جـ ٨، ص ٩٥.

(٣١) ابن تغري بردي، **النجوم**، ص ٢٦ .

(٣٢) المقريزي، **الخطط**، جـ ١، ص ١١٩ .

مظاهرها[٣٣]. فآثارهم المعمارية والتي ظلت قائمة طوال العصر المملوكي تعتبر في الواقع من أهم الشواهد الحية على مدى إسهامتهم في هذا المجال.

لقد تنوعت المؤسسات الثقافية التي بنوها ما بين مكاتب لتعليم الأطفال "كتاتيب"، ومدارس أي الكليات الجامعية بمصطلح عصرنا الحديث، وبيوت للصوفية من زوايا وربط وخانقاوات، وجوامع وغيرها من الأماكن التي كانت تعقد فيها حلقات التدريس، وقد وجدت هذه المؤسسات التعليمية في الأوقاف التي حبسوها عليها، خير دعامة تشد أزرها، وتمكنها من البقاء والاستمرار في أداء رسالتها على الدوام. أو بعبارة أخرى فإن حياة كل من المكتب والمدرسة والزاوية والتربة والمسجد لم تكن رهناً بحياة مؤسسها، حيث كان يوقف عليها من الأوقاف ما يضمن به لها الاستمرار في أداء رسالتها عقب وفاته، وهذه الأوقاف قد تكون أرضاً زراعية أو عقارات أو حوانيت في الأسواق، أو حمامات أو رباع تدر دخلاً ثابتاً ينفق منه على صيانتها ودفع مرتبات العلماء وطلبة العلم والصوفية، والقومة من مؤذنين وخدام وبوابين وفراشين وغيرهم. بالإضافة إلى ما كان ينفق من ريع هذه الأوقاف في سبيل التوسعة عليهم في شهور رجب وشعبان ورمضان من كل عام، وإذا تبقى بعد ذلك شيء فإنه كان على الناظر على هذه الأوقاف أن يصرفه في وجوه البر والقربات والأجر والمثوبات ثم للفقراء والمساكين أينما كانوا وحيثما وجدوا[٣٤].

وتأتي المدارس في مقدمة المؤسسات التعليمية التي قاموا بتشييدها في مصر في ذلك العصر. والتي واكبت ازدهار النشاط الفكري وتنوعه عند المسلمين، واستوعبت العلوم والدراسات المتعددة، وعاش في جنباتها العلماء وطلاب العلم عيشة هادئة مستقرة مكنتهم جميعاً من مواصلة رسالتهم في انتظام، وغدت بمثابة جامعات بالمعنى الحديث الذي نعرفه، سواء من ناحية تنوع الدراسات التخصصية ورقي مستواها، وقدرتها على استيعاب طلاب العلم الوافدين إليها، فضلاً عن أنها تميزت غالباً بمساكن لطلاب العلم والمدرسين، وغالباً ما كان يلحق بها سبيل للشرب، يعلوه مكتب "كتاب" لتعليم الأطفال، بالإضافة إلى وجود مرافق لخدمة النازلين بها[٣٥].

من هذه المدارس، تلك المدرسة التي شيدها الأمير – شمس الدين آق سنقر الفارقاني "ت ٦٧٧هـ/١٢٨٧م" أحد كبار الأمراء أيام السلطان الظاهر بيبرس، بناها بالقرب من داره داخل باب سعادة بالقاهرة[٣٦] يقول عنها المقريزي: "هذه المدرسة بابها شارع في سويقة حارة الوزيرية من القاهرة فتحت في يوم الاثنين رابع جمادى الأولى سنة ست وسبعين وستمائة وبها درس للطائفة الشافعية ودرس للطائفة الحنفية أنشأها الأمير شمس الدين آق سنقر الفارقاني السلاحدار ..."[٣٧]

والمدرسة الحسامية، التي بخط المسطاح من القاهرة قريباً من حارة الوزيرية، نسبة إلى الأمير حسام الدين طرنطاي المنصوري

(٣٣) الصياد، **المغول في التاريخ**، جـ١، ص ص ١٢٥ – ١٥.

(٣٤) الصياد، **المغول في التاريخ**، جـ١، ص ص ١٢٥ – ١٥.

(٣٥) كامل جميل العسلي، **وثائق مقدسية تاريخية**، (عمان ١٩٨٣م)، جـ١، ص ص ١٠٨ – ١٢٠.

(٣٦) المقريزي، **الخطط**، جـ٢، ص ٣٨٩؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، "التعليم العالي في العصور الوسطى" من كتاب **بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى** (بيروت، ١٩٧٢م)، ص ٤٣٩ – ٤٤٧.

(٣٧) ابن تغري بردي: **المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي**، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٧٢م، جـ٢، ص ٤٩٦.

"ت ٦٨٩هـ/١٢٩٠م" نائب السلطنة بديار مصر، بناها إلى جوار داره وجعلها برسم الفقهاء الشافعية، وفي منتصف القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي كانت موجودة في مواجهة سوق الرقيق(٣٨). والمدرسة الآقبغاوية بجوار الجامع الأزهر، على يسرة من يدخل إليه من بابه الكبير البحري، وفي عصر المقريزي أصبحت داخل باب الجامع على اليسار حيث المكتبة، بناها الأمير علاء الدين آقبغا بن عبد الله بن عبد الواحد الناصري "ت ٧٤٤هـ/١٣٤٣م" أحد مماليك السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وأخو زوجته خوند طغاي(٣٩) قرر فيها درساً للشافعية، ودرساً للحنفية، وجعل فيها عدة من الصوفية ولهم شيخ، وقرر بها طائفة من القراء لقراءة القرآن الكريم بشباكها، وجعل لها إماماً راتباً ومؤذناً وفراشين وقومة ومباشرين، وجعل النظر عليها للقاضي الشافعي بديار مصر، ووقف عليها حوانيت خارج باب زويلة بخط تحت الربع وقرية بالوجه القبلي(٤٠).

والمدرسة الدوادارية، التي بناها الأمير ركن الدين بيبرس بن عبد الله المنصوري صاحب التاريخ المعروف "ت ٧٢٥هـ/١٣٢٤م"، أوقف عليها عدة أوقاف وعلى وجوه البر المختلفة، ورتب فيها درساً للحنفية، هذه المدرسة بسويقة العزى خارج باب زويلة من القاهرة(٤١). والمدرسة القراسنقرية تجاه خانقاه سعيد السعداء فيما بين رحبة باب العيد وباب النصر. أنشأها الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري "ت ٧٢٨هـ/١٣٢٧م" عام سبعمائة، وبنى بجوارها مسجداً معلقاً ومكتباً لإقراء أيتام المسلمين، وجعل بهذه المدرسة درساً للفقهاء الحنفية، ووقف على ذلك داره التي بحارة بهاء الدين.(٤٢)

والمدرسة الفارسية، بخط الفهادين من أول العطوفية بالقاهرة، في أرض كانت عليها كنيسة قديمة تعرف بكنيسة الفهادين، فهدمها أمير فارس الدين ألبكي في سنة ست وخمسين وسبعمائة، وبنى موضعها المدرسة التي نسبت إليه، ووقف عليها وقفاً يقوم بمصالحها وبما تحتاج إليه من جميع الوجوه.(٤٣)

والمدرسة الأيتمشية "هذه المدرسة خارج القاهرة داخل باب الوزير تحت قلعة الجبل برأس التبانة أنشأها الأمير الكبير سيف الدين أيتمش البجاسي ثم الظاهري في سنة خمس وثمانين وسبعمائة، وجعل بها درس فقه للحنفية وبنى بجانبها فندقاً كبيراً يعلوه ربع، ومن ورائها خارج باب الوزير حوض ماء للسبيل وربعاً، وهي مدرسة ظريفة ... ".(٤٤)

كما تأتي بيوت الصوفية كأحد المؤسسات التعليمية التي أدت دوراً هاماً وبارزاً في الحياة الثقافية في ذلك العصر، إذا كان كل بيت من بيوت الصوفية من زوايا وربط وخانقاوات، يعتبر بمثابة وحدة ثقافية قائمة بذاتها يتدارس فيه الصوفية كثيراً من العلوم الدينية، سواء في الفقه كل على مذهبة، أم علوم القرآن وعلوم الحديث النبوي، إلى جانب غيرها من علوم العربية والسيرة والأدب، ويقوم مشايخ الصوفية بدور فعال في تدريس هذه العلوم وغيرها؛ بل وفي تعليم الأطفال أحياناً. بل إن كثيراً من كبار مشايخ الصوفية قد كان لهم حظ وافر في النشاط المكتبي، وتزويد مكتبات بيوت الصوفية بالكثير

(٣٨) المقريزي، **الخطط**، جـ٢، ص ٣٦٩ .
(٣٩) المقريزي، **الخطط**، جـ٢، ص ٣٨٦ .
(٤٠) ابن تغري بردي، **المنهل**، جـ ٢، ص ٤٨٠-٤٨١.
(٤١) المقريزي، الخطط، جـ ٢، ص ٣٨٣-٣٨٤.
(٤٢) ابن تغري بردي، **النجوم**، جـ ٩، ص ٢٦٣-٢٦٤؛ المقريزي، **المقفى الكبير**، تحقيق محمد البعلاوي (بيروت دار الغرب الإسلامية، ١٩٩١)، جـ ٢، ص ٥٣١-٥٣٣.
(٤٣) المقريزي، **المقفى الكبير**، جـ ٢، ٣٨٨.
(٤٤) المقريزي، **المقفى الكبير**، جـ ٢، ٣٨٨.

من مؤلفاتهم العديدة، أو التي كان من مقتنياتهم الخاصة والتي حبسوها على تلك البيوت ليستفيد منها طلبة العلم من الصوفية.(٤٥)

من هذه البيوت التي بناها أمراء من أصل مغولي نذكر الخانقاه التي تنسب إلى أمير بهاء الدين أرسلان الناصري الدوادار "ت ٧١٧هـ/ ١٣١٧م" أحد مماليك الأمير سلار نائب السلطنة "ت ٧١٠هـ / ١٣١٠م"، بناها بخط منشأة المهراني فيما بين القاهرة ومصر، ورتب بها شيخاً وصوفية، وجعل لها أوقافاً جارية، وكان ينزل إليها من القلعة في كل ليلة ثلاثاء فيبيت بها، ويحتفل الناس بالحضور إليه(٤٦) ومنها خانقاه قوصون، "هذه الخانقاه في شمال القرافة مما يلي قلعة الجبل تجاه جامع قوصون أنشأها الأمير سيف الدين قوصون وكملت عمارتها في سنة ست وثلاثين وقرر في مشيختها الشيخ شمس الدين أبا الثناء محمود بن أبي القاسم أحمد الأصفهاني ورتب له معلوماً سنياً من الدراهم والخبز واللحم والصابون والزيت وسائر ما يحتاج إليه حتى جامكية غلام بغلته واستقر ذلك في الوقف من بعده لكل من ولي المشيخة بها وقرر بها جماعة كثيرة من الصوفية ورتب لهم الطعام واللحم والخبز في كل يوم وفي الشهر المعلوم من الدراهم ومن الحلوى والزيت والصابون وما زالت على ذلك إلى أن كانت المحن من سنة ست وثمانمائة فبطل الطعام والخبز منها وصار يصرف لمستحقيها مال من نقد مصر وتلاشى أمرها من بعد ما كانت من أعظم جهات البر وأكثرها نفعاً وخيراً ... ".(٤٧)

وخانقاه طغاي النجمي، هذه الخانقاه بالصحراء خارج باب البرقية فيما بين قلعة الجبل وقبة النصر، أنشأها الأمير طغاي تمر النجمي "ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م" دوادار الملك الصالح اسماعيل بن محمد بن قلاوون وأخويه الملك الكامل شعبان، والمظفر حاجي، كانت من المباني الجليلة، "رتب بها عدة من الصوفية وجعل شيخهم الشيخ برهان الدين الرشيدي وبني بجانبها حماماً وغرس في قبليها بستاناً وعمل بجانب الحمام حوض ماء للسبيل ترده الدواب ووقف على ذلك عدة أوقاف ..." ومنها رباط الست كليلة "هذا الرباط خارج درب بطوط من جملة حكر سنجر اليمني، ملاصق للسور الحجر بخط سوق الغنم وجامع أصلم. وقفه الأمير علاء الدين البراباه على الست كليلة ابنة عبد الله التتارية، المدعوة دولاي، زوج الأمير سيف الدين البرلي السلاحدار الظاهري وجعله مسجداً ورباطاً، ورتب فيه إماماً ومؤذناً وذلك في ثالث عشري شوال سنة أربع وتسعين وستمائة".(٤٨)

وتجدر الإشارة إلى أن المساجد في العصر المملوكي قامت بدور فعال في الحياة الثقافية، فهي إلى جانب كونها أحد المراكز الثقافية المهمة للتعليم ونشر المذهب السني، فهي قلب المجتمع النابض، وعقله المفكر، وإرادته الدافعة، وضميره الوازع، ولعل خير من عبر عن هذه الحقيقة الفقيه المعاصر أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي الشهير بابن الحاج "ت ٧٣٧هـ / ١٣٣٦م". عندما قال : "إن أماكن التدريس ثلاثة هي البيت والمدرسة والمسجد، إلا أن المسجد أفضلها جميعاً لأن الفائدة من التدريس فيه أن

---

(٤٥) المقريزي، **المقفى الكبير**، جـ ٢، ص ٤٠٠.

(٤٦) العجيمي، حسين بن علي بن يحيى(١١٠٣هـ)، **خبايا الزوايا المعمورة بمكة المشرفة**، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٢٤١٠ تاريخ، ورقة ١، ٢، ٩، ٣٣.

(٤٧) المقريزي ، **المقفى** ، جـ ٢ ، ص ١٧ ــ ١٨ .

(٤٨) المقريزي، **الخطط**، جـ ٢، ص ٤٢٥.

تظهر به سنة أو تخمد به بدعة أو يتعلم به حكم من أحكام الدين، والمسجد خير مكان تتوافر فيه هذه الفوائد لأنه موضع مجتمع الناس".(٤٩)

أما عن الجوامع والمساجد التي قاموا بتشييدها في مصر، فنذكر منها الجامع الذي عمره الأمير سيف الدين كراي المنصوري سنة ٧٠١هـ / ١٣٠١م، والذي ذكره المقريزي في خططه باسم جامع كراي وقال عنه: "هذا الجامع بالريدانية خارج القاهرة عمره الأمير سيف الدين كراي المنصوري في سنة أحدى وسبعمائة لكثرة ما كان هناك من السكن فلما خربت تلك الأمكان تعطل هذا الجامع وهو الآن قائم وجميع ما حوله داثر وعما قليل يدثر ..."(٥٠) ويستفاد مما رواه صاحب بدائع الزهور أنه كان عامراً لغاية القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي، وهو الجامع الذي يعرف اليوم باسم جامع الكومي بشارع الوايلية الصغرى بقسم الوالي بالقاهرة، ويعرف بجامع الكومي نسبة إلى الشيخ علي أبي منصور الكومي الذي عمل به فترة كبيرة من الزمن(٥١).

وجامع الأمير ألماس الحاجب الناصري "ت ٧٣٤هـ/١٣٣٣م" "هذا الجامع بالشارع خارج باب زويلة بناه الأمير سيف الدين ألماس الحاجب وكمل في سنة ثلاثين وسبعمائة وكان ألماس هذا أحد مماليك السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فرقاه إلى أن صار من كبار الأمراء ..."(٥٢) وهو لا يزال قائماً في شارع الحلمية من جهة محمد علي، بدأت عمارته سنة ٧٢٩هـ/١٣٢٨م وأتمه سنة ٧٣٠هـ/١٣٢٩م(٥٣)

وجامع قوصون، الذي بناه الأمير الكبير سيف الدين قوصون "ت ٧٤٠هـ/١٣٣٩م" الذي حضر من بلاد بركة خان، أي بلاد مغول القفجاق صحبة خوند ابنة أزيك التي تزوجها السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٠م "هذا الجامع بالشارع خارج باب زويلة ابتدأ عمارته الأمير قوصون في سنة ثلاثين وسبعمائة وكان موضعه دارا بجوار حارة المصامدة من جانبها الغربي تعرف بدار أقواش نميله، ثم عرفت بدار الأمير جمال الدين قتال السبع الموصلي، فأخذها من ولدها وهدمها، وتولى بناؤه شاد العمائر، واستعمل فيه الأسرى، وكان قد حضر من بلاد توريز بناء فبنى مئذنتي هذا الجامع على مثال المئذنة التي عملها خواجا علي شاه وزير السلطان أبي سعيد في جامعه بمدينة توريز، وأول خطبة أقيمت فيه يوم الجمعة من شهر رمضان سنة ثلاثين وسبعمائة ...".(٥٤)

كانت هذه بعض الأمثلة للمنشآت الثقافية التي أنشأها بعض الأمراء المغولي الأصل، والتي تشهد لهم بمدى مساهمتهم في إثراء الحياة الثقافية في مصر في العصر المملوكي بما أدته من دور في إنهاض الحياة الثقافية، وبما حبسوه عليها من أوقاف ساعدتها على أداء رسالتها في ذلك العصر، سواء في حياة واقفيها أو بعد مماتهم.

وباستثناء ما شيدوه من مؤسسات تعليمية فإن العناصر المغولية الأصل قامت بعدة جهود

(٤٩) المقريزي، **الخطط**، جـ٢، ص ٤٢٥.
(٥٠) ابن الحاج، ابو عبد الله محمد بن محمد العبدري (ت ٨٣٧هـ)، **المدخل مدخل إى الشرع الشريف على المذاهب** (القاهرة، ١٩٢٩م)، جـ ١،٨٥.
(٥١) المقريزي، **الخطط**، جـ ٢ن ص ٣٢٥.
(٥٢) ابن إياس، **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، القاهرة: جمعية المستشرقين المانية، ١٩٦٠-١٩٧٢)، جـ ٢، ص ٢٧٧.
(٥٣) ابن تغري بردى، **النجوم**، جـ ٩، ص ٢٠٠، حاشية ١
(٥٤) المقريزي، **الخطط**، جـ ٢، ص ٣٠٧، ابن تغري بردى، النجوم، جـ ٩، ص ٢٠٦-٢٠٧ .

مشاركة فعالة في كثير من نواحي تلك الحياة. وهنا يجب أن نشير إلى أن صغار أبناء هذه العناصر الذين كانوا يصلون إلى مصر في ذلك العصر، وبسبب ما كان يتوسم فيهم من الخير إما لنجابتهم أو ذكائهم أو لميزة يراها فيهم من اشتراهم من السلاطين وكبار الأمراء المماليك، فكانوا يلحقونهم بالمكاتب أي الكتاتيب مع أبنائهم ليتعلموا القراءة والكتابة ويحفظوا القرآن الكريم وبعض الأحاديث النبوية، مثال ذلك ما تشير إليه بعض المصادر من أن الأمير سيف الدين قلاوون – ولم يكن قد تولى السلطنة بعد – عندما اشترى بيبرس المنصوري عام ٦٥٩هـ/١٢٦٠م قام بإرساله إلى المكتب مع أبنائه ولم يدخله الطباق مع سائر المماليك، فدخل بذلك في زمرة أرباب الجامكيات"، أي المماليك الذين يمثلون المماليك ذوي المرتبات المنتظمة، وكانوا يسمون "المماليك الكتابية أرباب الجامكيات"، أي المماليك الذي أرسلوا إلى المكتب(٥٥).

وكذلك ما تشير إليه بعض المصادر المعاصرة من أن الأمير سيف الدين كوندك الساقي، الذي تولى نيابة السلطنة على عهد الملك السعيد محمد بركة خان بن الظاهر بيبرس لقي تعليمه وتربى في المكتب مع الملك السعيد هذا عندما كانا طفلين(٥٦). كما أن الجيل الثاني على الأقل من أبناء الوافدين منهم تعلم اللغة العربية، وحفظ القرآن الكريم في المكاتب وكانت لهم مساهماتهم في كثير من أوجه النشاط الثقافية في ذلك العصر، وهذا ما سوف نوضحه في السطور القليلة القادمة، أما عن الجيل الأول من هؤلاء المغول فقد احتفظوا بلغتهم الأصلية كلغة للتخاطب والتعامل في الحياة اليومية، وعلموها أبناءهم. أو بعبارة أخرى هجرات المغول إلى مصر كانت من ذلك النوع الي يتسم فيه المهاجرون بسمة التكيف مع المهجر، حيث كان كثير من أبناء هؤلاء المهاجرين وأحفادهم يستمرون في دولة المهجر مكونين بذلك جيلاً من المهاجرين الدائمين أكثر ارتباطاً بالمهجر من ارتباطهم بالوطن الأم(٥٧). لذا لا غرابة أن نسمع عن كثير منهم بعد أن أتموا تعليمهم سواء في "الكتاتيب" المكاتب، أم في الطباق، أنهم واصلوا تعليمهم وبخاصة في العلوم الدينية، فمنهم من حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب وحرص على تجويده، ومنهم من برع في الفقه والحديث والأدب ونظم الشعر (٥٨) فقد اشتهر الأمير محمد ابن جنكلي بن البابا المتوفي سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م بأنه درس الحديث والطبقات وقارف النظم(٥٩) ومن الأمراء المغول الذين كانت لهم مشاركات في فنون القول وبخاصة إقراض الشعر الأمير سيف الدين نوغاي "نوغيه" أحد كبار الأمراء في عصر الناصر محمد بن قلاوون. فعندما توجه إلى الناصر محمد بعد أن تخلى عن السلطنة، وعندما سأله الناصر محمد عن سبب قدومه في ذلك الحين إلى عقبة أيلة حيث كان الناصر يتصيد بها فأنشأ نوغية يقول :

أنت المليك وهذه أعناقنا
خضعت لعز علاك يا سلطاني
أنت المرجّي يا مليك فمن لنا
أسد سواك ومالكُ البلدان

---

(٥٥) المصدران السابقان نفس الجزء والصفحة .

(٥٦) ابن تغري بردي، النجوم، جـ ٢، ص ٣٢٧-٣٤٧؛ بيبرس الدوادار، **التحفة الملوكية**، ص ٧.

(٥٧) ابن الفرات، **تاريخ ابن الفرات**، جـ ٨، ص ٩٥.

(٥٨) فتحي محمد أبو عيانة "**جغرافية السكان** (بيروت: دار النهضة العربية ١٩٨٦م)، ص ٢٨٤.

(٥٩) ابن تغري بردي، **المنهل الصافي**، جـ ١، ص ٤٠٤؛ السخاوي، شمس الدين (ت ٩٠٢هـ)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (القاهرة، ١٩٣٤-١٩٣٦م)، جـ ٣، ص ٣٣؛ العريني، المماليك؛ ص ٩٤-٩٥.

بالإضافة إلى عدة أبيات أخرى، ثم حكى له ما وقع منذ خرج الملك الناصر من مصر إلى يوم تاريخه.[٦٠] ومنهم من كان شغوفاً باقتناء الكتب في أنواع العلوم المختلفة، نذكر منهم على سبيل المثال الأمير بدر الدين بيدرا بن عبد الله المنصوري (ت ٦٩٣هـ/١٢٩٣م) نائب السلطنة بالديار المصرية في دولة الأشرف خليل بن قلاوون. "كان بيدار جليل القدر، ويرجع إلى دين وعقل وعدل. وكان يحب جمع الكتب في أنواع العلوم، واقتنى منها جملة، واستنسخ جملة أيضاً، وكان يحب الفضلاء وأهل العلم ويقدمهم ويكرمهم، وهو الذي خرج على الأشرف خليل بن قلاوون وقتله هو والأمير حسام الدين لاجين ...".[٦١]

ومنهم من حرص على عقد مجالس العلم المختلفة وتقريب العلماء إليه أمثال الأمير ألجاي ابن عبد الله الناصري الدوادار "ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م"، أحد مماليك السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذي كان "يحب الفضلاء، ويميل إليهم، ويقضي حوائجهم، ويناﻣﻮن عنده ويبحثون ويسمع كلامهم، ويتعاطى معرفة علوم كثيرة ...".[٦٢]

ومن المرجح كذلك أن بعض أبناء العناصر المغولية التي وفدت على مصر كان لهم دراية بالطب، ولعلهم مارسوه في نطاق الجيش المملوكي، ودليلنا على ذلك ما أشارت إليه بعض المصادر المعاصرة، فقد جاء في ترجمة الأمير سيف الدين بن عبد الله الذي توفى عام ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م في عهد المنصور قلاوون لقب "الحكيمي" "أيد غمش بن عبد الله الحكيمي، يلقب سيف الدين"، إذ أن لقب "الحكيمي" هذا وكما هو معروف من ألقاب النسبة إلى المهنة بالديار المصرية، وكان ضمن جماعة أمراء المغول الذين اتفقوا مع الأمير سيف الدين كوندك نائب السلطنة في عهد الملك السعيد بركة بن الظاهر بيبرس على قتل المنصور قلاوون، وقبض عليه وقتله المنصور قلاوون ضمن من قتل من الأمراء المتآمرين.[٦٣]

وفي القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي، أي في دولة المماليك الثانية أو الجراكسة كان أبناء العناصر المغولية يلعبون دوراً مهماً في الحياة الثقافية، وشاركوا فيها بنصيب وافر، فقد كان منهم بعض كبار الفقهاء في ذلك العصر، حيث تذكر بعض المصادر المعاصرة منهم : "أحمد بن عبد الله بن الحسن بن طوغان بن عبد الله الشهاب الأوحدي – نسبة لبيبرس الأوحدي نائب القلعة لكون جده لما قدم من بلاد الشرق سنة عشر وسبعمائة اتصل بخدمته وناب عنه بالقلعة فشهر به – القاهري المقرئ الشافعي الأديب المؤرخ ... ورافق شيخنا [يقصد ابن حجر العسقلاني] في بعض ذلك وكتب بخطه وبرع في القراءات والأدب وجمع مجاميع واعتنى بالتاريخ وكان لهجابه، وكتب مسودة كبيرة لخطط مصر والقاهرة تعب فيها وأفاد وأجاد وبيض بعضها فبيضها التقي المقريزي ونسبها لنفسه مع زيادات، وله نظم كثير قال شيخنا سمعت من نظمه وفوائده ... كان بزي الأجناد قليل ذات اليد. مات في تاسع عشر جمادى الأولى سنة أحدى عشرة وثمانمائة ..."[٦٤] وواضح من هذا النص أن الشهاب الأوحدي هذا من أصل مغولي.

(٦٠) ابن تغري بردي، **المنهل** جـ ٣، ص ١٤١.
(٦١) ابن تغري، **النجوم**، جـ ٨، ص ٢٥٤.
(٦٢) ابن تغري بردي، **المنهل** جـ ٣، ص ٤٩٣-٤٩٤.

(٦٣) ابن تغري بردي، **المنهل**، جـ ٣، ص ٣٩-٤٤.
(٦٤) ابن الفرات، **تاريخ نجد والفرات**، جـ ٧، ص ٢٣٦.

ومنهم "أحمد بن علي بن قرطاي الشهاب أبو الفضل بن العلاء بن السيف المصري الحنفي سبط محمد بن بكتمر الساقي الحنفي ويعرف بسيدي أحمد بن بكتمر. ولد في يوم الأحد ثالث عشري شعبان سنة ست وثمانين وسبعمائة بالقاهرة ونشأ بها في ترف زائد ونعمة سابغة وثروة ظاهرة من إقطاع وأوقاف كثيرة جداً حتى أن غلته تزيد على عشرة دنانير كل يوم فيما قيل ومع ذلك فلا يزال في دين كثير لكونه يقتني الكتب النفسية بالخطوط المنسوبة والجلود المتقنة وغير ذلك من الآلات البديعة والقطع المنسوبة الخط وقد اشتغل في الفنون وأتقن صنائع عدة وبرع في الفقه وكتب على العلاء بن عصفور فبرع في الكتابة وفنونها حتى فاق في المنسوب لاسيما في طريقة ياقوت ... وأكثر النظر في التاريخ والأدبيات وقال الشعر الجيد وهو ممن قرض سيرة المؤيد لابن ناهض. وكان فاضلاً أديباً شاعراً لطيفاً حسن المحاضرة صبيح الوجه محباً في الفضائل والتحف ذا ذهن وقاد مع السمن الخارج عن الحد ... توفى عاشر ذي القعدة سنة إحدى واربعين وثمانمائة ..". ولقد ظهر له بعد موته من الكتب النفيسة والتحف ما أدهش الناس(٦٥)

ومنهم "أحمد بن نوكار الشهابي الناصري نشأ فقرأ القرآن والقدوري والمنار وألفية النحو الشاطبية عند فارس الآتي وعرض على شيخنا [ابن حجر العسقلاني] والعيني وغيرهما بل عرض على الظاهر جقمق وأنعم على فقيهه بمائة دينار وزاد جامكيته وأخيه، .. واشتغل بالتجويد وغيره وكذا اختص بأخرة بالجلال السيوطي وأخذ عنه في فنون ويذكر بصلاح وورع وتحر عقل وانعزال وتودد، وبلغني أن الأشرف قايتباي جعل نظر جامعه بالكبش له"(٦٦) هؤلاء وغيرهم ممن تذكرهم المصادر المعاصرة من سلالة العناصر المغولية الذين نشأوا في الإسلام في مصر، فحفظوا القرآن الكريم ودرسوا الفقه وتتلمذوا على أيدي مشاهير ذلك العصر في النحو والعربية والحديث، بل إن منهم من اشتغل بعلم الحديث النبوي حتى برع فيه وتولى تدريسه في المدارس الشهيرة مثل المدرسة الظاهرية نسبة إلى الظاهر بيبرس(٦٧).

ونظراً لطبيعة العلاقات المضطربة بين دولتي المماليك في مصر والمغول في إيران، قبل أن يتم الصلح بينهما في عهد الناصر محمد بن قلاوون، وما قام به هؤلاء المغول من محاولات متكررة للاعتداء على البلدان الإسلامية الخاضعة لسلطنة المماليك في مصر، فكان لابد لمؤرخينا المعاصرين من أن يبرزوا هذه الأحداث، وأن يستقصوا أخبار هؤلاء القوم ورصد تحركاتهم بل والحديث عن هجراتهم إلى مصر وأسبابها، وتقاليدهم ورسومهم، لذا استقى بعض مؤرخينا كل ما يهمهم للوقوف عليه من معلومات من أبناء العناصر المغولية الذين وفدوا إلى الديار المصرية. وقليل منهم من أشار إلى ذلك صراحة. ولنضرب مثلاً بالمؤرخ موسى بن محمد بن يحيى اليوسفي المتوفى عام ٧٥٩هـ/١٣٥٨م، وهو الذي نقل عنه كثيرون من مؤرخي العصر المملوكي أمثال المقريزي وابن تغري بردي، والعيني، وابن حجر وغيرهم، فقد استفاد من صداقته للأمير سيف الدين أيتمش المحمدي "ت ٧٣٦هـ/١٣٣٥م" حيث أشار اليوسفي إلى أن صداقته لهذا الأمير تعود إلى سنة ٧٠٩هـ/١٣١م،

(٦٥) السخاوي، **الضوء اللامع**، جـ ١، ص ٣٥٨.

(٦٦) السخاوي، **الضوء اللامع**، جـ ١، ص ٣٠-٣١؛ ابن تغري بردي، المنهل، جـ ١، ص ٣٩٢-٣٩٣.

(٦٧) السخاوي، **الضوء اللامع**، جـ ٢، ص ٢٤٠.

فقد وفر له سبل الاتصال بكبار رجالات العصر، إضافة إلى أنه كان بمثابة المصدر لكثير من المعلومات عن أخبار المغول "وكان من المحسنين إليّ، وسبب تكبيري بين الناس، وقدمني للسلطان دفعتين والنائب حتى نلت كل خير وسمعت منه من الغرائب ما استغنت به على هذا التاريخ وغيره من أمور كانت تتفق له مع السلطان، وما كان يتفق له في بلاد الشرق وغيره".(٦٨)

كذلك يذكر مؤرخنا الشهير ابن تغري بردي في حديثه عن الأمير الكبير سيف الدين أسنباي الزردكاش "ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م"، وهو من أعيان المماليك الظاهرية برقوق يقول عنه ابن تغري بردي : "وكان بيننا صحبة أكيدة، وهو أحد من كنت آخذ عنه تراجم من لم أدركته من الأمراء الظاهرية، واجتمع مرة عندي مع الشيخ تقي الدين المقريزي، فلما اجتمعا أخذا في ذكر ما جري من الحوادث في الدولة الظاهرية برقوق وهلم جرا إلى دولة الأشرف برسباي، فسكت المقريزي وتكلم أسنباي على الإنصاف إلى أن انصرفا وتفرقا، ثم بعد ذلك سألت عنه من الشيخ تقي الدين فقال : ما رأيت من يحفظ الحوادث والوقائع مثل هذا ... "(٦٩) وكذلك يقول عن الأمير سيف الدين أسبنغا بن بكتمر البكري "ت ٧٧٧هـ/١٣٧٥م" من مماليك السلطان الأشرف شعبان بن حسين "وكان أميراً جليلاً، عارفاً خبيراً بالوقائع وغيرها، قديم الهجرة، ظاهر الحرمة والوقار والسكون، حسن الكتابة، طيب الأخلاق، لين الجانب، رحمه الله تعالى".(٧٠)

وتجدر الإشارة إلى أن الدقة التي تتميز بها المعلومات التي زودنا بها المؤرخ بيبرس المنصوري عن المغول والتتار، ترجع لا إلى أنه مغولي الأصل، أو لأنه على حد قول ابن تغري بردي "كان عاقلاً، فاضلاً، بارعاً، عارفاً، سيوساً، ذا مشاركة وفضل وصنف تاريخاً كبيراً أجاد فيه وأبدع ..." فحسب(٧١) بل لأن بيبرس المنصوري استقاها رأساً من الأمير سيف الدين جنكلي بن البابا، وهو من كبار الشخصيات المغولية التي وفدت على مصر سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م، ودونها في واحد من أهم مؤلفاته التاريخية وهو كتاب التحفة الملوكية في الدولة التركية وبخاصة في الفترة التي سبقت السنوات من ٦٨٥-٧١١هـ، والتي كان فيها شاهد عيان بفضل ما تقلده فيها من وظائف وقربه من السلطان.(٧٢)

وإذا تركنا الحديث عن بيبرس المنصوري كأحد كبار المؤرخين المغول، وهو ما سوف نشير إليه في السطور التالية، ونظرنا إليه على أنه أحد أبناء العناصر المغولية الموجودة في مصر، والمصادر التي استقي منها بعض مشاهير مؤرخي ذلك العصر كثيراً من المعلومات التاريخية عن الأحداث التي شارك فيها بيبرس المنصوري بنفسه، لوجدنا النويري "شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت ٧٣٣هـ"، صاحب كتاب نهاية الأرب يذكر صراحة أنه نقل أخبار تلك الفتنة التي أحدثها علم الدين سنجر للقضاء على العناصر المغولية والانفراد بالسيطرة على العرش خاصة وأن السلطان الناصر محمد بن

---

(٦٨) السخاوي، **الضوء اللامع**، جـ ٥، ص ٦٢، ٦٣، ٩٧.

(٦٩) اليوسفي، موسى بن محمد بن يحيى (ت ٧٥٩هـ - ١٣٥٨م)، **نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر**، تحقيق أحمد خطيط، (بيروت: عالم الكتب، ١٩٨٦م)، ص ٧-٤٥.

(٧٠) ابن تغري بردي، **المنهل**، جـ ٢، ص ٤٣٤-٤٣٥.

(٧١) ابن تغري، **المنهل**، جـ ٢، ص ٤٣٦.

(٧٢) ابن تغري، **المنهل**، جـ ٣، ص ٤٧٧.

قلاوون كان صغير السن حيث كان قد بلغ تسع سنين، فيقول : "وأخبرني الأمير ركن الدين بيبرس، في ليلة الثامن من شوال سنة سبع وسبعمائة، أنه ضرب على رأسه بدبوس، وأراني أثر الضربة. وكان قد ذكر لي ذلك، في أثناء ذكره لسالف خدمة السلطان، وما لقيه وقاساه"(٧٣).

وإذا كان الأمير ركن الدين بيبرس الخطائي المنصوري الدوادار مملوك السلطان سيف الدين قلاوون، والذي جاء إلى مصر عام ٦٥٩هـ في سن يتراوح ما بين العاشرة والثانية عشرة، وتربى فيها، كان واحداً من المصادر التي استقى منها بعض المؤرخين بطريق مباشر أمثال النويري وابن الفرات، فإنه كان واحداً من أهم المؤرخين الذين كتبوا في التاريخ الحربي بما له من خبرة في ذلك الميدان. والواقع أن نشأة بيبرس في وسط مملوكي أتاحت له ميزات كثيرة، فكان على صلة بالبلاط المملوكي وبالطبقة الحاكمة بدرجة مكنته من الاطلاع على كثير من أمور الدولة. فلم يكن شاهد عيان فقط للأحداث بل شارك مشاركة فعالة فيها، فاتسمت مؤلفاته بالصدق والمعايشة الحقيقية. كذلك من الملاحظ في كتاباته شيوع بعض الألفاظ المغولية الأصل مثل كلمة " الإيلجية " أي الرسل الذي يرسلهم الخان المغولي لأحد الأمراء أو الحكام، وكلمة "جوك" وهي كلمة مغلوية أيضاً معناها الجلوس على الركبتين كدليل على الاحترام وتؤدي إلى الحكام دلالة على الخضوع والولاء(٧٤). كما أنه كان واحداً من المؤرخين الذين أخذ عنهم كثير من مؤرخي العصر المملوكي وبطريق غير مباشر أمثال المقريزي وابن تغري بردي(٧٥).

ومن الواضح أنه بعد أن انتهى من تاريخه الكبير "زبدة الفكرة" أراد أن يسجل للسلطان الناصر محمد بن قلاوون تاريخ دولة المماليك على حدة، فكتب مؤلفه "التحفة الملوكية في الدولة التركية" في سنة ٧١٠هـ، واستكملها حتى سنة ٧١١هـ، وجعلها هدية للسلطان الناصر، لكي يشرفه بمطالعة هذا التاريخ ويعطره بملاحظاته ويجتلى منه أنوار سلفه الشهيد ويجتني ثمار تصرفه السعيد. وهذا الكتاب يكشف لنا عن شغف المؤلف بالتاريخ وحبه واعتنائه بسرد الأحداث والوقائع لقيمتها التاريخية في حد ذاتها. وقد اقتصر في سرده للأحداث على ذكرها مرتبة حسب السنين الأولى من تاريخه أي ما بين عامي ٦٤٧هـ – ٦٨٥هـ فإنه يقوم بسرد الأحداث المأخوذة ممن سبقه من المؤرخين، أو ما سمعه من النقلة الذين عركوا الأحداث وعاصروها. وفي الفترة من ٦٨٥ – ٧١١هـ فهي سرد حي لشاهد عيان. وهذا التاريخ الذي كتبه في التحفة قد اقتبسه منه كثيرون ممن خلفه من المؤرخين الذين عاشوا في القرن التاسع، سواء بصورة مباشرة، أو بصورة غير مباشرة وكما سبق أن أسلفنا.(٧٦)

ولم يكن الأوحدي وبيبرس المنصوري هما فقط ممن اهتم بالتاريخ وتدوين الأحداث بل تشير المصادر المعاصرة إلى البعض الأخر ممن اهتم بالتأريخ للفقهاء ورجال الحديث بطبقاتهم المختلفة، فالصفدي في كتابه الوافي بالوفيات يذكر أن الأمير ناصر الدين ابن البابا، محمد ابن جنكلي بن البابا، أحد أمراء الدولية الناصرية

---

(٧٣) بيبرس المنصوري **التحفة الملوكية**، ص ١٥-١٦.

(٧٤) النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣)؛ **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق السيد الباز العريني، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م)، جـ ٣١، ص ٢٧٥.

(٧٥) بيبرس الدوادار، **زبدة الفكر في تاريخ الهجرة**، الجزء التاسع، تحقيق د. زبيدة محمد ع (الرياض، ١٩٨٤م)، ص ٢١-٤٩.

(٧٦) بيبرس الدوادار، **كتاب التحفة الملوكية**، ص ١٧.

محمد بن قلاوون، الذي توفي بالقاهرة في شهر رجب من سنة إحدى وأربعين وسبعمائة وقد تجاوز الأربعين "كتب طبقة واشتغل في غالب العلوم ولم يزل مواظباً على سماع الحديث واختلط بالشيخ فتح الدين [ابن سيد الناس] كثيراً وعنه أخذ معرفة الناس وأيامهم وطبقاتهم وأسماء الرجال وكان آية في معرفة فقه السلف ونقل مذاهبهم وأقوال الصحابة والتابعين وهذا أجود ما عرفه مع مشاركة جيدة في العربية والطب والموسيقى ... وكان يتمذهب بمذهب الإمام أحمد ابن حنبل رضي الله عنه ... وخرج له شهاب الدين أحمد بن أيبك الدمياطي أربعين حديثاً وحدث بها قبل موته وقد شاركته في بعض سماعاته وسمع بقراءتي بعض تصانيف الشيخ فتح الدين".(٧٧)

ولعلنا لا نغالي إذا قلنا أنه كان لأبناء العناصر المغولية أثرهم الواضح في شيوع نوع من الكتابات الخاصة بالفروسية لإرشاد المعلم والمتعلم إلى ما ينبغي معرفته من أصول الفروسية من حيث ركوب الخيل ورياضتها، والتدرب على استعمال الأسلحة المختلفة من الطعن بالرمح، والضرب بالسيف، والرمي بالنبل، ومزاولة ألعاب الفروسية، ذلك باعتبار أنهم كانوا من المحاربين الأفذاذ، ولما أحدثته فتوحاتهم من أصداء كان لها هذا الأثر، ومعظم الرسائل التي وضعت في هذا المجال ترجع إلى العصر المملوكي الأول، إذ اهتم السلاطين بتعليم المماليك في الطباق، واقتضت الأحوال وضع رسائل لشرح التداريب الحربية وموضوعات الفروسية. لذا زخرت الرسائل بالمصطلحات الفنية الغريبة عن اللغة العربية، ولم يتقيد مؤلفو هذه الرسائل بجودة الأسلوب ولا سلامة العبارة، فكثرت بها الأخطاء الإملائية والألفاظ العامية. وأكثر هؤلاء المؤلفين شغل مناصب حربية في الدولة المملوكية، وحرص على تضمين هذه الرسائل مذاهب أساتذة الفروسية ومعلميها في فنونها المختلفة.(٧٨) كما استفاد المشتغلون بالتأريخ لفنون القتال وأعمال الفروسية مما كتبه بعض أمراء المماليك من العنصر المغولي، فالشيخ محمد بن عيسى الحنفي الأقصرائي "ت ١٣٥٠م" جمع ما ألفه نجم الدين الأحدب "ت ٦٩٤هـ/١٢٩٥م" أستاذ جميع مؤلفي كتب الفروسية في مجال العمل بالرمح، وبكتب الرماح "ت ٧١١هـ/١٣١١م" وغيره من الأستاذين في كتاب جامع شامل للفروسية والفنون الحربية سماه "نهاية السؤل والأمنية في تعلم أعمال الفروسية"(٧٩) وتنبغي الإشارة إلى أن مؤلفات الفروسية – بصفة عامة – كتبها رجال كانوا في الغالب ممن اشتغلوا بتعليم ذلك الفن، أو ممن جمعوا ما صار قاعدة عملية ونظرية في مجال الفروسية والفنون الحربية. والقليل منهم فقط ضمن مؤلفه أو مصنفه لوحات ملونه ورسومات تخطيطية تعين القارئ على فهم ما تحتويه تلك الكتب .. ويرجع ذلك إلى ذيوع اللسان التركي، وإلى دخول كثير من ألفاظ اللغات المجاورة من فارسية ومغولية في مصطلح الجيش والبحرية والدواوين(٨٠).

---

(٧٧) بيبرس الدوادار، **كتاب التحفة الملوكية**، ص ١٧.

(٧٨) الصفدي، صلاح الدين خليل، **كتاب الوافي بالوفيات**، (فيسبادن: جمعية المستشرقين الألمانية، ١٩٧٤م)ن جـ ٢، ص ٣١٠-٣١١؛ المقريزي: المقفي الكبير، جـ ٥، ص ٥٠٨.

(٧٩) الصفدي، صلاح الدين خليل، **كتاب الوافي بالوفيات**، (فيسبادن: جمعية المستشرقين الألمانية، ١٩٧٤م)ن جـ ٢، ص ٣١٠-٣١١؛ المقريزي: المقفي الكبير، جـ ٥، ص ٥٠٨.

(٨٠) عبد العزيز عبد الدايم، **نهاية السؤل والأمنية في تعلم أعمال الفروسية**، رسالة دكتوراة غير منشورة، بجامعة القاهرة، ص ١١-١٤.

وهنا تنبغي الإشارة إلى أن المغول الذين وفدوا على مصر لم يكن لهم تأثير واضح في مجال الفنون التشكيلية، بدليل أن المخطوطات المزوقة بالتصاوير التي أنتجتها مصر في عصر المماليك تمتاز بمحافظتها على التقاليد العربية وبخلوها من التأثيرات المغولية وذلك على عكس التصاوير المعاصرة التي أنتجت في أقطار أخرى دخلها التتار وصاروا يحكمونها. والتي وضحت فيها التأثيرات المغولية في سحن الآدميين ورسم الثياب والأدوات المنزلية، وتمثيل المناظر الطبيعية ولا سيما الأشجار والنبات بروح صينية قريبة من الواقع، ورسم بعض الحيوانات برسم الموضوعات الحزينة التي تمثل الصراع والحرب، وذلك لطبيعة المغول الحربية وحبهم لتمجيد أعمال القسوة والعنف[٨١].

أما عن أثر المغول في الأدب، فإن الباحث في الأدب المملوكي في ذلك العصر سوف يجد أن الشعراء قد رأوا في المرأة التركية بوجه عام والمغولية بوجه خاص صورة مثلى للجمال، فكثر تغزلهم بهن وإشادتهم بجمالهن، ويصف محي الدين بن عبد الظاهر إحداهن بوجهها الناصع وشعرها الفاحم، والتي بدت له كالملكة على كل ما في الكون من مظاهر الجمال، فالبدر لا يزيد على كونه حاملاً لغاشية موكبها، والنجوم ليست أكثر من حاشية لها، وهو بتصويره هذا يستمد صورة مما يراه في المواكب السلطانية، وليس أنسب من أن تكون هذه الكواكب مدداً في رسم صورة هذه الفاتنة المغولية، فنراه يقول : [٨٢]

أنا في حب مثلها لا أخاشي
لا ولا أرتضي مقالة واشي
ظبية من بنات خاقان لكن
شعرها منه قد رأينا النجاشي
غارت الشمس إذ رأتها نهاراً
لا تري ظل شعرها لا تماشي
وإذا في دجنة قد تبدت
فلديها للبدر حمل الغواشي
أو تمشت في الليل قلت تراها
هي بدر له النجوم حواشي

وسادت معايير الجمال المغولي فأصبح الوجه الأبيض والشعر الفاحم من تمام الجمال، ولعلنا لاحظنا ذلك فيما مر من أبيات، كذلك صارت العيون الضيقة مثار فتنة الشعراء، فيقول سيف الدين بن المشد :

أوقع القلب في أشد الوثاق
ضيق العين ضيق الأحداق

ويقول الوداعي :

وطرف يضيق ويلاه من طعنات النجل

ويصور ابن نباته انبهار العذول بجمال هذه العيون الضيقة لدرجة كف فيها عن عذله فيقول :

بهت العذول وقد رأي ألحاظها
تركية تدع الحليم سفيها
فثنى الملوم وقال دونك والأسى
هذا مضايق لست أدخل فيها[٨٣]

وفي العصر المملوكي، شهد المجتمع المصري بوجه عام، ومجتمع القاهرة بوجه خاص ازدهار فنون الطرب والغناء وضروب اللهو نتيجة للرواج الاقتصادي الذي عم البلاد معظم ذلك العصر، من جراء مرور تجار الشرق الأقصى بها، بحيث انعكست آثاره واضحة في إقبال الناس حكاماً ومحكومين على هذه الفنون

(٨١) محمد مصطفى زيادة، **المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي** (القاهرة ١٩٦٤)، ص ١٠٥.

(٨٢) حسن الباشا، **الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية** (القاهرة ١٩٦٥)، جـ ١، ص ٣٦، **التصوير الإسلامي في العصور الوسطى** (القاهرة ١٩٥٩)، ص ١٦٥، ٢٠٩ ـ ٢١٠.

(٨٣) فوزي محمد أمين، **المجتمع المصري في أدب العصر المملوكي الأول**، (القاهرة : دار المعارف، ١٩٨٢م) ص ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩.

والملاهي ومتع الحياة ولذاتها. ولم يدخر سلاطين وأمراء المماليك – بصفتهم الطبقة الحاكمة – وسعاً في الإقبال على المطربين والمطربات والعازفين والعازفات، وتشييد المغانيات وهي قاعات خصصت لسماع الغناء والطرب، والاستمتاع بمشاهدة الرقص وسماع الموسيقى[٨٤] كما كثرت الإشارة في المصادر المعاصرة إلى ورود أعداد من الجواري الجنكيات من بلاد المغول إيران كهدايا لسلاطين المماليك في مصر، أي الجواري اللاتي يجدن العزف على الجنك وهو آلة وترية تشبه العود[٨٥].

ومما لا شك فيه أن الجواري الجنكيات لقين قبولاً لدى الناس من حكام ومحكومين، فلعبن بألباب الناس عزفاً وجمالاً، وبذلك أطلقن ألسنة الشعراء يقولون فيهن ما يعن لهم من خواطر يلهبها ذلك الإحساس بالجمال وحلاوة وبراعة الأداء إلى الإكثار من الشعر الغنائي، والحديث عن الغناء والمغنين وعن الطرب وآلاته [٨٦]. كما أن هؤلاء الجواري وغيرهن من بنات العناصر المغولية أستأثرن بالحظوة وذلك لبراعة الكثيرات منهن في العزف على الآلات المختلفة، نرى ذلك بوضوح فيما نقرؤه من شعر هذا العصر. كما أن الباحث في الأدب المملوكي في ذلك العصر سوف يجد حشداً هائلاً من شعر الغزل والذي يعبر أصدق تعبير عن أثر هؤلاء الجواري في الحياة الأدبية. بل وذوق هذا العصر، ونظرته إلى الجمال، وبعض ما طرأ على معايير هذا الجمال من تطور وتغيير[٨٧]

ويرى أحد الباحثين المحدثين أنه نتيجة لكثرة أعداد الجواري في المجتمع المصري بوجه عام، ومجتمع القاهرة بوجه خاص في ذلك العصر، وما ترتب على ذلك من تغييرات اجتماعية وأدبية، أن أثمر ذلك العصر فناً جديداً لم تعرفه العربية والإسلامية من قبل، ألا وهو فن النقد الاجتماعي والدعوة إلى الإصلاح الديني والاقتصادي، وأن من حق المكتبة العربية الإسلامية أن تفخر بثلاثة كتب قيمة وفريدة في موضوعاتها وهي كتاب المدخل إلى الشرع الشريف على المذاهب لمؤلفه ابن الحاج، وكتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة للمقريزي، والكتاب الثالث هو معيد النعم ومبيد النقم لتاج الدين السبكي، هذه المؤلفات تكشف لنا عن المفارقات العجيبة في حياة الناس، وتنتقد ما شاع في أوساطهم من بدع وعادات رذيلة، وأخلاق ذميمة، وتوجه لهم النصح والإرشاد، وسهام النقد لكل ما يخالف روح الشريعة وجوهر الإسلام.[٨٨]

كذلك كان لأبناء العناصر المغولية بوجه عام، وأبناء الأويراتية منهم بوجه خاص أثرهم في الأدب المملوكي، حيث عرف غلمانهم بالجمال حتى كان " يقال لهم البدورة فيقال البدر فلان والبدر فلان" من شدة جمالهم. والمعروف أنهم قدموا إلى مصر في أوائل عصر السلطان الظاهر بيبرس، واعتنقوا الدين الإسلامي، وزاد عددهم زيادة كبيرة في عهد الملك العادل زين الدين

---

(٨٤) أمين، **المجتمع المصري**، ص ٣٠٩.

(٨٥) ابن تغري بردى، **النجوم**، جـ ١٠، ص ٩٦؛ محمد زغلول سلام: **الأدب في العصر المملوكي** (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧١م)، جـ ١، ص ٢٨١_٢٨٥؛ محمد قنديل البقلي، **الطرب في العصر المملوكي** (القاهرة ١٩٨٤م) ، ص ٤٣_٤٤.

(٨٦) العمري، ابن فضل الله (ت ٧٤٢)؛ **التعريف بالمصطلح الشريف** (مطبعة العاصمة ١٣١٢هـ)، ص ٢٠٨_٢١٥؛ المقريزي، **السلوك**، جـ ٢ن قسم ١، ص ٢٤٠_٢٤١؛ جـ ٢، قسم ٢، ص ٣٤٠_٣٤٥.

(٨٧) ابن حجر العسقلاني، **الدرر الكامنة**، جـ ٤، ص ١٧٣.

(٨٨) فوزي محمد أمين، **المجتمع المصري**، ص ٣٧١_٣٧٣.

كتبغا، وأنزلوا بالحسينية، وقد بهر جمالهم كثيراً من الشعراء المعاصرين. فهذا هو أحد شعراء المتصوفة وهو تقي الدين السروجي الذي تدله بحي الحسينية وسكانه، وكتب قصيدة يعبر بها عن مدى ولعه بهؤلاء الغلمان من المغول، وقد ذهب في قصيدته إلى حد ترصيع أبياته ببعض الألفاظ المغولية التي يفهمها معشوقة ويصور لنا المقريزي هذه الظاهر وهي ظاهر الغزل بالمذكر حيث يقول : "ولله در الشيخ تقي الدين السروجي إذ يقول من أبيات :

يا ساعي الشوق الذي مذ جرى
جرت دموعي فهي أعوانه
خذ لي جواباً عن كتابي الذي
إلى الحسينية عنوانه
فهي كما قيل وادي الحمى
وأهلها في الحسن غزلانه
أمشي قليلاً وانعطف يسرة
يلقاك درب طال بنيانه
واقصد بصدد الدرب ذاك الذي
بحسنه تحسن جيرانه
سلم وقل يخشى مسن أي مسن
أشت حديثاً طال كتمانه
وسل لي الوصل فإن قال بق
فقل أوت قد طال هجرانه[٨٩]

واضح من هذه الأبيات بما لا يدع مجالاً للشك مدى شيوع ظاهر الغزل بالمذكر في أدب ذلك العصر ليس هذا فحسب، بل واضح كذلك مدى شيوع بعض المصطلحات والألفاظ المغولية التي كثرت في ذلك العصر مثل كلمة "بق" و "اوت" وغيرها من الكلمات التي نقرأها عند شعراء ذلك العصر، ومؤرخيه فابن تغري بردي يعمد كثيراً إلى شرح مثل هذه الألفاظ، وقد سبق أن ذكرنا كلمة "جبجي" التي تعني الزردكاش وهو المشرف على خزائن السلاح، وكانت مهمته كذلك إعداد آلات الحصار[٩٠]. واسم "بيسرى" المركب من لفظين هما "باي و سرى" ومعناه رأس سعيد أو سعيد الرأس. وكلمة "قصفا" التي تعنى "قصير"، وكلمة "طرنا" التي تعني "الكركي" والتي كان يتلقب بها بعض أمراء المماليك، وكلمة "سَمِز" التي تعني "سمين" والتي وصف بها بعض أمراء المغول[٩١] بل إنه لما يؤكد شيوع اللغة المغولية بين صفوف المماليك من جهة وعامة الناس من جهة أخرى ما يحكيه ابن تغري بردي عن أحد كبار أمراء المماليك المغولي الأصل وهو الأمير سيف الدين بشتك بن عبد الله الناصري "ت ٧٤٢هـ/١٣٤١م" أحد مماليك الناصر محمد بن قلاوون من أنه "كان زائد التيه، لا يكلم أستاداره، ولا الكاتب إلا بترجمان ..."[٩٢] كما أنه تمت الاستفادة من أبناء العناصر المغولية في مصر في ترجمة الكتب الواردة من خانات المغول سواء مغول إيران أم مغول القفجاق، وإرسالهم في السفارات إليهم مثال ذلك ما تشير إليه بعض المصادر من أن الأمير سيف الدين أو تامش الذي أرسله الناصر محمد بن قلاوون أكثر من مرة إلى العاهل المغولي بوسعيد "وكان أولئك القوم يركنون إلى عقله لأنه كان يعرف بالمغلي لساناً وكتابة ويدري آداب المغل، ... ويعرف بيوت المغل وأصولهم ويستحضر تواريخهم ووقائعهم، وكان إذا جاء من تلك البلاد كتاب إلى السلطان بالمغلي يكتب

(٨٩) حبشي سيد نصر، **المجتمع المصري في الشعر المملوكي**، رسالة دكتوراة بجامعة الأزهر، ص ٨٣-٩٠.

(٩٠) المقريزي، **الخطط**، جـ ٢، ص ٢٣ أحمد صادق الجمال، **الأدب في مصر في العصر المملوكي** (القاهرة ١٩٦٦م)، ص ٨٣-٩٠.

(٩١) ابن تغري بردي، **المنهل**، جـ ٢، ص ٤٣٣.

(٩٢) ابن تغري، بردي، **المنهل**، جـ ٣، ص ٥٠٢، ٢٥٢، ٣٧٢، ٤٢١، ٤٣٣.

الجواب عنه بالمغلي، وإذا لم يكن حاضراً كتبه الأمير سيف الدين طاير بغا ..."(٩٣).

أثر الهجرات المغولية في الحياة الاجتماعية :

إن الدارس لتاريخ مصر الاجتماعي عصر سلاطين المماليك يجد نفسه أمام عدة عوامل أدت إلى طبع الحياة الاجتماعية في ذلك العصر بطابع خاص مميز، وأول هذه العوامل يتمثل في طبقة المماليك التي دخلت على المجتمع المصري وحكمته حكماً مستقلاً مدة تقارب الثلاثة قرون، وهم الذين لم يختلطوا في الغالب بالمصريين، ولم يتأثروا بنظمهم وعوائدهم إلا في حالات قليلة وبقسط محدود. وارتبط بهم أبناء العناصر المغولية الذين هاجروا إلى مصر، وانخرطوا في السلك المملوكي. والعامل الثاني هي الحروب الصليبية وما نجم عنها من نمو العلاقات التجارية بين الشرق والغرب، وأثر ذلك فيما تم تحقيقه للطرفين من ثروة طائلة كانت لها انعكاساتها الواضحة في مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية في مصر، فضلاً عن تأثر المماليك بالنظم الإقطاعية اللاتينية التي اقتبسوها من جيرانهم الصليبيين. أما العامل الثالث فهو إحياء الخلافة العباسية في مصر على يد السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٥٩هـ، وما ترتب عليه من نشاط كبير في مختلف ميادين الحياتين العلمية والدينية، وأثره الواضح في المجتمع المصري في ذلك العصر(٩٤).

إلا أن وجه الأهمية هنا يتمثل فيما كان لأبناء العناصر المغولية من تأثيرات اجتماعية هامة، هذه التأثيرات تبدو أول ما تبدو فيما ظهر في مصر من أطعمة وأشربة لم تكن معروفة من قبل. فانتشر أكل لحوم الخيل وعمرت بها الموائد وبخاصة في المناسبات المختلفة من أفراح وحفلات، على الرغم من أننا لم نسمع عن ظاهرة أكل لحم الخيل في الأحوال العادية في العصور الإسلامية السابقة في مصر، بما يؤكد أن هذه الظاهرة التي أدخلها المماليك وتمسكوا بها إنما أتوا بها من مواطن المغول المختلفة وبخاصة مغول القفجاق بحوض نهر الفلجا، حيث كانت تؤكل لحوم الخيل في المواسم والأعياد(٩٥).

كذلك كان لأبناء العناصر المغولية هذه دور كبير في إدخال بعض أنواع من المشروبات أو الخمور والتي لم تكن معروفة من قبل في مصر، مثل مشروب "القميز" أو "القمز" والذي لقى إقبالاً من قبل المماليك بوجه خاص منذ بداية العصر المملوكي، وكان يصنع من ألبان الأفراس والتي يتم تركها فترة لتتخمر ثم يتم تناولها(٩٦) . وتشير بعض المصادر المعاصرة إلى أن السلطان الظاهر بيبرس كان يشرب القمز حتى قبل وفاته(٩٧) . وفي عهد من أتى بعده من سلاطين المماليك أصبح هذا المشروب مفضلاً سواء لدى السلاطين أم الأمراء المماليك. ففي أعقاب الانتصار الذي حققه السلطان المنصور سيف الدين قلاوون على التتار في حمص عام ٦٨٠هـ فإنه "جمع الأمراء والأكابر ومقدمي العساكر في مجلس اتخذه للأنس والانفساح وأعده للهو

(٩٣) ابن تغري بردي، **المنهل**، جـ ٣، ص ٤٦٧-٤٦٨.

(٩٤) الصفدي، **الوافي بالوفيات**، جـ ٩، ص ٤٤٠؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ ١، ص ٤٥٣.

(٩٥) سيد عاشور، **المجتمع المصري في عهد سلاطين المماليك**، (القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٦٣)، ص ٣-٧.

(٩٦) المقريزي، **السلوك**، جـ٢، ق ١، ص ٢٨٨، حاشية ٥؛ عاشور، **المجتمع المصري**، ص ٤ .

(٩٧) مصطفى طه بدر، **محنة الإسلام الكبرى، أول زوال الخلافة العباسية من بغداد على أيدي المغول** (الجزيرة ١٩٤٦م)، ص ٥١.

والانشراح، فجلسوا للشراب ودارت عليهم بالقمز الأكواس والأكواب ..."[٩٨].

وكذلك مشروب "التمر بغاوي" نسبة إلى الأمير تمر بغا المنجكي وهو في الأصل من أسرى المغول، وكان أول من أدخل هذا المشروب الذي كان يصنع من الزبيب الذي يخلط بالماء، والذي شاع شربه بشكل لم يسبق له مثيل أيام السلطان الظاهر برقوق[٩٩] وحتى أواخر دولة سلاطين المماليك.

كذلك كان لأبناء العناصر المغولية دور كبير فيما شاع في ذلك العصر من ملابس كانت جديدة على المجتمع المصري، سواء منها ما هو خاص بالنساء أم الرجال. فالمقريزي في حديثه عن الأمير سيف الدين طغجي الأشرفي المتوفي سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م، وهو أحد مماليك الأشرف خليل ابن قلاوون يقول : "وكان طغجي مليح الصورة حلو الشكل، فاتخذ الناس تفاصيل برسم النساء وسموها طغجي"[١٠٠] كذلك يذكر ابن تغري بردي في ترجمته للأمير سيف الدين أرغون شاه الناصري "ت ٧٥٠هـ/١٣٤٩م" أحد مماليك السلطان الناصر محمد بن قلاوون، والذي تم جلبه من بلاد بوسعيد أي مغول إيران، فحظي عند الناصر وأمره وجعله رأس نوبة، وكان يقترح "في الملابس أشكالاً غريبة، ويعمل بيده منها صنائع عجيبة ..."[١٠١].

أما الأمير سيف الدين سلار بن عبد الله المنصوري "ت ٧١٠هـ/١٣١٠م" نائب السلطنة في عهد الناصر محمد بن قلاوون فقد "افتتح بأشياء من الملابس لم تعرف قبله، وعرفت به ..."[١٠٢] أي أنه أدخل نوعاً من الأقبية كان يطلق عليها اسم "السلاري" أو "السلارية" وقد ورد وصفه كأحد الأردية الفوقانية ذات الأكمام الضيقة، وكان من المألوف عمل السلاري من ألوان مختلفة ومن خامات متنوعة، مثل القطن البعلبكي، ومن فراء السنجاب الرمادي، ومن الأطلس ذي الخيوط المعدنية، وكان يحلى أحياناً بزخارف غنية فخمة، وأحياناً أخرى كانت تنثر عليه اللآلئ والأحجار الكريمة، ولقد استمر حتى عهد المماليك الجراكسة[١٠٣].

وهي نفسها "الأقبية التترية" أو "المعاطف التترية"، التي كان يرتديها أمراء المماليك، كما يستدل من اسمها أن هذا الثوب كان من أصل أجنبي، وسمي كذلك لأنه بدلاً من عمل الشقة المستقيمة التقليدية للأقمصة التي كانت تلبس في العصر الفاطمي، كان للأقبية التترية كمران تلف الصدر من اليسار إلى اليمين، بعكس الأتراك الذين كانوا يفضلون الكمر الذي يلف الصدر من اليمين إلى اليسار. وكان القباء يصنع من الصوف، والأطلس، والحرير، أو القطن البعلبكي، وكان لونه إما أبيض أو مزيناً بأشرطة باللونين الأحمر والأزرق. وله أكمام ضيقة[١٠٤]

وقد ذكرها المقريزي في حديثه عن الأسواق فقال : "استجد الأمير سلار أيام الملك الناصر محمد القباء الذي يعرف بالسلاري، وكان قبل ذلك يعرف بالبغلطاق، وكانت هذه البغاليق إما بيضاء أو مشجرة أو أحمر وأزرق مرصعة

---

(٩٨) ابن عبد الظاهر، محي الدين ت ٦٩٢هـ)، **تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور**، تحقيق د. مراد كامل، (القاهرة ١٩٦١م)، ص ٢٦٥.

(٩٩) بيبرس المنصوري، **التحفة الملوكية**، ص ١٠٥.

(١٠٠) المقريزي، **السلوك**، جـ ١، ص ٦٠٧؛ ابن تغري بردي، **النجوم**، جـ ٧، ص ١٢٥؛ ابن الصيرفي "الخطيب الجوهري علي بن داود" **نزهة النفوس والأبدان**، تحقيق د. حسن حبشي (القاهرة، ١٩٧٠م)، جـ ١، ص ٣٦٩.

(١٠١) المقريزي، **المقفى الكبير**، جـ ٤، ص ٢١-٢٦.

(١٠٢) ابن تغري بردي، **المنهل**، جـ ٢، ص ٣١٤-٣١٦

(١٠٣) ابن تغري بردي، **المنهل**، جـ ٢، ص ٣١٤-٣١٦.

(١٠٤) ماير. **الملابس المملوكية**، ترجمة صالح الشيتي (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢)، ص ٤٤-٤٥.

بيضاء أو مشجرة أو أحمر وأرزق مرصعة بالجواهر وهي ضيقة الأكمام على هيئة ملابس الفرنج اليوم، ولم يزل هذا زيهم إلى أيام الملك المنصور قلاوون فغير هذا الزي بأحسن منه وأبطلوا الكم الضيق ..."(١٠٥).

كما وجد نوع آخر من لباس الرأس كان خاصاً بالعسكريين يطلق عليه اسم "سراقوج"، وكان يمثل إلى حد كبير الزي التتري المميز. وهو عبارة عن قلنسوة لها شكل مخروطي طويل بحافة مقلوبة إلى أعلى. وتشير بعض المراجع إلى أن هذا السراقوج سرعان ما اختفى من عالم الموضة خلال عصر المماليك البحرية، ثم بعد مضي قرن من الزمان، عاد إلى الظهور في عصر المماليك الجراكسة كلباس رأس للسيادات.(١٠٦)

كما كان لهؤلاء المغول دورهم في رواج كثير من الأمراض الاجتماعية في مصر في ذلك العصر، مثل الزنى واللواط وانتشار البدع والخرافات والاعتقادات الباطلة، إلا أنه تنبغي الإشارة إلى أنه من العسف القول بأن مصر انفردت دون غيرها من البلاد الإسلامية بهذه الأمراض الاجتماعية، فابن حجر يذكر عن بلاد "ابن عثمان" في أوائل القرن التاسع الهجري أن الزنا واللواط وشرب الخمر والحشيش كان فاشياً بها. وعندما عاب أحد مشايخ مصر على شيخ أندلسي في القرن السابع الهجري أن أهل الأندلس يشربون الخمر ويحبون الشباب، رد عليه الشيخ الأندليسي قائلاً : "أما الشباب فما أشك أن أهل مصر أفسق منا !" فتبسم الشيخ المصري وسكت(١٠٧). ويذكر ابن تغري بردي أن اللواط أو الشذوذ الجنسي انتشر في الشرق منذ دخول الخراسانية إلى العراق سنة ١٣٢هـ أي منذ أوائل الدولة العباسية(١٠٨). ولقد تحدث المقريزي عن أثر العناصر المغولية صراحة في انتشار اللواط فقال في حديثه عن الأويراتية : "وكانوا مع ذلك صوراً جملية، فافتتن بهم الأمراء وتنافسوا في أولادهم من الذكور والإناث واتخذوا منهم عدة صيروهم من جملة جندهم وتعشقوهم فكان بعضهم يستنشد من صاحبه من اختص به وجعله محل شهوته ثم ما قنع الأمراء ما كان منهم بمصر حتى أرسلوا إلى البلاد الشامية واستدعوا منهم طائفة كبيرة فتكاثر نسلهم في القاهرة واشتدت الرغبة من الكافة في أولادهم ..."(١٠٩)

كذلك يشير السخاوي إلى مدى الدور الذي لعبوه في انتشار تلك الأمراض الاجتماعية فيقول في ترجمته لأحد أبناء المغول وهو "أحمد بن يوسف الشهاب بن الجمال الأستادار التقوى الأصل، القاهري عوقب مع الرابية وأتباعه ثم قتل في ربيع الآخر سنة أربع عشرة وكان قد جهزه أبوه أمير الحاج في سنة إحدى عشرة على وجه يفوق الوصف وعاد في أول التي تليها، ويقال أنه مبدع الجمال بحيث امتحن أعجمي به ولكنه كان يقنع بالنظر وذهب في خدمته في الحجة المشار إليها ماشياً وكان أبوه يعلم ذلك إلا أنه لعلمه بعدم شئ زائد على هذا لم يزجره"(١١٠).

كما يذكر ابن تغري بردي في ترجمته للأمير سيف الدين بشتك بن عبد الله الناصري "ت٧٤٢ هـ/١٣٤١م" أحد مماليك الناصر محمد ابن قلاوون أنه "كان غير عفيف الذيل عن المليح

(١٠٥)ماير، **الملابس المملوكية**، ترجمة صالح الشيتي (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢م)، ص ٤٤-٤٥.
(١٠٦) المقريزي، **الخطط**، جـ ٢، ص ٩٩.
(١٠٧) ماير، **الملابس المملوكية**، ص ٥٦-٥٧.
(١٠٨) عاشور، **المجتمع المصري**، ص ٢٢٥.
(١٠٩) ابن تغري برد، **النجوم**، جـ٥، ص ٤٢٢، سعيد عاشور: المجتمع المصري، ص ٢٢٨.
(١١٠) المقريزي، **الخطط**، جـ ٢، ص ٢٢.

الفلاحين وغيرهم، ورمى بأمور ودواهي من هذه المادة ..." .[١١١]

وفيما يتعلق بدورهم في انتشار كثير من البدع والخرافات والمعتقدات الباطلة، فمن المعروف عن أبناء العناصر المغولية حبهم الشديد لمعرفة الطالع والنبوءات، بحيث أنهم كانوا من السذاجة بمكان، ويتضح هذا مما تطلقه عليهم المصادر المعاصرة من أوصاف دالة على ذلك وبخاصة العبارات التي تصف الواحد منهم بأنه "سليم الباطن". أو كان "يخدعه المنجمون"[١١٢]. أو أنهم "كانوا مولعين بالنجوم، وما يقوله أرباب التقاويم"، وهذه العادة ربما انتقلت منهم إلى سلاطين وأمراء المماليك، حيث أشارت بعض المصادر إلى أن السلطان الظاهر بيبرس المؤسس الحقيقي لدولة سلاطين المماليك "كان مولعاً بالنجوم، وما يقوله أرباب التقاويم، كثير البحث عن ذلك .."[١١٣].

وفي أواخر منتصف القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي تعرضت مصر لعدة تطورات اجتماعية نجمت عن كثرة أبناء العناصر المغولية بها من جهة، وتأثر الحكم المملوكي بالنظم السائدة عند المغول من جهة ثانية، ونتيجة لعدم وجود إقطاعات كثير من الأمراء المماليك من جهة ثالثة والذين أصبحوا يرتزقون من مظالم العباد على حد قول المقريزي، وهو شاهد عيان لما حدث في تلك الفترة فإنه يصور لنا ذلك في عباراته التي يقول فيها : "ثم تقلص ظل العدل وسفرت أوجه الفجور وكشر الجور أنيابه وقلت المبالاة وذهب الحياء والحشمة من الناس حتى فعل من شاء ما شاء ..."، ثم نراه يفسر السر فيما حدث آنذاك من أنه فيما يتعلق بالمماليك فإنهم "احتاجوا في ذات أنفسهم إلى الرجوع إلى عادة جنكزخان والاقتداء بحكم الياسة فلذلك نصبوا الحاجب ليقضي بينهم فيما اختلفوا فيه من عوايدهم والأخذ على يد قويهم وإنصاف الضعيف منه على مقتضى ما في الياسه وجعلوا إليه مع ذلك النظر في قضايا الدواوين السلطانية عند الاختلاف في أمور الإقطاعات لينفذ ما استقرت عليه أوضاع الديوان وقواعد الحساب .."[١١٤] أو بعبارة أخرى أن سلاطين المماليك ابتداء من الظاهر بيبرس قد ساروا على ما جاء في الياسه التي وضعها جنكيزخان فيما يتعلق بالنظم الحربية، وإنزال العقوبات الصارمة لمن يرتكب جرائم إذ لا تكفي الحدود الشرعية في ردعهم[١١٥]. أما فيما يتعلق بغيرهم من المحكومين ونقصد بهم أبناء الشعب المصري بطبقاتهم المختلفة فقد "فوضوا لقاضي القضاة كل ما يتعلق بالأمور الدينية من الصلاة والصوم والزكاة والحج وأناطوا به أمر الأوقاف والأيتام وجعلوا إليه النظر في الأقضية الشرعية كتداعي الزوجين وأرباب الديون ونحو ذلك ..."[١١٦].

إلا أن الأمور سرعان ما تغيرت في عهد السلطان الملك الكامل شعبان بن الناصر محمد بن قلاوون "٧٤٦ ـ ٧٤٧هـ". الذي عين "الأمير سيف الدين بيغوا أميراً حاجباً كبيراً يحكم بين الناس. فخلع عليه في جمادى الأولى سنة ست وأربعين وسبعمائة فحكم بين الناس كما كان نائب السلطنة يحكم ويجلس بين يديه موقعان من

(١١١) السخاوي، **الضوء اللامع**، جـ ٢، ص ٢٤٦ـ٢٤٧ .

(١١٢) ابن تغري بردي، **المنهل** ، جـ ٣، ص ٤٦٧ـ٤٦٩.

(١١٣) المقريزي: **المقفى الكبير**، جـ ٣، ص ٢٢ـ٢٣، ابن تغري بردي ، **النجوم**، جـ٨، ص ٣٧.

(١١٤) ابن تغري بردي، **النجوم**، جـ٧، ص ١٧٧ـ١٧٨.

(١١٥) المقريزي، **الخطط**، جـ ٢، ص ٢٢١.

(١١٦) العمري، **التعريف بالمصطلح الشريف** ، ص ١٠٢؛ ابن تغري بردي، **النجوم**، جـ٧، ص ١٨٢ـ١٨٣؛ العريني، **المماليك** ، ص ٢٥٤ـ٢٥٥.

موقعي السلطان لمكاتبة الولاة بالأعمال ونحوهم فاستمر ذلك ثم رسم في جمادى الآخرة منها أن يكون الأمير رسلان بصل حاجباً مع بيغوا يحكم بالقاهرة على عادة الحجاب ... إلى أن كانت ولاية الأمير سيف الدين جرجي الحجابة في ايام السلطان الملك الصالح صالح بن محمد بن قلاوون "٧٥٢ ـ ٧٥٥هـ" فرسم له أن يتحدث في أرباب الديون ويفصلهم من غرمائهم بأحكام السياسة ولم تكن عادة الحجاب فيما تقدم أن يحكموا في الأمور الشرعية ..."(١١٧).

وهكذا وجد قضاة الشرع أنفسهم مسلوبي الاختصاصات مما سيكون سبباً في الصراعات المستديمة بين أهل الشرع وأهل السياسة، أي بين القضاة والحجاب، هؤلاء الحجاب الذين اعتبروا الحكم بين الناس وسيلة لتحصيل المقررات أي الأموال التي يقررونها على المتخاصمين، ولقد عبر المقريزي عن هذه الحالة أصدق وأبلغ تعبير حيث قال : "كانت رتبة الحجبة في الدولة التركية جليلة وكانت تلي نيابة السلطنة ويقال لأكبر الحجبة حاجب الحجاب وموضوع الحجبة أن متوليها ينصف من الأمراء والجند تارة بنفسه وتارة بمشاورة السلطان وتارة بمشاورة النائب ... وكان حكم الحاجب لا يتعدى النظر في مخاصمات الأجناد واختلافهم في أمور الإقطاعات ونحو ذلك ولم يكن أحد من الحجاب فيما سلف يتعرض للحكم في شئ من الأمور الشرعية ... وإنما يرجع ذلك إلى قضاة الشرع ولقد عهدنا دائماً أن الواحد من الكتاب أو الضمان ونحوهم يفر من باب الحاجب ويصير إلى باب أحد القضاة ويستجير بحكم الشرع فلا يطمع أحد بعد ذلك في أخذه من باب القاضي، وكان فيهم من يقيم الأشهر والأعوام في ترسيم القاضي حماية له من أيدي الحجاب ثم تغير ما هنالك وصار الحاجب اليوم اسماً لعدة جماعة من الأمراء ينتصبون للحكم بين الناس لا لغرض إلا لتضمين أبوابهم بمال مقرر في كل يوم على رأس نوبة النقباء وفيهم غير واحد ليس لهم على الإمرة إقطاع وإنما يرتزقون من مظالم العباد وصار الحاجب اليوم يحكم في كل جليل وحقير من الناس سواء كان الحكم شرعياً أو سياسياً بزعمهم وإن تعرض قاض من قضاة الشرع لأخذ غريم من باب الحاجب لم يمكن من ذلك، ونقيب الحاجب اليوم مع رذالة الحاجب وسفالته وتظاهره بالمنكر بما لم يكن يعهد مثله يتظاهر به أطراف السوقة فإنه يأخذ الغريم من باب القاضي ويتحكم فيه من الضرب وأخذ المال بما يختار فلا ينكر ذلك أحد البتة ..."(١١٨) وهكذا يتضح لنا مدى الخلل الذي أحدثته التأثيرات المغولية في المجتمع المصري في ذلك العصر، في واحدة من أهم ما يمس حقوق الإنسان ألا وهي تحقيق العدالة.

كما تنبغي الإشارة إلى ما أحدثته الهجرات المغولية إلى مصر في ذلك العصر من صراع مرير بين صفوف المماليك أنفسهم، هذا الصراع كان يشتد عندما تأتي إلى مصر هجرات كبيرة منهم مثل التي حدثت أيام الظاهر بيبرس والعادل كتبغا، بخاصة من الأويراتية وهم الذين أشارت إليهم المصادر المعاصرة باسم الوافدية. ويرى بعض الباحثين والمحدثين أنه لا يوجد من بين الأمراء الوافدية من حصل على رتبة أعلى من أمير طبلخاناه باستثناء أيام الناصر محمد بن قلاوون حيث نجد بعضهم قد وصل إلى رتبة أمير ألف(١١٩). وهناك في المصادر المعاصرة إشارات تعبر عن هذا الصراع، فالمعروف أن العادل كتبغا "٦٩٤ ـ ٦٩٦هـ" كان من الأويراتية وقد

(١١٧) المقريزي، **الخطط**، جـ٢، ص ٢٢١.

(١١٨) المصدر السابق، جـ ٢، ص ٢١٩ـ٢٢٠.

(١١٩) Studies on The Mamluks Pp 92-93.

وصل إلى منصب السلطنة، إلا أن اهتمامه بالوافدين من الأويراتية ومنحهم المناصب والإقطاعات كان أحد الأسباب الهامة في عزله من السلطنة. فابن خلدون يذكر ذلك صراحة في قوله : "كان أهل الدولة نقموا على السلطان كتبغا العادل تقديمه مماليكه عليهم ومساواة الأويراتية من التتار فتفاوضوا على خلعه ..."(١٢٠) كما أن هذا الصراع يظهر بوضوح فيما أورده المقريزي عندما حدث شجار بين اثنين من أمراء المماليك، فقال أحدهم للآخر: "أنت واحد منفي وافدي، تجعل نفسك مثل مماليك السلطان ..."(١٢١) هذه العبارة الأخيرة تكشف لنا بوضوح السبب في ذلك الصراع الذي نجم عن أن فرص الترقي لم تكن مهيأة لجميع المماليك على قدم المساواة، إذ كان الحصول على لقب الإمارة مهيأ للمماليك السلطانية بنسبة أكبر بكثير من مماليك الأمراء، وكذلك بالنسبة لمن مسهم الرق، إذ المعروف أن الهجرات المغولية تمثل هجرات لأشخاص من الأحرار. والقلقشندي يؤكد لنا هذه الحقيقة عندما يقول عن المماليك السلطانية : "وهم أعظم الأجناد شأناً وأرفعهم قدراً وأشدهم قرباً وأوفرهم إقطاعاً، ومنهم تؤمر الأمراء رتبة بعد رتبة"(١٢٢) وهذا ما أشار إليه المقريزي صراحة عند حديثه عن الأويراتية وقدومهم إلى مصر في عهد العادل كتبغا حيث يقول : "وأظهر العناية بهم وكان مراده أن يجعلهم عوناً له يتقوى بهم فبالغ في إكرامهم حتى أثر في قلوب أمراء الدولة منه إحنا وخشوا إيقاعه بهم فإن الأويراتية كانوا أهل جنس كتبغا ..." ونتيجة لكثرتهم في مصر وكثرة الرغبة فيهم فقد وقع "التحاسد والتشاجر بين أهل الدولة إلى أن آل الأمر بسببهم وبأسباب أخر إلى خلع السلطان الملك العاد كتبغا من الملك في صفر سنة ست وتسعين وستمائة فلما قام في السلطنة من بعده الملك المنصور حسام الدين لاجين قبض على طرغاي مقدم الأويراتية وعلى جماعة من أكابرهم وبعث بهم إلى الإسكندرية فسجنهم بها وقتلهم وفرق جميع الأويراتية على الأمراء فاستخدموهم وجعلوهم من جندهم..."(١٢٣) وبهذا تم للعناصر المنافسة لهم من الجراكسة إبعادهم عن فرص الترقي بعد كسر شوكتهم بقتل قادتهم.

ومن العادات المغولية التي أخذت في الظهور في مصر في العصر المملوكي عادة تكريم الابن بذكر نسب الأم، أو الاعتزاز بنسب الأم، وهي من العادات التي عرفت عن المغول في مواطنهم الأولى وتمسكوا بها حتى في المهجر، والتي يعكسها لنا من اهتموا منهم بالتأريخ للمغول وسلالتهم في مصر وعلى رأسهم بيبرس المنصوري، فهو باعتباره واحداً منهم وأدرى بطباعهم وعاداتهم حرص دائماً على ذكرها كلما أتيحت له الفرصة في ذلك. ولنضرب مثالاً على ذلك بما قاله في إيراده نسب أم الملك الناصر محمد بن قلاوون وهي مغولية الأصل فقال عنها بأنها : "الخاتون المكرمة بنت سكتاي بن قراجلين بن جنغان نوين وهو ابن عم تنجوا المقدم المشهور وهؤلاء من الأعيان المشهورين والكبراء المذكورين ..." ثم بعد ذلك يورد قصة مجئ بنت سكتاي إلى الديار المصرية، وكأن سكتاي بذلك حظي بشرفين معاً، شرف النسب ثم شرف القدوم إلى مصر ودخوله في الإسلام وهو ما ينسحب على ابنته أم الناصر محمد(١٢٤) وقد

(١٢٠) ابن خلدون، **العبر وديوان المبتداء والخبر** (القاهرة ١٩٠٩ م)، جـ٥، ص ٤٠٨.

(١٢١) المقريزي، **السلوك**، جـ٢، ص ٢٢.

(١٢٢) القلقشندي، أبو العباس أحمد، **صبح الأعشى في صناعى الإنشا**، (القاهرة ١٩١٣م)، جـ ٤، ص ١٥-١٦.

(١٢٣) المقريزي، **الخطط**، جـ٢، ص ٢٢-٢٣.

(١٢٤) بيبرس المنصوري، **التحفة الملوكية**، ص ١٠٧.

سار على دربه كثير من المؤرخين الذين أتوا بعده، فهذا هو المقريزي في ترجمته للسلطان الناصر محمد بن قلاوون "ت ٧٤١هـ" يقول : "محمد بن قلاوون، السلطان الملك الناصر، ناصر الدين، أبو المعالي، أبو الفتح، ابن الملك المنصور سيف الدين ، الألفي، الصالحي، النجمي. أمه أشلون خاتون بنت سكتاي بن قراجين ..."(١٢٥) تغري بردي يذكر في حديثه عن نفس السلطان قوله : "وأمه بنت سكتاي بن قرا لاجين جغتاي التتاري. وكان قدوم سكتاي مع أخيه قرمجي من بلاد التتار إلى مصر سنة خمسة وسبعين وستمائة ..."(١٢٦) كما أن "النويري" في ذكره لحوادث سنة ٦٨١هـ أيام المنصور قلاوون يقول : "وفيها بنى السلطان ببنت سكتاي بن قراجين بن جنغان نوين، وكان سكتاي هذا، قد ورد إلى الديار المصرية، هو وقرمشي، في سنة أربع وسبعين وستمائة، صحبة بيجار الرومي، في الدولة الظاهرية. وهذه هي والدة السلطان الملك الناصر "(١٢٧) وفي موضع آخر في حديثه عن الملك الصالح علاء الدين علي ابن السلطان المنصور قلاوون الذي توفي سنة ٦٧هـ يقول : "وخلف ولداً واحداً، من زوجته منكبك ابنة الأمير سيف الدين نوكيه، وهو الأمير مظفر الدين موسى ..."(١٢٨).

كذلك يذكر الصفدي عند حديثه عن عام ٧٣٢هـ قوله وفيها : "دخل ابن السلطان آنوك بن الخوندة طغاي على بنت الأمير سيف الدين بكتمر الساقي وكان عرساً عظيماً ..."(١٢٩) أما "ابن عبد الظاهر" فهو يشير إلى عادة تكريم الابن بنسب الأم بشكل لا يحتمل أدنى شك، ففي حديثه عن السلطان الناصر محمد بن قلاوون يقول : "وهو من الدار الرومية من العظم القاني، جده لأمه سكتاي بن باجو أكبر عظماء التتار، فجمع الله له أطراف الفخار ..." أي أنه ابن سلطان وأمه ابنة أحد عظماء التتار(١٣٠).

ومن العادات المغولية التي ظهرت في مصر وكثر انتشارها طوال العصر المملوكي، عادة عقد حلقات الصيد، إذ المعروف أن المغول كانوا مولعين بها إلى حد كبير، وكانوا يعنون بها عناية كبيرة كلما فرغوا من القتال، وكانت في الحقيقة هي رياضتهم المحببة إلى نفوسهم، ولكنهم كانوا يتخذونها وسيلة لإعداد أنفسهم إذا ما جد الجد، فهم في حلبات الصيد يدربون أنفسهم على ما سيفعلون في وقت الحرب، وكان يشرف على ميادين الصيد كبار الأمراء منهم، ومن حملات الصيد أيضاً يحصل المغول على اللحوم لمد الجيش والبلاط، فكانوا إذا ما قتلوا عدداً كبيراً من حيوانات الصيد، أكلوا أكبر قدر منها (١٣١). وانتقلت هذه العادة إلى المماليك، بل نراهم استخدموا كثيراً من أبناء المغول في الإشراف على الجوارح من الطيور وغيرها، وسائر أمور الصيد، وهذه الوظيفة كان يطلق على من يتولاها أمير شكار(١٣٢).

كما أن الباحث في تاريخ المغول يدرك أن من عاداتهم في التخلص من منافسيهم أو أعدائهم كان عن طريق دس السم له بطريقة أو بأخرى، ومما يؤكد ذلك ما تشير إليه بعض المصادر المعاصرة سنة ٦٨٠هـ/١٢٨٢م من أن القاضي جمال الدين محمد بن العجمية أتهم بأنه "سم منكوتمر فأخذت أم منكوتمر القاضي جمال الدين وجميع أولاده

(١٢٥) المقريزي، **المقفى الكبير**، جـ٧، ص ١٦٢، ترجمة ٣٢٦٥.
(١٢٦) ابن تغري بردي، **النجوم**، جـ ٩ ، ص ١٦٤.
(١٢٧) النويري، **نهاية الأب**، جـ ٣١، ص ٩٠.
(١٢٨) النويري، **نهاية الأرب**، جـ ٣١، ص ١٥٩.
(١٢٩) الصفدي، **الوافي بالوفيات**، جـ ٢، ٣٦٩.
(١٣٠) ابن الظاهر ، **تشريف الأيام**، ص ١١٠-١١١.
(١٣١) فواد الصياد: **المغول**، ص ٣٤١-٣٤٢؛ Poliak. The Influence of Ghingiskhan's Yassa, P. 872
(١٣٢) القلقشندي، **صبح الأعشى**، جـ٥، ص ٤٦١.

وذبحتهم"[١٣٣] وغيرها من الإشارات المختلفة التي تدل على انتشار هذه العادة بينهم[١٣٤] ومن يتصفح تاريخ سلاطين المماليك يجد أن هذه العادة أخذت في الانتشار في مصر على عهدهم، وبخاصة منذ عهد الظاهر بيبرس "٦٥٨ – ٦٧٦ هـ" الذي قال عنه ابن تغري بردي : "كان الملك الظاهر رحمه الله يسير على قاعدة ملوك التتار ..."[١٣٥] وفي عهد من أتى بعده من السلاطين، نذكر من ذلك مثالاً لما حدث في عصر المنصور قلاوون "٦٧٨ – ٦٨٩هـ"، ففي عام ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م فإن الوزير "نجم الدين حمزة بن محمد الأصفوني، وزير الملك المنصور قلاوون الألفي بالديار المصرية ... كان له عبد يسمى فرج فاستماله الأمير علم الدين سنجر الشجاعي إلى أن أسقى أستاذه الصاحب نجم الدين سماً فتوفي منه في شهر ربيع الأول ... ثم ضرب الشجاعي فرج عبد الصاحب نجم الدين بالمقارع إلى أن مات" لكي يخفي جريمته. وهذا دليل واضح على أن واحداً من كبار أمراء المماليك كان وراء استخدام هذه الوسيلة لكي يتخلص من منافسه، حتى تتاح له الفرصة في تولي الوزارة[١٣٦]. مما يرجح أن أبناء العناصر المغولية كان لهم أثرهم في شيوع هذه العادة في مصر في ذلك الوقت، وبخاصة في صفوف المماليك.

كذلك كان لأبناء العناصر المغولية أثرهم الواضح في الامتداد العمراني الذي شهدته القاهرة بوجه خاص في العصر المملوكي، سواء في القلعة نفسها حيث وجد بها عدة مساكان لهم وهي التي عرفت فيما بعد باسم خرائب التتر. والتي تكلم عنها المقريزي في خططه عند وصفه لقلعة الجبل فقال : "وبها مساكن تعرف بخرائب التتر كانت قدر حارة، فربها الملك الأشرف برسباي في ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وثمانمائة ..."[١٣٧] وبالبحث عن موقع هذه الخرائب من القلعة تبين أنها كانت واقعة في الجهة الشرقية من الحوش الداخلي الكبير الذي فيه ثكنات الجيش داخل القلعة بالقاهرة[١٣٨]. ومن هذا يتضح أنه نظراً لكثرة هؤلاء المغول فقد تم تخصيص عدة مساكن لهم داخل القلعة، ولا ندري متى كان ذلك، لكن من الرجح أن يكون في عهد الظاهر بيبرس، وهو الذي حرص على أن يجمع ابناء العناصر المغولية التي وفدت على مصر ويسكنهم بالقاهرة، ولم يرسلهم إلى سواحل بلاد الشام، على الرغم من اهتمامه الشديد بإنزال قبائل محاربة في هذا الساحل، على غرار ما فعل بالتركمان حيث أنزلهم في يافا لحراستها بعد استيلائه عليها سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٧م[١٣٩]. وفي باب اللوق كان أثرهم واضحاً كذلك في تعمير هذه المنطقة حيث يقول المقريزي : "وأول ما بنيت الدور للسكن في اللوق أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البند قداري وذلك أنه جهز كشافة من خواصه مع الأمير جمل الدين الرومي السلاح دار والأمير علاء الدين اق سنقر الناصري ليعرف أخبار هولاكو ومعهم عدة من العربان فوجدوا طائفة من التتر مستامنة وقد عزموا على قصد السلطان بمصر ... فلما وردت الأخبار بذلك إلى مصر كتب السلطان إلى نواب الشام بإكرامهم وتجهيز الإقامات لهم وبعث إليهم بالخلع والإنعامات فوصلوا إلى القاهرة وهم نيف على مائتي فارس بنسائهم وأولادهم في يوم الخميس رابع عشر ذي الحجة سنة ستين وستمائة... فأنزلهم السلطان في دور كان قد أمر بعمارتها من

(١٣٣) ابن الفرات، **تاريخ ابن الفرات**، جـ٧، ص ٢٣٥.
(١٣٤) الصياد: **المغول**، ص ١٩٥_٢٢٥.
(١٣٥) ابن تغري بردي، **النجوم**، جـ ٧، ص ١٨٢.
(١٣٦) ابن الفرات: **تاريخ ابن الفرات**، جـ٧، ص ٢٨٤_١٨٢.
(١٣٧) المقريزي، **الخطط**، جـ ٢، ص ٢٠٤.
(١٣٨) ابن تغري بردي: **النجوم**، جـ٩، ص ١٨، حاشية ١
(١٣٩) المقريزي، **السلوك**، جـ ١، ص ٥٦٥، العريني، **المماليك**، ص ٥٩_٦٠.

أجلهم في أراضي اللوق وعمل لهم دعوة عظيمة هناك وحمل إليهم الخلع والخيول والأموال وركب السلطان إلى الميدان وأركبهم معه للعب الأمرة وأعطى كبراءهم إمريات فمنهم من عمله أمير مائة ومنهم دون ذلك ونزل بقيتهم من جملة البحرية وصار كل منهم في سعة الحال كالأمير في خدمته الأجناد والغلمان وأفرد لهم عدة جهات برسم مرتبهم وكثرت نعمهم وتظاهروا بدين الإسلام فلما بلغ التتار ما فعله السلطان مع هؤلاء وفد عليه منهم جماعة بعد جماعة وهو يقابلهم بمزيد الإحسان فتكاثروا بديار مصر وتزايدت العمائر في اللوق وماحوله وصار هنالك عدة أحكار عامرة آهلة... وفي سادس ذي الهجة من سنة إحدى وستين قدم من المغل والبهادرية زيادة على ألف وثلاثمائة فارس فأنزلوا في مساكن عمرت لهم باللوق بأهليهم وأولادهم..."[١٤٠].

وفي سلطنة الملك العادل كتبغا وفدت على مصر جماعة من الأويراتية مع كبيرهم طرغاي حيث أنزلوا بالحسينية مما كان سببا في عمارة هذه المنطقة، وفي هذا يقول المقريزي: "ولم تعمر هذه الشقة إلا في الدولة التركية لاسيما لما غلب التتر على ممالك الشرق والعراق وجفل الناس إلى مصر فنزلوا بهذه الشقة.. وعمروا بها المساكن ونزل بها ايضا أمراء الدولة فصارت من اعظم عمائر مصر والقاهرة... وكانت الحسينية قد أربت في عمارتها على سائر أخطاط مصر والقاهرة حتى لقد قال لي ثقة ممن أدركت من الشيخة انه يعرف الحسينية عامرة بالأسواق والدور وسائر شوارعها كافة بازدحام الناس من الباعة والمارة وأرباب المعايش وأصحاب اللهو والمعلوب فيما بين الريدانية محطة المحمل يوم خروج الحاج من القاهرة وإلى باب الفتوح لا يستطيع الإنسان أن يمر في هذا الشارع الطويل العريض طول هذه المسافة الكبيرة إلا بمشقة من الزحام..."[١٤١] إلا أنه أصابها ما أصاب كثيراً من الأحياء في القاهرة منذ أواخر القرن التاسع الهجري، الخامس عشر للميلاد كثير من التدهور وقلة عدد السكان بسبب تدهور الأحوال الاقتصادية وانتشار كثير من الأوبئة والطواعين التي فتكت بكثير من الناس.[١٤٢]

ولقد عاش هؤلاء المغول في أحيائهم الخاصة بهم، ولم يكونوا بمعزل عن المجتمع المحيط بهم، فاندمجوا في الإسلام واختلطوا بأهل البلاد، كما اخذ كثير من الأمراء أولادهم للخدمة، وكثرت الرغبة فيهم لجمالهم، وتزوج الناس بناتهم وبخاصة من السلاطين والأمراء والعلماء، والتجار، واندمج بعضهم في الجيش المملوكي بفرقه المختلفة.[١٤٣] وكما أثروا في المجتمع المصري فإنهم تأثروا به، هذا التأثير يبدو واضحا في أعقابهم حيث تخلوا عن كثير من الأسماء المغولية الأصل، وتسموا باسماء إسلامية من الأسماء التي كانت شائعة في ذلك العصر والمحببة لدى المسلمين، مثل "محمد"، و "علي"، و "أبوبكر" و "أحمد"؛ فضلا عن تلقبهم بالألقاب المضافة إلى الدين مثل "سيف الدين"، و "بهاء الدين" و "شهاب الدين"، و "ناصر الدين" وغيرها من الألقاب.[١٤٤] وفيما يتعلق بالزواج، فكما أقبل الناس على الزواج من بناتهم، فهناك

(١٤٠) المقريزي، **الخطط**، جـ ٢، ص ٢٢-٢٣.
(١٤١) المقريزي، **الخطط**، ص ٢٢-٢٣.
(١٤٢) قاسم عبده قاسم: **دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي** (القاهرة: دار المعارف ١٩٨١م)، ص ٣٩-١١٨.
(١٤٣) المقريزي، السلوك، جـ ١، ص ٨١٣؛ ابن الفرات: **تاريخ الفرات**، جـ ٨، ص ٢٠٧؛ العريني: المماليك، ص ٦١-٦٢.
(١٤٤) ابن تغري بردي، **النجوم**، جـ٩، ص ٤١؛ السخاوي، **الضوء اللامع**، جـ ٣، ص ١٧-٤٥.

إشارات في المصادر المعاصرة على حرصهم على الزواج من بنات جنسهم، ولم يصادفنا في المصادر المعاصرة لهم ما يفيد انهم تزوجوا من بنات الآخرين، وربما كان الجمال المشهور بينهم السبب في ذلك.[١٤٥] وإن كانت هذه الإشارات قليلة ونادرة إلا نها تؤكد ماذهبنا إليه من حرص الرجال منهم على التزوج بزوجات مغوليات، مثال ذلك ما يشير إليه بيبرس المنصوري - وهو الخبير بهم باعتباره واحداً منهم من أن الأمير سيف الدين كوندك الساقي تزوج خالة الملك الصالح بن قلاوون وهي بنت كرمون التتري، وقد كان الملك الظاهر بيبرس قد تزوجها وبانت عنه، وكانت في بيت قلاوون تحت نظره لتزوجه بأختها. هذا فضلاً عما تشير إليه المصادر عن هجراتهم وأنهم اصطحبوا معهم زوجاتهم[١٤٦]. كذلك هناك بعض الإشارات عن مدى ماحازوه من ثروات هائلة وإقطاعات كانت تدر عليهم الكثير، نذكر من ذلك على سبيل المثال الأمير سيف الدين بشتك بن عبد الله الناصري، الذي كان إقطاعه يدر عليه سنويا مالا يقل عن مائتي الف دينار.[١٤٧]

ومن الآثار الاجتماعية والاقتصادية في نفس الوقت والتي نجمت عن تأثر النظم المملوكية بما هو معروف عند المغول، أو بسبب قدومهم إلى مصر، ما عرف في العصر المملوكي باسم الروك، والذي قصد به في ذلك العصر ضبط الإقطاعات وعدم استمرار أراضي معينة في إقطاع معين، وعدم استمرار بعض الإقطاعات في أيدي الوارثين، وإعادة توزيع أراضي بين السلطان وأرباب الإقطاع، إذ جرى العرف عند المغول على أساس أن الزعامة سيادة على القوم لا إمتلاك الأراضي، ويتولى شيخ القبيلة توزيع المراعي أو اراضي بين بطونها وفقا للعرف والتقاليد، ولقد نقل المغول هذا النظام إلى الجهات التى خضعت لهم؛ أو البلدان التي توافدو عليها مثل مصر وبلاد الشام. وعلى هذا الأساس فهم يرون أن من حصل على إقطاعات فإنما حصل عليها بمحض رغبة السلطان ولا يترتب عليها حقوق، والسلطان مطلق الحرية في الإبقاء على الإقطاع لصاحبه أو نزعه منه.[١٤٨] وهذه الظاهرة كانت واضحة تمام الوضوح طوال العصر المملوكي، فعندما يغضب السلطان على أمير أو يقبض عليه و حتى ينقله من وظيفة إلى أخرى فإنه كان يحل محله شخصا آخرا في إقطاعه، وينعم بإقطاع هذا الأخير على شخص ثالث وهكذا. كما أنها تتضح أشد الوضوح فيما حدث في عصر الناصر محمد بن قلاوون على وجه الخصوص وفي سلطنته الثالثة، حيث كان يتبع كبار الأمراء لكسر شوكتهم الواحد تلو الآخر، سواء بالتخلص منهم أو سجنهم سواء في القلعة ام في الإسكندرية، وأخذ يحل مماليكه في المناصب التي كان يتولاها هؤلاء الأمراء، وفي إقطاعاتهم حيث "أمر السلطان في يوم واحد ستة واربعين اميراً، منهم طلبخاناه تسعة وعشرون وعشروات سبعة وشقوا القاهرة بالشرابيش والخلع..."[١٤٩]

ولقد عبّر الناصر محمد عن سياسته هذه والتي استقاها من المغول سواء من أمه أم من أخواله في مصر - خير تعبير عندما أمر بالقبض على أمير أسند مركرجي والذي بعث ""يسأل السلطان

---

(١٤٥) المقريزي، **المقفى الكبير**، جـ٣، ص ٢١ – ٢٣.

(١٤٦) بيبرس المنصوري، **التحفة المملوكية**، ص ص ٨٤ – ٨٧، ١٠٨؛ النويري، **نهاية الأرب**، جـ٣١، ص ٩٠.

(١٤٧) ابن تغرى بردي، **المنهل**، جـ ٣، ص ٤٦٧-٤٦٨.

(١٤٨) العريني، **المماليك**، ص ص ١٧١ – ١٧٢.

Lombton. Land Lord and Peasant in Persia (Oxford. 1953).p. 77.

(١٤٩) ابن تغري بردي، **النجوم**، جـ ٩، ص ٣٣-٣٤.

عن ذنبه؟ فأعاد جوابه : مالك ذنب، إلا أنك قلت لي لما ودعتك عند سفرك: أوصيك ياخوند: لا تبقى في دولتك كبشا كبيرا وأنشئ مماليكك! ولم يبق عندي كبش كبير غيرك"(١٥٠) ولكي يحل السلطان مماليكه محل هؤلاء الأمراء فقد شرع في عمل الروك الناصري الذي ينسب إليه، ويشير ابن تغري بردي إلى ذلك صراحة في قوله: "وفي العشر الأخير من شعبان من سنة خمس عشرة وسبعمائة وقع الشروع في عمل الروك بأرض مصر، وسبب ذلك أن أصحاب بيبرس الجاشنكير وسلار وجماعة من البرجية كان خبز الواحد منهم ما بين ألف مثقال في السنة إلى ثلاثمائة مثقال، فأخذ السلطان أخبازهم وخشي الفتنة، وقرر مع فخر الدين محمد بن فضل الله ناظر الجيش روك البلاد، وأخرج الأمراء إلى الأعمال..."(١٥١)

من هذا العرض السريع يتضح لنا أعداد الهجرات المغولية التي جاءت إلى مصر، وأثر أبناء العناصر المغولية المختلفة في مجال الحياتين الثقافية والاجتماعية في العصر المملوكي، والله نسأل أن نكون قد وفقنا فيما قصدنا إليه. والله نعم العون والموفق.

---

(١٥٠) ابن تغرى البردي، **النجوم**، جـ٩ ، ص ٢٧-٣١.

(١٥١) ابن تغرى البردي، **النجوم**، جـ٩ ، ص ٤٢.

العصور، المجلد الحادى عشر، الجزء الاول، ٥٧ - ٨٩(٢٠٠١ م)

التغيرات في الغذاء وعاداته المصاحبة للتغير الاجتماعي في المجتمع السعودي

للدكتور سليمان بن عبد الله العقيل

ملخص البحث : **يشهد المجتمع السعودي تحولات في البنى الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والسياسية وغيرها من الأنساق المرتبطة بالبناء الاجتماعي. ولقد جاء ذلك التحول نتيجة لاكتشاف البترول وما أعقبه من خطط التنمية، التي اعتمدتها الدولة لرفع وتطوير مستوى الفرد ولأداء العام للمجتمع، وذلك عن طريق تحديث النظم المختلفة كالتعليم والصحة والاقتصاد وغيرها، مما أحدث تغيراً في الجوانب المعنوية (غير المادية) مثل القيم والعادات والتقاليد والأعراف ذات الصلة بالموروث الثقافي الشعبي والتاريخي لهذا المجتمع. وقد حرصت الدولة أن تؤكد على مجموعة من الثوابت، وذلك فيما يتعلق بالقيم الإسلامية والشعائر، وكل ما يتعلق بالعقيدة الإسلامية، وتضع القيود اللازمة لعدم المساس بها في مسيرة التنمية.**

ثم كان الانفتاح على المجتمعات المتقدمة أو غيرها، مما أحدث نوعاً من الاحتكاك الثقافي ثم الاستعارة الثقافية لكثير من النظم الاجتماعية والثقافية التي كان لها مع المنتجات المادية (الملموسة) كالآلات والمعدات، الأثر على التحديث في المجتمع وقد ساعدت كثير من العوامل في عملية الاستعارة الثقافية، منها الإعلام بمختلف أنواعه المقروء والمسموع والمرئي، ومن الأشكال والصور المعبرة التي يبثها. وكذلك التعليم وما أحدثه من تغيرات وقفزات في عملية التحديث. ويضاف إلى ذلك السفر والسياحة، حيث أن لها دوراً كبيراً في عملية التحديث الاجتماعي والاقتصادي، إذ أنها عبارة عن احتكاك مباشر، وجهًا لوجه من أفراد في المجتمع السعودي لمنتجات المجتمعات الأخرى الثقافية بشتى صورها وأشكالها المادية والمعنوية. ويأخذ السفر أشكالا متعددة منها ما كان بغرض اكتشاف العالم ومنها ما كان بغرض التعليم والتدريب ومتابعة الجديد في المجالات المختلفة. ومنها الأعراض الصحية أو المرضية أو الاقتصادية وغيرها من الأعراض.

هذا الاحتكاك المباشر وغير المباشر بالمجتمعات يكسب فرد المجتمع خبرة ثقافية إضافية للخبرة الثقافية السابقة من مجتمعهم، ويكون هؤلاء الأفراد بعد ذلك من عوامل إحداث في المجالات المختلفة للمجتمع. من هذه المجالات الغذاء وعاداته، فالمجتمع السعودي غني بالموروث الثقافي بجانبه الشعبي والعربي الإسلامي في مجال الغذاء وعاداته، ولديه مخزون ثقافي هائل في هذا المجال عن طريق الأحاديث النبوية الشريفة وسيرة السلف الصالح وكذلك تراث الأمة الإسلامية، بالإضافة إلى الموروث الشعبي الذي له علاقة مباشرة بالبيئة وقدرة الأجداد على تطويع البيئة الطبيعية لمقتضيات الواقع

الاجتماعي والاقتصادي واستخلاص مجموعة من العادات والتقاليد ذات العلاقة بالبيئة.

ولكن بعد تحديث المجتمع السعودي أخذ يضيف إلى هذا المخزون مستجدات ثقافية من المجتمعات المختلفة مما زاد في المساحة الثقافية ووفر خيارات كثيرة للأفراد في المجتمع. لذا فإن هذه الدراسة تعد إضافة في مجال الدراسات المهتمة بالتغير الاجتماعي والتحديث والتنمية في المجتمع السعودي والمجتمع العربي بعامة.

مشكلة الدراسة :

يمر المجتمع السعودي بمرحلة من التحول الكبير في معظم مظاهر الحياة الاجتماعية وذلك بعد خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية التي أفرزت الكثير من ملامح الحياة الجديدة المتغيرة، والتي تعتمد أيضا على بعض المفاهيم الأخرى مثل الاستعارة الثقافية من المجتمعات الأخرى والاحتكاك الثقافي وخلافه. هذه القضايا في مجملها أنتجت نوعا جديدًا من الممارسة والتفكير والأداء في الكثير من صور الحياة الاجتماعية. من تلك المظاهر، ظاهرة الغذاء والطعام وعاداته في المجتمع.

ومن الملاحظ في المناطق الحضرية تنوّع المأكولات والمطاعم وكذلك الأطباق بالإضافة إلى الأسابيع الثقافية للمجتمعات الأخرى التي تعرض في المملكة، وتتضمن الأطباق والمأكولات لتلك المجتمعات. كما أن المحلات التجارية تعجّ بالمعلبات التي تحتوي على مأكولات مختلفة. تلك الصور والمشاهد جاءت مع الانفتاح الذي شهده المجتمع السعودي. ومشكلة هذه الدراسة تكمن في السؤال التالي: ما التغيرات في الغذاء وعاداته المصاحبة للتغير الاجتماعي في المجتمع السعودي ؟.

أهداف الدراسة :

تهدف هذه الدراسة إلى محاولة التعرّف والإجابة على التساؤلات التالية(١) ما مدى تأثير عوامل التغير الاجتماعي والاقتصادي على الطعام وعاداته في المجتمع السعودي؟. وهي العوامل التي تتحدد بتأثير الوفرة المالية، والسفر والسياحة، والثقافات الوافدة، والتعليم، والإعلام على تغير الطعام وعاداته وأشكاله وأنواعه والآداب المرتبطة به.

وبالاستناد إلى بعض الدراسات التي قامت حول تغير الأنماط الاستهلاكية والعادات الغذائية والعوامل البيئية المتعلقة بها، تهدف الدراسة إلى محاولة الكشف عن حجم التغيرات الكيفية والكمية لمجمل تلك التغيرات في الطعام وعاداته عن طريق الإجابة على التساؤلات التالية أيضًا(٢): هل يوجد تغير في النمط الاستهلاكي الغذائي لدى أفراد في المجتمع السعودي؟.(٣) هل يوجد تغير في النمط الاستهلاكي الغذائي لدى أفراد في المجتمع السعودي؟(٤) ما هي مصادر المعلومات الغذائية لدى الأفراد في المجتمع السعودي؟(٥) هل الفرد السعودي يهتم بالمعلومات المدونة على الأطعمة حين شرائها؟.(٦) هل تندفع الأسر السعودية نحو شراء الوجبات السريعة؟.(٧) هل يوجد اهتمام بالقيمة الغذائية للأطعمة لدى الفرد السعودي؟.

حدود الدراسة :

لقد اقتصرت الدراسة على بعض الدراسات التي أجريت في مدينة الرياض ومكة المكرمة في

مجال الاقتصاد المنزلي حول بعض قضايا المجتمع ذات العلاقة بالحالة الغذائية وهذه الدراسات هي:

(١) "دراسة تحليلية لمعرفة القيمة الغذائية ومدى التقبل لبض التمور المحلية وبعض الأطباق السعودية الداخلة في تركيبها" نجاح عبد العزيز المحسن. رسالة ماجستير - الاقتصاد المنزلي - كلية التربية للبنات الرياض.

(٢) "دراسة الحالة الغذائية والعوامل البيئية المتعلقة بالمراهقات في منطقة الرياض". فوزية محمد المعتاز. رسالة ماجستير الاقتصاد المنزلي - كلية التربية للبنات - الرياض.

(٣) "دراسة النمط الاستهلاكي الغذائي لبعض الأسر السعودية بالرياض" هند عبد العزيز آل الشيخ. رسالة ماجستير. الاقتصاد المنزلي - كلية التربية للبنات - الرياض.

(٤) "علاقة الدخل بالاستهلاك الغذائي للأسرة السعودية المكية والعوامل المؤثرة فيها" أميرة أحمد بلخيور. رسالة ماجستير - كلية التربية للبنات - الرياض.

(٥) تقييم العادات الغذائية لمجموعة من السيدات الحوامل في منطقة الرياض "وفيقة عبد الله الحميدان. رسالة ماجستير - كلية التربية للبنات - الرياض.

وقد استخدمت جميع هذه الدراسات المنهج الوصفي للدراسة مع تحليل اقتصادي لهذه البيانات. ولأن هذه الدراسات تحتوي على معلومات كبيرة ومفيدة للباحث السسيولوجي وينقصها التحليل والتفسير الاجتماعي فقد حاول الباحث استنطاق تلك المعلومات وتوظيفها لتبيان التغيرات في الغذاء وعاداته المصاحبة للتغير الاجتماعي في المجتمع السعودي، من خلال نتائج تلك البيانات وربطها بالتراث النظري في مجال علم الاجتماع وعوامل التغير الاجتماعي.

وقد اعترض الباحث الكثير من الصعوبات أثناء الدراسة، وذلك لأنها:

(١) تضم مجالين مختلفين الأول الاقتصاد المنزلي والثاني علم الاجتماع، ومحاولة التوفيق بينهما تحتاج إلى الكثير من الجهد والمهارة مما يجعل الباحث يعرض فكرة البحث ونتائجه على الكثير من الزملاء وفي كلا التخصصين لمحاولة الاستفادة والتوجيه حتى خرج بهذا الشكل النهائي.

(٢) اعتمد البحث على دراسات غير منشورة "رسائل ماجستير" وتطلب ذلك الاتصال بالباحثين أو المشرفين أو من يعير البحاث نسخة من البحث فترى الأعداد.(٣) كل الباحثين من النساء وهذه تشكل صعوبة بذاتها وذلك لخصوصية المجتمع السعودي.

المدخل النظري :

إن التغير المستمر سمة المجتمعات، فالتغير هو أحد الحقائق الثابتة لأنها الدالة على وجود الموجود.[١] ذلك قياسا على ما يشاهده الإنسان في نفسه و الكون من حوله. ويرى بعض المهتمين بعلم الاجتماع والانثروبولوجيا من أن التغيرات التي تحدث في المجتمع تخضع لمؤثرات خارجية من خلال ما يعرف بالاحتكاك أو الاتصال بين المجتمعات، وكذلك عوامل داخلية في المجتمع تدفع به إلى إحداث بعض

(١) محمد عبد المولى الدقس، **التغير الاجتماعي بين النظرية والتطبيق** (عمان: دار مجدلاوي للنشر ١٩٨٧م).

التغيرات بما يتوافق أو يتطلع إليه أفراد وحاجات ذلك المجتمع. ومن عوامل التغير الاجتماعي ما يعرف بالاتصال الثقافي بين ثقافة مجتمع وآخر. وذلك الاتصال يكون إمّا بشكل تبادل بين الثقافتين، خاصة حينما يكونا على مستوى واحد من الكفاءة والمقدرة في التأثير، أو من ثقافة لأخرى حينما لا تكون الأخرى قادرة على العطاء بقدر ما هي قادرة على الاستيعاب أو التبني. ويتم ذلك الاتصال عن طريق وسائل الاتصال المسموعة والمرئية، ووسائل النقل المختلفة المتوفرة في المجتمع والتي استحدثتها الحضارة الصناعية الحديثة. ونتيجة لذلك فإن الكثير من التغيرات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية التي أحدثها ذلك التقارب والاحتكاك والاتصال الثقافي، قد تحدث الكثير من التغيرات في البنية الاجتماعية والثقافية المستقرة في المجتمع القائم بالاتصال.[٣]

وحتى يكون ذلك التغيير حادثة علمية قابلة للدراسة لابد أن تكون لدينا معلومات أثنوجرافية عن المجتمع موضع الدراسة والاهتمام، حيث تبرز هذه المعلومات أهمية التغيرات الثقافية والاجتماعية التي تساعد على قياس ومعرفة ذلك التغير الذي طرأ على تفكير الأفراد وسلوكهم وبالتالي على ثقافتهم ونظمهم الاجتماعية. وفي المجمل فإن المجتمعات تتفاوت من حيث قدرتها على قبول أي تغيرات أو الاستعداد لإحداث التغيرات. فمن هذه المجتمعات ما يعتمد على الاقتباس من المجتمعات الأخرى ، ومنها من لديه القدرة على الابتكار والتجديد أو زيادة في بعض المدخلات، مما يزيد عناصر الثقافة بما يتلاءم مع الثقافة الحالية، أو تبديل بعض النظم حتى يتم إشباع حاجات المجتمع المتغيرة وبشكل دائم وغير ملحوظ[٣] وإذا كان التغير يشير إلى تضمنه لعمليات التفكك والتعقيد والاندثار والتجديد في بعض عناصر المجتمع ونظمه، فإن التغير ينتهي في الغالب إلى مرحلة من الاستقرار والتوازن، وحينما يكون هذا التوازن والاستقرار غير ملائم لإشباع حاجات الناس، فإن ذلك التغير يصبح عرضة للتغير من جديد، حتى يلبي حاجات المجتمع من حيث إشباعها وتطورها، وهكذا فإن التغير بهذه الصفة المتواترة هو تعبير عن ديناميكية المجتمع ودليل على قدرته على الحركة والنشاط والتجديد.[٤]

التغيير الثقافي يعني التغيير في الجوانب المادية وغير المادية للثقافة، بما في ذلك العلوم والفنون والفلسفة والتقني والأذواق الخاصة بالمأكل والمشرب واللغة. هذا بالإضافة إلى التغيرات التي تحدث في بنيان المجتمع ووظائفه[٥]. ولأن عادات الطعام وآدابه من أكثر الظواهر حساسية لعوامل التغير التقني الحادث في المجتمع، فهي تستفيد منه وتتأثر به سلبا وإيجابا، وهي تتأثر أيضا بالاتصال بثقافات مجتمعية أخرى. حيث يلعب ذلك دورًا هاما وبارزًا في تطويرها، بالإضافة إلى الإبداعات من داخل الثقافة نفسها.

---

(٣) حيدر إبراهيم علي، **التغير الاجتماعي والتنمية ـ مدخل نظري،** (القاهرة: دار الثقافة والنشر ١٩٨٢م).

(٣) محمد احمد الزعبي، **التغير الاجتماعي بين علم الاجتماع البرجوازي وعلم الاجتماع الاشتراكي،** (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات الجامعية والنشر ١٩٩١م).

(٤) صلاح العبد وزملائه، **دراسات نظرية وتطبيقية في تنمية وتحديث المجتمعات النامية،** (القاهرة: دار المعرفة الجامعية ١٩٨٠م).

(٥) محمد علي وزملائه، **المرجع في مصطلحات العلوم الاجتماعية ـ** (دار القاهرة: دار المعرفة ١٩٨٥م).

غير أن النقل والاستعارة من الثقافات الأخرى كان لها دور بارز في إدخال أصناف جديدة لم تكن معروفة، وأدوات ومعدّات لم تكن موجودة بآدابها وعاداتها.(٦)

عادات وآداب الطعام في التراث وعلاقتها بالمجتمع السعودي

نظرًا لأن هناك اتصالا كثيفا وقويا بين المجتمع العربي السعودي وبين ماضيه الإسلامي والعربي فإن الكثير من العادات فيما تختص بالطعام وعاداته ترتكز على المعلومات التي انتقلت إلينا عن طريق حفظها في كتب الحديث النبوي والفقه والتاريخ، تحت عناوين آداب الطعام وخلافه من الأبواب، أو عن طريق ممارسة هذه العادات ونقلها من جيل إلى جيل.

إن هناك الكثير من العادات التي كانت ولا تزال قائمة، حيث يمارسها البعض بشكل مستمر حينا أو بشكل متقطع في أحيان أخرى. ومرجع ذلك، أن هناك تعاليم دينية أكدت على ذلك، إضافة إلى أن المجتمع بإمكانياته المحدودة وثقافته المنعزلة يؤكد على استمراريتها وصيانتها، سواء كان ذلك من خلال الأمثال الشعبية أو من خلال الحكم والمواعظ وبالأحاديث، أو خلافه مما هو عامل من عوامل الضبط التي تعمل على تأكيدها، لأن في استمراريتها استمرارًا لهوية وكيان المجتمع. وعن عادات الطعام وآدابه، ذكر أبو حامد الغزالي إن من تلك العادات، غسل اليدين، لأن اليد لا تخلو من التلوث في تعاملها مع الحياة اليومية، فغسلها قرب إلى النظافة والنزاهة.(٧) وحتى يكون ذلك أمرًا مقبولا شرعا وعقلا، فقد أكد على ذلك بأحاديث نبوية البعض منها ضعيف والبعض الآخر صحيح وهو القليل، مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم "الوضوء قبل الطعام ينفي الفقر وبعده ينفي اللمم"(٨) وفي رواية "ينفي الفقر قبل الطعام وبعده"(٩). وقد روى الطبراني في الأوسط عن ابن عباس "الوضوء قبل الطعام وبعده مما ينفي الفقر.(١٠) وقد روى أبو داوود والترمذي عن حديث سلمان "بركة الطعام الوضوء قبله والوضوء بعده" غير أن كل هذه الأحاديث ضعيفة.(١١)

ومن تلك العادات أيضاً أن الطعام يوضع على السفرة الموضوعة على الأرض، ولا يرفع على المائدة، لأن ذلك أقرب إلى التواضع، وامتثالاً لفعل النبي صلى الله عليه وسلم.(١٢) وهذا يعكس ثقافة المجتمع على المستويين المادي والمعنوي. فالأول يعكس حالة المجتمع القريبة من الأوضاع التقليدية، وتتأقلم مع بيئته الصحراوية، حيث أن علاقة الأفراد بالأرض وقربهم منها تفرض نوعا معينا من التعامل. ويؤكد ذلك على المستوى المعنوي كذلك، حيث

---

(٦) محمد غانم الرميحي، مدخل لدراسة الواقع والتغير الاجتماعي في مجتمعات الخليج العربي المعاصرة، مجلة العلوم الاجتماعية - العدد الثامن السنة الثالثة ديسمبر (١٩٧٥م)، ص ٧٧-٨٨.

(٧) الإمام ابو حامد محمد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، (عمان: دار الفكر ١٩٨٦م)، جـ٢، ص ٤.

(٨) محمد الوصابي الحبيشي، **البركة في فضل السعي والحركة**، (بيروت: دار المعرفة ١٩٧٨م)، ص ٢٠٩.

(٩) المرجع السابق، ص ١١٠.

(١٠) الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، (عمان: دار الفكر ١٩٨٦م)، جـ٢، ص ٤٠.

(١١) المرجع السابق، جـ٢، ص ٤.

(١٢) محمد الوصابي الحبشي، **البركة في فضل السعي والحركة**، (بيروت: دار الفكر ١٩٨٦م)ن جـ٢، ص٤.

يرتبط ذلك بالتواضع وإنكار الذات وعدم الميل إلى البحث عن منتجات ثقافية أخرى من مجتمعات سبقت في نواحي الإنتاج المادي. ويؤكد على ذلك بالأحاديث النبوية. فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم "إذا أتى طعامه وضعه على ارض" وهذا الحديث ضعّفه الدار قطني،(١٣) وحديث أنس بن مالك "ما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم على خوان ولا في سكرجة" رواه البخاري.(١٤) ومن الآداب أيضًا أن يحسن الجلسة على السفرة في أول الجلوس ويستديمها. ومن تلك الأحاديث المدعمة لذلك "ربما جثا للأكل على ركبتيه وجلس على ظهر قدميه، وربما نصب رجلاه اليمنى وجلس على اليسرى "(١٥) وهذا جزء من حديث عبد الله بن بشير من حديث" أتوا تلك القصعة فالتفوا عليها فلما أكثروا جثا رسول الله صلى الله عليه وسلم.. الخ".(١٦) وروي عنه صلى الله عليه وسلم "لا آكل متكئاً رواه البخاري(١٧) هذه الآداب توائم الفترة الزمنية وكذلك توائم وضع المجتمع من حيث غزلته وثقافته. لذلك فقد أكد عليها بمجموعة من الأحاديث النبوية الصحيحة أو الضعيفة.

ومن الآداب التي كانت سائدة، ولا يزال جزء كبير منها معمول به حتى الآن، أن يجتهد في تكثير الأيدي على الطعام ولو من أهله وولده،(١٨) وذلك لقول النبي صلى الله عليه وسلم "اجتمعوا على طعامكم يبارك لكم فيه" أخرجه أبو داوود وأحمد.(١٩) وحديث أنس بن مالك " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأكل وحده" وهو بسند ضعيف.(٢٠) وهذه صورة من صور التماسك الاجتماعي والحث عليه، حتى تكون الجماعة قريبة من بعضها البعض، وتشارك في معظم النشاطات الاجتماعية، وهي صورة للمجتمعات التقليدية بسيطة التركيب. ومازالت هذه الصورة حقيقية واقعة في المجتمع السعودي، نظرًا للقرب الشديد بين التعاليم الإسلامية وبين البيئة التي كان النبي يعيشها. ونظرا لأن البيئة التي كان يعيش فيها النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته تختلف عن غيرها، وهو ما يعني أن العادات والتقاليد ترتبط بالأبنية الاجتماعية والثقافية لأي مجتمع. لذا فقد أنكر البعض على المسلمين انهم تخلوا عن ما كان يفعله النبي الكريم في هذا الجانب. وأخذ البعض يدافع عن هذه التغيرات، لأن من أنكر يجهل حقيقة أن التغير سمة من سمات المجتمع الإنساني، ولأن التغير لا يكون في العقائد، خصوصا للمسلمين، وإنما يكون في بعض جوانب الحياة، كما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: "أنتم اعلم بشؤون دنياكم".(٢١)

إن التغير الذي حدث في الغذاء وآدابه بعد رسول الله يتمثل في أربعة جوانب، هي الموائد والمناخل والأشنان والشبع، حول ذلك الاختلاف قيل أن الأكل على السفرة أفضل، ذلك أن الأكل على المائدة منهي عنه كراهة أو تحريما إذا لم

(١٣) الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، (عمّان: دار الفكر ١٩٨٦م)، جـ٢، ص ٤.
(١٤) المرجع السابق، جـ٢، ص ٤.
(١٥) المرجع السابق، جـ٢، ص ٤.
(١٦) المرجع السابق، جـ٢، ص ٥.
(١٧) المرجع السابق، جـ٢، ص ٥.
(١٨) المرجع السابق، جـ٢، ص ٥.
(١٩) المرجع السابق، جـ٢، ص ٦.
(٢٠) المرجع السابق، جـ٢، ص ٦.
(٢١) محمد الوصابي الحبيشي، **البركة في فضل السعي والحركة**، (بيروت: دار المعرفة ١٩٧٨م)، ص ٢١٠-٢١١.

يثبت فيه ذلك. ومن يقول انه أبتدع بعد الرسول، فليس كل ما ابتدع منهيا عنه. بل المنهي عنه بدعة تناقض سنة ثابتة وترفع أمرًا من الشرع مع بقاء علته، والابتداع قد يجب في بعض الأحوال إذا تغيرت الأسباب. ورفع المائدة عن الأرض لتيسير أكل أو خلاف ذلك مما يستجد في نواحي الحياة، مما لا تعارض فيه مع أمر واضح من أمور الدين، ليس فيه كراهة، بل انه في بعض الأحوال أمر مرغوب فيه.(٢٢)

تلك الأمور الأربع التي أحدثت بعد النبي صلى الله عليه وسلم، تمثل نوعا من التحول في ثقافة المجتمع العربي، نتيجة للاتصال بثقافات متعددة منها ثقافة الروم والفرس والرافدين كذلك ثقافة وادي النيل. "فالاشنان" حسن لما فيه من النظافة، فإن الغسل مستحب، والاشنان أتم في التنظيف. ولمن قال بالابتداع فلأنهم لا يستعملونه، وربما لم يعتادوه أو لم يتيسر لهم، أو أنهم مشغولون بأمور أهم من المبالغة في النظافة. فقد كانوا لا يغسلون اليد أيضًا، إنما كانت مناديلهم أخمص أقدامهم، وذلك لا يمنع كون الغسل مستحبا. أما "المنخل" فالمقصود منه تطييب الطعام، وذلك أمر مباح ما لم ينته إلى التنعيم المفرط. وأما "الشبع" فهو أشد هذه الأربعة فأنه يدعوا إلى تهيج الشهوات وتحريك الأدواء في البدن.(٢٣) لذا فإن الفرق واضح بين تلك المبتدعات السابقة الذكر، وذلك نتيجة لتطور المجتمع والاتصال الثقافي بين المجتمعات الأخرى المتقدمة في بعض جوانب الحياة الاجتماعية المختلفة. ما ذكرناه إذًا يشير إلى كونه بعدًا ثقافياً، ومدخلاً لمناقشة التغير الثقافي والتكامل بين الثقافات، إضافة إلى مناقشة قضايا الانتشار الثقافي من جهة ومدخلاً لفهم ثقافة المجتمع السعودي والتي مصدرها التراث بشقيه، الموروث الديني والموروث الثقافي، إضافة إلى البيئة الطبيعية والاجتماعية التي كان المجتمع يعيشها.

خامساً: نتائج الدراسة وتحليل البيانات:

تحقيقا للأهداف التي وضعتها هذه الدراسة بناء على نتائج الدراسات التي أجريت في مجال تغير الأنماط الاستهلاكية والعادات الغذائية والمعلومات والقيمة الغذائية، ذات الارتباط المباشر بتساؤلات الدراسة.

أولاً : بالنسبة للتساؤل الأول: ما مدى تأثير عوامل التغير الاجتماعي والاقتصادي على تغير الطعام وعاداته في المجتمع السعودي؟ فكما هو موضح في الشكل رقم (١) نجد أن التعليم، والسفر والسياحة، والوفرة المالية، والإعلام، والثقافات الوافدة تُحدث تغيرًا في المجتمع والتغير يأخذ أشكالاً متعددة، فالتغير الاقتصادي والتغير الاجتماعي والتغير الثقافي والانتشار الثقافي لمنتجات ثقافية من مجتمعات أخرى والتكامل الثقافي الذي يحدث بعد الاستعارة أو الاحتكاك الثقافي مع المجتمع المنتقل إليه. هذه التغيرات المختلفة تُحدث تغيرات متباينة في جوانب الحياة الاجتماعية المختلفة. وفي هذه الدراسة نجد أن تلك التغيرات أوجدت تغيرا في الطعام في المجتمع السعودي الذي شمل التغير في عاداته مثل استعمال الملاعق والشوك والأكل على الطاولة، والأكل الجماعي من طبق واحد لأسرة أو للمجموعة وتغير أوقات الأكل. ففي المجتمع السعودي كان الناس يستعملون أيديهم في الأكل

(٢٢) الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، (عمّان: دار الفكر ١٩٨٦م)، جـ٢، ص ٥.

(٢٣) المرجع السابق، جـ٢، ص ٥.

حيث لم تتوفر لهم وسائل وأدوات غيرها، ومع التغير بدأ الناس يستعملون تلك الأدوات وكذلك الأكل على الطاولة منفردًا في طبق لوحده. وهذا لا يعني أن كل أفراد المجتمع يستعملون ذلك، ولكن ذلك أصبح يشكل ظاهرة. ومن الظواهر الجديدة الأكل وقوفاً أو أمام آخرين لا يأكلون أو الأكل أثناء قيادة المركبة أو في الشوارع في أي وقت وغيرها. وقد تغيرت أشكال وتعددت أنواع الأطعمة في المجتمع السعودي حيث انتشرت المطاعم المختلفة من جميع أنحاء العالم، فنجد المطاعم الأمريكية ـ الوجبات السريعة ـ والمطاعم الإيطالية ـ البيتزا ـ والصينية والتركية والهندية والكورية وغيرها من المطاعم والمأكولات مما أثر على نوعية الأطباق الشعبية السعودية. يضاف إلى ذلك انتشار كتب الطبخ التي تدخل على المجتمع أنواعا وأشكالا جديدة من المأكولات كذلك يحدث تطوير للأكلات الشعبية. وكما هو موضح في الشكل رقم (١)، فإن من العوامل التي تلعب دورًا بارزًا في تغيير عادات الطعام وآدابه في المجتمع السعودي حددت بمجموعة العوامل التالية:

١ ـ الوفرة الماديــة

بعد اكتشاف النفط وتصديره أصبح هناك وفرة مادية في المجتمع سواء كان ذلك على مستوى الدخل القومي، أو على مستوى متوسط الدخل الفردي. وقد أخذت هذه الوفرة المادية أشكالا مختلفة، تمثلت في ارتفاع مستويات الدخل وسهولة الحصول على الأعمال الرسمية أو انتشار المحلات التجارية وامتلاكها، وغير ذلك من العوامل التي تشير إلى وجود وفرة مالية في أيدي أفراد المجتمع. هذه الوفرة المالية جعلت المجتمع يمتلك فرصة للنظر في الثقافات المختلفة من حوله، سواء كانت عربية أو غيرها، ومحاولة تقليد أو محاكاة هذه المجتمعات فيما تقوم به في شئون حياتها، ومن تلك عادات الغذاء وآدابه، فسهل على أفراد المجتمع توفير ما يلزم توفيره من أنواع الأدوات والآلات التي يعدّ بها الطعام، وكذلك بعض أدوات المأكل مثل الطهاة والطاولات وأدوات الطهي والأكل وكل ما يلزم لذلك. لذا فقد امتلأت الأسواق بهذه الأشياء، بل وأصبحت هناك محلات وأسواق خاصة تتميز باستيراد وبيع هذه الأدوات ومتابعة آخر ما يحدث ويصنع في ذا المجال.

٢ ـ السفر والسياحة :

يعتمد السفر والسياحة على الوفرة المادية، حيث توجد أسباب كثيرة تدعو للسفر والسياحة منها التعليم والعلاج والتجارة والترويح وغير ذلك من الأسباب وأيا كانت الأسباب فإن السفر احتكاك بالثقافات الأخرى الأمر الذي يحدث نُقلة واستعارة ثقافية، وهذا النقل يكون بشكله المادي الملموس، و نقل مجموعة من الأفكار المتعلقة بجوانب كثيرة في حياة الفرد والمجتمع منها ما يمكن تطبيقه، ومنها ما لا يمكن، وأمثال نقل الجوانب المادية الملموسة لنقل بعض أنواع الأطعمة والخضراوات والفاكهة والأدوات المختلفة لحفظها، والأجهزة الخاصة بالمطبخ وكذا الكتب المنتشرة والمتعلقة بأعداد وأشكال وطرق الطبخ والعادات والآداب المتعلقة بالإعداد والطهي. ويذكر في هذا المجال أنواع المطاعم المنتشرة في المجتمع السعودي والتي ليست جزءاً من ثقافة هذا المجتمع، على سبيل المثال مطاعم الوجبات السريعة إلي تمثل ثقافة المجتمعات

الغربية من حيث الإعداد وطرق التناول والسعرات الحرارية.فهي تعكس السرعة التي تعيشها تلك المجتمعات، إضافة إلى المطاعم التي تمثل الثقافات المختلفة مثل المطعم الصيني والبخاري والهندي.

والأكلات الشرقية المختلفة مثل الروسية والإيرانية وأكلات بلدان جنوب شرق آسيا بالإضافة إلى الأكلات العربية المختلفة، كل ذلك لم يكن يحدث ما لم يكن هناك احتكاكاً ثقافيا بين أفراد المجتمع السعودي وغيره من تلك الثقافات وتأثرهم بذلك، وبالتالي أصبح من المناسب أن ينقلوا هذه الأطعمة إلى مجتمعهم، أثناء سعيهم وراء المكسب المادي. غير أن ذلك قد وجدت أساسا بسبب التحول المجتمعي الذي لم يمانع في دخول ثقافات مختلفة من شأنها التغيير أو المساعدة على تحسين ظروف المجتمع. وفي هذا المجال يعتبر الاقتباس من ثقافة المجتمعات الأخرى التي يتفاعل معها المجتمع.

٣ ـ الثقافـــات الوافدة :

يتصل المجتمع السعودي بشكل مستمر بالثقافات المختلفة وخصوصاً ثقافات المجتمعات العربية والإسلامية وذلك عن طريق الحج والعمرة والزيارة. فوجود هذه الأماكن المقدسة تجعل من هذا المجتمع ملتقى لهذه الثقافات من جميع أنحاء العالم، ومن الطبيعي أن يتأثر أفرد المجتمع بتلك الثقافات مما يحدث تطوراً في ثقافة المجتمع المحلي، بالإضافة إلى عامل آخر مهم يرتبط بعملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية التي يشهدها المجتمع السعودي، هو العمالة الوافدة، حيث نجد أن كل فرد من هذه العمالة تشكل ذاته ثقافة خاصة. فحينما يلتقي ذلك الفرد بثقافات مجتمع آخر، تحدث عمليات التفاعل والاستعارة كأحد جوانب التغير الثقافي، وفي هذا الإطار نستطيع القول بأن المجتمع السعودي يحتوي على جميع أنواع الثقافات في العالم، ومن ثم فمن الضروري والطبيعي أن يحدث نوع من التغير الثقافي لالتقاء تلك الثقافات بثقافة المجتمع السعودي بأشكال مختلفة سواء كانت في شكل مطاعم أو أطعمة أو التقاء بين الأشخاص أو خلافه، وهذا يؤدي إلى التغير في آداب وعادات الغذاء في المجتمع السعودي، فيستجدّ بعض العادات والآداب أو يتأقلم أو يندثر و يتوقف بعضها الآخر.

٤ـ التعليـــم :

يعتبر التعليم من أهم عوامل التغير الاجتماعي في أي مجتمع. فمن خلاله يستطيع الفرد و المجتمع الالتقاء بالثقافات الأخرى وتطوير قدراته والتوفيق بين المفروض والواقع بطرق علمية. فالقراءة، والكتابة تجعل الفرد يطلع على ما ُكتب في المجتمعات الأخرى بحيث ينقل منها إلى ثقافته، وبذلك نجد أن التعليم لا يخلو من العناصر الدافعة نحو التغير أو الحث على الالتقاء بثقافة المجتمعات الأخرى. من خلال ذلك التعليم تقام دورات متخصصة في مجالات شتى كدورات عن التغذية والبيئة والصحة والنواحي الاجتماعية والنفسية المصاحبة للتغير وغيرها. كذلك انتشرت الكتب المتخصصة في المكتبات والخاصة بالغذاء والأطعمة، عن التغذية والبيئة والصحة والنواحي الاجتماعية والنفسية المصاحبة للتغير وغيرها. كذلك انتشرت الكتب المتخصصة في المكتبات والخاصة بالغذاء والأطعمة، والتي يدلّ انتشارها على تطور التعليم وازدهاره، حيث تنتشر كتب

الطبخ وكتب التغذية والعناية بالصحة بالإضافة للكتب الأخرى ذات العلاقة بمثل هذه الموضوعات. ولذلك يؤدي اتساع رقعة التعليم وتوفر هذه الأدوات إلى التغير في عادات الطعام وآدابه، ومن شأن ذلك أن يصب في إطار التغير الاجتماعي للمجتمع السعودي.

٥ ـ الإعـــلام :

تتداخل العوامل السابقة مع الإعلام في عملية إحداث التغير الاجتماعي المطلوب، بحيث يشكل الإعلام عاملاً مهمًا في هذه العملية لأنه يدعم العمليات السابقة ويبرزها بشكل واضح بل ويروج لها عن طريق وسائله المختلفة. من هذه الوسائل الصحف والمجلات حيث يوجد بين فترة وأخرى تقرير عن أكلة معينة، أو عن آداب أو طرق حياة لمجتمعات مختلفة. كذلك يعرض التلفاز الصور المشاهدة المتحركة بالصوت والصور، تلك المتعلقة بالطعام وعاداته، وحيث يكون التأثير أكبر. ذلك بالإضافة إلى البرامج والأفلام والمسلسلات التي تبرز هذه العادات والآداب في مجتمعات أخرى، ومن ثم تنقل إلى المجتمع السعودي مما يكون له تأثير واضح. فمن سمات الشخصية الحديثة حب المغامرة والتهيؤ للانطلاق لاكتشاف ثقافات وطرق حياة مختلفة لمجتمعات شتى.(٢٤) هذا بالإضافة إلى الدعايات التلفزيونية وكتب الطبخ المنتشرة في معظم مكتبات المدن وقرى المجتمع السعودي. بحيث تزيد كل هذه الوسائل من سرعة التغير الاجتماعي وتكون دافعة له.

يلاحظ في المجتمع السعودي الكثير من التغيرات نتيجة للعوامل السابق ذكرها، من ذلك استخدام الطاولات للأكل بدلا من الأرض وكذلك الشوك والملاعق بدلا من الأيدي، يضاف إلى ذلك استخدام البوفيهات المفتوحة في الحفلات. إضافة إلى تطور الوعي الصحي والوعي الغذائي الذي نجده متمثلا في تواريخ الإنتاج والانتهاء بالإضافة إلى توضيح محتويات كل المأكولات المعلبة. كما أن من نتائج تلك العوامل الاهتمام بالصحة بشكل عام مثل السعرات الحرارية ونسبة الدهون والكولسترول وخلافه من الأطعمة والعادات الغذائية المسببة لبعض الأمراض وكذلك الحمية. كما أن دخول بعض المأكولات المتنوعة من بيئات وثقافات مختلفة، مثل الغوزي والهامبرجر والبسبوسة وغيرها الكثير كان نتيجة تلك العوامل السابق ذكرها. كما يبدو أن المزج واضح في بعض المأكولات بين ثقافة المجتمع السعودي والثقافات الأخرى. ويلاحظ دخول بعض العادات التي لها علاقة بعملية الأكل مثل الأكل واقفا وفي الشارع واستخدام المطاعم بشكل ملحوظ مع العوائل والاعتماد في بعض الوجبات على السندوتشات وغيره.

ثانياً: بالنسبة للتساؤل الثاني: هل يوجد تغير في النمط الغذائي لدى الأفراد في المجتمع السعودي؟ نجد أن دراسة "الحالة الغذائية والعوامل البيئية المتعلقة بالمراهقات في منطقة الرياض".(٢٥) التي أجريت على عينة تكونت من (٢٥٢) مراهقة من ١٢ـ١٥ سنة ملتحقات بالمدارس المتوسطة الحكومية في مدينة الرياض. وقد خلصت هذه

(٢٤) Inkeles, Alex (1983) Exploring Individual Modernity. New York. Columbia Press. University.

(٢٥) فوزية محمد عبد الله المعتاز، **دراسة الحالة الغذائية والعوامل البيئية المتعلقة بالمراهقات في منطقة الرياض**، رسالة ماجستير الاقتصاد المنزلي ـ كلية التربية للبنات ـ الرياض، (١٩٨٨م).

الدراسة إلى أن العادات الغذائية تعكس النمط الغذائي الشائع بين المراهقات. حيث نجد أن هناك نسبة مرتفعة من الفتيات يهملن تناول وجبة واحدة أو أكثر من الوجبات الرئيسية ويملن إلى تناول وجبات صغيرة بينها. وقد أوضحت الدراسة أن هذا النمط الغذائي شائع بين المراهقات الأمريكيات أيضا، حيث أن وجبة الإفطار والغداء هي أكثر الوجبات إهمالا من قبلهن. وهذا تشابه بين هذين النمطين الغذائيين السعودي والأمريكي.

كذلك توضح الدراسة انتشار مثل هذه العادات الغذائية بين المراهقات السعوديات، قد يفسر النقص الغذائي الذي أظهرته نتائج تحليل الغذاء اليومي في الفيتامينات والأملاح المعدنية، وكذلك ارتفاع نسبة السمنة والنحافة بينهن. لأن معظم الوجبات الخفيفة التي تؤكل خارج المنزل غنية بالطاقة وتحتوي على عناصر غذائية قليلة المحتوى. وقد تبين من الدراسة أيضا أن (٨٠%) من الفتيات يتناولن حبوب الفيتامينات والأملاح المعدنية، كما يقل بين المراهقات السعوديات تناول العصائر والفواكه الطازجة. ومن العادات الجديدة التي انتشرت بين المراهقات السعوديات تناول كميات كبيرة من المشروبات الغازية والشاي والقهوة، وكما أوضحت الدراسة،[٢٦] نجد أن المشروبات الغازية تأتي على راس قامة الأطعمة والمشروبات المفضلة لدى المراهقات في أوروبا وأمريكا. هذه العادات لم تكن في واقع المجتمع السعودي من قبل، ولكنها ظهرت نتيجة للتغير الاجتماعي وكذلك الاحتكاك الثقافي، حيث ظهرت تلك العادات، ويعكس محتوى هذه الدراسة مدى الاستعارة للأنماط الثقافية من المجتمعات الأخرى، وخصوصا المجتمعات الأكثر تقدما، وذلك حينما أنفتح المجتمع السعودي على تلك الثقافات أصبح أكثر تقبلا لها وبالتالي حدث نوع من التجديد في النمط الغذائي لدى الأفراد والثقافة الغذائية السعودية.

ويوضح الجدول (١) عددا من الأطعمة التي تفضلها الطالبات، ورغم أن الأطباق الشعبية أكثر تفضيلا لدى عينة البحث كما ذكرت نسبة (١٧،٢٨%)، إلا أن أنواعا أخرى من المأكولات قاربت تلك النسبة، فالمكرونة مثلا كما ذكرت نسبة ١٨،٢٥%) وإن كانت ليست جزءا من ثقافة المجتمع السعودي الغذائية، وليست أيضا مأكولا شعبيا، إلا أنها انتشرت في المجتمع بعد الانفتاح على المجتمعات الأخرى. ويدل ذلك على تنوع المحتوى الغذائي للوجبة السعودية ودخول أكلات وطبخات أخرى لم تكن موجودة في الأصل.

ويلاحظ في الجدول أيضا أن بعض الأطعمة ليست غريبة على المجتمع، ولكن أدخل عليها الكثير من التحسينات من أنواع البهارات واللوازم الأخرى التي تجعل هذه الأطعمة لا يبقى منها سوى إسمها الشعبي فقط ولكن محتواها قد حدث له الكثير من التعديلات ليتناسب مع الذوق والمذاق الجديد في المجتمع الذي شهد الكثير من التغيرات واستطاع أن يجرب الكثير من المأكولات الأخرى من المجتمعات المختلفة ليصل إلى قناعة أن هذه الأكلة لابد وأن يحدث لها تعديلات. فالأكلة الشعبية كما يأكلها الأجداد ليست الأكلة الشعبية التي نأكلها نحن. وكذلك أبناءنا في المستقبل، وذلك يعود إلى عملية التبادل الثقافي بين المجتمعات والتغير الذي يطرأ على المجتمع في مجال الثقافة المادية والمعنوية.

ثالثا : بالنسبة للتساؤل الثالث هل يوجد تغير في النمط الاستهلاكي الغذائي لدى الأفراد في

(٢٦) المرجع السابق، ص ٨٥.

المجتمع السعودي؟. توضح دراسة "النمط الاستهلاكي الغذائي لبعض الأسر السعودية في منطقة الرياض".[٢٧]

أن المرأة كانت كالرجل في المجتمع السعودي، ذات فعالية عالية وتقوم بأدوار متعددة. وبعض هذه الأدوار ربما يتطلب جهدًا عضليا، وكذلك الكثير من العناء والمشقة والعمل المستمر، وذلك كأن تكون المرأة جزءا من العاملين في المزرعة أو تقوم بأعمال مشابهة، وكان النمط الغذائي بسيطً في هذه المرحلة. غير أنه بعد خطط التنمية الاجتماعية والاقتصادية، اضطرت المرأة أن تبقى في البيت وتقوم بأعمال تناسب هذا المقام مما جعلها تنصرف في بعض الأحيان إلى الإفراط في الأكل وتنوّعه، وذلك لتوفر ذلك التنوّع. وفي الدراسة التي أجريت على مجموعة من الحوامل وغير الحوامل أتضح أن عددا كبيرا من الحوامل وغيرهن يعانين من مشكلة البدانة حيث ترجع البدانة لترسب الدهون في الجسم نتيجة لكثرة تناول الطعام وعدم الحركة والنشاط.

وكذلك أثبتت الدراسة أن نسبة كبيرة من عينة الدراسة ٤٥،٤٤%) يعانين من مشكلة حموضة المعدة. وهذه النتائج تعطي مؤشرًا على نتيجة التغير الاجتماعي فيما يتعلق بالطعام، وكذلك تغير عادات الطعام وآدابه ونظامه، حيث بدأت تظهر النتائج السلبية لعملية الاحتكاك والتغير في أشكال مختلفة من الأمراض. ونتيجة لهذا التغير الذي حدث في المجتمع العربي السعودي بدأت تتعدد مصادر المعلومات في المجالات المختلفة، ومن هذه المجالات المعلومات المتعلقة بالطعام.

رابعاً : بالنسبة للتساؤل الرابع ما هي المعلومات الغذائية لدى الأفراد في المجتمع السعودي؟ فقد أظهرت الدراسة "النمط الاستهلاكي الغذائي" أن مصادر المعلومات الغذائية جدول رقم (٢) ، أن نسبة (٥٢،٣٢%) من أفراد العينة غير الحوامل ذكرت أن وسائل الإعلام كالتلفزيون، الصحف ، الكتب العلمية كانت المصدر الرئيسي للمعلومات الغذائية للمرأة السعودية.

---

(٢٧) هند عبد العزيز آل الشيخ، **دراسة النمط الاستهلاكي الغذائي لبعض الأسر السعودية بالرياض**، رسالة ماجستير الاقتصاد المنزلي كلية التربية للبنات - الرياض، (١٩٨٩م).

جدول رقم (١) : التوزيع التكراري النسبي المئوي للطالبات تبعا للأطعمة المفضلة لديهن

الطعـــــام	عدد الطلبـــات	النسبة المئويـــة
الأطباق الشعبية	٧١	١٧،٢٨%
الادامات المختلفة	٦٩	٢٧،٤%
المكرونة بأنواعها	٤٦	١٨،٢٥%
الأرز	٤٥	١٧،٨٦%
الحلويات المختلفة	٣٤	١٣،٤٩%
اللحوم الحمراء والمشوية	٣٣	١٣،٠٩%
الدجـــاج	٣٢	١٢،٧٩%
السلطـات	٢١	٨،٣٠%
الحليب ومشتقاته	١٧	٦,٧٥%
الفاكهـــة	١٥	٥,٩٥%
السمـــك	١٤	٥،٦٠%
البيض المسلـوق	٨	٣,١٧%
التســـالي	٧	٢،٨%
المشروبات بأنواعها	٤	١.٥٩%
ليس لديهن تفضيل محدد	٥٠	١٩,٨٤%
المجمـــوع	٢٥٢	١٠٠%

بينما ذكرت نسبة (٢٧،٧٨%)) من أفراد العينة الحوامل أن الأعلام كان المصدر الرئيس للمعلومات الغذائية ويعود ذلك إلى أن الحامل في الغالب تحاول أن تكون لصيقة بالأم أو الجدة و الجيران و النساء ذوات الخبرة والتجارب السابقة حول عمليات الحمل والولادة حيث نجد أن نسبة (٥٢،٧٧) من الحوامل اعتمدن في مصادر المعلومات على الأم أو الجدة أو الجيران أو العمل حيث الخبرة. بينما أن نسبة (١٩،٥٩) من غير الحوامل يعتمدن على الأم أو الجدة أو الجيران أو العمل كمصدر للمعلومات الغذائية، لأنهن يكن في غالب الأمر قليلي الخبرة في الحمل والولادة، أو يكن صغيرات السن أو الجدة و الجيران أو العمل كمصدر للمعلومات الغذائية.

حيث تؤكد هذه المعطيات تأثير وسائل الإعلام المرئي والمقروء على توجيه أفراد المجتمع، بحيث يعتبر أحد العوامل التي تساعد في دفع عجلة التغير والتحديث في المجتمع السعودي، وذلك لأن المجتمع كان مجتمعا تقليديا في شتى صوره الاجتماعية، ولكن بعد الانفتاح بدأت كثير من العوامل التي تؤثر في تشكيل الرأي وبناء الموقف للفرد السعودي تدخل لتنافس الوسائل التقليدية التي كانت موجودة، فكما هو موضح في جدول رقم (٢).

جدول رقم (٢) التوزيع التكراري النسبي المئوي لمصادر المعلومات الغذائية للمرأة السعودية				
مصادر المعلومات الغذائية	غير الحوامل	%	الحوامل	%
الأم - الجدة	٤٤	١١،٣٤	١٢	٣٣،٣٣
الجيـــــــران	١٠	٢،٥٨	٢	٥،٥٥
العمـــــــــل	٢٢	٥،٦٧	٥	١٣،٨٩
الطبيب	٤٢	١٠٨٢	٦	١٦،٦٧
الإذاعة	٣٨	٩٧٩	٣	٨،٣٣
التلفزيـــون	٦١	١٥،٧٢	١	٢،٧٨
الصحـــــف	٣٢	٨،٢٥	١	٢،٧٨
الكتب العلمية	٧٢	١٨،٥٦	٥	١٣،٨٩
التجربة الشخصية	٥٨	١٤،٩٥	١	٢،٧٨
مصادر أخرى	٩	٢،٣٢	-	-
المجمـــــــوع	٣٨٨	١٠٠		

أن مصادر المعلومات الغذائية للمرأة السعودية (٦٨،٣%) من أفراد العينة غير الحوامل تأخذ مصادر معلوماتها من خرج إطارها التقليدي، أي من جهات أخرى كما هو موضح في الجدول ومعنى ذلك أن مصادر التغيير في المجتمع السعودي بدأت تتعدد من خارج إطار المجتمع التقليدي المحدود النطاق كالأم والجدة والجيران، وذلك لأن الشكل التقليدي للمجتمع بدأ في مرحلة الزوال ليحل محله مجموعة من القيم والعادات والتقاليد الجديدة ذات الصلة المباشرة بعملية التغير والتي تحدث في المجتمعات وتتناسب في حجمها وشكلها ونوعها مع شكل وحجم ونوع التغير الذي يحدث.

خامسا : بالنسبة للتساؤل الخامس: هل الفرد السعودي يهتم بالمعلومات المدونة على الأطعمة حين شرائها؟ فإن دراسة "علاقة الدخل بالاستهلاك الغذائي للأسرة المكية والعوامل المؤثرة فيها".[٢٨] توضح أنه نظرا لأهمية محتوى المواد الغذائية وتأثيرها على صحة الفرد والمجتمع، فقد وجدت الدراسة، كما هو مبين في جدول رقم(٣)، أن نسبة (٩٧%) من الأسر "عينة الدراسة" تهتم بقراءة المعلومات المدونة على المعلبات، كتاريخ الإنتاج ومدة الصلاحية والقيمة الغذائية والمحتويات وتحرص على القيمة الغذائية للأطعمة التي تستعملها في وجباتها. ويستنتج من الدراسة أن التغير الاجتماعي الذي حدث في المجتمع قد صاحبه تغير في عادات الغذاء، إذ أن هذا النمط من السلوك الاجتماعي الذي حدث في المجتمع قد صاحبه تغير في عادات الغذاء، إذ أن هذا النمط من السلوك الاجتماعي في تدوين المعلومات عن محتويات المأكولات، وكذلك تاريخ الإنتاج والانتهاء لم يكن

(٢٨) أميرة أحمد سالم بالخيور. علاقة الدخل بالاستهلاك الغذائي للأسرة المكية العوامل المؤثرة فيها. رسالة ماجستير كلية التربية للبنات بمكة المكرمة، (١٩٨٩م).

موجودًا من قبل، ولأن هذه النوعية من الأطعمة أيضًا لم تكن موجودة في المجتمع فقد كان المجتمع يعتمد على الإنتاج والاستعمال المباشر دون الحاجة لحفظ المأكولات. كما أن معظم هذه الأغذية ليست من إنتاج المجتمع بل إنها مستوردة من المجتمعات الأخرى، وبالتالي فإن التغير قد حدث في جانب الغذاء وعاداته عن طريق التغير الاجتماعي والاقتصادي الذي شهده المجتمع السعودي. ومن آثار هذا التغير أن الفرد يبحث عن الصالح من الغذاء الذي يناسب وضعه الاجتماعي والاقتصادي.

سادساً : بالنسبة للتساؤل السادس: هل تندفع الأسر السعودية نحو شراء الوجبات السريعة؟. توضح بيانات الجدول رقم (٤) أن نسبة (٨٥%) من أفراد العينة يقومون بشراء وجبات جاهزة من المطاعم، بينما نسبة (١٥%) منهم لا يقومون بذلك الشراء. ويدل ذلك على دخول المرأة ميدان العمل، أو خروجها من المنزل والتقائها بالمجتمع الخارجي مما جعلها لا تتفرّغ تماما للمطبخ. وكشفت الدراسة أيضا أن نسبة (٣٥%) من أفراد العينة يشترون الوجبات الجاهزة من المطاعم بصفة غير دائمة. هذه النتيجة توضح مدى تأثير التغير على المجتمع في جانب الطعام والعادات الغذائية الأخرى. وتبين الدراسة أيضا أن أفراد العينة يفضلون أسلوب التوزيع والتوازن بين الأطباق والاستفادة بما لديها من معلومات غذائية. كما أوضحت الدراسة أن نسبة (٢٠%) منهم يفضلون شراء الوجبات في فترة الغذاء.

وتبين هذه النتيجة مدى التغير الذي أصاب المجتمع وذلك من حيث الاهتمام بالتوازن والتنوع في الأطعمة بحثا وراء القيمة الغذائية العالية وتذوق الأصناف المختلفة المستوردة من خارج ثقافة المجتمع وقد يكون ذلك من أسباب الالتقاء الثقافي بين المجتمع السعودي وثقافات المجتمعات. الأخرى عن طريق السفر والسياحة وغيرها، والتي كانت سببًا في عملية إحداث التغير في المجتمع السعودي وبشكل خاص في الغذاء وعاداته. وقد تكون لمشغوليات ربات الأسر . حيث أن البعض يعملن خارج المنزل أو أنها طريق للاستمتاع بالأكل خارج المنزل مما يدل على أن التغير الذي حدث في المجتمع السعودي شكل أنماطاً جديدة في حياة المجتمع، منها خروج المرأة للعمل، وما يرافق ذلك من الاعتماد على مؤسسات اجتماعية متعددة يستلزم وجودها لملء الفراغ الذي أحدثه ذلك الخروج. وكذلك أشكال وصور الاستمتاع بالحياة ونشوء مؤسسات وأنماطاً متعددة من العمل الاجتماعي الذي يرافق هذا التغير، مثل الخدمات ودور الحضانة والمغاسل والمطاعم والخياطين وغيرها الكثير.

سابعاً: بالنسبة للتساؤل السابع: هل يوجد اهتمام بالقيمة الغذائية للأطعمة لدى الأفراد في المجتمع السعودي؟. تجيب دراسة "تقييم العادات والحالة الغذائية لمجموعة من السيدات الحوامل في منطقة الرياض[٢٩] التي أجريت على عينة تبلغ ٥٠٦

(٢٩) وفيقة عبد الله سعود الحميدان، **تقييم العادات الغذائية لمجموعة من السيدات الحوامل في منطقة الرياض**، رسالة ماجستير كلية التربية للبنات ـ الرياض (١٩٨٨م)

جدول رقم (٣) : التوزيع التكراري النسبي المئوي لأفراد العينة حسب اهتمامهم بالمعلومات المدونة على أصناف البقالة

هل تهتمين بالمعلومات المدونة على أصناف البقالة مثل تاريخ الإنتاج والانتهاء	العــــدد	النسبة المئوية
نعـــم	٩٧	%٩٧
أحيانـــــا	٢	%٢
لا	١	%١
المجمـــــــــــــوع	١٠٠	%١٠٠

* المصدر: علاقة الدخل بالاستهلاك الغذائي للأسر المكية والعوامل المؤثرة فيها - بالخيور ١٩٨٩م ص : ٦٠.

جدول رقم (٤) التوزيع التكراري النسبي المئوي لأسر العينة حسب شرائهم الوجبات الجاهزة

هل تشترين بعض الوجبات الجاهزة	العـــــدد	النسبة المئوية
نعم	٣٥	%٣٥
أحيانا	٥٠	%٥٠
لا	١٥	%١٥
المجمــــوع	١٠٠	%١٠٠

* المصدر: علاقة الدخل بالاستهلاك الغذائي للأسر المكية والعوامل المؤثرة فيها - بالخيور ١٩٨٩م ص: ٦٥.

سيدة من السيدات الحوامل السعوديات المترددات على مراكز رعاية الأمومة والطفولة التابع لمستشفى الرياض المركزي. وقد بينت الدراسة، كما هو موضح في جدول رقم (٥) أن العادات الغذائية للحوامل السعوديات يغلب عليها الطابع السائد في معظم البلاد العربية، حيث تتأثر تلك العادات بمجمل المعتقدات الاجتماعية الناتجة عن تجارب الأجيال السابقة وتأثير البيئة على تطورها.

وكما يوضح الجدول رقم (٥) فإن الأطعمة الشائع تناولها بين سيدات العينة على التوالي حسب النسب، الخبز، الألبان ومشتقاتها، الفواكه الطازجة والمطهية، السلطة الخضراء البيض، الكبسة حيث تحتوي هذه الأطعمة على قدر كبير من القيمة الغذائية للحوامل. وتعكس أيضًا الوعي الغذائي لديهن، نتيجة الاهتمام بالصحة وتأثير الإعلام والتعليم وغير ذلك من العوامل والمؤثرات في التغيير. ويمكن أن تفسر نتائج هذه الدراسة من الناحية الاجتماعية بأن المجتمع السعودي لا يزال في بعض جوانبه يحتفظ بقدر معين من الموروث الثقافي في جميع صوره وأشكاله، كما هو واضح في أنواع الأطعمة التي ذكرتها الدراسة، ولكن لا يعني هذا أن المجتمع قد احتفظ بالموروث كما هو بل إنه قد حدث عليه الكثير من التغيرات في المحتوى وبقي الشكل إلى حدٍ ما كما هو. فمن المعروف أن الأكلة الشعبية "الكبسة" مثلا بقيت محتفظة بالاسم، ولكن أحدث عليها الكثير من التغير في الشكل والمحتوى. فمحتوى الكبسة في الجيل السابق ليس كما هو الآن، من إضافة البيض والجريش والقرصان وكذلك أنواع البهارات المختلفة وتقديمها في

طباق وأشكال متنوعة... وهكذا. هذا التغير الذي حدث في نوع الغذاء وعاداته يتناسب مع الواقع الاجتماعي الذي يعيشه أفراد المجتمع الآن، فالأذواق تتغير والإضافات مستمرة وتحسين النوعية والقيمة الغذائية للأطعمة جارية. ويمكن أن يستنتج من الدراسة أيضاً أن المترددات على مراكز رعاية الأمومة والطفولة قد بلغن من الوعي الصحي والاهتمام بالجنين القدر الذي يفهمن معه أهمية تنويع الغذاء لصحة الأم والجنين. وهذا يعكس مدى التغير الذي حدث لأفراد المجتمع، ودخول مفاهيم جديدة تقتضيها المرحلة التي يعيشها المجتمع.

التحليل والمناقشة :

كان المجتمع السعودي مجتمعا محافظاً ومنعزلاً في معظم أجزائه، وظل فترة لست باليسيرة بعيدا عن مراكز التأثير والاحتكاك بها، وبعد اكتشاف النفط وتسويقه كان لعاداته الأثر البالغ في التغيرات الجذرية في بناء المجتمع ووظائفه، وكان للاتصال بالثقافات الأخرى سواء بالذهاب إليها في شكل السفر والسياحة والتعليم نتيجة للوفرة المادية، أو عن طريق وسائل الإعلام المختلفة المقروءة والمسموعة والمرئية، أو قدوم هذه الثقافات إلى المجتمع في شكل مستوردات مادية كالآلات والمعدات وخلافه، أو منتجات ثقافية غير مادية كالقيم والعادات والتقاليد الخاصة بمجتمعات أخرى. وهو الاتصال الذي سمح بدخول سمات ثقافية جديدة.

ولقد طرأت التغيرات المادية على مختلف فئات المجتمع من حيث ارتفاع مستوى المعيشة أو من حيث استخدام وسائل المواصلات الحديثة وغيرها من المنتجات الثقافية التي وفدت من مجتمعات أخرى والتي قد سبقت المجتمع السعودي من الناحية التقنية و الحضارية. غير أن مفاهيم المجتمع السعودي وقيمه وعاداته لم تتغير بنفس الدرجة أو السرعة التي تغيرت بها الجوانب المادية.

وبذلك نستطيع القول إن التغير الاجتماعي في المجتمع السعودي جزئي في طعامه، حتى ولو بدا أن هناك تغيرا كليا في النظام الاجتماعي. يضاف إلى ذلك أن ثقافة المجتمع قد تشهد في فترة معينة من ازدهار لبعض عناصرها، وقد تنحسر بعض العناصر الأخرى. وهي الظواهر التي تصاحب فترات النمو السريع بوجه خاص، حيث نجد أن عددا من الاحتياجات والخبرات والقدرات تدفع إلى قبول أساليب جديدة في التعامل مع هذه الثقافة، بينما تفرض التخلي عن بعض الأساليب الأخرى لعدم كفاءتها في هذه الفترة، أو لعدم توإمها مع مستجدات العصر. وهو ما يعني أن كل تغير ثقافي يعد دليلا على حدوث حالة من عدم التوازن بين مختلف عناصر الثقافة.[٣٠]

لذلك فإن التغير في ثقافة الطعام من حيث نوعية الغذاء وأشكاله ومحتواه، وكذلك طرق الإعداد والتحضير والآداب والعادات المرتبطة بذلك، تعتبر من المتغيرات الوافدة والسمات الثقافية الجديدة على المجتمع السعودي.

وإذا كانت هذه السمات قد دخلت خلال مراحل التغيرات لثقافي[٣١] إلا أنها أصبحت الآن جزءاً من ثقافة المجتمع، ومن ثم فهي تشكل استعارة ثقافية من مجتمع آخر. وقد انتشرت هذه العادات بشكل كبير في المجتمع بتأثير من وسائل الإعلام،

(٣٠) محمد علي محمد، **دراسات في التغير الاجتماعي**، (القاهرة: دار الكتب الجامعية ١٩٧٨).

(٣١) محمد عبد المولى الدقس، **التغير الاجتماعي بين النظرية والتطبيق**، (عمان: دار مجدلاوي للنشر ١٩٨٧م)، ص ٥٣.

جدول رقم (٥): التوزيع التكراري النسبي المئوي للأطعمة الشائع تناولها بين سيدات العينة

المجموعة الغذائيـة	التكـــرارات	النسبة المئوية
الألبان ومنتجاتها	٤٣٠	%٨٤،٩٨
اللحم بأنواعه	٣٣٠	%٦٥،٢١
الدجاج	٢٤٠	%٤٧،٤٣
البقول	١١٢	%٢٢،١٣
السمك والربيـــان	٧٠	%١٣،٨٣
البيـــض	٣٧٠	%٧٣،١٢
الفواكه الطازجة والمطهية	٥٠٠	%٩٨،٩١
السلطة الخضراء	٣٩٠	%٩٨،٨١
المرق (خضر مطهية)	٢٩٠	%٥٧،٣١
التمـــــر	٢٢٥	%٤٤،٤٧
عصير طبيعي	١٠٠	%١٩،٧٦
الخبز	٥٠٦	%١٠٠
الكبسة	٣٣٥	%٧٠،١٦
الأرز الأبيض	١٠٥	%٢٠،٧٥
المكرونــــة	٦٠	%١١.٨٦
القرصـــــان	٥٠	%٩،٨٨
الجريش	٤٥	%٨،٨٩
المطازيـــز	٤٠	%٧،٩١
السليق	٣٨	%٧،٥١
السمبوسة	١٥	%٢،٩٦
المياه الغازية والمشروبات المختلفة	٣٠٠	%٥٩،٢٩
العسل اسود وابيض	١١١	%٢١،٩٤
الزيتون الأسود	١٠٦	%٢٠،٩٥
الحلاوة الطحينية	٣٥	%٩٢،٦
الحلويات المختلفة	٢٥	%٤،٩٤
المكسرات المشكلـة	٢٠	%٣،٩٥

المصدر: تقييم العادات الغذائية لمجموعة من السيدات الحوامل في منطقة الرياض ـ الحميدان ١٩٨٨م ص:٧٧.

وغيرها من العوامل التي تساعد على إحداث التغير في المجتمع. بالإضافة إلى الاستعداد المجتمعي لتقبل مثل هذه السمات الجديدة نتيجة للاهتمام بمثل هذه العادات الجديدة أو لأهميتها بالنسبة لأفراد المجتمع، وقد تكون جودتها العالية هي التي جعلت أفراد المجتمع يحرصون عليها ويتقبلونها ومن ثم انتشرت في المجتمع وبدأت تزاحم بعض المأكولات الحالية للمجتمع، وكذلك بعض العادات التقليدية تلك التي كانت سائدة من قبل. وبعد الالتقاء بين هذين المنتجين الثقافيين، فمن الطبيعي أن يحدث بينهما نوع من الصراع لثبت كل منهما فعاليته لتبدأ مرحلة القبول لتلك المستحدثات الثقافية في أحد الأشكال الثلاثة التي تفرز حين التقاء ثقافتين أو أكثر. وهي إما القبول المطلق للثقافة الوافدة أو الرفض المطلق أو القبول بجزء والرفض للجزء الآخر ليتكيف مع الواقع الثقافي، وبذلك يحدث تكامل بين الثقافات الوافدة والثقافة المحلية. ويصبح التكوين الجديد جزءاً من ثقافة المجتمع الحديث. ورغم أن التكامل بين الثقافات قد يفقد بعض ملامح وسمات العادات المحلية السابقة وكذلك الثقافة الوافدة، غير أن التجديد يحدث في الثقافة المنقول إليها وذلك نتيجة لتفاعل الثقافتين مع بعضهما، حيث يحدث ذلك عادة في كل المجتمعات وفي مختلف المناشط الإنسانية.

وقد كان أفراد المجتمع قبل النفط في المملكة العربية السعودية يتغذون على السمك والتمر وما تجود به البيئة من اللبن واللحم والسمنة الناتجة من الحيوانات، أو من القمح ومشتقاته، بحيث يعتبر ذلك غذاء متكاملاً لأنه يشمل جميع العناصر الغذائية اللازمة للإنسان. غير أنه نتيجة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية التي شهدها المجتمع العربي السعودي حدثت تغيرات جذرية في مختلف أوجه النشاط الإنساني، ومن هذه التغيرات، الأغذية وآدابها وعاداتها. فأجهزة الأعلام المختلفة والتلفزيون بشكل خاص أصبح يوجّه نوعاً معيناً من النمط الاستهلاكي الغذائي لبعض المنتجات التي قد لا تنتج في المجتمع السعودي، مما أحدث الكثير من التغيرات[٣٢]. وبذلك أخذ المجتمع بمراحل التغير الثقافي لتكوين ثقافة رديفة للثقافة التقليدية، مستوعباً في ذلك ثقافات المجتمعات المتعددة التي لها صلة بالمجتمع السعودي بشكل أو بآخر.

وتعد عادات الطعام وآداب المائدة جزءًا أساسياً وراسخاً في ثقافة المجتمع السعودي، فهي مستمدة من التراث، ولكنها تعيش في تفاعل كامل مع الواقع الحالي الذي يعيشه المجتمع، وتتغير بتغير ذلك المجتمع وأجزائه. وحينما حدث التغير الاجتماعي في المجتمع السعودي كانت عادات الطعام ضمن الجوانب التي أصابها التغير. ورغم أن هذه العادات وأنواع الطعام ترتكز على مجموعة من القيم المتأصلة في ثقافة المجتمع التي تميزه عن غيره بتميز ثقافة المجتمع وموقعه الجغرافي. بالإضافة إلى ذلك فإننا نؤكد على أن عادات الطعام وآدابه تعتبر ظاهرة اجتماعية وثيقة الصلة بالظواهر الاجتماعية الأخرى، إضافة إلى كونها انعكاساً لوضع الأسرة ومكانتها ووضعها الطبقي والمهني، إذ انه كلما زاد الاحتكاك الثقافي للأسرة أو الأفراد بمجتمعات أخرى كان ذلك زيادة في فرصة الاستفادة من

---

(٣٢) نجاح عبد العزيز عبد الرحمن المحسن، **دراسة تحليلية لمعرفة القيمة الغذائية ومدى التقبل لبعض التمور المحلية وبعض الأطباق السعودية الداخلة في تركيبها**، رسالة ماجستير - الاقتصاد المنزلي - كلية التربية للبنات - الرياض، ١٩٨٦م).

ثقافات المجتمعات الأخرى(٣٣)، ومن ثم احتمالية أعلى في حدوث التغير.

ونتيجة لاتجاه المجتمع السعودي للأخذ بالتنمية والتحديث كآليات لتطوير المجتمع في مختلف جوانبه فإنه كان من المنطقي أن تظهر وتتطوّر بعض الأنظمة والمؤسسات والأنساق المتشابهة وأن تزداد درجة التقارب والتشابه قوة بمرور الزمن.(٣٤)

ولا يعني تأثير التغير الاجتماعي على مركب الغذاء أن المجتمع قد فقد كل العادات والآداب التي تميّزه عن غيره لأن معظم العادات والآداب الخاصة بالطعام لها جذور دينية أو تفسيرات تتعلق بهذا الشأن، ومن ثم فهي جزء من العقيدة أو التراث الذي يحرص الأفراد والمؤسسات في المجتمع على بقائه واستمرارية وجوده. لذلك فقد يكون من العسير التخلي عنها بشكل كامل، غير أن التغيرات قد تحدث في بعض المظاهر التي لا يعني تغيرها تخليا عن التراث، بل يحدث التغير في بعض الجوانب التي من شأنها تطوير وتحسين مستوى التغذية وزيادة الوعي الغذائي والصحي لبناء الجسم والعقل السليم لأفراد المجتمع. وهنا يمكننا تحديد العوامل الاجتماعية والمادية التي تلعب دورًا مؤثرًا في إحداث التغيرات الثقافية في مجموعة العوامل التالية:

١ ـ الاتصال والاحتكاك الثقافي :

وهو من أهم العوامل التي تحدث التغير الثقافي سواء كان في مجال الطعام أو عاداته، أو في أي جزء من أجزاء ثقافة المجتمع. ولقد اكتسبت هذا العامل أهمية بعد التقدم الهائل في وسائل الاتصال المختلفة، وبدرجة يمكن القول معها إنه لا توجد مجتمعات اليوم لم تتأثر بصورة أو بأخرى نتيجة لاتصالها واحتكاكها الثقافي بغيرها من المجتمعات أيًا كانت صور وأشكال الاحتكاك والاتصال. فالكثير من أنواع الأطعمة والمأكولات في المجتمع السعودي تأتي من مجتمعات أخرى نتيجة لذلك الاحتكاك والاتصال الثقافي.(٣٥) يضاف لذلك فإننا نجد أن المطاعم المنشرة في المجتمع السعودي، سواء كانت وجبات سريعة أو غيرها من أنواع المطاعم المختلفة، قد نشأت في مجتمعات مغايرة للمجتمع السعودي، نقلت إليه بشكلها وثقافتها سواء كان ذلك في الأعداد أو طريقة الطهي أو أساليب التقديم أو محتويات الوجبة أو نوعية الطباخين أو خلاف ذلك. بحيث تعتبر هذه العادات والآداب والأساليب بمجملها ليست عنصر أصلية في ثقافة المجتمع السعودي وإنما وفدت إليه عن طريق الاحتكاك و النقل الثقافي. ونتيجة للاحتكاك بين كل من ثقافة المجتمع وبين الثقافات الأخرى فإنه يمكن أن تحدث استعارة ثقافية يقع بعدها تفاعل تكون نتيجته، إما أن تنشأ طريقة أو عادة جديدة تشتمل على خصائص كل من الثقافتين الأكثر احتكاكا معا، بحث تكون هذه الطريقة أو العادة مختلفة أو خليطا منهما. و قد تذوب العادة السابقة في المجتمع.(٣٦) أو أن تحافظ كل من المجتمعات المختلفة على طرقها وآدابها في الطعام وكذلك

(٣٣) علياء شكري، **دراسة عادات الطعام وآداب المائدة في الوطن العربي**، (القاهرة: دار المعارف ١٩٨٠م)، الكتاب السنوي لعلم الاجتماع. ص ١٧١ـ ١٩١.

(٣٤) مصطفى عمر التير، **مسيرة تحديث المجتمع الليبي: موائمة بين القديم والجديد**، (بيروت: معهد الإنماء العربي ١٩٩٢م).

(٣٥) أحمد سليم خليل، **البترول والغذاء في بعض البلاد العربية النفطية**، (العراق ـ الجزائر ـ الكويت ـ المملكة العربية السعودية).

(٣٦) محمد عبد المولى الدقس، **التغير الاجتماعي بين النظرية والتطبيق**، (عمان: دار مجدلاوي للنشر ١٩٨٧م).

على خصائصها ومكوناتها في مواجهة غيرها من العادات المستوردة أو القادمة من ثقافات مختلفة أثناء عملية الاتصال أو الاحتكاك.

٢ ـ التقدم التقني :

يلعب هذا العامل دورا هاما في التغير الثقافي والاجتماعي على حد سواء. ويرتبط التقدم التقني بصورة أو بأخرى بالمخترعات سواء تلك التي انتقلت عبر الأجيال السابقة إلى الثقافة والمجتمع وتم تطويرها أو تحسينها بما يتناسب مع الفترة التاريخية التي يعيشها المجتمع. أو أن هذه المخترعات قد ظهرت لأول مرة في مختلف جوانب الثقافة، سواء كانت منقولة من تراث المجتمع أو كانت مخترعا ثقافيا حدث في مجتمع آخر ثم انتقل عبر وسائل الاتصال المختلفة.(٣٧) ويلاحظ تأثير التقدم التقني على الطعام وآدابه باختراع الآلات والتجهيزات المختلفة للمطبخ والمعدات الدقيقة والكثيرة لإعداد الأطعمة المختلفة، وأيضاً تلك التي لها صلة بكيفية حفظ الأطعمة أو تغليفها أو تسويقها، أو تلك التي لها صلة بطريقة تناولها وهي الجوانب العديدة التي أثرت في ثقافة المجتمع السعودي.

ومن ملامح التغير مثلا أن الأطعمة الموسمية لم تعد كذلك بل أنها أصبحت متواجدة طوال السنة، أيضاً هناك المجتمعات الزراعية و الأطعمة التي تُجهز في أماكن معينة من العالم، وبفضل المخترعات التقنية أصبح تواجدها في مختلف الأماكن من العالم واضحا وبشكل لا يدعو إلى الخوف من تلفها.(٣٨) حيث نجد أن هذه المخترعات قد أسهمت في تغير أنظمة الطعام، وأدّت بالتالي إلى تغير بعض العادات المتعلقة به. من هنا يتضح لنا انه من السهل علينا أن نكشف أثر المخترعات المادية على مختلف الجوانب الاجتماعية للثقافة، ولكن ليس من اليسير في نفس الوقت توضيح أثر المخترعات الاجتماعية على الجوانب المادية للثقافة، فتلك تحتاج إلى وقت كاف حتى تتبلور ويتضح أثرها. ورغم أن المخترعات الاجتماعية المرتبطة بثقافة المجتمع قد تتغير بتأثير العناصر المادية عليها، إلا أن أثر المخترعات الاجتماعية قد يعبر عن عملية تكيّف مع الثقافة الوافدة من حيث القبول الكلي أو القبول الجزئي دون الطرد الكامل لها.(٣٩)

٣ ـ العوامل البيئية

تلعب الطبيعة الجغرافية بمعناها الواسع من حيث الموقع، التضاريس، المناخ، والموارد الأولية دوراً مهماً في تشكيل الحياة الاجتماعية بما تحويه من القيم والعادات والتقاليد.(٤٠) وبالإضافة إلى تحقيق ذلك في الجانب المعنوي

---

(٣٧) عبد الهادي العوضي، **حول قضايا نقل وتطوير التقنية وعلاقتها بالقيم والتغير الاجتماعي في العالم العربي**، (الكويت: أعمال حلقة نقاش حول قضايا التنمية والتخطيط (العام الدراسي ١٩٧٧ـ١٩٧٨) المعهد العربي للتخطيط

(٣٨) أحمد عبد الله باتبر، **التغيرات الاقتصادية والاجتماعية وأثرها على الغطاء النباتي في دولة قطر**، (الدوحة: من أعمال ندوة وقضايا التغير الاجتماعي في المجتمع القطري ١٩٩١م)، ص ١١٩ـ١٤٧.

(٣٩) سلامة شعلان وزملائه . تطور الأنماط الاستهلاكية الغذائية **بدولة قطر**، الدوحة: من أعمال ندوة قضايا التغير الاجتماعي في المجتمع القطري، (١٩٩١)، ص ٤٧٣ـ٥١٦.

(٤٠) محسن محمد علي حسين، **أثر العادات الغذائية على الإصابة بأمراض سوء التغذية**، المجلة الطبية السعودية. العدد ٧٥ السنة السادسة عشرة. المحرّم ـ ربيع الثاني، الرياض. (١٩٩٣ م)، ص: ٦٣ـ٦٧.

الناس التكيف مع الواقع بأدوات تناسبه. وللبيئة دور مهم أيضا في إحداث التغيرات الثقافية والمجتمعية، وذلك من منطلق أن الظروف والعوامل البيئية قد تكون عاملاً مساعداً أو معوقاً لقدرة الإنسان على السيطرة على مقدرات حياته، أو من حيث تقديمها للحلول التي تمكن الإنسان من مواجهة مشكلاته والتغلب عليها. ومثال على ذلك نجد أن الإنسان في البيئة الصحراوية يعتمد في غذائه على العناصر المحدودة التي يجدها أو يصطادها، إضافة إلى أن الآداب المرتبطة بالغذاء ترتبط بمقتضيات ومتطلبات هذه البيئة.

الخلاصة :

يؤدي الاحتكاك الثقافي بين المجتمعات بشكل مباشر أو غير مباشر إلى إحداث الكثير من التغير في قيم وعادات وتقاليد المجتمع مما يساعد على تحديثها أو استبعاد بعض عناصرها. حتى يستطيع التكيف مع المستجدات على المجتمع، وينتج عنه أيضا الكثير من القضايا التي تتعلق بتطور الأذواق واستحسان ما في المجتمعات الأخرى.

لذا يمكن القول إن بعض علاقات وممارسات وأفكار المجتمع لا يمكن أن تبقى بدون تغيير فترة طويلة من الزمن، لأن التغير أحد حقائق الوجود. وبعض أفكار المجتمع لا تبقي طويلاً دون تغيير إلا إذا كانت متوافقة مع دوافع وثقافة المجتمع المادية وغير المادية. بمعنى أن أبناء المجتمع يكونون متكيفين تكيفا كلياً مع هذه الثقافة. أما إذا كانت العناصر الأساسية للبناء الاجتماعي لا تتوافق مع احتياجات ودوافع المجتمع، سوف يحدث التغير ولكن بشكل بطئ جداً. أما ما نشهده في المجتمع السعودي فإن التغير السريع هو السمة الغالبة وذلك بسبب خطط التنمية الاجتماعية والاقتصادية.

ومن خلال هذا الدراسة يتضح لنا أن هناك ثنائية في التغير الاجتماعي في مجال الغذاء وعاداته في المجتمع السعودي بين التقليدية والتحديث Tradition and Modernity . إذ أنها تشير إلى التوازي في تعامل الأفراد في المجتمع السعودي بالحديث والمحافظة على التقليدي في نفس الوقت، بل يتعدى ذلك إلى محاولة التقريب بينهما، ويظهر ذلك في الأخذ بالأنماط الاستهلاكية والغذائية الجديدة ومحاولة دمجها في التقليدي من الأنماط الغذائية والاستهلاكية في المجتمع. وقد أوضحت الدراسة أن المجتمع السعودي وبعد الاحتكاك الثقافي مع مجتمعات أخرى استطاع أن يُدخل ويتقبل الكثير من العادات الغذائية المختلفة، وقد نتج عن ذلك الكثير من المشكلات منها كثرة الأمراض المرتبطة بتغير تلك العادات مثل السمنة وحموضة المعدة، وانتشار بعض العادات مثل تناول وجبة غذائية واحدة في اليوم وتناول الفيتامينات والأملاح، وكذلك الإفراط في تناول كميات كبيرة من المشروبات الغازية. وفي المقابل أوضحت الدراسة أن هناك إيجابيات أيضاً منها أن الفرد السعودي بدأ يحرص على القيمة الغذائية للمأكولات وسعراتها الحرارية وكذلك محتويات الغذاء ومدة الصلاحية، وهذا مؤشر على تطور الوعي الغذائي.

وكنتيجة للتغير ، استساغ أفراد المجتمع مأكولات المجتمعات الأخرى، وانتشرت المطاعم الكثيرة في المجتمع. وبالتالي ريادتها من قبل الفرد السعودي. كما كان للإعلام دور مهم وبارز في عملية إحداث هذا التغير بوسائله المختلفة،

في عملية إحداث هذا التغير بوسائله المختلفة، بحيث أصبح مصدراً مهماً للمعلومات عن الغذاء وعاداته. ورغم هذه التغيرات الكمية والكيفية، إلا أن المجتمع السعودي ظل متمسكا بدينه حريصا على أن لا تخرج هذه العادات عن نطاقه، حيث نجد أن قطاعاً عريضاً من أفراده لا يزال متمسكا بتلك العادات والآداب التي قد لا يكون لها أصل في الدين، ولكنها اقترنت به عن طريق التراث. ومع ذلك فقد حاول واستطاع أن يدمج تلك الثقافة الموروثة المتمثلة في العادات والتقاليد الغذائية مع منتجات ثقافية لمجتمعات أخرى لينتج عن ذلك الدمج ثقافة غذائية جديدة.

وقد أظهرت نتائج الدراسة أنه بدأ وبشكل ملحوظ تغير في النمط الغذائي والاستهلاكي لدى أفراد المجتمع السعودي. كما أن الدراسة أوضحت مدى اهتمام السعوديين بالمعلومات الغذائية المدونة على الأطعمة. وأظهرت الدراسة أيضا أن مصادر المعلومات الغذائية لديهم قد تنوّعت وتعددت وذلك نتيجة الانفتاح على المجتمعات الأخرى.

وتدل الدراسات المتعددة في مجال الغذاء وعاداته في المجتمع السعودي على تنوّع المأكولات وكيفية الإعداد والآداب المختلفة المتعلقة بها، حيث نجد على سبيل المثال انتشار "سفر الموائد" في محلات بيع الأثاث كما أن جيلا جديدا من أبناء المجتمع تعود على الأكل على الطاولات والأكل بالملعقة والشوكة بدلا من اليد، بالإضافة إلى تذوّق الأنواع المتعددة من الأطعمة، وذلك نتيجة الانفتاح والاحتكاك الثقافي الذي حدث بين المجتمع السعودي والمجتمعات الأخرى. ويضاف إلى ذلك حاجة المجتمع إلى التحديث في الثقافة عموما وثقافة الغذاء وعاداته بشكل خاص.

العصور، المجلد الحادى عشر، الجزء الاول، ١١٥ - ١١٧ (٢٠٠١ م)

مراجعة علمية لـ (هل الحِجْر للأنباط أم للثموديين؟ للدكتور عبد الله نصيف

هتون أجواد الفاسي

للدكتور عبد الله نصيف إسهامات كثيرة في مجال تاريخ شمال غرب الجزيرة العربية وآثارها خاصة فيما يتعلق بمنطقة العلا التي هو أخبر بشعابها. ولكن هذا لا يمنع أن أدلي بدلوي وأناقش الدكتور عبد الله في بعض استنتاجاته خاصة المتصلة ببحثه المعنون هل الحجر للأنباط أم للثموديين؟ " والمنشور في عدد العصور ١/١٠ (١٩٩٥م) ٧ ـ ١٨ الذي يصل فيه إلى نتيجة مفادها أن الحِجْر (مدائن صالح) كانت مدينة ثمود. ونسب جزء من آثارها المنحوتة إلى ثمود. ومناقشتي ذات شقين، الشق الأول يتعلق بأسباب عدم اتفاقي مع النتيجة التي تخرج بها الدراسة المشار إليها، والشق الآخر يتصل بالمنهج الذي اتبع للوصول إلى هذه النتيجة مع بعض الملاحظات المنهجية.

يستدل الدكتور نصيف من خلال الآيات القرآنية على سكنى ثمود الحجر، ووفقا للآيات التي ترد فيها الإشارة الصريحة إلى ثمود هي ثلاث عشرة آية (الأعراف : ٧٣، هود : ٦١،٦٨، ٩٥، الإسراء : ٥٩، الشعراء ١٤١، النمل : ٤٥، فصلت : ١٧، الذاريات : ٤٣، القمر : ٢٣، الحاقة : ٤ ـ ٥ ، الشمس : ١١). أما ذكر الحجر فيرد في آية واحدة لا تقترن بثمود وهي : «ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين. وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين. وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين. فأخذتهم الصيحة مصبحين، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون» (الحجر : ٨٠ـ٨٤). وهذه الآية لا تجعل هناك مجالا للشك في أن الحجر المقصودة هي مدائن صالح الحالية في شمال غرب السعودية ذات الجبال المنحوتة.

يبدأ الخلاف حول هوية أصحاب الحجر من نص الآية «تنحتون من الجبال بيوتا فارهين» (الشعراء:١٤٩)، أثناء الحديث عن ثمود (الشعراء ١٤١-١٤٩). وهي تشير إلى أن قوم ثمود أيضا قد مارسوا فنّ النحت في الجبال سواء كبيوت دنيوية أم أخروية. لكن هذه الإشارة لا تكفي للدليل على اختصاصها بالحجر، ذلك أن فن نحت البيوت في الجبال فنّ قديم مارسته أقوام كثيرة من عرب وعجم في المواقع الجبلية التي تتكون صخورها من الحجر الجيري الذي يسهل نحته وتشكيله وذلك منذ العصر الحجري ـ النحاسي

Avigad N “The Rock-Rock_carved Facades of the Jerusalem Necropolis” IEJR I (1951 96)

ومارسه المصريون منذ الأسرة الحادية عشر ومثال ذلك ضريح منتوحتب الثاني (٢٠١٠ ـ ٢٠٦١ ق.م) المسمى بالدير البحري (صالح، عبد العزيز، **حضارة مصر القديمة وآثارها** (القاهرة، ١٩٨٠) ٤٣٥). أما الحيثيون فمقابرهم تعود إلى

الألف الثاني ق.م ممثلة في مقابر جرك ـ كاپاسي بكبادوكيا (بابلون، أرنست، الآثار الشرقية، ترجمة مارون عيسى الخوري طرابلس ـ لبنان، ١٥٣ـ٤). كما عرفها الفينيقيون (بابلون (١٩٨٧) ٢٠٠ـ٢٠١). وبعد غزوهم لمصر في عهد دارا الأول، عرف الفرس الإخمينيون المقابر المنحوتة في الصخر وشيدوا مقابرهم في صخور "نقش ـ رسمت" ونحت ـ جمشيد" بالقرب من برسيبوليس (بابلون، (١٩٨٧) ١٣٨ـ١٣٩)، هذا فضلا عن ددان (العلا) (حوالي القرن الثالث ق.م) البدع والرقيم (البتراء) (القرن الأول ق.م).

أما اعتبار أن الأنباط من سلالة ثمود الناجية فهاجروا إلى فلسطين ثم طردهم الآشوريون إلى السامرة حتى استقروا أخيرا في مدينة الرقيم مشاركين الآدميين في سكناها حتى غلب عليهم اسم الأنباط (ص١٣) فإنها نتيجة تبدو لي متسرعة بعض الشيء وبحاجة إلى إسنادات وأدلة علمية، فلم يذكر أن سرجون الآشوري قد "طرد" الثموديين وإنما نقلهم إلى السامرة ويمكن أن نستطرد في أسباب هذا القرار السياسي والتغيير السكاني الذي قام به سرجون، لكنه من جهة أخرى انتقال غير واضح مصدرها، ولكن د. نصيف يفترض انه نقلهم من رملة فلسطين دون تفصيل في كيفية الوصول إلى هذه النتيجة.

وتقسم الدراسة في (ص١٣) واجهات المقابر في الحجر إلى عدة أشكال فتطلق على الفئة الثانية والثالثة "البيوت المنحوتة غير المنقوشة" وترى أنه يحتمل نسبة الفئة الثالثة إلى الثموديين (ص١٤)، وهي تقسيمات ونسبة لم تعن الدراسة بتوضيح ملابساتها وسندها التاريخي و الأثري. هذا فضلا عن أنه من غير الواضح ما هي الأسس التي بنت عليها الدراسة تمييزها بين الفئة الثانية والثالثة من البيوت المنحوتة حتى تنسب إحداها للأنباط وأخرى لثمود.

ترى الدراسة أن "واجهات المقابر تحمل طابعا زخرفيا مألوفا وتأثيرات حضارية" كانت بحاجة إلى توضيح من جهة، ما هي الطبيعة الزخرفية المألوفة وبالنسبة لمن؟، وما هي التأثيرات الحضارية التي تنعكس على الواجهات؟، ويبدو لي أنه بالإمكان الاستعانة ببعض الدراسات التي ظهرت حديثا حول آثار وهندسة الحجر والبتراء ومنها على سبيل المثال دراسة جوديث ماكنزي "آثار البترا" (J. McKenzie, The Architecture of Petra, 1990) التي، تعرض فيها وتحلل هندسة كل الواجهات الصخرية عاقدة المقارنة بين الحجر وبين البتراء.

اسم "مدائن صالح" الذي أوضح الشيخ حمد الجاسر من قبل أنه لا صلة له بالنبي صالح وإنما هي تسمية متأخرة تعود إلى العصر الإسلامي وتنسب إلى وال كان على العلا يدعى صالح، فإن الدراسة ترى أنها تسمية متأثرة بثمود وأنها دليل على ثمودية الحجر، وإن كان هذا الرأي كذلك ليس مدعما بأدلة كافية (ص٨).

(ص٧) : تذكر الدراسة أن اسم الحجر ورد بصيغة "حجرا" فهي الصيغة التي وردت في النبطية في إحدى كتابات الحجر "Hogra" أما "حجرا" فهي الصيغة التي وردت في النبطية في إحدى كتابات الحجر (JS 38) .

(ص ٨) : في نص "هذا الحديث كأثر من آثار السنة يدل دلالة قطعية" على أن الحجر هي أر ثمود، وكلمة (قطعية) في هذا السياق لا يعد منهجياً وبحاجة إلى مراجعة.

- آخذ على الدراسة عدم اعتمادها على المصادر في الاقتباسات التي كانت معتمدة على المراجع الثانوية، مثل الاعتماد على بيومي مهران فيما يختص بما ورد في كتاب الطواف حول البحر الإريتري.

(ص١١) : أول إشارة للأنباط كانت عام ٣١٢ ق.م وليست ١٣٢ق.م (أعتقد أنها خطأ مطبعي).

(ص١١) : تذكر الدراسة أن الذين انتصروا على الأنباط عام ٣١٢ق.م هم السلوقيون خلفاء الاسكندر علي دمشق، في حين أن الدولة السلوقية لم تتأسس حتى عام ٣٠٢ق.م. أما الحملة على الأنباط فلم تكن بقيادة سلوقس أو بتوجيه منه وإنما كانت موجهة من قبل نتيجونوس، أحد قواد الاسكندر، الذي أرسل حملتين الأولى بقيادة أثنايوس وانهزمت ثم ثناها بابنه ديمتريوس فلم يكن حظه بأفضل من الأول (Diodorus C, The Library of History, 19:94-98)

(ص ١١) : الفقرة الأخيرة التي تختص بالمباني السكنية تنتهي بدون توثيق.

(ص ١٣) : تذكر الدراسة أن عدد المقابر المنحوتة ذات الكتابة ٣٤ مقبرة منها ٣١ مؤرخة، لكن عدد المقابر وفق مسح إدارة الآثار السعودية هو ١٣١ (**المواقع الأثرية في العلا ومدائن صالح**، الرياض.٤٢). أما عدد المقابر ذات الكتابات فهي ٣٧مقبرة تحمل ٤٢ كتابة منها ٣٣ مؤرخة منهم اثنتان تعقبان الفترة النبطية تؤرخان بالقرنين الثالث والرابع الميلاديين.

(ص ١٢) : الآلهة التي ُذكر أن رموزها قائمة في الإيوان وهي لدى الشرى، مناة واللات، ليست ذات علاقة بنص النقش الذي يرد في الدراسة والذي يتناول إلهًا آخر وهو "أعرا، الذي ببصرى".

وبعد فإني آمل أن تستمر هذه الدراسات التي تثري مواقعنا الثرية والفترات التاريخية التي لا تحظى عادة بالاهتمام الكافي والذي عنى الدكتور عبد الله نصيف أن يسلط عليها الضوء ولا زال يتولى ذلك.

All MSS should be addressed to :
- Mars Publishing House,
P.O. Box : 10720, Riyadh 11443,
Saudi Arabia.
The Arabic Publishing & Distribution House Lts.
49 Goldhawk Road
London W12 8 QP
England

ANNUAL SUBSCRIPTION RATE :

- Saudi Arabia	S.R. 100
- All Arab Countries	U.S. $ 35
- All European Countries	U.S. $ 40
- U.S.A. & Canada	U.S. $ 45
- Australia & South Asia	U.S. $ 50

Ages

A Semal - annual Journal of Historical, Archaeological and Civilizational Studies

VOLUME 11
PART 1
JANUARY 2001
SHA'BAN 1421

Published by : Mars Publishing House London

العصور

مجلة علمية ، مُحَكّمة نصف سنوية ، تعنى بنشر البحوث التاريخيّة والآثاريّة والحضاريّة

المجلد الحادي عشر

الجزء الثاني

يوليو ٢٠٠١م

ربيع الآخر ١٤٢٢هـ

تصدر عن : دار المريخ للنشر - لندن

بسم الله الرحمن الرحيم

* ما ينشر في هذه المجلة من مواد تعبر عن آراء أصحابها

تكون جميع المراسلات والاشتراكات لجميع دول العالم على العنوان التالي :

- دار المريخ للنشر – ص . ب ١٠٧٢٠
  الرياض : ١١٤٤٣ – المملكة العربية السعودية
- دار المريخ للنشر – ٤ ش الفرات – مدينة المهندسين – جمهورية مصر العربية
- هاتف ٣٣٧٦٥٧٩ فاكس ٧٦٠٩٤٥٧
- الدار العربية للنشر والتوزيع – ٤٩ جولد هوك رود، لندن – W128QP المملكة المتحدة

الاشتراكات السنوية :

- المملكة العربية السعودية (١٠٠) ريال سعودي
- الدول العربية (٣٥) دولارا أمريكيا أو ما يعادلها.
- الدول الأوروبية (٤٠) دولارا أمريكيا .
- أمريكا وكندا (٤٥) دولارا أمريكيا .
- استراليا وجنوب شرق آسيا (٥٠) دولارا أمريكيا .

العصور، المجلد الحادي عشر ، الجزء الثاني ، ١- ١٦٢ القسم العربي ، ١ - ٢٠ القسم الإنجليزي (٢٠٠١م)

المحتويات

القسم العربي

English Section

العصور، المجلد الحادي عشر ، الجزء الثاني ، ٧ - ٦٧ (٢٠٠١م)

سَبيُ الفتوحاتِ الإسلاميةِ حتى نهايةِ عصر الخلافةِ الرَّاشِدة وأثرُه على الأمَّة

د. سليمان بن عبد الله السويكت

ملخص البحث

كان من إفرازات المغازي النبوية والفتوحات الإسلامية التي حدثت في القرن الأول الهجري دخول فئة جديدة من الناس في خضم الحياة الإسلامية، عرفت بـ (السبي)، قام الباحث بتتبع هذه الظاهرة من خلال تلك المغازي و الفتوح ورصد حجمها وحالاتها، وكيف كان التعامل معها ؟ ثم وقف متأملاً ومستجلياً لأهم الآثار التي تمخضت عن ظهورها في هذا المجتمع الإسلامي الجديد إيجاباً أو سلباً.

الحمد لله العظيم المنان قديم الإحسان، وصلى الله تعالى وسلم على رسوله الذي بعثه رحمة للعالمين بالإسلام ديناً كاملاً شاملاً خاتماً مهيمناً على ما سواه وسبقه من الأديان، محققاً معنى كمال الألوهية المطلق لله وحده والعبودية الخالصة له سبحانه، بعثه ليقيم مملكة الشريعة الإلهية في عالم الإنسان، ويحرره من العبودية للعباد إلى رب العباد، أما بعد: فدين الإسلام هو الدين الحق والأصل العالمي الذي على البشرية كلها أن تفيء إليه، أو تسالمه[1]، لأنه الدين الوحيد على ظهر الأرض الذي يتحقق فيه معنى الوجود الإنساني بأتم صوره وأسمى أشكاله، وتتحقق من خلاله للبشرية السعادة الكاملة في الدنيا والآخرة، ومن هنا فقد صار واجباً على من يستفيء بظله، ويحظى بهذه النعمة الكبرى أن يسعى ما استطاع إلى نشرها، لأن من حق كل إنسان يعيش على ظهر هذه الأرض أن يُبَلَّغ بهذا الدين، و ألا تقف أي عقبة أو سلطة في وجه تبليغه بأي حال من الأحوال، ومن حقه كذلك أن يُترك بعد وصول الدعوة إليه حراً في اعتناقه لا يصده عنه صادٌّ مهما كان، وإذا اعتنقه فلا يفتن عنه بأي وسيلة من وسائل الفتنة مباشرة أو غير مباشرة، ولا شك أنه لا يستطيع أحد أن يضمن هذه الحقوق أو يقوم بها سوى أمة الإسلام. ومن البدهي أنه لا يمكن أن يتم ذلك إلا بإزالة أي عقبة أو عائق يعترض طريق الإسلام أو يحد من حرية انطلاقه ، وبتحطيم أي قوة تقف دون تبليغه أو

---

(١) سيد قطب إبراهيم، في ظلال القرآن (الطبعة السابعة، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٣٩١ هـ) ٧٣٤/٣.

تحاول فتنة من دخل فيه[٢]. إن من الوسائل المهمة في تبليغ رسالة الإسلام بعد أن تقف الحواجز والسدود حائلاً بين المسلمين وبين من لم تبلغهم دعوته وسيلة الجهاد في سبيل الله تعالى، الذي كانت الفتوحات الإسلامية ثمرة من ثمراته، وكانت أهدافه وغاياته واضحة في نفوس القوم غاية الوضوح. سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليُرى مكانه، فمن في سبيل الله ؟ قال: " من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله "[٣]، فعلموا من هذا أن غاية الجهاد الكبرى هي التمكين لدين الإسلام في الأرض، وأنَّ من يقف في سبيل ذلك يستحق أن يحارب وأن يسلب أعز ما يملك من المال والنساء والذرية، ومع هذا فلم يكن الحصول على الغنائم التي أحلها الله تعالى للمسلمين في حروبهم مع الكفار مطلباً مهماً يسعون من أجله، لأن ذلك ربما يصرف الجهاد عن حقيقته التي أرادها الله سبحانه، أو قد يُقلل من أجره في الآخرة؛ لأن المغانم من الأجر الدنيوي العاجل[٤]، لكن إذا قصد بأخذها إغاظة المشركين وكيدهم أو إضرارهم وإضعافهم فإنه يحصل بذلك الأجر والمثوبة من الله تعالى[٥].

ومما يوضح هدف الفتوحات الإسلامية وأن السبي ليس غاية فيها مع أن السبي من أنفس ما يغنمه المسلمون – ما روي عن النبي ﷺ أنه إذا بعث جيوشه أو سراياه قال لهم: " تألَّفوا الناس، وتأنَّوا بهم، ولا تُغيروا عليهم حتى تدعوهم إلى الإسلام، فوالذي نفس محمد بيده ما على الأرض من أهل بيت من وبر ولا مدر تأتوني بهم مسلمين إلا أحب إلي من أن تأتوني بنسائهم وأبنائهم وتقتلون رجالهم"[٦].

(٢) في ظلال القرآن ٣/٨٥٥-٨٥٦، والأستاذ زهير الخالد، مشروعية الجهاد في سبيل الله، (بحث غير منشور) ص ٥- ٧.

(٣) **البخاري**، الإمام محمد بن إسماعيل الجعفي، أبو عبد الله (ت٢٥٦ هـ) صحيح البخاري (باهتمام عبد الملك مجاهد، الطبعة الأولى، دار السلام، الرياض ١٤١٧هـ)، (كتاب الجهاد والسير، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا) الحديث ٢٨١٠.

(٤) كما روى عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: " ما من غازية تغزو في سبيل الله فيصيبون الغنيمة إلا تعجلوا ثلثي أجرهم في الآخرة ويبقى لهم الثلث، وإن لم يصيبوا غنيمة تم لهم أجرهم " مسلم، ابن الحجاج، أبو الحسين القشيري النيسابوري = (٢٦١هـ) صحيح مسلم (تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت "د. ت")، (كتاب الإمارة، باب مَنْ قدَّر ثواب من غزا فغنم ومن لم يغنم) الحديث ١٩٠٦. وللعلماء حول معنى هذا الحديث كلام طويل، انظر مثلاً: **الزرقاني**، محمد بن عبد الباقي بن يوسف (ت ١١٢٢هـ) شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك (الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١١هـ) ٣/٦-٧.

(٥) كما قال تعالى: ﴿ ولا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إلا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾ [التوبة آية ١٢٠].

(٦) **الهيثمي**، نور الدين علي بن سليمان بن أبي بكر، (ت ٨٠٧ هـ) بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث (تحقيق: حسين بن أحمد الباكري، الطبعة الأولى، مركز خدمة السنة والسيرة النبوية، المدينة المنورة ١٤١٣هـ) ٢/٦٦١، **وابن حجر**، الحافظ أحمد بن علي بن محمد العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ)، المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية (تحقيق حبيب=

ولو كان المسلمون يريدون الاستزادة من السبي بأي سبيل لتحقق لهم ذلك في الفتوحات الإسلامية بصورة منقطعة النظير. فقد فتحوا بلاداً شاسعة ودانت لهم شعوب وأمم كثيرة، ولكنهم كانوا يَجْرُون في تعاملهم وأخذهم وتركهم وفق التشريع الإلهي القائم على العدل والرحمة والإحسان وإيفاء الحقوق والالتزام بالعهود، وتسير الفتوحات الإسلامية ملتزمة بهذه الأخلاقيات والمثل. هذا رستم - قائد الفرس في معركة القادسية [٧] - يشهدُ للمسلمين بهذا الالتزام في وقت أشد ما يكون فيه العدو صلفاً على عدوه؛ فعندما نزل قبيل المعركة أحد البلاد غصبَ أصحابُه الناسَ أبناءهم وأموالهم ووقعوا على النساء وشربوا الخمور، فضج أهلها إليه، فقام في أصحابه، فقال: " يا معشر فارس.. والله إن العرب مع هؤلاء وهم لهم حربٌ أحسنُ سيرة منكم "[٨].

إن الدفع عن الحرمات والذب عنها أمر مغروس في نفوس الخلق منذ أقدم الأزمان وعند كل الأمم والشعوب. فلا تسمع أن أحداً يسلم أهله وفلذات كبده إلا بعد أن يُغلب على أمره أو يقتل، وتجد الرؤساء والقادة في الحروب يستنهضون همم المقاتلين ويستثيرون حميتهم للثبات بتذكيرهم بمن تحت أيديهم من النساء والذرية للدفاع عنها والاستماتة من أجلها، كما فعل هرقل – إمبراطور الروم – قبل موقعة اليرموك[٩] حينما أقبل على بطارقة الروم ليرفع الروح المعنوية لديهم وليستفزَهم للقتال بأقصى غاية، فذكر ظهور المسلمين عليهم وأنهم لا يرضون إلا بسبي الأمهات والأخوات والأزواج والبنين والبنات، واتخاذ الأحرار وأبناء الملوك عبيداً[١٠]. و كما فعل باهان - قائد الروم في اليرموك –[١١]، وتوجَّه مُحكَّم بن الطفيل الحنفي إلى بني حنيفة المرتدين يوم اليمامة - وهو يقاتل المسلمين

= الرحمن الأعظمي، دار المعرفة، بيروت (د.ت) ١٦٦/٢، وأهل الوبر هم أهل البادية سكان الخيام، وأهل المدر هم أهل الحاضرة سكان البيوت المبنية.

(٧) القادسية: اسم لموضع بينه وبين العذيب أربعة أميال كانت به الوقعة المشهورة بين المسلمين والفرس. **الحموي**، ياقوت بن عبد الله، (ت ٦٢٦) معجم البلدان، (دار صادر، دار بيروت، بيروت "د.ت") ٢٩١/٤.

(٨) ابن الأثير، علي بن أبي الكرم الشيباني (٦٣٠ هـ) الكامل في التاريخ (دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية، بيروت ١٣٨٧هـ) ٣١٧/٢.

(٩) اليرموك: واد بناحية الشام في طرف الغور يصب في نهر الأردن كانت به الوقعة المشهورة بين المسلمين والروم. معجم البلدان ٤٣٤/٥.

(١٠) ابن أعثم، أحمد بن أعثم الكوفي، أبو محمد (٣١٤ هـ) الفتوح (الدار السلفية، الطبعة الأولى، حيدر أباد ١٣٩٤ هـ) ٢٢٢/١. وهذا القول من هرقل مما يدلس به على قومه ويستثير به حميتهم، وإلا فهو يعلم أن دعوة الإسلام حق وأن المسلمين ما جاءوا إلى بلاده من أجل هذا الذي يشير إليه.

(١١) **ابن حبيش**،عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله (ت ٥٨٤هـ) غزوات ابن حبيش(تحقيق: سهيل زكار، الطبعة الأولى، دار الفكر، بيروت ١٤١٢) ٢٦٣/١.

أشد قتال مستثيراً حميتهم للذبِّ عن أعراضهم ودفع العار عنهم ـ قائلاً: " قاتلوا قبل أن تسبى نساؤكم غيرَ حظيات ويستردفن غيرَ رضيات، ومن كان له حسب فليقاتل عن حسبه "[١٢]. ثم جاء دين الإسلام ليؤكد هذا الأمر فجعل القتل دون الحرمات شهادة تنال بها أرفع الدرجات وأعلى المقامات: "من قاتل دون أهله فهو شهيد "[١٣].

إن السبي الناتج عن الحروب كان موجوداً منذ أقدم العصور عند اليهود واليونان والرومان وغيرهم، ولم يكن أمراً جديداً في الفتوحات الإسلامية، وكان السبي يقع على المسلمين كما يقع منهم[١٤] ، ولكن المسلمين يختلفون عن غيرهم بأنهم محكومون في التعامل بشرع الله تعالى، وأن السبي الذي يُسترقُّ من قبل المسلمين تُفتح أمامَه الآفاقُ الرحبة لاسترداد حريته بالمكاتبة، أو العتق الذي حثَّ عليه الإسلام والذي ينال به المسلم الأجر والفضل العظيم من الله تعالى.

هذا الموضوع الذي أقدم له رأيت من خلال الاستقراء أنه موضوع جدير بالدراسة لِجِدَّتِه؛ يحتاج إلى جمع لشتات متفرقه، ودراسة لحالاته حسب فترة البحث المحددة خلال عهد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وعهود خلفائه الراشدين، ثم تتبع لأهم الآثار التي نتجت عن استقرار هذه الفئة بين ظهراني المسلمين داخل البيوت، وفي الأسواق والمزارع والمراعي، وفي بيوت العلم، وفي ميادين الجهاد.. واستعنت بعد الله تعالى لإنجازه بمصادر أصلية؛ من كتب الحديث، والتاريخ والرجال وغيرها، فأسأل الله تعالى العون والتسديد، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وسلم.

---

(١٢) غزوات ابن حبيش ٨٣/١.
(١٣) أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني "ت" ٢٧٥هـ) سنن أبي داود (مراجعة: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت " دت") ٢٤٦/٤، و الترمذي، الحافظ أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة (ت٢٧٩ هـ) سنن الترمذي (دار الدعوة، اسطنبول ١٤٠١ هـ) ٣١/٤ (وقال حسن صحيح)، والنسائي، أحمد بن شعيب، أبو عبد الرحمن (ت ٣٠٣ هـ)سنن النسائي (مراجعة: عبد الغفار البنداري وسيد كسروي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١١ هـ) ٣١٠/٢، و البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي، أبو بكر (ت ٤٥٨هـ) ، =
= سنن البيهقي الكبرى (مراجعة: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المشرفة ١٤١٤ هـ) ٢٦٦/٣.
(١٤) لا يدخل في نطاق هذه الدراسة بحث سبي المسلمين عند غيرهم من الأمم، لأن أكثر ما يتعلق بهذه الحالة أحكام فقهية لا تخصنا، وقد كتب الدكتور عبد اللطيف عامر دراسة فقهية شاملة عن أحكام الأسرى والسبايا في الحروب الإسلامية وتطرق فيها لكلا الجانبين؛ أسرى المسلمين وسباياهم وأسرى غير المسلمين وسباياهم . انظر كتابه: أحكام الأسرى والسبايا في الحروب الإسلامية (الطبعة الأولى، دار الكتب الإسلامية، القاهرة ١٤٠٦هـ).

تعريف السبي:

سَبْيٌ: السين والباء والياء أصل واحد يدل على أخذ شيء من بلد إلى بلد آخر كُرهاً[١٥].

والسَّبْيُ والسِبَاء والاسْتِبَاء: الأسر[١٦] إما للعدو خاصة وإما للعدو وغيره[١٧].

وتطلق كلمة (سَبِيٌّ) على الذكر فيقال: هو سَبِيٌّ، وعلى الأنثى فيقال: هي سَبِيٌّ من نسوة سبايا[١٨]. وتسَابَى القوم: سَبَى بعضُهم بعضاً، وهؤلاء سَبَى كثير، وسَبَت الجاريةُ قلبَ الفتى تَسْبيه، أي: ذهبت به[١٩].

والسَّبْيُ: المَسْبِيُّ، والجمع سُبِيٌّ. وقد ورد في الحديث ذكر السَّبْي، والسبِيَّة، والسبايا[٢٠]. فالسَّبْيُ: النهب وأخذ الناس عبيداً وإماءً، والسَّبِيَّةُ: المرأة المنهوبة. وقيل إن السَّبْيُ يقع على النساء خاصة إما لأنهن يَسْبِينَ الأفئدة، وإما لأنهن يُسْبَيْنَ فيُملكْن، ولا يقال ذلك للرجال[٢١]. ويقال: سَبَى: إذا مَلَك، وسَبَى: إذا تمتَّع بجاريته شَبَابَها كُلَّه، وسَبَى: إذا استخفى[٢٢].

وسَبَاه الله: أي غَرَّبَهُ وأبعده أي (لعنه الله) ومنه قول الشاعر[٢٣]:

فقالتْ سَبَاكَ اللهُ إنَّك فاضِحي
ألستَ ترى السُّمارَ والناسَ أحوالي

ومنه السَّبْيُ: لأنه يُغَرَّبُ عن وطنه ويُبعد[٢٤]، وسَبَى الخمرَ: حَمَلها من بلد إلى بلد، وسَبَى الماء: حفرَ حتى أدركه، والسَّبِيُّ: العُودُ يحملهُ السيلُ من بلدٍ إلى بلد فكأنه غريب، والسَّبِيُّ من الحيَّة: جِلدُها الذي تسلخه[٢٥].

---

(١٥) **ابن فارس**،أحمد بن فارس بن زكريا، أبو الحسين (ت ٣٩٥ هـ) معجم مقاييس اللغة (تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الطبعة الثانية، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٣٩٠هـ) مادة (سبي) ١٣٠/٣.

(١٦) الجوهري، إسماعيل بن حماد، أبو نصر (ت٤٠٠ هـ) تاج اللغة وصحاح العربية، المسمى(الصحاح) (تحقيق: شهاب عمرو، الطبعة الأولى، دار الفكر، بيروت ١٤١٨هـ) مادة (سبى) ١٧٢٥/٢.

(١٧) **الزبيدي**، محمد مرتضى الحسيني، أبو فيض (ت ١٢٠٥هـ) تاج العروس من جواهر القاموس (تحقيق: علي شيري، دار الفكر، بيروت ١٤١٤هـ) مادة (سبى) ٥٠٤/١٩.

(١٨) **ابن منظور**، جمال الدين محمد بن مكرم = الأنصاري (ت ٧١١ هـ) لسان العرب (الطبعة الثالثة، دار صادر، بيروت ١٤١٤هـ) مادة (سبي) ٣٦٧/١٤.

(١٩) **الفراهيدي**،الخليل بن أحمد(ت ١٧٥ هـ) كتاب العين (تحقيق: مهدي المخزومي وزميله، وزارة الثقافة والإعلام العراقية ١٩٨٢ م) مادة (سبي) ٣١٣/٧.

(٢٠) انظر مثلاً صحيح البخاري (كتاب البيوع، باب بيع العبد..) حديث ٢٢٢٨، و(كتاب العتق، باب من ملك من العرب..) حديث ٢٥٣٩-٢٥٤٣،٢٥٤٠.

(٢١) ابن منظور، المصدر السابق ٣٦٨/١٤.

(٢٢) المصدر السابق ٣٦٧/١٤.

(٢٣) الجوهري، المصدر السابق ١٧٢٦/٢.

(٢٤) ابن منظور، المصدر السابق ٣٦٨/١٤.

(٢٥) المصدر السابق ٣٦٧/١٤-٣٦٨، وتاج العروس ٥٠٥/١٩-٥٠٦.

وهكذا تدور معاني السبي على الحمل والنقل من مكان إلى مكان والتغريب والإبعاد وسلخ الشيء عن موطنه الأصلي. فالسبي إذاً هو ما يؤخذ بعد الحرب أو أثناءها من نساء المنهزمين وصبيانهم فيُنقل إلى حوزة المنتصرين فيصير ملكاً لهم.

ظروف وجود السبي:

وإذا ما نظرنا في الأسباب التي تؤدي إلى وقوع السبي نجد أن الحروب تأتي في المقام الأول في هذا الباب. وقد رأينا أهداف الفتوحات الإسلامية السامية وارتفاعها عن حطام الدنيا الفانية، فهي تختلف عن جميع الحروب التي حدثت أو تحدث في العالم، حيث لا تكاد تخرج هذه في مقاصدها عن أهداف دنيوية؛ سياسية، أو اقتصادية، أو اجتماعية، أو غيرها. بينما الفتوحات الإسلامية ترتفع عن ذلك كله إلى تكريم الإنسان ورفع العبودية عنه. لكن هذا الإنسان قد يغلب عليه الطغيان وحب التسلط والجبروت، فيصرُّ على إذلال الناس واستعبادهم، وتعبيد نفسه هو للشيطان، فيكابر ويعاند ويحول بين المسلمين وبين تبليغ رسالة الله، ويسوق الناس بعصاه إلى الحرب التي تؤدي إلى القتل والأسر والسبي؛ فيقع القتل والأسر على الجنود والمقاتلين الذين يشتركون في المعارك، ويقع السبي على النساء والأطفال وغيرهم. إما لأنهم يقومون بجهد حربي أحياناً، وإما لتوقي الأذى الذي قد يحصل منهم أحياناً أخرى، وإما لمجرد تبعيتهم للعدو المحارب أحياناً ثالثة(٢٦) ، لأن سبيهم يفت في عضده ويضطره إلى الإذعان والتسليم. ولكونه لا يجوز قتل النساء والصبيان في الحرب ما لم يقاتلوا(٢٧) ، فإنه يقع عليهم السبي، فيسبى أطفال المشركين ونساؤهم عرباً أم غير عرب، كتابيين أم غير كتابيين؛ فالرسول ﷺ فعل ذلك في حربه مع بني المصطلق ومع هوازن(٢٨) ، وسبى يهود بني قريظة ويهود خيبر وهم من أهل الكتاب(٢٩)، وسبى أبو بكر وعمر أعاجم الفرس المجوس(٣٠)، وذكر الماوردي أنه

---

(٢٦) عامر، أحكام الأسرى.. ص ٢٨٢.

(٢٧) صحيح مسلم (كتاب الجهاد، باب النساء الغازيات) الحديث١٨١٢، و أبو يعلى، محمد ابن الحسين الفراء (٤٥٨هـ) الأحكام السلطانية (تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٣هـ) ص ٤٣.

(٢٨) صحيح البخاري (كتاب المغازي، باب قوله تعالى {ويوم حنين..}) الحديث٤٣١٨، ٤٣١٩، وصحيح مسلم (كتاب الجهاد، باب جواز الإغارة..) الحديث ١٧٣٠.

(٢٩) صحيح مسلم (كتاب الجهاد والسير، باب إجلاء اليهود من الحجاز) الحديث ١٧٦٦، و**ابن حبان**، محمد بن حبان بن أحمد، أبو حاتم البستي (ت ٣٥٤ هـ) صحيح ابن حبان (تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤١٤) ٦٠٨/١١.

(٣٠) انظر مثلاً **البلاذري**، أحمد بن يحيى بن جابر، أبو الحسن (ت ٢٧٩ هـ) فتوح البلدان (تحقيق: رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت ١٣٩٨ هـ) ص ٢٤٨، وغزوات ابن حبيش ٣٣٥/٢.

يجوز شراء أولاد أهل الحرب منهم كما يجوز سبيهم، ويجوز شراء أولاد أهل العهد منهم ولا يجوز سبيهم ، و لا يجوز شراء أولاد أهل الذمة منهم كما لا يجوز سبيهم(٣١)، إلا إذا نقضوا العهد فقد حلت دماؤهم وجاز سبيهم(٣٢). وذكر أهل العلم أنه لا يجوز سبي العَجَزَة ومن في حكمهم؛ كالشيوخ كبار السن والرهبان والعميان والزمنى، فهؤلاء لا يحل سبيهم لأنهم غالباً لا يشاركون في الحرب، أو لأنه لا نفع فيهم(٣٣)، ولم يَرِدْ عن الرسول ﷺ أنه سبى أحداً من العجزة أو ممن في حكمهم(٣٤)، كما أنهم لا يقتلون في الحرب إلا إذا كان لهم رأي، فقد قُتل دريد بن الصمة(٣٥) في حرب هوازن وقد جاوز مائة سنة بكثير(٣٦).

والسبب الذي يدعو بعض المحاربين إلى استصحاب النساء والأطفال في الحرب هو الرغبة في بعث الحماس في النفوس، واستثارة الحمية، والاستماتة في القتال للدفع عن الحرمات، كما فعل مالك بن عوف النصري(٣٧) في معركة حنين حينما ساق مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم، فلما سمع دريد بن الصمة ذلك أنكر عليه، وقال: إن المنهزم لا يرده شيء(٣٨)، وهذا ما كان بالنسبة لهوازن. لكن دور النساء في بعض الحروب حقيقة لا تنكر؛ عندما يخرجن ناشرات شعورهن، نادبات مناديات بأخذ الثأر، كما فعلت هند بنت عتبة(٣٩) والنسوة اللاتى كن معها يوم أحد عندما كن يضربنَ خلف الرجال بالدفوف ويهيِّجنهم على قتال المسلمين بإنشاد الأراجيز

(٣١) **الماوردي**، علي بن محمد بن حبيب، أبو الحسن (ت ٤٥٠هـ) الأحكام السلطانية (الطبعة الثالثة، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٣٩٣هـ) ص ١٣٦.

(٣٢) **ابن حزم**،علي بن أحمد بن سعيد، أبو محمد الظاهري (ت٤٥٦هـ) المحلى (تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت "د. ت") ٤١٧/١١.

(٣٣) **ابن قدامة**، عبد الله بن أحمد بن محمد، أبو محمد (٦٢٠هـ) المغني (مكتبة الرياض الحديثة، الرياض "د. ت") ٤٧٧/٨-٤٧٨.

(٣٤) عامر، أحكام الأسرى ص ٢٩٧.

(٣٥) دريد بن الصِّمَّة (معاوية) بن الحارث الجشمي البكري من هوازن، من الأبطال الشجعان، شاعر معمر، أدرك الإسلام ولم يسلم. **ابن حبيب**، محمد بن حبيب بن أمية ، أبو جعفر الهاشمي (ت ٢٤٥ هـ) المحبر (تحقيق: د. إيلزه ليختن شتيتر، المكتب التجاري، بيروت "د. ت") ص ٢٩٨، ٢٩٩، **والأصبهاني**، علي بن الحسين، أبو الفرج (ت ٣٥٦هـ) الأغاني (الطبعة الرابعة، دار الثقافة، بيروت ١٣٩٨هـ) ٣/١٠ وما بعدها .

(٣٦) الواقدي، محمد بن عمر بن واقد (ت ٢٠٧ هـ) المغازي (تحقيق: د. مارسدن جونس، عالم الكتب، بيروت "د. ت") ٨٨٦/٣.

(٣٧) مالك بن عوف بن سعد بن يربوع من هوازن، كان رئيسهم يوم حنين، ثم أسلم، وشهد القادسية وفتح دمشق، مات سنة ٢٠ تقريبا. المحبر ص ٤٦، والأغاني ٣٠/١٠ وما بعدها.

(٣٨) **ابن هشام**، أبو محمد عبد الملك بن هشام ابن أيوب (ت ٢١٨ هـ) السيرة النبوية (تحقيق: همام عبد الرحيم سعيد وزميله، الطبعة الأولى، مكتبة المنار، الزرقاء الأردن ٤٠٩ هـ) ١١٥/٤.

(٣٩) هند بنت عتبة بن ربيعة القرشية، والدة معاوية ابن أبي سفيان، أسلمت يوم الفتح، وماتت في خلافة عثمان ﷺ. **ابن سعد**، محمد بن سعد بن منيع، أبو عبد الله الزهري (ت ٢٣٠ هـ) الطبقات الكبرى (دار صادر، بيروت، "د.ت") ٢٣٥/٨ وما بعدها، وابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة (تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، الطبعة الأولى، بيروت ١٣٢٨) ٤٢٥/٤.

والأشعار(٤٠). وفي غزوة حنين كانت أم عمارة تصيح بالأنصار: أيَّةُ عادة هذه، مالكم وللفِرار؟(٤١).

وفي معركة اليرموك حرض خالد بن الوليد نساء المسلمين على من ينهزم فأقبلن نحو الرجال وقلن: لستم بعولتنا إن لم تمنعونا اليوم(٤٢)، فلما اشتدت الحرب وانكشف بعض المسلمين استقبلتهم النساء بالعُمُد فأخذن يضربن بها وجوه المنهزمة، وهن ينشدن معيِّرات بالفرار، محرضات على القتال:

يا هارباً عن نسوة تقيَّات

رُميتَ بالسَّهم والمنيات

فعن قليل ما ترى سبيَّات

غيرَ حَظيَّات ولا رَضيَّات(٤٣)

السبي في العهد النبوي

مبشرات على طريق الفتح:

ذكرنا فيما سبق خلو أهداف الفتوحات الإسلامية من الشوائب المادية، ونشير هنا إلى مبشرات ذكرها رسول الله ﷺ لأصحابه في أوقات كانوا أشد ما يكونون فيها ضعفاً، وذلك بأن الله سيفتح عليهم بلاد فارس وبلاد الروم وغيرها، وأنه سيُنَفِّلهم زيادة على ذلك الفتح نساءهم وأبناءهم تكرماً منه وتفضلاً عليهم لبذلهم مهجهم رخيصة في سبيل رفعة هذا الدين، وعقوبة ونكالاً لأولئك المتكبرين الذين يصدون عن سبيله(٤٤). وفي لقاء

---

(٤٠) سيرة ابن هشام ٩٩/٣.

(٤١) المقريزي، أحمد بن علي (٨٤٥هـ) إمتاع الأسماع (تحقيق: محمد عبد الحميد النميسي، الطبعة الأولى، دار الأنصار، القاهرة ١٤٠١ هـ) ٣٠١/١.

(٤٢) غزوات ابن حبيش ٢٧٢/٢.

(٤٣) المصدر السابق ٢٧٤/٢.

(٤٤) وهذه نماذج من الأحاديث التي تحمل تلك البشرى؛ روى عبدالله بن سعد أن النبي ﷺ قال: " إن الله أعطاني فارس ونساءهم وأبناءهم وسلاحهم وأموالهم، وأعطاني الروم ونساءهم وأبناءهم وسلاحهم وأموالهم، وأمدني بحمير" البخاري، التاريخ الكبير (مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت ١٤٠٧هـ) ٢٨/٥، والشيباني، أحمد بن عمرو بن الضحاك، أبو بكر (ت ٢٨٧هـ) الآحاد والمثاني (تحقيق: باسم فيصل الجوابرة، الطبعة الأولى، دار الراية، الرياض ١٤١١هـ) ٢٣٤/٥، والطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب (ت ٣٦٠هـ) مسند الشاميين (مراجعة: حمدي ابن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة،= بيروت، ١٤٠٥ هـ) ١٧٣/٢، وابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله (ت ٥٧١ هـ)، تاريخ مدينة دمشق (تحقيق: عمر ابن غرامة العمروي، الطبعة الأولى، دار الفكر، بيروت ١٤١٥هـ) ٥١/٢٩.

وعن عبد الله بن أبزي عن النبي ﷺ: "سيكون بعدكم أقوام تطوى لهم الأرض وتفتح لهم الدنيا، وتخدمهم بنات فارس وأبناؤها "، الديلمي، شيرويه بن شهردار بن شيرويه الهمداني (ت ٥٠٩ هـ) الفردوس بمأثور الخطاب (تحقيق: السيد بسيوني زغلول، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٦م) ٣١٧/٢.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " اغزوا تغنموا بنات بني الأصفر " الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨ هـ) ٣٠/٧، وقال: رواه الطبراني وفيه أبو شيبة إبراهيم بن عثمان وهو ضعيف.

الرسول ﷺ مع بني شيبان بن ثعلبة من بكر بن وائل عندما كان يعرض نفسه على القبائل التي كانت تأتي إلى مكة في المواسم بحثاً عن من يؤويه وينصره حتى يبلغ رسالة ربه بعد أن رفضته قريش، قال لهم بعد حوار طويل، وبعد أن علم أنهم مجاورون للفرس، وأنهم متخوفون منهم ولا يأمنون جانبهم إن آووه، قال: " أوَ رأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم الله أرضهم وديارهم وأموالهم ويفرشكم نساءهم، أتسبحون الله وتقدسونه؟! "(٤٥). كما بشَّر ﷺ بفتح الحيرة(٤٦)؛ وقد ثبت هذا المعنى في نفوس المسلمين الفاتحين وصار لديهم يقين بتحقيق موعود الله تعالى لهم؛ يتحدث المغيرة ابن أبي شعبة(٤٧) ﷺ أمام صاحب فارس فيقول له مغيظاً وباثاً الرعب في قلبه: " جئنا نقتل مقاتلتكم ونسبي ذراريكم "(٤٨). وجيء إلى رستم - قائد الفرس في معركة القادسية - برجل من المسلمين أسروه له قبيل المعركة ليسأله، فكان مما قال له: ما جاء بكم ؟ وماذا تطلبون؟ فقال: جئنا نطلب موعود الله بملك أرضكم وأبنائكم إن لم تسلموا(٤٩)، ويرى رستم من خلال مقابلاته مع الدعاة المسلمين قبل القادسية ملامح تؤكد له صدق المسلمين وأنه سيتم لهم النصر والغلب، لكنه يركبه اللجاج فيصر على مواجهة المسلمين وحربهم ويكتب إلى أخيه محذراً من السبي(٥٠). وكان مما يتحاثُّ به المسلمون على الصبر والصدق عند اللقاء التذكير بهذا الوعد من الله بأن لكم أبناءهم ونساءهم وأموالهم وبلادهم مع التذكير بحظ الآخرة(٥١). ولم تكن إلا سُنيَّات قليلة وإذا بذلكم الموعود الرباني يتحقق على أرض الواقع ويُشاهدُ عياناً؛ فيقول عمر بن الخطاب ﷺ بعد أن تم فتح خراسان وهرب يزدجرد آخر ملوك آل ساسان إلى بلاد ما وراء النهر:

(٤٥) ابن حبان، السيرة النبوية وأخبار الخلفاء (تحقيق: السيد عزيز بك، الطبعة الأولى، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت ١٤٠٧هـ) ص ١٠١، والبيهقي، دلائل النبوة (تحقيق د. عبد المعطي قلعجي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٥ هـ) ٤٢٦/٢، وابن كثير، أبو الفداء إسماعيل الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ)، البداية والنهاية (الطبعة الثانية، مكتبة المعارف، بيروت ١٣٩٤ هـ) ١٦٨/٢.

(٤٦) روى خُريْم بن أوس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " هذه الحيرة البيضاء قد رُفعت لي، وهذه الشيماء بنت بقيلة الأزدية على بغلة شهباء، معتجرة بخمار أسود، قلت: يا رسول الله فإن نحن دخلنا الحيرة ووجدناها على هذه = الصفة فهي لي ! قال: هي لك" مجمع الزوائد ٢٢٢/٦ وانظر ٢١٢ من الكتاب نفسه.
والحيرة : مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة، سكنتها قبائل عربية، وحكمها المناذرة، وتسمى الحيرة البيضاء لحسن عمارتها. ياقوت معجم البلدان ٣٢٨/٢.

(٤٧) المغيرة بن شعبة الثقفي، كان من دهاة العرب وعقلائها وأشرافها، ولي لعمر ومعاوية، مات سنة ٥٠هـ. **الذهبي**، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ) تجريد أسماء الصحابة (دار المعرفة، بيروت (د.ت)) ٩١/٢، ودول الإسلام (تحقيق: فهيم محمد شلتوت وزميله، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٤م) ص ٣٧، والإصابة ٤٥٢/٣.

(٤٨) مجمع الزوائد ٢١٥/٦.

(٤٩) ابن الأثير، الكامل ٣١٧/٢.

(٥٠) المصدر السابق ٣١٧/٢

(٥١) غزوات ابن حبيش ١٦٤/٢

" ألا و إن مُلك المجوسية قد هلك.. وإن الله قد أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبناءهم لينظر كيف تعملون "[٥٢].

هدي الإسلام في معاملة السبي:

يعمد المسلمون إلى مقاتلة كل من يحمل السلاح في وجوههم ويصدهم عن غايتهم ورسالتهم كما قال تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوا فِيْ سَبِيْلِ اللهِ الَّذِيْنَ يُقَاتِلُوْنَكُمْ ﴾[٥٣] [البقرة، آية ١٩٠]، ولما كان النساء والصبيان بمعزل من هذا غالباً، لضعفهم، فإن رسول الله ﷺ قد نهى عن قتلهم، وقتل كل من يشاكلهم إذا لم يسهموا إسهاماً مباشراً في الحرب برأي أو غيره؛ فقد روي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن امرأة وجدت في بعض مغازي رسول الله ﷺ مقتولة فأنكر رسول الله ﷺ ذلك ونهى عن قتل النساء والصبيان[٥٤]. ونجد هذا المعنى واضحاً في وصايا رسول الله ﷺ عندما يبعث جيشاً من المسلمين إلى المشركين " انطلقوا باسم الله تُقاتلون في سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً طفلاً ولا امرأة ولا شيخاً كبيراً.. "[٥٥]، ومثله نجد لدى خليفته الراشد أبي بكر الصديق حينما انتدب الجيوش الإسلامية لفتح الشام خرج مع يزيد بن أبي سفيان ليشيعه[٥٦]، وهو نفسه ما كان يوصي به الفاروق ﷺ ويكتب به إلى عماله[٥٧]. وإذا رُفع القتل عن فئة النساء والصبيان وجُنّبوا الحربَ وويلاتها فإنه يقعُ عليهم السبي؛ فيُقسمون، ثم يفرّقون في أيدي المحاربين المسلمين، لأن الآباء أو الأزواج المشركين إما أن يقتلوا وإما يؤسروا وإما يفروا، ومن هنا كان الواجب على المسلمين كفالتهم وإعالتهم وبذل المعاش لهم ومنع النساء السبايا من الفسوق[٥٨].

---

(٥٢) ابن الأثير، كامل ١٩/٣.

(٥٣) روي عن يحيى الغساني قال: كتبت إلى عمر ابن عبد العزيز أسأله عن هذه الآية: {وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين} قال فكتب إلي: إن ذلك في النساء والذرية ومن لم ينصب لك الحرب منهم. **ابن أبي شيبة**، عبد الله بن محمد الكوفي (ت ٢٣٥هـ) مصنف ابن أبي شيبة (تحقيق: كمال يوسف الحوت، الطبعة الأولى، مكتبة الرشد، الرياض ١٤٠٩هـ) ٤٨٢/٦.

(٥٤) سنن أبي داود ٥٣/٣، مصنف ابن أبي شيبة ٤٨٢/٦.

(٥٥) سنن البيهقي الكبرى ٩٠/٩-٩١، و **المقدسي**، محمد بن عبد الله بن عبد الواحد، أبو عبد الله = (٦٤٣هـ)، الأحاديث المختارة (تحقيق: عبد الملك بن دهيش، الطبعة الأولى، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة ١٤١٠هـ) ٤٢/٨.

(٥٦) سنن البيهقي الكبرى ٩٠/٩. و يزيد بن أبي سفيان الأموي، من كبار أمراء الصحابة الذين فتحوا الشام، كان أميراً على دمشق، توفي سنة ١٨. **ابن خياط**، خليفة بن خياط شباب العصفري (ت ٢٤٠ هـ) تاريخ خليفة بن خياط (تحقيق: أكرم ضياء العمري، الطبعة الأولى، بمساعدة المجمع العلمي العراقي، ١٣٨٦هـ) ص ١٠٩، ودول الإسلام ص ١٦.

(٥٧) مصنف ابن أبي شيبة ٤٨٣/٦.

(٥٨) عامر، أحكام الأسرى ص ٢٩٠.

ومما تميزت به شريعة الإسلام عن سواها معاملة هؤلاء الذين أصيبوا بهذه البلوى بالرفق واللين والرحمة والأخلاق الفاضلة والسلوك الإنساني الرفيع، وإليك هذا المثل الحي المشرق الذي أورده الإمام الترمذي رحمه الله تعالى في سياق حديثه عن زيارة النبي ﷺ وصاحبيه لأبي الهيثم بن التيهان الأنصاري(٥٩) ﷺ في بستانه فأكرمهم، ثم وعده النبي ﷺ أن يُخدِمه عند ورود أول سبي، فلما أعطاه أمره أن يستوصى به معروفاً فلما أخبر امرأته أشارت عليه بعتقه حتى يبلغ البر بوصية الرسول ﷺ، ففعل.(٦٠) ترى أي أخلاق هذه ! وأي دقة وحرص على تنفيذ وصية الرسول ﷺ؛ حيث لم يرض أبو الهيثم وزوجته إلا بإعتاق هذا الغلام الذي هما بأمس الحاجة إلى خدمته كما هو ظاهر من سياق الحديث.

ولما وقعت ابنة حاتم الطائي سبية في أيدي المسلمين وُضعت في حظيرة بباب المسجد كانت تحبس السبايا فيها فمر النبي ﷺ فتعرضت له، وشكت إليه حالها، وسألته العتق، فأعتقها، وجهزها إلى أخيها في بلاد الشام(٦١) ، مع أنه كان فاراً عنها خوفاً من المسلمين.

ومن مظاهر الإحسان إلى السبي ما فعل رسول الله ﷺ مع سبي هوازن حينما أمر بأن تتخذ لهم حظائر لتقيهم حرارة الشمس، ثم أمر بُسرَ بنَ سفيان الخزاعي بأن يذهب فيشتري لهم ثياباً من مكة، فكساهم كلهم قبطية قبطية(٦٢)، وظل رسول الله ﷺ مُستأنياً بالسبي متربصاً أن يقدم عليه وفدُ هوازن فيكلمونه في شأنهم، لكنهم تأخروا عليه ففرقهم(٦٣).

وجاءت تعليمات الرسول ﷺ صريحة في عدم جواز التفريق بين أهل البيت الواحد من السبي؛ كالتفريق بين الأم وولدها، أو بين الأب وابنه، أو بين الأخ وأخيه، وقد وردت أحاديث كثيرة، ووقعت أحداث ظهر من خلالها تأكيده هذا المعنى(٦٤)، بل إنه قد ورد في بعضها الدعاء على من فعل ذلك(٦٥). وسار على هذا

---

(٥٩) مالك بن التيهان الأنصاري الأوسي، أبو الهيثم، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، ومات سنة ٢٠هـ. الإصابة ٢١٢/٤.

(٦٠) سنن الترمذي (كتاب الزهد، باب ما جاء في معيشة أصحاب النبي ﷺ)، الحديث ٢٣٦٩، والشمائل النبوية للمؤلف (تحقيق: فواز أحمد زمرلي، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، بيروت ١٤١٧هـ) ص ٤٥٦-٤٦٠.

(٦١) تاريخ دمشق ١٩٩/٦٩، مجمع الزوائد ٣٣٥/٥.

(٦٢) مغازي الواقدي ٩٤٣/٣، طبقات ابن سعد ٢/ ١٥٤، إمتاع الأسماع ٣١١/١. والقبطية ثياب= بيض رقاق من كتان تتخذ بمصر. تاج العروس مادة (قبط) ٣٧٠/١٠.

(٦٣) صحيح البخاري (كتاب الوكالة، باب إذا وهب شيئاً..) حديث ٢٣٠٧، ٢٣٠٨.

(٦٤) انظر على سبيل المثال: سيرة ابن هشام ٣٧٦/٤، سنن البيهقي الكبرى١٢٦/٩-١٢٧، وقد أورد أحاديث وقصصاً كثيرة في هذا الصدد، تاريخ دمشق ١١٩/٣٢.

(٦٥) سنن النسائي ١٣٤/٤، و الحاكم، محمد بن عبد الله النيسابوري (ت ٤٠٥ هـ)، المستدرك على الصحيحين (مراجعة مصطفى عبد القادر=

الهدي النبوي الخلفاء الراشدون رضوان الله تعالى عليهم؛ فهذا عمر بن الخطاب يكتب إلى الأمصار أن لا يفرق بين أخوين مملوكين في البيع[٦٦]، وهذا عثمان بن عفان أمر أن يُشترى له رقيق، وقال: لا يفرق بين الوالد وولده[٦٧]. ولا يخفى ما في هذا الباب من وصايا الرسول ﷺ الكثيرة بالإحسان إلى المماليك[٦٨]، وفتح أبواب كثيرة لهم للولوج منها إلى عالم الحرية[٦٩].

رد السبي إلى أهله:

وتمتد تلك الأيادي النبوية الرحيمة لتنقذ آلافاً من البشر وقعوا أسرى في رق العبودية من جراء دخولهم في حروب معادية لله تعالى ولرسوله، فنرى في سيرة رسولنا الكريم ﷺ أعظم يد ومنة في التاريخ على قبيلة هوازن ومن ناصرهم في حربهم للرسول ﷺ في حنين، عندما أطلق في يوم واحد وهو في الجعرانة[٧٠] – حيث حبست الأموال والسبايا – ستة آلاف من الذراري والنساء[٧١]. وذلك أن وفدَ هوازن قدموا عليه تائبين مسلمين، فسألوه أن يرد إليهم أموالهم وسبيهم، فخيرهم الرسول ﷺ بين المال أو السبي، وكان قد فرقهما بين المسلمين والمؤلفة قلوبهم لما أبطأوا عليه، وكان قد انتظرهم بضع عشرة ليلة فاختاروا السبي، فقام الرسول ﷺ وخطب المسلمين وذكرَ لهم أنه رأى أن يرد إلى هوازن سبيهم[٧٢]، فرضي الناس وأعادوا ما كان بأيديهم من السبي إلى أهليهم.

وقبل هذا كان زواج رسول الله ﷺ من جويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق سبباً

= عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١١ هـ) ٦٣/٢، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٦٦) سنن البيهقي الكبرى ١٢٨/٩.

(٦٧) المصدر السابق ١٢٦/٩.

(٦٨) قال تعالى حاثاً على الإحسان إليهم: {.. وما ملكت أيمانكم} [النساء، الآية ٣٦]، وانظر صحيح البخاري (كتاب العتق، باب قول النبي ﷺ: العبيد إخوانكم)، وكان آخر وصية النبي ﷺ حين حضره الموت: الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم. الحاكم المستدرك ٥٩/٣، الأحاديث المختارة ٣٤/٧.

(٦٩) انظر مثلاً صحيح البخاري (كتاب العتق، باب ما جاء في العتق وفضله..) حديث ٢٥١٧ وما بعده.

(٧٠) الجِعْرانَة: بتخفيف الراء وتشديدها روايتان، شمال شرقي مكة على بعد ٢٤ كيلاً، قسم بها الرسول ﷺ غنائم حنين وأحرم منها، وهي اليوم قرية صغيرة في صدر وادي سرف، فيها مسجد يعتمر منه أهل مكة. البلادي، عاتق بن غيث، معالم مكة التاريخية والأثرية (الطبعة الثانية، دار مكة، مكة المشرفة ١٤٠٣هـ) ص ٦٤.

(٧١) سيرة ابن هشام ١٨٣/٤، والطبري، محمد بن جرير، أبو جعفر (ت٣١٠ هـ)، تفسير الطبري (دار الفكر، بيروت ١٣٩٨هـ) ١٠/ ١٠٢، وابن عبد البر، يوسف بن محمد بن عبد الله (ت ٤٦٣ هـ)، الدرر في اختصار المغازي والسير (تحقيق: شوقي ضيف، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة ١٤٠٣ هـ) ٢٣٠/٢.

(٧٢) صحيح البخاري (كتاب المغازي، باب قول الله تعالى: { ويوم حنين.. } الحديث ٤٣١٨، ٤٣١٩).

في عتاقة مائة أهل بيت من قومها كانوا سبياً مفرقين على المسلمين المشاركين في غزوة المريسيع[٧٣]، وذكرت جويرية نفسها أنها ما كلمت رسول الله ﷺ في قومها حتى كان المسلمون هم الذين أرسلوهم من عند أنفسهم[٧٤]. وهذا غيض من فيض من حكمة رسول الله ﷺ في تعامله مع الناس، و حكمة اختياره لزوجاته. وكان المسلمون في بعض الحالات يخيرون السبايا قبل ردهن إلى أهلهن إذا ما كان لهن رغبة في الرجوع أو التعايش مع الوضع الجديد الذي صرن إليه في بلاد الإسلام[٧٥]. وعندما اجتاحت الفتوحات الإسلامية بلاد فارس وبلاد الشام ومصر كان الخلفاء والقادة المسلمون حريصين غاية الحرص على أن يتم تعامل المسلمين مع أهل البلاد المفتوحة وفق ما شرعه الله تعالى ورسوله ﷺ من العدل والإحسان والرفق والتسامح؛ فعند ظهور أدنى شبهة من صلح أو أمان أو نحو ذلك كان المسلمون يردون السبي إلى أهله، أو لا يأخذونه ابتداءً، وحدثت من ذلك وقائع كثيرة في زمن الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ؛ منها على سبيل المثال: ما روى المهلب بن صفرة[٧٦] أنهم حاصروا مدينة الأهواز[٧٧] على عهد عمر ﷺ فافتتحوها، وأنهم أصابوا نساء فوقعوا عليهن[٧٨]، فبلغ ذلك عمر، فكتب إليهم : "خذوا أولادكم، وردوا إليهم نساءهم "[٧٩]، وذلك لوجود شبهة صلح لأهل البلد.

(٧٣) المُرَيْسِيْع: اسم ماء في ناحية قُدَيْد بينه وبين البحر قرابة ٨٠ كيلومتراً، وقعت عنده الغزوة وهي غزوة بني المصطلق من خزاعة سنة ٦ هجرية. معجم البلدان ١١٨/٥، الكلاعي، سليمان بن موسى الأندلسي (ت ٦٣٤هـ) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء (تحقيق: محمد كمال الدين علي، الطبعة الأولى، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٧م) ٢١٦/٢، البلادي، معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية (الطبعة الأولى، دار مكة، مكة المشرفة ١٤٠٢ هـ) ص٢٩٠.

(٧٤) مستدرك الحاكم ٢٧/٤.

(٧٥) مغازي الواقدي ٧٥٤/٢.

(٧٦) المهلب بن أبي صفرة (ظالم) بن سراق الأزدي، أبو سعيد، أمير جواد، شارك في الفتوحات وفي حرب الخوارج، مات سنة ٨٣هـ وهو والي خراسان. الرازي، ابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن محمد بن إدريس التميمي الحنظلي (ت ٣٢٧هـ) الجرح والتعديل (دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٣٧١ هـ) ٣٦٩/٨، الإصابة ٥٣٥/٣.

(٧٧) الأهواز: اسم لكورة تضم عدة بلاد في فارس، والمقصود هنا مدينة سوق الأهواز، فتحت أول مرة سنة ١٦ هجرية. تاريخ خليفة ص ١٠٥، معجم البلدان ٢٨٤/١ وما بعدها.

(٧٨) أي بعد استبراء أرحامهن، لقول الرسول ﷺ: " لا توطأ حامل حتى تضع حملها، ولا غير حامل حتى تحيض حيضة "، وقوله في حديث أبي رويفع الأنصاري: " لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقي ماءه زرع غيره، يعني إتيان الحبالى من الفيء ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يصيب امرأة من السبي ثيباً حتى يستبرئها "، سنن البيهقي ١٢٤/٩.

(٧٩) مصنف ابن أبي شيبة ٧/٧، تاريخ دمشق ١٠٥/٦٦.

وذكر عطاء الخراساني[٨٠] أن تُسْتَر[٨١] كانت في صلح فكفر أهلها، فغزاهم المهاجرون فهزموهم، وأصاب المسلمون نساءهم، حتى ولد لهم أولاد منهن، فأمر عمر ابن الخطاب ﷺ برد من سبي منهن على الجزية، وفرق بينهن وبين سادتهن[٨٢] وذلك لأن دارهم لم تصر دار حرب، فلهذا لم ير عمر عليهم شيئاً[٨٣]. ولما فتح المسلمون مَيْسان[٨٤] وسبوا منها، كتب عمر ﷺ " ردوا ما في أيديكم من سبي ميسان "[٨٥] ومن شدة مسارعة المسلمين في تنفيذ هذا الأمر، فقد رد بعضهم من كان تحت يده من النساء السبي قبل التأكد من براءة رحمها منه[٨٦]. والذي دفع عمر إلى هذا حتى يكون أعمر لقراهم وأوفر لخراجهم[٨٧]. ولهذه العلة نفسها كتب عمر أيضاً إلى المهلب وأصحابه الذين فتحوا مَنَاذِر[٨٨] وأصابوا منها سبياً: " إن مناذر قرية من قرى السواد فردوا إليهم ما أصبتم"[٨٩]. وقد كان عمر ﷺ حريصاً على أن تظل قرى السواد عامرة بأهلها مزدهرة بمزروعاتها فردهم إلى الجزية[٩٠]، لأن ذلك أنفع لهم وللمسلمين.

وعندما فتح المسلمون رامْهُرْمُز[٩١] وأصابوا منها سبياً، جاءت الأوامر برد السبي إلى بلادهم وتركت الحبالى حتى وضعن فخيرن بين الإسلام والإقامة مع أصحابهن، ومن أبت ردت إلى بلادها، وذلك لأن أبا موسى الأشعري[٩٢] ﷺ كان قد أعطى أهل

(٨٠) عطاء بن أبي مسلم (عبد الله) الخراساني، أبو عثمان مولى المهلب بن أبي صفرة من أهل بلخ وسكن الشام، مات سنة ١٣٥ هجرية. الجرح والتعديل ٣٣٤/٦، وابن حجر، تهذيب التهذيب (دار الفكر، بيروت، ١٤٠٤ هـ) ٢١٢/٧.

(٨١) تُسْتَر: مدينة كبيرة بخوزستان في فارس فتحها المسلمون عنوة سنة ٢٠، تاريخ خليفة ص ١١٦، معجم البلدان ٢٩/٢.

(٨٢) الصنعاني، عبد الرزاق بن همام (ت ٢١١ هـ)، المصنف (تحقيق:حبيب الرحمن الأعظمي، الطبعة الثانية، المكتب الإسلامي، بيروت ١٤٠٣ هـ) ٢٩٣/٥.

(٨٣) **السرخسي**، محمد بن أحمد بن سهل (ت حوالي ٤٨٣هـ)، شرح السير الكبير (تحقيق د. صلاح الدين المنجد، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، القاهرة ١٣٩١)، ٢٥٩/١.

(٨٤) مَيْسان: اسم كورة واسعة بين البصرة وواسط، قصبتها ميسان، افتتحت في أول عهد عمر سنة ١٤ هجرية، تاريخ خليفة ص ٩٦، معجم البلدان ٢٤٢/٥.

(٨٥) مصنف ابن أبي شيبة ٧/٧.

(٨٦) المصدر السابق نفسه، شرح السير الكبير ٢٥٩/١.

(٨٧) مصنف ابن أبي شيبة ٧/٧.

(٨٨) مَنَاذِر: بلدتان الكبرى والصغرى بنواحي خوزستان، فتحت سنة ١٧ هـ، تاريخ خليفة ص ١٠٧، معجم البلدان ١١٩/٥.

(٨٩) تاريخ دمشق ٢٨٩/٦١.

(٩٠) تاريخ خليفة ص ١٠٧.

(٩١) رامْهُرْمُز: مدينة مشهورة في نواحي خوزستان فتحت سنة ١٨ هـ، تاريخ خليفة ص ١١١، معجم البلدان ١٧/٣.

(٩٢) عبدالله بن قيس بن سليم الأشعري، أبو موسى، صحابي مشهور هاجر إلى الرسول ﷺ بعد خيبر، وشارك في الفتوحات في عهد عمر وعثمان، توفي سنة ٤٤ هـ على الراجح. طبقات ابن سعد ١٠٥/٤، الإصابة ٣٥٩/٢.

هذا البلد أماناً لمدة ستة أشهر، لم يعلم بها المسلمون الذين قاموا بالفتح(٩٣).

وردَّ أبو عبيدة ﷺ(٩٤) سبي دمشق الذي أخذه خالد بن الوليد من الجهة التي فتحت عنوة، لوجود شبهة وهي أن أبا عبيدة قد أمنهم(٩٥).

ولما حاصر عمرو بن العاص(٩٦) بعض القرى المصرية وفتحها وأخذ منهم السبي، تظلم بعضهم، فلما بلغ عمر بن الخطاب أمر بأن يرد عليهم كل سبي أخذ في الخمسة أيام التي أمنوا فيها، وكل سبي أخذ ممن لم يقاتل(٩٧).

ولما انتقضت الإسكندرية وأعاد عمرو بن العاص فتحها وهو أمير على مصر فقتل وسبى أمره عثمان بن عفان ﷺ برد السبي إلى ذمتهم(٩٨)، وهكذا يلاحظ أنه عندما تقوم أدنى شبهة أمان قبل حصول السبي فإن قادة المسلمين كانوا يمتنعون عنه ويتحرزون غاية الاحتراز؛ افتتح عمير بن سعد(٩٩) وهو وال لعمر بن الخطاب على الجزيرة مدينة رأس العين(١٠٠) بعد قتال شديد فدخلها المسلمون عنوة، لكن عميراً لما دخل المدينة قال: لا بأس لا بأس، إليّ إليّ. فكان ذلك شبه أمان لهم، لذلك لم تسب نساؤهم ولا أولادهم(١٠١)، وقد كره بعض العلماء شراء سبي بعض البلدان، مثل سبي طبرستان(١٠٢)، كرهه سفيان(١٠٣)،

---

(٩٣) فتوح ابن أعثم ٢/١١ـ ١٢.

(٩٤) عامر بن عبد الله بن الجراح الفهري، أبو عبيدة القرشي، من السابقين الأولين، أمين الأمة وأحد العشرة المبشرين بالجنة شهد المشاهد مع رسول الله ﷺ، أمير الفتوحات في بلاد الشام، توفي سنة ١٨ هـ بطاعون عمواس. طبقات ابن سعد ٣٨٤/٧، أبو نعيم،أحمد بن عبد الله (ت ٤٣٠هـ)، حلية الأولياء، دار الكتب العلمية، بيروت (د.ت)، ١٠٠/١، ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد، أبو الفرج (ت ٥٩٧ هـ) صفة الصفوة، تحقيق: محمود فاخوري، الطبعة الأولى، دار الوعي، حلب ١٣٨٩هـ)، ٣٦٥/١، **والمحب الطبري**، أحمد، أبو جعفر (ت ٦٩٤هـ)، الرياض النضرة في مناقب العشرة (تحقيق: محمد مصطفى أبو العلا، مكتبة الجندي، القاهرة ١٩٧٠م)، ١٢٤/٤، الإصابة ٢٥٢/٢.

(٩٥) غزوات ابن حبيش ٢٠٩/١.

(٩٦) عمرو بن العاص بن وائل السهمي، أبو عبد الله، أحد دهاة العرب، أسلم في هدنة الحديبية، شارك في الفتوحات وفتحَ مصر، = مات سنة ٤٣هـ. طبقات ابن سعد ٢٥٤/٤ وما بعدها، الإصابة ٢/٣ وما بعدها.

(٩٧) البداية والنهاية ٩٦/٧-٩٩.

(٩٨) تاريخ خليفة ص ١٣٣.

(٩٩) عمير بن سعد بن عبيد الأنصاري، صحابي من الولاة الزهاد، نسيج وحده، شارك في فتوح الشام واستعمله عمر بن الخطاب على حمص، مات سنة ٤٥ هـ تقريباً. حلية الأولياء ٢٤٧/١، الإصابة ٣٢/٣.

(١٠٠) مدينة كبيرة في الجزيرة بين حران ونصيبين، فيها عيون كثيرة. معجم البلدان ١٣/٣.

(١٠١) فتوح البلدان ص ١٨١.

(١٠٢) طبرستان: كورة واسعة وبلاد كثيرة يشملها هذا الاسم، قصبتها مدينة آمل، بدأ فتحها سنة ٣٠ هـ، تاريخ خليفة ص ١٤١، معجم البلدان ١٣/٤.

(١٠٣) **السهمي**، حمزة بن يوسف بن إبراهيم (ت ٤٢٧هـ)، تاريخ جرجان (الطبعة الثالثة، عالم الكتب، بيروت ١٤٠١هـ) ٢١٧/١-٢١٨.

وسبي زابل[١٠٤] كرهه محمد بن سيرين[١٠٥]، وسبب ذلك أنه قد كان لهم وَلْثٌ[١٠٦]، من عثمان ﷺ، وللسبب نفسه كره ابن سيرين أيضاً سبي سجستان[١٠٧].

إن وقوع بعض الأخطاء اليسيرة لا يُعكّر على المنهج العام الذي كان متبعاً في سياسة الفتوح الإسلامية، لأن النقص أو الضعف من سمات الطبع البشري الذي لا يكاد يسلم منه أحد، لكننا نلاحظ بشكل عام مدى دقة الخلفاء المسلمين وحرصهم على أن تسير الفتوحات الإسلامية وفق المنهج الذي جاء به الرسول ﷺ وتَركَهم عليه، وتورُّعَهم عن ظلم أحد من أهل البلاد المفتوحة حتى ولو كانوا محاربين لأن منهجهم منهج قائم على العدل ﴿ ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ عَلَى أَنْ لا تَعْدِلُوْا اعْدِلُوْا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ [سورة المائدة آية ٨]، ولا شك أن هذا كان من العوامل الرئيسة في مسارعة أهل تلكم البلاد إلى الدخول في الإسلام والانضواء تحت لوائه.

نماذج من سبي الغزوات في عهد الرسول ﷺ:

أشرنا فيما سبق إلى غزوتين في زمن الرسول ﷺ حاز المسلمون فيهما سبياً كثيراً فشا قسمُه في المسلمين[١٠٨] وهما غزوة المريسيع وغزوة حنين، وقد تم إطلاق السبي فيهما وردهم إلى أهاليهم، وألمحنا إلى السبب في ذلك، ومداره على حب المسلمين لرسول الله ﷺ وتقديرهم له، والتقرب إلى الله تعالى بتحقيق رغبته حتى و إن لم تكن ظاهرة أو معلنة؛ فأطلقوا سبي بني المصطلق لما تزوج الرسول ﷺ ابنة سيدهم، وقالوا: أصهار رسول الله ﷺ لا يسوغ أن نتخذهم عبيداً أو إماء! فعلوا هذا دون طلب من الرسول ﷺ، بل بمبادرة من عند أنفسهم. وتخلوا عن حظهم من سبي هوازن لما جاءوا تائبين مسلِمين متعطفين للرسول ﷺ فأراد أن يتألفهم على الإسلام، وأن يرد لهم كرامتهم ويحفظ لهم شرفهم.

ونقض يهود بني قريظة عهدهم مع الرسول ﷺ يوم الأحزاب في وقت وصفه الله تعالى بقوله: ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ وَتَظُنُّوْنَ بِاللهِ الظُّنُوْنَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ المُؤْمِنُوْنَ وَزُلْزِلُوْا زِلْزَالاً شَدِيْدَاً ﴾ [الأحزاب الآيتان ١٠-١١]؛ فعرَّضوا حياة المسلمين للخطر، ونساءهم للسبي، وأموالهم للنهب، فلما فرغ

---

(١٠٤) زابُل: هي زابلستان، كورة واسعة جنوب بلخ وطخارستان، فتح بعضها في عهد عثمان وفتحت كلها على يد عبد الرحمن بن حبيب بن سمرة فيما بعد، معجم البلدان ١٢٥/٣.

(١٠٥) محمد بن سيرين البصري التابعي المشهور، إمام وقته، كان هو وإخوته موالي لأنس بن مالك ﷺ، وسيأتي المزيد عنه بإذن الله.

(١٠٦) الوَلْثُ: عقد ليس بمحكم ولا مؤكد وهو الضعيف، وقيل الشيء اليسير من العهد. لسان العرب، مادة (ولث) ٢٠٣/٢.

(١٠٧) تاريخ دمشق ٣١٦/٢٧.

(١٠٨) سيرة ابن هشام ٤٠٨/٣.

رسول الله ﷺ من الأحزاب أمره الله تعالى بالتوجه إليهم مباشرة، فلما ضرب المسلمون عليهم الحصار قُذف الرعبُ في قلوبهم، وأمكن الله تعالى منهم، فنزلوا على حكم الرسول ﷺ الذي فوَّض الحكم فيهم إلى سعد ابن معاذ رضي الله عنه (١٠٩) – سيد الأوس وهم حلفاؤهم في الجاهلية – فحكم فيهم بقتل المقاتلة وتقسيم الأموال وسبي الذراري والنساء، فقال رسول الله ﷺ: " حكمت فيهم بحكم الله أو بحكم الملِك"(١١٠) وهذا الحكم كما نلاحظ موافق لما كانوا يريدونه للمسلمين لو أديل عليهم. وكان السبي ألفاً من النساء والصبيان، بيعَ أكثره بعد إخراج الخمس منه (١١١)، ومنهم عطية القرظي ورفاعة بن قرظة القرظي كانا صبيين فسُبيا(١١٢)، وأمر رسول الله ﷺ بقتل امرأة من السبي كانت قد ألقت من أحد الحصون رحى على رجل من المسلمين فقتلته(١١٣).

وكان وقعُ سبي بني قريظة على يهود خيبر لما علموا به كبيراً جداً، بل كان أشد عليهم من قتل كل من قتل من رجالهم، وذلك لأنهم رأوا أنه لن تقوم ليهودية قائمة بالحجاز أبداً(١١٤)، ولذلك فإنهم تداعوا إلى غزو الرسول ﷺ بالمدينة قبل أن يغزوهم، لكن الله خالف بين كلمتهم، وظنوا أنه لن يستطيع غزوهم لما هم فيه من المنعة والحصون والسلاح والعدد والعدة والاستعداد(١١٥)، فغزاهم الرسول ﷺ بنفسه والمسلمون وفاجأوهم، وأبلوا في جهادهم بلاء حسناً، وفتح الله تعالى لرسوله حصون خيبر " فقتل المقاتلة وسبى الذرية "(١١٦) بالنكث الذي نكثوه وهو كتم أو تغييب شيء من المال عنه خلاف ما اتفقوا عليه(١١٧)، وكان المسلمون قد وجدوا في أحد حصون خيبر بعد فتحها نساءً وذراري

---

(١٠٩) سعد بن معاذ بن النعمان الأوسي الأشهلي، أبو عمرو، بدري من الأشداء الحازمين في أمر الله تعالى، مات بعد أن حكم في بني قريظة فاهتز لموته عرش الرحمن. طبقات ابن سعد ٤٢٠/٣ وما بعدها، تجريد أسماء الصحابة ٢١٩/١، الإصابة ٣٧/٢.

(١١٠) صحيح البخاري (كتاب مناقب الأنصار، باب مناقب سعد بن معاذ) الحديث ٣٨٠٤، سيرة ابن هشام ٣٣١/٣-٣٣٢.

(١١١) مغازي الواقدي ٥٢٣/٢.

(١١٢) **ابن قانع**، عبد الباقي البغدادي، أبو الحسين (ت ٣٥١هـ)، معجم الصحابة (تحقيق: صلاح سالم المصراتي، الطبعة الأولى، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة ١٤١٨هـ) ٣٠٨/٢، الإصابة ٤٩٤/٢.

(١١٣) سيرة ابن هشام ٣٣٤/٣-٣٣٥. المرأة هي نُباتة زوجة الحكم القرظي، والمقتول هو خلاد بن سويد

(١١٤) مغازي الواقدي ٥٣٠/٢.

(١١٥) المصدر السابق ٦٣٧/٢.

(١١٦) صحيح البخاري (كتاب المغازي، باب غزوة خيبر)، الحديث ٤٢٠٠.

(١١٧) مغازي الواقدي ٦٧٣/٢، و**ابن القيم**، محمد بن أبي بكر الزرعي (ت ٧٥١هـ)، زاد المعاد في هدي خير العباد (تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، الطبعة الرابعة عشرة، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٧هـ) ٣٢٦/٣.

يـزيد عددهـم عـلى ألفيـن[١١٨]، فقسـموا بعـد إخراج الخمس، وفشت السبايا من خيبر فـي المسلمين[١١٩]. و لهذا أرادت يهودية أن تنتقم لأهـلها فجـاءت إلى النـبي ﷺ قـبل أن يـرحل بشاة مصلية مسمومة فأهدتها إليه، فأكل منها هو وأحد أصحابه، فأخبر أنها مسمومة فامتنع، وجـيء باليهوديـة فاعـترفت، ومـات صـاحب الرسول ﷺ بتلك الأكلة[١٢٠]، كما مات هو - فداه كل محبوب - متأثراً بذلك، قال في مرضه الذي مـات منه: " يـا عائشـة مـا أزال أجد ألم الطعـام الـذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجـدت انقطـاع أبهري من ذلك السم "[١٢١]، وقد كان عمل تلك المرأة عن ملأ وتآمر من اليهود – قاتلهم الله – على حياته ﷺ كما هو ثابت في الصحيح[١٢٢].

هذه أهم حالات السبي التي وقعت في زمن الرسول ﷺ، وقد وقعت حـالات غيرها، لكن بأعداد ليست كثيرة[١٢٣].

ومن هنا يلاحظ أن عدد السبي الذي ظل بـأيدي المسلمين تحت العبودية في عهد النبوة كـان قليلاً، مقارنـة بكثرة الغزوات والسرايا والحـروب الـتي كـانت بيـن المسـلمين وبيـن أعدائهم، لأن الرسول ﷺ كان يفضل أن يرى الناس يعيشون أحراراً.

زوجات رسول الله ﷺ من السبي وسراريه:

جويرية بنت الحارث:

سـبق أن أشـرنا إلى زواج الرسـول ﷺ مـن جويـرية، ونذكر هنا أنـه لما وُزعت سبايا بني المصطلق فصـارت فـي أيدي الرجال، وقعت جويـرية فـي سـهم ثـابت بـن قيـس بـن شـماس الأنصـاري[١٢٤]، فكاتـبها عـلى تسـع أواق، فجـاءت إلى النبي ﷺ تستعينه في فكاكها، فقال لها: هل لك في خير من ذلك ؟ قالت: وما هو ؟ قـال: أؤدي عنك كتابتك وأتزوجك. قالت: نعم

(١١٨) إمتاع الأسماع ٢٤٢/١.

(١١٩) تاريخ الطبري ١٣٥/٢.

(١٢٠) المرأة هي زينب بنت الحارث، أخت مرحب أو ابنة أخيه وزوجـة سلام بن مشكم، والرجل هو بشر بن البراء بن معرور. انظر تفاصيل القصـة فـي: مغـازي الواقـدي ٦٧٧/٢-٦٧٩، سيرة ابن هشـام٤٧٠/٣-٤٧١، سنن أبـي داود ٦٤٧/٤-٦٥٢، مجمع الزوائد١٥٣/٦-١٥٤.

(١٢١) صحيح البخاري (كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته) الحديث ٤٤٢٨.

(١٢٢) صحيح البخاري (كتاب الطب، باب ما يذكر في سم النبي ﷺ) الحديث ٥٧٧٧.

(١٢٣) انظر مثلاً: صحيح البخاري (كتاب العتق، بـاب مـن مـلك مـن العـرب) الحديـث ٢٥٤٣، سـيرة ابـن هشـام ٣٥٧/٤، طـبقات ابـن سـعد ١٦٤/٢، الـبداية والـنهاية ١٠٤/٥، ٣٤٤/٧، ٣٤٥.

(١٢٤) ثـابت بـن قيـس بـن شـماس الخـزرجي، أبـو محمـد، خطيـب الأنصـار، بشـره الرسـول ﷺ بالجنة، قتل باليمامـة. تجريد أسماء الصحابة ٦٤/١، الإصابة ١٩٥/١.

يا رسول الله قد فعلت، فأدى عنها، فعتقت وتزوجها[١٢٥]. وقيل إن أباها الحارث جاء إلى النبي ﷺ فأسلم، فدُفعت إليه ابنته، ثم خطبها رسول الله ﷺ إليه فزوجه إياها[١٢٦]. وقيل إنه جاء إلى النبي ﷺ فقال ابنتي لا يسبى مثلها ! فخل سبيلها، فقال: أرأيت إن خيَّرتها أليس قد أحسنت ؟ قال: بلى، فأتاها أبوها فذكر لها ذلك، فقالت: اخترت الله ورسوله[١٢٧]. ولكن الرواية التي تذكر أن الرسول ﷺ قضى عنها كتابتها وأعتقها وتزوجها أثبت، كما صرح بذلك الواقدي[١٢٨]، حتى وإن كان الواقدي ضعيفاً عند المحدثين إلا أنه عالم بالمغازي والسير لا يشق له غبار. وكانت جويرية قبل رسول الله ﷺ عند رجل من قومها اختلف في اسمه[١٢٩]، قالت عن نفسها: رأيت قبل قدوم النبي ﷺ بثلاث ليال كأن القمر أقبل يسير من يثرب حتى وقع في حجري، فكرهت أن أخبر بها أحداً من الناس، حتى قدم الرسول ﷺ، فلما سُبينا رجوت الرؤيا[١٣٠]، وكان عمرها لما تزوجها الرسول ﷺ عشرين سنة، وتوفيت سنة ست وخمسين، وهي ابنة خمس وستين سنة رضي الله تعالى عنها[١٣١].

ريحانة بنت زيد بن عمرو بن خنافة[١٣٢]:

من سبي بني النضير[١٣٣]، وقيل من سبي بني قريظة[١٣٤]، وقول الواقدي: إنها من بني النضير متزوجة في بني قريظة[١٣٥] قول حسن قد يخفف هذا التعارض.

لمَّا عُرِضَ سبي بني قريظة على رسول الله ﷺ أمر بها فعزلت - وكانت ذات جمال - فاتخذها لنفسه صفياً[١٣٦]، وأرسلها إلى بيت أم المنذر سلمى بنت قيس[١٣٧]، وظلت عندها حتى أكملت عدتها، وعرض عليها رسول الله ﷺ

(١٢٥) طبقات ابن سعد ٢١٧/٨.
(١٢٦) سيرة ابن هشام ٤١٠/٣.
(١٢٧) الإصابة ٢٦٥/٤.
(١٢٨) المغازي ٤١٢/١. الواقدي: محمد بن عمر ابن واقد الأسلمي ولاء، أبو عبد الله، من أقدم المؤرخين في الإسلام وأشهرهم، غزير العلم، مدقق في وقائع السيرة النبوية، وهو ضعيف عند المحدثين بل متروك الحديث، مات سنة ٢٠٧هـ. **البغدادي**، الخطيب أحمد بن علي بن ثابت، (ت٤٦٣ هـ)، تاريخ بغداد (دار الكتاب العربي، بيروت "د.ت") ٣/٣ وما بعدها، تهذيب التهذيب ٣٦٣/٩.
(١٢٩) طبقات ابن سعد ٢١٦/٨، الإصابة ٢٦٥/٤.
(١٣٠) مغازي الواقدي ٤١٢/١.
(١٣١) انظر في تفصيل قصة جويرية رضي الله تعالى عنها سيرة ابن هشام ٤٠٨/٣-٤٠٩، ٣٨٩/٤-٣٩٠، المستدرك ٢٧/٤، الدرر ١٨٨/٢-١٨٩.
(١٣٢) وقال الكلبي: ريحانة بنت شمعون بن زيد، ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد، أبو الفرج (ت ٥٩٧ هـ)، تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير (الطبعة الأولى، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت ١٤١٨ هـ) ص ٢٥.
(١٣٣) طبقات ابن سعد ١٢٩/٨.
(١٣٤) سيرة ابن هشام ٣٣٩/٣.
(١٣٥) مغازي الواقدي ٥٢٠/٢.
(١٣٦) وكان من خصائصه ﷺ أنه يختار من الغنيمة قبل القسمة من جارية أو غيرها، فيكون له صفي من كل غنيمة. السيوطي، عبد الرحمن ابن أبي بكر، أبو الفضل (ت ٩١١هـ)، الخصائص الكبرى (الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٥م) ٤٢٠/٢.
(١٣٧) سلمى بنت قيس بن عمرو الأنصارية النجارية، أم المنذر، أخت سليط بن قيس، بايعت تحت الشجرة. تجريد أسماء الصحابة ٢٧٨/٢، الإصابة ٣٣٢/٤.

الإسلام، فلما أسلمت أعتقها وتزوجها(١٣٨)، وأعرس بها في بيت أم المنذر سنة ست من الهجرة، وكان يقسم لها كما يقسم لنسائه، وضَربَ عليها الحجاب. وذُكر أنها كانت تعجب رسول الله ﷺ فلا يردّ لها سؤالاً، حتى قيل إنها لو سألته سبي قريظة لأعتقهم، ولكنه لم يخلُ بها إلا بعد أن فرّق السبي، وكان يخلو بها ويستكثر منها(١٣٩)، وأحياناً تكون في نخل من نخل الصدقة فكان الرسول ﷺ يقيل عندها(١٤٠)، وظلت عنده حتى توفيت بعد حجة الوداع، وقيل إنها كانت ذات غيرة شديدة فطلقها، فشق عليها وأكثرت البكاء، فراجعها. وكانت قبله عند رجل من بني قريظة اسمه الحكم، قتل معهم(١٤١).

والقول بأن ريحانة زوجة للنبي ﷺ قول طائفة من أهل العلم بالسير؛ كالواقدي في إحدى روايتيه وهو اختياره، وقال هذا أثبت الأقاويل عندنا، وهو الأمر عند أهل العلم(١٤٢)، وابن سعد(١٤٣)، وشرف الدين الدمياطي، وقال: هو الأثبت عند أهل العلم(١٤٤)، وغيرهم، ويرى بعضهم أنها كانت إحدى سراريه كما سيأتي بإذن الله تعالى.

صفية بنت حيي بن أخطب:

وحيي سيد يهود بني النضير، من سبط هارون بن عمران عليه السلام. عَرَفَتْ صفيةُ صدقَ رسول الله ﷺ منذ أن كانت طفلة من

(١٣٨) قيل أصدقها خمسمائة درهم. ابن حبيب، المقتفى من سيرة المصطفى ص ١٠٦، وقال ابن كثير: كان مهره لنسائه خمسمائة درهم إلا أم حبيبة أمهرها النجاشي ٤٠٠ دينار، وإلا صفية بنت حيي اصطفاها لنفسه من سبي خيبر أعتقها وجعل عتقها صداقها، وكذلك جويرية بنت الحارث أدى عنها كتابتها، تفسير ابن كثير، دار الفكر، بيروت، ٣/٥٠٠. ومعنى هذا أنه لم يفرض صداقاً لهاتين المرأتين المسبيتين، وإذاً فمن المحتمل أن يحذو بريحانة حذوهما، لأنها سبية مثلهما، وروايات الصحيح عن جويرية وصفية تدلان على أنه جعل عتقهما صداقهما.

(١٣٩) طبقات ابن سعد ٨/١٣٠.

(١٤٠) البداية والنهاية ٥/٣٠٦.

(١٤١) مغازي الواقدي ٢/٥٢٠-٥٢١، الزبير بن بكار، المنتخب من كتاب أزواج النبي ﷺ ٢/٤٧-٤٨، تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٢٥.

(١٤٢) مغازي الواقدي ٢/٥٢١

(١٤٣) الطبقات الكبرى ٨/٢١٨، ابن سعد: محمد بن سعد بن منيع الزهري، أبو عبد الله، مؤرخ حافظ ثقة، صحب الواقدي وروى عنه كثيراً، لكنه أعدل منه وأزكى عند المحدثين، مات سنة ٢٣٠هـ. الذهبي، تذكرة الحفاظ (مراجعة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٧٤هـ) ٢/٤٢٥، وتهذيب التهذيب ٩/١٨٢.

(١٤٤) عن ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد (تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، الطبعة الرابعة عشرة، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٧هـ) ١/١١٣، والدمياطي هو عبد المؤمن بن خلف، شرف الدين أبو محمد الدمياطي، شيخ الذهبي، كان حافظاً كثير المعرفة بفنون الحديث والأنساب مقرئاً، مات سنة ٧٠٥ هـ. انظر عنه: تذكرة الحفاظ ٤/١٤٧٧وما بعدها، والفاسي، محمد ابن أحمد المكي، أبو الطيب (ت ٨٣٢هـ)، ذيل التقييد (تحقيق: كمال يوسف الحوت، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٠هـ) ٢/١٦٤.

خلال ما كان يدور من حوار بين أبيها وبين أخيه أبي ياسر أولَ ما قدم الرسول ﷺ إلى المدينة[١٤٥]، فلما أجلى رسول الله ﷺ يهود بني النضير إلى خيبر خرجت معهم، وهناك تزوجها كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق النضري[١٤٦]، قبل قدوم المسلمين لفتح خيبر بأيام، واشتدت وطأة المسلمين على حصون خيبر بإذن الله تعالى فتهاوت الواحد بعد الآخر، فسُبيت صفية مع أخريات من نساء يهود من أحد الحصون[١٤٧]، وأتم الله تعالى نصره لرسوله وللمؤمنين على يهود في خيبر فقتل المقاتلة وسبى الذرية - كما تقدم- وصارت صفية إلى دحية الكلبي، ثم صارت إلى النبي ﷺ فأعتقها وجعل عتقها صداقها[١٤٨]. وقد ذكرتْ كتب السير تخيير النبي ﷺ لها بأن تبقى على دينها أو تختار الله تعالى ورسوله، فقالت: أختار الله ورسوله. وبيّنت أنها قد رغبت في الإسلام وصدّقت بالرسول ﷺ قبل أن يدعوها [١٤٩]، ومما يؤيد هذا تلك الرؤيا التي رأتها قبل حصولها في السبي عندما كانت لدى زوجها؛ رأت كأن القمر أقبل من يثرب يسير حتى وقع في حجرها، فذكرت ذلك لزوجها كنانة فلطم عينها فخضرها، وظل ذلك الأثر باقياً إلى أن رآه الرسول ﷺ [١٥٠].

كانت صفية يومئذ شابة لم تبلغ سبع عشرة سنة[١٥١]، جميلة نبيهة في قومها، نبيلة[١٥٢]، حليمة عاقلة فاضلة[١٥٣]. روى أنس بن مالك ﷺ قال: قدمنا خيبر، فلما فتح الله عليه الحصن ذُكر له جمال صفية بنت حيي بن أخطب، وقد قتل زوجها وكانت عروساً، فاصطفاها النبي ﷺ لنفسه، فخرج بها حتى بلغ سد الصهباء حلت له، فبنى بها رسول الله ﷺ [١٥٤]، وصنع لها وليمة، وضربَ عليها الحجاب، وأقام ثلاثة أيام بين خيبر والمدينة معرساً

(١٤٥) سيرة ابن هشام ١٨٨/٢-١٨٩.

(١٤٦) ذكر بعض المؤرخين أنها كانت قد تزوجت قبله بسلام بن مشكم القرظي، طبقات ابن سعد ١٢٠/٨، الإصابة ٣٤٦/٤. لكن ابن كثير يضعف هذه الرواية، البداية والنهاية ٢٩٥/٥. أما كنانة بن الربيع فهو زعيم يهود خيبر، وقد أخفى كنوزهم عن رسول الله ﷺ فقتل بسبب كذبه.سيرة ابن هشام ٤٦٩/٣، وسلام بن مشكم كان أيضاً سيد بني النضير في زمانه وصاحب كنزهم. الاكتفاء ٧٨/٢، ٢٦٠.

(١٤٧) مغازي الواقدي ٦٧٤/٢.

(١٤٨) صحيح البخاري (كتاب المغازي، باب غزوة خيبر) الحديث ٤٢٠٠.

(١٤٩) طبقات ابن سعد١٢٣/٨.

(١٥٠) مغازي الواقدي ٦٧٤/٢، وتشبه هذه الرؤيا تلك التي ذكرت لجويرية بنت الحارث، ولا يستبعد تكرار الرؤيا للمرأتين، لتشابه حاليهما.

(١٥١) طبقات ابن سعد ١٢٧/٨.

(١٥٢) **ابن حبيب**، الحسن بن عمر (ت ٧٧٩هـ)، المقتفى من سيرة المصطفى (تحقيق: مصطفى محمد الذهبي، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٩٦م) ص ١٠٧.

(١٥٣) ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب (تحقيق: علي محمد البجاوي، الطبعة الأولى، دار الجيل، بيروت ١٤١٢ هـ) ١٨٧٢/٤.

(١٥٤) صحيح البخاري (كتاب المغازي، باب غزوة خيبر) الحديث ٤٢١١.

بهـا[١٥٥]، فصـارت بذلـك إحـدى أمهـات المؤمـنين، وكـان لهـا رسـول الله ﷺ ملاطفاً مكـرماً[١٥٦]. مـاتت صـفية ﵂ فـي خلافـة معاوية سنة ٥٠ أو ٥٢ هـ [١٥٧].

إن زواج الرسـول ﷺ بهـذا الصـنف مـن النساء اللائي وقعن في الأسر ثم العبودية دليل من الأدلـة الصادقة على سماحة الإسلام الذي من شأنه أن يرفأ جراح عزيز قوم ذل وغني افتقر، حيث رفـع رسـول الله ﷺ مقـامهن إلى مصـاف أمهات المؤمنين، وأعاد لهن حريتهن وكرامـتهن وعـزهن وشـرفهن بـل أرفـع مـن ذلـك، كمـا أن المصـطفى ﷺ بهـذه السياسـة الحكيمـة يتألف قلوب القبائل التي تنتمي إليها تـلك النسـوة ويجـتذبهم نحـو الإسـلام، ويضـع أسسـاً للـتعامل الـرفيع مـع الإمـاء ملك اليميـن اللائـي لا يُنظر إليهن إلا على أنهن لا يصلحن إلا لـلخدمة أو التسـري أو الـبيع، فأثـبت مـن خـلال الواقـع أنهن يمكن أن يصبحن زوجـات كـريمات ذوات شـأن رفيـع. وقـد اقـتفى أثـر الرسول ﷺ في هذه السياسة والمعاملة كثيرون مـن الصـحابة ومـن جـاء بعدهـم، فـتزوجوا سـباياهم، فأنجـبن رجـالاً كـراماً، وعـتقن وصرن أمهات أولاد.

<u>**أما سراري الرسول ﷺ**</u>: فالثابت له منهن ثـلاث، هـن: ماريـة القبطية الـتي أهداهـا لــه المقوقس، وهـي أم ولده إبراهيم[١٥٨]، وجارية أهدتهـا لـه زيـنب بـنت جحـش، وثالـثة هـي الوحيدة التي كانت من سبي أصيبت في بعض الغزوات[١٥٩]، ولم يذكر اسمها.

وذكـر ابن مندة أن له سرية من بني قريظة ولــدت لــه إيــراهيم، روى ذلــك عــنه ابن حجر[١٦٠]، وأرى أن ذلك وهم، فلم يذكر أحد من أهل العلم بالسير - فيما رأيت - أنه قد ولـد لـه ابـن اسمه إبـراهيم مـن غيـر ماريـة القبطية.

كمـا ذكـر صاحب التحفة اللطيفة أن له أيضاً ربيحـة القرظية[١٦١]، وهـذا أيضـاً غيـر ثـابت لـدى أهـل السـير، وقـد يكـون وهـل فـي ريحانة[١٦٢].

---

(١٥٥) المصدر السابق، حديث ٤٢١٢، ٤٢١٣.
(١٥٦) مغازي الواقدي ٦٧٥/٢.
(١٥٧) طبقات ابن سعد ١٢٨/٨-١٢٩.
(١٥٨) المصدر السابق ٢١٢/٨ وما بعدها.
(١٥٩) تـلقيح فهـوم أهـل الأثـر ص ٢٨، زاد المعـاد ١١٤/١، والقرشي، عبد القادر بن أبي الوفاء ابن محمد، أبو محمد (ت٧٧٥ هـ) الجواهر المضية في طبقات الحنفية (الناشر مير محمد كتب خانه، كراتشي "د.ت") ص ٢٣.
(١٦٠) الإصابة ٣٠٩/٤.
(١٦١) **السخاوي**، محمد بن عبد الرحمن (ت٩٠٢ هـ)، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة (الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٣م) ص ٢٠.
(١٦٢) انظر تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٢٨.

أما ريحانة بنت زيد فقد سبق القول أنها إحدى زوجاته، وأومأنا إلى من رجح هذا الرأي من أهل العلم، لكن آخرين يرون أنها لم تكن زوجة وإنما سرية يطؤها بملك اليمين، استناداً إلى رواية عند ابن إسحاق وغيره، ذكرت أن رسول الله ﷺ خيّرها بعد أن فرغ من أمر بني قريظة، بأن يعتقها ويتزوجها أو أن تبقى في ملكه، فقالت: يا رسول الله أكون في ملكك أخفَّ علي وعليك، فكانت في ملك رسول الله ﷺ يطؤها حتى ماتت(١٦٣). وقد مال إلى هذا الرأي الزهري(١٦٤)، وقتادة(١٦٥)، وأبو عبيدة، وابن القيم(١٦٦).

والقول بأنها من زوجاته أظهر؛ فقد رجحه الواقدي، وهو من المهتمين باستيعاب المرويات في السيرة والتدقيق فيها، ويؤيد هذا ما سبق من أنها غارت عليه غيرة شديدة فطلقها تطليقة، ثم راجعها(١٦٧)، ولا يكون تطليق إلا بعد زواج، ويؤيده كذلك سياسة الرسول ﷺ في التعامل مع ذوي المكانة والمنزلة ممن زلت بهم الأقدام أو تغيرت بهم الأحوال، حيث كان يجبر خواطرهم، ويتألف قلوبهم وقلوب ذويهم، ولاسيما أن هذه المرأة كانت قبله عند رجل من بني قريظة كان لها محباً مكرماً(١٦٨)، ولاشك أن الزواج خير لها إذا ما حصل التخيير؛ فبه تنال شرف أمهات المؤمنين، وتكون من زوجات الرسول ﷺ في الجنة(١٦٩)، ولا يُظن أن تُفضّل على كل هذا الخير العبودية والوطءَ بملك اليمين، والله تعالى أعلم.

---

(١٦٣) سيرة ابن هشام ٣٣٩/٣، طبقات ابن سعد ١٣١/٨.

(١٦٤) محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب، أبو بكر الزهري، أحد الأئمة الأعلام، الفقيه الحافظ، عالم الحجاز والشام، متفق على جلالته وإتقانه، توفي سنة ١٢٤هـ. تذكرة الحفاظ ١٠٨/١، ابن حجر، تهذيب التهذيب ٤٤٥/٩، وله أيضاً، تقريب التهذيب (تحقيق: صغير أحمد شاغف، الطبعة الأولى، دار العاصمة، الرياض ١٤١٦هـ) ص ٨٩٦.

(١٦٥) قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز أبو الخطاب السدوسي البصري الضرير الأكمه المفسر، ثقة ثبت، مات سنة ١١٨هـ. تذكرة الحفاظ ١٢٢/١، تقريب التهذيب ص ٧٩٨.

(١٦٦) تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٢٨، زاد المعاد ١١٣/١. لم أهتد إلى تحقيق اسم أبي عبيدة، أما ابن القيم فهو محمد بن أبي بكر بن أيوب بن = سعد الزرعي، أبو عبد الله الدمشقي شمس الدين، أحد كبار العلماء العباد الفضلاء تتلمذ على شيخ الإسلام ابن تيمية ونشر علمه، له مصنفات كثيرة مجودة، مات سنة ٧٥١هـ. البداية والنهاية ٢٣٤/١٤، ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (تحقيق محمد جاد الحق، الطبعة الثانية، دار الكتب الحديثة، القاهرة١٣٨٥هـ) ٢١/٤.

(١٦٧) طبقات ابن سعد ١٣٠/٨.

(١٦٨) ابن بكار، الزبير بن عبد الله بن مصعب بن الزبير، أبو عبد الله (ت ٢٥٦ هـ)، المنتخب من كتاب أزواج النبي ﷺ (تحقيق: سكينة الشهابي، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٣هـ) ٤٧/٢.

(١٦٩) مستدرك الحاكم ١٤٨/٣، والطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب (ت ٣٦٠ هـ)، المعجم الأوسط (مراجعة: محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠٥ هـ) ٥٠/٦.

وكان بإمكان الرسول ﷺ أن يكون له من السراري والجواري ما يشاء، بسبب كثرة السبي الذي يقع في يده ﷺ، وأن له الحق أن يصطفي منه ما يشاء، إضافة إلى أن المجتمع الذي يعيش فيه كان لا يرى بأساً بالاستكثار من السراري، لكن رسول الله ﷺ لم يفعل ذلك، وكان يفضل الزواج على التسري.

السبي في عهد الصديق رضي الله عنه

سبي المرتدين:

المرتدون هم أقوام من العرب دخلوا في الإسلام ثم تحولوا عنه إلى الكفر بعد موت النبي ﷺ، فتصدى لهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فوجه الجيوش الإسلامية إليهم فحاربتهم وتقصتهم في ديارهم إلى أن أذعنوا وعادوا مرة أخرى إلى الإسلام، وذلك لأنه لا يقبل من المرتدين ومن مشركي العرب إلا الإسلام أو السيف؛ فالحكم فيهم أن يعرض عليهم الإسلام فإن أسلموا وإلا قتل رجالهم وسبيت نساؤهم وصبيانهم(١٧٠). لكن الجيوش الإسلامية واجهت في سبيل إعادة هؤلاء المرتدين إلى جادة الإسلام صعوبات ونكبات، وقتلاً مريعاً في حملة الإسلام وحفظة القرآن الكريم، لجَلَد أولئك المرتدين ومنافحتهم عن أعراضهم وأولادهم وكرائم أموالهم، حيث علموا أنه لاهوادة مع من أصر على الكفر والردة، فقد جاءهم كتاب أبي بكر رضي الله عنه وفيه مع الإعذار والإنذار أن تسبى الذراري والنساء وتؤخذ الأموال(١٧١) ، ولذلك فإن من لم يتراجع عن موقفه من أول أمره لجَّ في عناده ومخالفته وقاده الشيطان وهواه إلى المصير المخزي له ولمن تحت يده من النساء والذرية والأتباع. وكان من أشد المرتدين كَلَباً على المسلمين وحدة عليهم وأثراً عظيماً فيهم بنو حنيفة(١٧٢) أتباع مسيلمة

= نقرأ هذه الآية فيما مضى: {ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون} [الفتح آية ١٦] فلم نعلم مَن هم حتى دعانا أبو بكر رضي الله عنه إلى قتال بني حنيفة، فلما قاتلناهم علمنا أنهم أولو بأس شديد، وذلك أنهم هزمونا نيفاً على عشرين هزيمة، وقتلوا منا مقتلة عظيمة، كادوا أن يفتحونا مراراً، غير أن الله تبارك وتعالى أحب أن يعز دينه "، الردة ص ١٣٢، والقرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري (ت ٦٧١ هـ)، تفسير القرطبي (الطبعة الثانية، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٣٧٢ هـ) ٢٧٢/١٦، وهو قول الزهري ومقاتل، ولبعض العلماء تأويل غير هذا التأويل، كما في المصدر السابق نفسه.

(١٧٠) أبو يوسف، الخراج ص ١٢٨-١٢٩، وقد فصل بعض العلماء في مسألة جواز سبي المرتدين واسترقاقهم، انظر الماوردي، الأحكام السلطانية ص ٥٦-٥٧، أبو يعلى، الأحكام السلطانية ص ٥٢-٥٣.

(١٧١) الواقدي، كتاب الردة (تحقيق يحيى الجبوري، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٤١٠ هـ) ص ٧٢.

(١٧٢) والدليل على ذلك أنه قتل من المسلمين مع بني حنيفة ألفان ومائتا رجل، منهم سبعمائة من حفاظ القرآن الكريم، انظر كتاب الردة ص ١٤٠، وتاريخ الطبري ٢٩٦/٣-٢٩٧، قال رافع بن خديج الأنصاري رضي الله عنه: " والله لقد كنا=

الكذاب(١٧٣)، و قد نشطوا في الدفاع عن أعراضهم وتنادوا بذلك: " قبل أن تُستَحقب الكرائمُ غير رضيات وينكحن غير حظيات "(١٧٤).

سارت كتائب الإسلام بقيادة خالد بن الوليد مبتدئة بطليحة بن خويلد الأسدي(١٧٥) ومن تبعه من قومه بني أسد وغطفان وفزارة، فما كان إلا أن بث الله تعالى الرعب في قلوبهم، فتفرقوا وانهزموا وحاز المسلمون غنائم القوم وعامة سلبهم وأولادهم(١٧٦).

ثم بعد أن فرغت الجيوش من مالك بن نويرة التميمي (١٧٧) انتقلت إلى أرض اليمامة حيث بني حنيفة ومسيلمة الكذاب أخطر المرتدين شأناً وأحدهم شوكة، وبالقرب منها قبض المسلمون على رجل من أشراف بني حنيفة يقال له مجاعة بن مرارة (١٧٨)، فقال لخالد إنه مازال على الإسلام فاستبقاه معه في الجيش(١٧٩)، وكانت الوقائع العظيمة مع بني حنيفة التي انتهت بقتل مسيلمة وآلاف من قومه(١٨٠). وتعرَّض من بقي من النساء والذرية للسبي، حتى قالت امرأة منهم تتألم لمصابهم في قصيدة لها:

مُسَيْلَمُ لم يبقَ إلا النساءُ

سَبايا لذي الخُفِّ والحافرِ

لكن مجاعة بن مرارة صالح خالد بن الوليد عن قومه، وذلك بأقل خسائر؛ عندما أظهر أنه مازالت في بني حنيفة قوة؛ حيث أوعز إلى النساء أن يلبسن الدروع ويأخذن السلاح

---

(١٧٣) مسيلمة بن ثمامة بن كبير الحنفي الوائلي، أحد المرتدين المتنبئين، وكان قد وفد على النبي ﷺ في المدينة قبل وفاته وطلب أن يكون له الأمر من بعده فلم يجبه وتأوّل رؤياً له فيه بأنه سيكون أحد المتنبئين الكذابين وأن الله تعالى سيعقره. صحيح البخاري (كتاب المناقب، باب علامات النبوة..) حديث ٣٦٢٠، ٣٦٢١، سيرة ابن هشام ٢٩٤/٤، والطبري، محمد بن جرير، (ت ٣١٠ هـ)، تاريخ الطبري (تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٩م) ١٣٧/٣، ١٤٦، ٢٨٠.

(١٧٤) تاريخ الطبري ٢٩٠/٣.

(١٧٥) طليحة بن خويلد الأسدي، أحد المتنبئين الشجعان الفصحاء، قدم على النبي ﷺ في وفد بني أسد فلما رجعوا ارتد طليحة وادعى النبوة، وأمر بترك السجود في الصلاة، قاتله= خالد بن الوليد فهزم وهرب إلى الشام، ثم عاد وتاب وحسن إسلامه وبلاؤه في فتوح العراق ونهاوند، واستشهد فيها . فتوح البلدان ص ١٠٤، معجم البلدان ٤٠٨/١، والذهبي، دول الإسلام ص ١٧.

(١٧٦) الردة ص ٩٤، غزوات ابن حبيش ٤/١، فتوح ابن أعثم ١٥/١.

(١٧٧) مالك بن نويرة بن جمرة اليربوعي التميمي، فارس شاعر، قيل إنه ارتد فقبض عليه خالد فأمر بقتله في البطاح سنة ١٢هـ. فتوح البلدان ص ١٠٧، والأصبهاني، الأغاني ٢٣٩/١٥.

(١٧٨) مجاعة بن مرارة بن سلمى الحنفي اليمامي، صحابي وفد على الرسول ﷺ وكان بليغاً حكيماً، مات نحو ٤٥هـ. تهذيب التهذيب ٣٩/١٠، الإصابة ٣٦٢/٣.

(١٧٩) الردة ص ١١٨-١١٩.

(١٨٠) المصدر السابق ص ١٢٤ وما بعدها، تاريخ الطبري ٢٩٧/٣.

ويشرفن على أسوار الحصون[١٨١]، فأجاب خالد إلى المصالحة على " ما ظهر من الصفراء والبيضاء من الذهب والفضة، وعلى ثلث الكراع، وربع من السبي "[١٨٢]. وقد جاء في رواية لأبي معشر عند ابن حبيش ورواية لسيف بن عمر عند الطبري أن الصلح كان على نصف السبي[١٨٣]، لكن رواية الواقدي أرجح، ويؤيدها قصيدة عمرو بن سمرة من بني حنيفة أمام الصديق، ومما ورد فيها:

فصالحَنا بعد حَرِّ القتال
على ما أراد وما لم نُردْ
خـرجنَا إليه بأموالـنا
وربُع النسَاء وثلث النَّقدْ[١٨٤]

وكتب خالد إلى أبي بكر بما صالح عليه فأجازه[١٨٥].

وسار العلاء بن الحضرمي[١٨٦] إلى جزيرة دارين[١٨٧] ـ وكان قد انحاز إليها بعض فُلال المرتدين المهزومين من بني بكر ـ فدخلها بجيشه فما تركوا فيها ذكراً إلا قتلوه إلا صغار الذرية، وغنم المسلمون وحووا جميع ما كان في الجزيرة من النساء والذرية والأموال، ثم انصرفوا إلى عسكرهم[١٨٨].

وكان ممن هزم من المرتدين ذو التاج لقيط ابن مالك الأزدي الذي غَلب على عمان وارتد، ولما أراد الحرب جمع النساء و الذراري خلف جيشه فكانوا غنيمة للمسلمين، فاقتسموهم، وبُعث الخمس إلى أبي بكر، وكان مقداره ثمانمائة رأس[١٨٩].

---

(١٨١) تاريخ الطبري ٢٩٦/٣، ولما اكتشف خالد مكره لامه فاعتذر بأنهم قومه وعشيرته خاف عليهم الفناء، وأمضى خالد الصلح.

(١٨٢) الردة ص ١٣٩، تاريخ الطبري في رواية ابن إسحاق ٢٩٨/٣، ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد، أبو الفرج (ت ٥٩٧ هـ)، المنتظم في تاريخ الأمم (تحقيق: محمد عبد القادر عطا وأخيه، ط ١، دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٢هـ) ٨٥/٤.

(١٨٣) غزوات ابن حبيش ٧٨/١، ٩٠، تاريخ الطبري ٢٩٨/٣.

(١٨٤) الردة ص ١٤٤، والنَّقد: جنس من الغنم قصير الأرجل قبيح الشكل يكون في البحرين. تاج العروس، مادة (نقد) ٢٨٣/٥.

(١٨٥) الردة ص ١٤١.

(١٨٦) العلاء بن عبد الله بن عباد بن أكبر الحضرمي، صحابي من رجال الفتوحات في صدر الإسلام ولاه الرسول ﷺ على البحرين وأقره أبو بكر وعمر، توفي سنة ٢١هـ. الإصابة ٤٩٧/٢.

(١٨٧) جزيرة لا تزال تعرف بهذا الاسم إلى اليوم، كانت قديما تعرف بفرضة البحرين. معجم البلدان ٤٣٢/١، والجواليقي، موهوب بن أحمد بن محمد، أبو منصور (ت ٥٤٠هـ)، المعرَّب من الكلام الأعجمي (تحقيق: أحمد محمد شاكر،الطبعة الأولى، دار الكتب المصرية،القاهرة ١٣٦١هـ) ص ١٤٧.

(١٨٨) الردة ١٦٢، تاريخ الطبري ٣١٠/٣، فتوح ابن أعثم ٥٣/١، المنتظم ٨٥/٤.

(١٨٩) تاريخ الطبري ٣١٦/٣.

وكذلك أهل دُبا[١٩٠] من عمان ارتدوا وتحصنوا من جيوش المسلمين، ثم نزلوا على حكمهم، فقتلت أشرافهم وسبيت نساؤهم وأولادهم، وأرسل ٣٠٠ من المقاتلة و ٤٠٠ من النساء والذرية إلى أبي بكر ﷺ، فاستشار الصحابة فيهم، فأشار المهاجرون بقتلهم - أي الرجال - أو مفاداتهم بأغلى الأثمان، وهمَّ أبو بكر بقتلهم فكلمه عمر فيهم - وكان رأيه أن لا قتلَ عليهم ولا فداء[١٩١] - فاستبقاهم، وحبسوا إلى أن مات أبو بكر[١٩٢].

وكان من المرتدين ذوي الشوكة والكثرة قبائل كندة اليمانية، فقد انتقضوا على واليهم زياد بن لبيد[١٩٣]، ومنعوا الزكاة، فأعاده أبو بكر إليهم بجيش لحربهم، فظفر بقبائل منهم؛ بني هند، وبني العاتك، وبني حَجْر، وبني جَمْر، فسبى نساءهم وذراريهم، فغضب لذلك الأشعث بن قيس الكندي[١٩٤]. فحاربه وهزمه واستخلص ما كان قد أخذه ورده إلى أهله[١٩٥]. ثم كانت بينهم حروب انتهت بهزيمة الأشعث ومن كان معه من المرتدين، وسُبي من حصن النجير الذين كانوا متحصنين به ألف امرأة،فبُعث السبي والأسرى من أشراف كندة وهم ثمانون رجلاً إلى أبي بكر، ومعهم الأشعث يلعنه المسلمون ويلعنه سبايا قومه[١٩٦]، فلما قدم على أبي بكر أعلن التوبة فأقيلت عثرته وأطلق، وقسم أبو بكر في الناس الخمس[١٩٧].

وبعد هذا العرض التاريخي الموجز لما حصل من سبي خلال بعض حروب الردة نقف لنؤكد أنه لم يكن ليرتدع كثيرون من العرب ممن اجتالهم الشيطان فزين لهم سبيل الغواية والنكوص عن دين الحق إلا بعد ما شاهدوا جرأة كتائب الإيمان على الاستشهاد في سبيل الله تعالى أولاً، ثم ما كان يعامل به المرتدون من سبي النساء و الذراري والأموال، وكان ذلك موجعاً لقلوبهم مؤلماً لأنفسهم، لأنهم يأنفون أشد الأنفة من مثل هذا السبي ويرونه عاراً يصعب محوه، ولذلك

(١٩٠) دُبا: سوق كبير من أسواق العرب بعُمان يردونه في وقت معين من العام. معجم البلدان ٤٣٥/٢.

(١٩١) غزوات ابن حبيش ١٢٢/١.

(١٩٢) الردة ص ٢٠٠.

(١٩٣) زياد بن لبيد بن ثعلبة بن سنان الأنصاري البياضي، شهد العقبة وبدراً، استعمله الرسول ﷺ على حضرموت وقاتل المرتدين بها. تجريد أسماء الصحابة ١٩٥/١، الإصابة ٥٥٨/١.

(١٩٤) الأشعث بن قيس بن معد يكرب بن معاوية، أبو محمد الكندي، أمير كندة، وفد على النبي ﷺ مع قومه ثم ارتد، وجيء به إلى أبي بكر أسيراً، شارك في الفتوحات ومات سنة ٤٠ هـ. الذهبي، تجريد أسماء الصحابة ٢٣/١، الإصابة ٥١/١.

(١٩٥) الردة ص ١٨٨-١٨٩، فتوح ابن أعثم ٦٦/١.

(١٩٦) الردة ص ٢١١، تاريخ الطبري ٣٣٨/٣، ولعنهم إياه لأنه كان قد خدعهم بأخذ الأمان لذويه من المسلمين وتركَهُم.

(١٩٧) تاريخ الطبري ٣٣٩/٣.

نلاحظ تردد بعض القبائل العربية في أول أيام فتنة الردة؛ كبني عامر الذين كانوا يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى، فلما رأوا ما حلَّ بأهل بزاخة(١٩٨) قالوا: ندخل فيما خرجنا منه(١٩٩). ومع هذا فقد كان خلفاء رسول الله ﷺ يقدِّرون هذه الأمور فمن يعلن التوبة والإنابة يرد إليه ما أخذ منه؛ فقد رد أبو بكر ﷺ سبي بني يربوع إلى متمم بن نويرة(٢٠٠)، وفي رواية عند ابن حبيش أن وفداً من كندة قدموا فكلموا أبا بكر في فداء سبيهم فأجاب إلى ذلك، وخطب في الناس لردهم، وقيَّم فداء كل رأس منهم بأربعمائة درهم(٢٠١).

سبي فتوحات خالد بن الوليد:

بعد أن فرغت جيوش الإسلام من القضاء على حركات الردة بدأت مسيرة الفتوح لنشر الإسلام خارج نطاق جزيرة العرب، فتوجه خالد بن الوليد بجيشه الذي حارب به أهل اليمامة إلى بلاد فارس بأمر أبي بكر الصديق ﷺ، ومنذ أن وطئت أقدام المسلمين تلك الأرض بدأت الغنائم والخيرات تتوالى عليهم، وبدأوا يضعون أيديهم على سبي فارس؛ فلا تكاد معركة يتحقق فيها النصر للمسلمين تخلو من حصولهم على شيء من السبي قليلاً أو كثيراً، وتجرأ المسلمون على الفرس - وكانوا قوماً أشداء ولكن الله تعالى أصابهم بالرعب والخذلان، وكلما زادت هزائمهم وانتكاساتهم ملأ المسلمون أيديهم من السبي.

وكان من أوائل ما حصل عليه المسلمون من السبي سبايا حصن المُغيثة والعُذَيْب وحصن النَّجَف(٢٠٢)، ثم دخل المسلمون مَيْسان فأصابوا بها غنائم وسبايا من أهل القرى(٢٠٣). ثم بعد ذلك تتابعت الوقائع على الفرس في سنة ١٢ هـ؛ فحاز المسلمون سبياً بعد ذات السلاسل(٢٠٤)، والثَّنيِّ (المَذار)(٢٠٥)، والوَلَجَة(٢٠٦)، وكان المسلمون يسبون أولاد

---

(١٩٨) ماء لبني أسد بنجد، كانت به الوقعة المشهورة بين المسلمين والمرتدين من بني أسد وغطفان وفزارة. معجم البلدان ٤٠٨/١.

(١٩٩) تاريخ الطبري ٢٦١/٣-٢٦٣.

(٢٠٠) المصدر السابق ٢٧٩/٣.

(٢٠١) غزوات ابن حبيش ١٤٠/١.

(٢٠٢) أبو يوسف، الخراج ص ١٤٢. المُغيثة: منزل في طريق مكة بعد العذيب نحو مكة، وقيل ركية بين القادسية والعذيب. معجم البلدان ١٦٢/٣. العُذيب: ماء بين القادسية والمغيثة بينه وبين القادسية أربعة أميال وإلى المغيثة اثنان وثلاثون ميلاً. معجم البلدان ٩٢/٤. =

= النَّجَف: البلد المعروف قرب الكوفة، به قبر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ. معجم البلدان ٢٧١/٥.

(٢٠٣) تاريخ خليفة ص ٨٥.

(٢٠٤) غزوات ابن حبيش ٢١/٢، السلاسل: ماء بأرض جذام، سميت به الغزوة. معجم البلدان ٢٣٣/٣.

(٢٠٥) تاريخ الطبري ٣٥٢/٣، ابن حبيش ٢٣/٢، المذار: بلد في كورة ميسان. معجم البلدان ٨٨/٥.

(٢٠٦) تاريخ الطبري ٣٥٤/٣، ابن حبيش ٢٦/٢، الوَلَجَة: بأرض كسكر مما يلي البحر. معجم البلدان ٣٨٣/٥.

المقاتلة وعيالاتهم الذين يقومون بأمور العجم ويحاربون المسلمين، أما الفلاحون الذين لم ينهضوا للحرب فلم يتعرضوا لهم، لوصية أبي بكر وأمره فيهم(٢٠٧). ثم كانت وقعة ألّيس(٢٠٨)، وكان أهلها شجعان أشداء(٢٠٩)، ولكن الله عز وجل هزمهم وحاز المسلمون منها الغنائم والسبي، وأصاب الذعر أهل أمْغِيْشَيَا(٢١٠) بعد ألّيس فخرجوا منها وتفرقوا في السواد، فأفاء الله تعالى على المسلمين هذه البلدة بغير قتال، وأرسل خالد رجلاً بالأخبار والغنائم والسبي إلى أبي بكر الصديق ﷺ، فرأى أبو بكر صرامته وثبات خبره فسأله عن اسمه، ثم قال معجباً به:

نفسُ عِصامٍ سوَّدت عصَاما
وعَوَّدتهُ الكرَّ والإقدامَا

ثم وهبه جارية من السبي، فولدت له(٢١١).

وغنم المسلمون سبياً من أحد الأسواق المجاورة للأنبَار(٢١٢)، ومن حصن بانِقيَا(٢١٣) الذي كان فيه مسلحة لكسرى، فحاصروهم وافتتحوا الحصن، فقتلوا الرجال وسبوا النساء والذراري(٢١٤).

أما سبي عين التَّمْر(٢١٥) فهو من أكثر سبي فارس اشتهاراً، وذلك أن خالد بن الوليد لما وصل إليها -وكان بها رابطة من الفرس- حاصرهم حتى نزلوا على حكمه، فسبى كلَّ من حوى حصنهم؛ بشراً كثيراً؛ وسبى أربعين غلاماً وجدهم يتعلمون الإنجيل في بيعتهم(٢١٦)، فسألهم: ما أنتم؟ قالوا: رُهُن(٢١٧)، فقسمهم في أهل البلاء من جيشه(٢١٨). وسبب اشتهار هذا السبي لم يكن

---

(٢٠٧) ابن الأثير، كامل ٢٦٣/٢.

(٢٠٨) ألّيس: قرية في أول أرض العراق من ناحية البادية، وقيل قرية من قرى الأنبار. معجم البلدان ٢٤٨/١.

(٢٠٩) تاريخ الطبري ٣٦٧/٣.

(٢١٠) أمْغِيْشَيَا: مدينة عامرة بالعراق ينتهي إليها نهر بادقلي أمر بهدمها خالد لما افتتحها. معجم البلدان ٢٥٤/١.

(٢١١) تاريخ الطبري ٣٥٨/٣، غزوات ابن حبيش ٣١/٢.

(٢١٢) فتوح البلدان ص ٢٤٨، الأنبار: مدينة على الفرات غربي بغداد بينهما عشرة فراسخ. معجم البلدان ٢٥٧/١.

(٢١٣) بانِقيَا: قرية من نواحي الكوفة. معجم البلدان ٣٣١/١.

(٢١٤) الخراج ص ١٤٥، وفي رواية للطبري عن ابن إسحاق أن الفتح تم صلحاً، تاريخ الطبري ٣٤٣/٣، وفتوح البلدان ص ٢٤٥-٢٤٦ يشير إلى قتال ثم صلح.

(٢١٥) عين التَّمْر: بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة على طريق البرية. معجم البلدان ١٧٦/٤.

(٢١٦) البِيْعَةُ: متعبد النصارى، أو هي متعبد الكفار مطلقاً. الصحاح، مادة (بوع) ٩٢٣/٢، تاج العروس، مادة (بيع) ٣٥/١١.

(٢١٧) جمع رَهْن: قال الأعشى: آليت ألا أعطيه من أبنائنا رُهُناً فيفسدهم كمن قد أفسدا. تاج العروس، مادة (رهن) ٢٥٠/١٨.

(٢١٨) الخراج ص ١٤٥-١٤٦، الردة ص ٢٣١، فتوح البلدان ٢٤٩، تاريخ الطبري عن سيف ٣٧٧/٣، غزوات ابن حبيش عن سيف أيضاً ٥١/٢، تاريخ دمشق ٨٧/٢ وقال: " ووجدوا في كنيسة اليهود صبياناً يتعلمون الكتابة في =

بكثرة عدده فحسب، وإنما بمن برز من أبنائهم واشتهر فيما بعد، لأنهم أسلموا وأنجبوا كلهم، وانتسبوا في العرب[٢١٩]، فنبغ منهم العلماء والشعراء والقادة في ظل دولة الإسلام. وفي رواية لابن إسحاق[٢٢٠]، ولابن شبَّة[٢٢١] أن سبي عين التمر هو أول سبي قدم المدينة من العجم في خلافة أبي بكر. وهذا القول ليس على إطلاقه، فقد رأينا سبي البلاد المفتوحة قبل عين التمر يصل إلى المدينة، وآخره سبي أُلّيس حيث وهب أبو بكر ﷺ جارية منه للقادم به، ولكن يظهر والله أعلم أنه بسبب كثرتهم كما يفهم من رواية ابن إسحاق فقد غطى ذلك على ما قبله، وعُرف لدى الناس. وتوجّه خالد ابن الوليد بعد ذلك إلى دومة الجندل[٢٢٢] فاقتحم حصنها، فقتل المقاتلة وسبى الذرية والشرخ، ثم أقامهم فيمن يزيد، فباعهم[٢٢٣]. ولما انتشر أمر المسلمين وظهرت انتصاراتهم أصاب الذعر والهلع سكان المناطق المجاورة كافة، فصار عرب التخوم يخشون على نسائهم من السبي؛ هذا حرقوص بن النعمان قبل حلول المسلمين بأرضهم، يحذر قومه الغارة عليهم في قصيدة له، ومما قال فيها:

فهلْ لكمُ في السَّير قبلَ قتالهم
وقبلَ خروج المُعْصِرَاتِ من الخِدْرِ[٢٢٤]

ويذكر أن المسلمين فاجأوه وهو ينهل من الخمر ليودّعها في وقت متأخر من الليل هو وزوجته وأولاده، فقتلوه وبنيه وسبيت بناته[٢٢٥].

وجرّد خالد والمسلمون السيف في العرب من تغلب وبني نمير وبني بجير؛ فبعد وقعة الثَّنِيِّ والزُّمَيْل[٢٢٦] سبى خالد الشرخ وقسم السبايا، وفي هذا يقول أبو مفزّر[٢٢٧]:

= قرية من قرى عين التمر يقال لها نُقيرة "، والكنيسة: متعبد اليهود وهي مُعرَّبة أصلها كنشت، أو متعبد النصارى كما قال الجوهري، الصحاح مادة (كنس) ٧٦٨/١. أما نقيرة فقال عنها ياقوت عن الأزهري: ركية معروفة ماؤها رَواء بين ثأج وكاظمة معجم البلدان ٣٠١/٥.

(٢١٩) ابن عبد البر، يوسف بن محمد بن عبد الله (ت ٤٦٣ هـ)، التمهيد (تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي وزميله، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب١٣٨٧ هـ) ٢٤٠/٣، ٢١٧/١٩.

(٢٢٠) عند ابن عساكر في تاريخ دمشق ٨٧/٢.

(٢٢١) عند الطبري في تاريخه ٣٨٥/٣.

(٢٢٢) دومة الجندل: حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبلي طيء. معجم البلدان ٤٨٧/٢.

(٢٢٣) تاريخ الطبري ٣٧٩/٣، غزوات ابن حبيش ٥٤/٢، والمقصود بالشرخ: الشباب والشابات.

(٢٢٤) أعصرت الجارية: بلغت عصر شبابها وأدركت، فهي معصر، أو هي التي دخلت في الحيض، أو راهقت العشرين، والإعصار في الجارية كالمراهقة في الغلام. تاج العروس، مادة (عصر) ٢٣١/٧.

(٢٢٥) تاريخ الطبري ٣٨١/٣-٣٨٢، غزوات ابن حبيش ٥٩/٢-٦٠.

(٢٢٦) الثَّنيُّ والزُّمَيْل: موضعان بالجزيرة قرب شرقي الرصافة، تجمعت فيه بنو تغلب وبنو بجير وبنو نمير لحرب خالد بن الوليد. معجم البلدان ٨٦/٢، ١٥١/٣.

(٢٢٧) غزوات ابن حبيش ٦١/٢، معجم البلدان ١٥١/٣، أبو مُفزّر: هو الأسود بن قُطْبة شاعر شارك خالد بن الوليد في الفتوحات، =

طرقنا بالثنيِّ بني بُجير
بَيَاتاً قبلَ تَصديةِ الدّيوكِ
إلى منْ بالزُّميلِ وجانبيهِ
وطاروا حيثُ طاروا كالرَّموكِ
وأجلوا عن نسائهمُ فكنَّا
بها أولى من الحيِّ الزّكوكِ(٢٢٨)

وتابع خالد بن الوليد زحفه وضغطه على نصارى العرب الذين لم يستجيبوا لدعوته فقتلَ منهم مقتلة عظيمة وسبَى، وقسم فيئَهم بالناس، وأرسل الأخماس إلى أبي بكر(٢٢٩).

ولما بعث أبو بكر ﷺ البعوث إلى الشام وتجمعت ضدهم قوات الروم في اليرموك استمدوا أبا بكر، فكتب إلى خالد بن الوليد ليمدهم واستحثه في السير إليهم، فأخذ خالد نصف جيشه، وتوجه إلى الشام، وفي طريق رحلته إليها كان له سبي في القبائل والبلاد التي مرَّ عليها؛ من عرب تغلب وبَهْراء(٢٣٠) وسبي من الكَواثِل(٢٣١) وبَعْلَبك(٢٣٢) وحُوَّارِيْن(٢٣٣) وقرى غسان بمرج راهط(٢٣٤) والغوطة(٢٣٥).

ويفهم من بعض الروايات أن أعداد السبي الذي حازه خالد والمسلمون في طريقهم إلى الشام كانت كبيرة؛ فقد ذكر أبو يوسف رحمه الله تعالى أن خالداً سبى في مخرجه من الحيرة إلى أن انتهى إلى دمشق ألف رأس، لا بل ذكر في رواية أخرى أنهم كانوا خمسة آلاف رأس(٢٣٦)، وإن كان هذا العدد الأخير يبدو فيه شيء من المبالغة، لأنه لم يرد في حديث المصادر عن هذا السبي شيء يلفت النظر لكثرته في أي موقع من المواقع المذكورة،

= وشهد القادسية وما بعدها، وصور كثيراً منها في شعره. تاريخ الطبري ٣٨٢/٣، غزوات ابن حبيش ٦١/٢-٦٢، تاريخ دمشق ٧٠/٩، معجم البلدان ٨٦/٢، ١٥١/٣، الإصابة ١٠٥/١.

(٢٢٨) تصدية الديوك: صياحها. الرموك هي الرمكة: الفرس والبرذونة تتخذ للنسل. الزكوك: الضعيف. لسان العرب، مادة (صدي) ٤٥٤/١٤، ٤٥٦، مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط (الطبعة الثانية، القاهرة، طبعة دار المعارف ١٣٩٢ هـ، مادة (رمك) ١/ ٣٧٣، ومادة (زك) ١/ ٣٩٦.

(٢٢٩) تاريخ الطبري ٣٨٣/٣.

(٢٣٠) طبقات ابن سعد ١٥٧/٥، غزوات ابن حبيش ١٨٩/١.

(٢٣١) فتوح ابن أعثم ١٣٨/١،الكَواثِل: موضع في أطراف الشام مر به خالد بن الوليد لما قصد الشام من العراق. معجم البلدان ٤٨٦/٤.

(٢٣٢) فتوح ابن أعثم ١٧٦/١، بَعْلَبك: مدينة أثرية في الشام بينها وبين دمشق ١٢ فرسخاً من جهة الساحل. معجم البلدان ٤٥٣/١.

(٢٣٣) تاريخ خليفة ص ٨٧، حُوَّارِين: من قرى حلب أو حصن في ناحية حمص. معجم البلدان ٣١٥/٢ ، غزوات ابن حبيش ١٩٤/١.

(٢٣٤) تاريخ خليفة ص ٨٧، غزوات ابن حبيش ١٩٤/١، مرج راهط: بنواحي دمشق. معجم البلدان ١٠١/٥.

(٢٣٥) تاريخ الطبري ٤٠٧/٣، غزوات ابن حبيش ١٩٠/١، الغوطة:هي الكورة التي منها دمشق تستمد مياهها من جبال عالية في شماليها. معجم البلدان ٢١٩/٤.

(٢٣٦) الخراج ص ١٤٧.

لكن لا يغيب عن الذهن ذلكم التوفيق والتسديد والظفر الذي صاحب جيوش المسلمين بقيادة خالد بن الوليد، وكان لهذا صداه وأثره على قلوب المواجهين له في معاركه التي خاضها، من إحداث الهلع والخوف والذعر الذي من شأنه أن يدهش العقول ويذهلها عن التصرف المحمود والرأي السديد.

وهكذا نلاحظ أن مرحلة الفتح الأولى لبلاد فارس في زمن الصديق ﷺ قد انتهت، وأسفر ذلك عن معرفة قريبة للمسلمين بهذه البلاد وأهلها، فكان لذلك أثره على المرحلة التالية للفتح، كما أسفر أيضاً عن مجموعات كثيرة من السبي نقّلها الله تعالى للمسلمين المجاهدين، وحيزت أخماسها إلى المدينة فقسمت هناك، وقويت قلوب المؤمنين بذلك ورأت بشائر تحقق موعود الله تعالى لهم بالنصر والتمكين، ونشر دينه في الأرض، ورأت العقباتِ تتهاوى الواحدةَ تلو الأخرى مخلفة وراءها أعز ما تملك في هذه الحياة.

السبي في عهد الفاروق ﷺ

موقفه من سبي المرتدين:

لم يكن عمر بن الخطاب ﷺ يميل إلى السياسة العامة المتشددة التي مضى عليها أبو بكر الصديق ﷺ إزاء أسرى المرتدين وسباياهم، وقد رأينا موقفه من هذا فيما تقدم، فلما آلت الخلافة إليه كان أول ما عمله أن ردَّ سبايا أهل الردة إلى عشائرهم، وقال: إني كرهت أن يصير السبي سنة على العرب[٢٣٧]، وقال: إنه ليقبح بالعرب أن يملك بعضهم بعضاً، وقد وسع الله عز وجل وفتح الأعاجم[٢٣٨]، ثم أخذ يستشير في كيفية افتداء سبايا العرب في الإسلام وحتى من عهد الجاهلية، وتوصلوا إلى أن يفدي كل إنسان بستة أبعرة أو سبعة ما عدا بني حنيفة وكندة فقد خفف عليهم لقتل من قتل من رجالهم في حروب الردة وكذلك أهل دبا[٢٣٩]. ومن هنا فإنه تقرر بما يشبه الإجماع من عمر ومن حضره من المسلمين أنه لا ملك على عربي[٢٤٠]. ولهذا فإنه استدعى أهل دبا المسجونين وأطلق سراحهم، وقال: انطلقوا إلى أي بلد شئتم فأنتم أحرار لوجه الله تعالى ولم يأخذ منهم أي فداء[٢٤١]، ويروى عن عمر ابن عبد العزيز رحمه الله تعالى أن عمر بن الخطاب كان قد قرر على أهل دبا أربعمائة درهم فداء، لكنه تراجع عن ذلك وقال: لا سبو في الإسلام[٢٤٢]، وكذلك فعل مع سبي عمان

(٢٣٧) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر (٢٨٤ هـ)، تاريخ اليعقوبي (دار بيروت، بيروت ١٣٩٠ هـ) ١٣٩/٢.
(٢٣٨) تاريخ الطبري ٣٤٠/٣.
(٢٣٩) ابن الأثير، كامل ٢٦٠/٢.
(٢٤٠) تاريخ الطبري ٣٤٠/٣.
(٢٤١) الردة ص ٢٠١.
(٢٤٢) غزوات ابن حبيش ١٢٢/١.

الذي جاء به حذيفة بن اليمان ﷺ (٢٤٣)، ومع أهل حصن النجير من كندة(٢٤٤). وصار الرجال يتتبعون نساءهم المسبيات في كل مكان فمن وُجد منهن بُذل عنها الفداءُ وأعيدت إلى أهلها(٢٤٥).

وبهذا خالف عمر ﷺ سيرة أبي بكر في المرتدين من العرب؛ حيث سار فيهم أبوبكر سيرة الناقضين فسبى النساء والصغار، فلما تولى عمر خالفه في ذلك ونقض حكمه وعاملهم معاملة المرتدين التائبين فأخرجهم من العبودية ورد الحرائر إلى أهلهن إلا امرأة ولدت لسيدها(٢٤٦).

وكان من وصيته ﷺ قبيل وفاته: اعلموا أنه من أدرك وفاتي من سبي العرب فهو حر من مال الله عز وجل(٢٤٧).

سبي بلاد فارس:

تابعت الجيوش الإسلامية انطلاقتها في الفتوح بعد موت الصديق ﷺ حينما حمل الأمانة بعده عمر بن الخطاب ﷺ، وكان مسدداً غاية التسديد مثل سلفه في المتابعة الدقيقة لمسيرة الفتح أولاً بأول، وتزويدها بما تحتاج إليه من وصايا وتوجيهات، وكانت الفتوح كما هو معلوم تسير في وقت واحد في اتجاهين مختلفين، أحدهما في بلاد فارس، والآخر في بلاد الروم. وكان لكل منهما سبايا. وسنبدأ أولاً بالحديث عن السبي في بلاد فارس، لأنه أكثر عدداً وأهمية منه في الجانب الآخر. ففي مستهل وصول أبي عبيد الثقفي ﷺ(٢٤٨) إلى العراق، بعث المثنى بن حارثة(٢٤٩) إلى زَنْدوَرَد، فحاربوه، فقتل منهم وسبى(٢٥٠)، وقد سمى الطبري رحمه الله تعالى بعض ذلك السبي(٢٥١). وسبى المسلمون

---

(٢٤٣) المصدر السابق ١٢٢/١.

(٢٤٤) المصدر السابق ١٤٠/١.

(٢٤٥) تاريخ الطبري ٣٤٠/٣.

(٢٤٦) ابن القيم، أعلام الموقعين عن رب العالمين (تحقيق عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب الحديثة، القاهرة ١٣٨٩هـ) ٢٢٣/٢، أحكام الأسرى ص ١٣٥.

(٢٤٧) تاريخ دمشق ٤٢٧/٤٤، الذهبي، سير أعلام النبلاء (أشرف على تحقيقه: شعيب الأرنؤوط، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٢هـ) ١٧٠/١، مجمع الزوائد ٢٢٠/٤.

(٢٤٨) أبو عبيد بن مسعود بن عمرو الثقفي، أسلم في عهد النبي ﷺ، وهو والد المختار الكذاب، ولاه عمر ﷺ حرب فارس فقتل في معركة الجسر سنة ١٣ هـ. تجريد أسماء الصحابة ١٨٥/٢، الإصابة ١٣٠/٤.

(٢٤٩) المثنى بن حارثة بن سلمة الشيباني، له صحبة، كان فارساً ميمون النقيبة سيداً مطاعاً، أول من بدأ الجهاد في بلاد فارس وهون من شأنهم، استشهد من جراحه قبل القادسية. تجريد أسماء الصحابة ٥٠/٢، الإصابة ٣٦١/٣.

(٢٥٠) تاريخ خليفة ص ٩٢، غزوات ابن حبيش ٧٥/٢، زَنْدوَرَد: مدينة قرب واسط مما يلي البصرة، خربت. معجم البلدان ١٥٤/٣.

(٢٥١) تاريخ الطبري ٤٥١/٣.

بعد معركة البويب(٢٥٢) شيئاً كثيراً، ونُقل أهل البلاء(٢٥٣). وفي سرية من سرايا المثنى بن حارثة دلّه رجل من بني تغلب على حي من أحيائهم فأغار عليهم، فقتلوا المقاتلة وسبوا الذرية، وكان في جيش المثنى قوم من ربيعة فاشتروا السبي بنصيبهم من الفيء فأعتقوهم، لأن ربيعة من بين العرب خاصة ما كانوا يسبون أحداً حتى في الجاهلية(٢٥٤). وفي سرية أخرى من سرايا المثنى أصاب كل رجل ممن في السرية خمساً من السبي(٢٥٥).

ولما تولى عتبة بن غزوان ﷺ (٢٥٦) البصرة فتحت مَيْسان، وذكر ابن خياط والطبري أسماء بعض من سبي منها(٢٥٧). وفتحت الأُبلَّة كذلك فأصاب المسلمون فيها سبياً(٢٥٨).

وبإجمال فإنه من خلال السرايا والغارات التي كانت بين يدي معركة القادسية تجرأ المسلمون على الفرس وبلادهم وأصابوا من طعامهم، ونكحوا بناتهم، واستخدموا بنيهم، فرغبوا في حربهم، كما يُروى ذلك عن سعد ابن أبي وقاص ﷺ في كتاب له إلى الخليفة عمر ﷺ(٢٥٩).

أما القادسية فقد جمع لها الفرس ما تحتاج إليه من عدة وعتاد، وحشروا إليها من قدروا عليه من أهل الغناء وأهل البأس وأهل النجاد(٢٦٠) وغيرهم ممن يرفع روح القتال، يريدون بذلك الصد عن سبيل الله تعالى وإزهاق أرواح المؤمنين، فتصدى لهم جنود الله، وطلبوا الشهادة في الله، فمكن الله تعالى لهم لما رأى صدقهم وحسن لجوئهم إليه وصدق توكلهم عليه، فمنحهم رقاب العدو وأكتافهم، وأصابهم بالخذلان، فقتل منهم المسلمون كيف شاءوا، وسبوا كيف

(٢٥٢) البويب: نهر كان بالعراق موضع الكوفة يأخذ من الفرات. معجم البلدان ٥١٢/١.

(٢٥٣) ابن الأثير، كامل ٣٠٥/٣، ومعلوم أن للقائد أن ينفل من يرى له أثراً محموداً في الجهاد من الخمس.

(٢٥٤) تاريخ الطبري ٤٧٦/٣، غزوات ابن حبيش ١٠٣/٢.

(٢٥٥) المصدران السابقان أنفسهما.

(٢٥٦) عتبة بن غزوان بن جابر المازني، من السابقين الأولين، شهد بدراً والمشاهد مع رسول الله ﷺ، وولاه عمر ﷺ في الفتوح، واختط البصرة، مات سنة ١٧ هـ. دول الإسلام ص ١٥، الإصابة ٤٥٥/٢.

(٢٥٧) تاريخ خليفة ص ٩٦-٩٧، تاريخ الطبري ٥٩٦/٣.

(٢٥٨) تاريخ الطبري ٥٩٤/٣، غزوات ابن حبيش ٢٤٠/٢، الأبلة: بلدة على شاطئ دجلة في زاوية الخليج موضع البصرة الحالية. معجم البلدان ٧٧/١.

(٢٥٩) غزوات ابن حبيش ١٣٣/٢، سعد بن مالك ابن عبد مناف، أبو إسحاق الزهري، الصحابي المشهور، أحد العشرة، مجاب الدعوة، من قواد الفتوحات زمن عمر ﷺ توفي سنة ٥٥هـ. الرياض النضرة ٩٥/٤ وما بعدها، تجريد أسماء الصحابة ٢١٨/١.

(٢٦٠) في تاريخ خليفة ص ١٠١ ذكرَ أنه اختير لها من أخص ما في ديوان رستم.

شاعوا[٢٦١]، حتى إنه ليتحدث شاهد عيان، وهو الأسود بن يزيد النخعي[٢٦٢] فيقول: "شهدتُ القادسية، فلقد رأيت غلاماً منّا من النخع يسوق ستين أو ثمانين رجلاً من أبناء الأحرار، فقلت: لقد أذل الله أبناء الأحرار"[٢٦٣]. نعم لقد أذل الله أبناء الأحرار، فهذه سنة من سنن الله تعالى الماضية أن من يتكبر ويطغى ويتجبر ويصد عن سبيل الله ويؤذي أولياء الله يعاقبه الله بالذل والهوان ويسام الدمار والخسار.

كان مما أفاء الله تعالى على الفاتحين بعد القادسية عيالات من قاتل مع كسرى[٢٦٤]، فباع المسلمون من السبي في مكان المعركة شيئاً كثيراً[٢٦٥]، وأعطى عمر بن الخطاب ﷺ وفدَ سعد إليه الذين حملوا الخمس كلَّ واحد منهم ثمانية من الرقيق مع جوائز أخرى[٢٦٦]، وأعطى الرُّبَيل الأسدي الذي ضربه سائس الفيل على وجهه يوم القادسية علجاً يقوم على فرسه[٢٦٧].

ولما فرغ المسلمون من القادسية مظفرين تحولوا إلى المدائن[٢٦٨] عاصمة الفرس، وعبروا النهر إليها وحاصروها حتى فتحها الله تعالى عليهم بعد أن خرج منها أكثر الفرس إلى جلولاء[٢٦٩]، حيث اجتمعت جموع كبيرة فيها، فأرسل إليهم سعد جيشاً حاصرهم واقتحم عليهم ، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وحوى المسلمون كل ما في المدينة من أموال وسبايا وغير ذلك[٢٧٠]، وأصابوا في جلولاء سبايا كثيرة جداً؛ بسبب أنهم لما فتحوا المدائن استطاع الفرس التحول منها بعيالاتهم وأثقالهم إلى جلولاء[٢٧١]، فكبسهم المسلمون فيها، فكان ما أصابوا بها أفضل مما أصابوا بالقادسية[٢٧٢]، وينسب إلى سبيها بعض المشاهير[٢٧٣]. روي أن القعقاع بن

---

(٢٦١) **الطبراني**، سليمان بن أحمد بن أيوب (ت ٣٦٠ هـ)، المعجم الكبير (مراجعة: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل ١٤٠٤ هـ) ٢٧٧/١، تاريخ دمشق ٩٤/٣٤، مجمع الزوائد ١٠٦/٤.

(٢٦٢) الأسود بن يزيد بن قيس، أبو عمرو النخعي، رجل صوام صالح ثقة توفي سنة ٧٥ هـ. الإصابة ١٠٦/١.

(٢٦٣) تاريخ الطبري ٥٧٦/٣، غزوات ابن حبيش ٢١٢/٢، كامل ابن الأثير ٣٣٦/٢.

(٢٦٤) غزوات ابن حبيش ٢٣٠/٢.

(٢٦٥) مصنف ابن أبي شيبة ٣٣٥/٤، ٤٦٥/٦.

(٢٦٦) غزوات ابن حبيش ٢٣٥/٢.

(٢٦٧) المصدر السابق نفسه.

(٢٦٨) المدائن: عاصمة مملكة الفرس، على الشاطئ الشرقي لنهر دجلة، فتحها سعد سنة ١٦هـ. معجم البلدان ٧٤/٥.

(٢٦٩) جلولاء: مدينة على طريق خراسان، بينها وبين خانقين سبعة عشر فرسخاً، كانت فيها الوقعة المشهورة على الفرس. معجم البلدان ١٥٦/٢.

(٢٧٠) تاريخ خليفة ص ١٠٧.

(٢٧١) المصدر السابق ص ١٠٤.

(٢٧٢) تاريخ الطبري ٥٧٨/٣.

(٢٧٣) تاريخ خليفة ص ١٠٨.

عمرو[٢٧٤] أصاب سبايا بعد جلولاء فبعث بهن إلى قائد الجيش فقسمهن على المسلمين فيما اقتسموا من الفيء، فاتُّخذن فولدن في المسلمين[٢٧٥]. ويذكر عبيد الله بن محفّز عن أبيه وهو مع الجيش الذين اقتحموا جلولاء، أنه لما انهزم المشركون ودخلَ الخندقَ أتى فسطاطاً فيه مرافق وثياب، وإذا فرش على إنسان فنبشه، فإذا امرأة كالغزال في حسن الشمس، فأخذها وأدى الثياب، وطالب بالجارية حتى نُفّلها فاتخذها أم ولد[٢٧٦]. وكان مبعوث المسلمين بسبي جلولاء إلى عمر ﷺ أبا مُفزّر الأسود بن قطبة[٢٧٧].

هذا وعندما ننظر في تقدير السبي الذي منحه الله تعالى للمسلمين فيما قبل القادسية ومعها وبعدها إلى جلولاء نرى عدداً كبيراً جداً، وصل في بعض التقديرات إلى مائة ألف في رواية عن الشعبي[٢٧٨]، وغيره[٢٧٩]، قال محمد[٢٨٠] : وهو أكثر القول عندنا[٢٨١]. وفي بعض الروايات عن مالك بن سعيد الخطمي أنه خمسون ألفاً[٢٨٢]، وفي أخرى أنه بضعة وخمسون ألفاً، سوى من نُفّل منهم لأهل الغَنَاء والبلاء[٢٨٣]، ونحن لا نستطيع ترجيح عدد معين للتفاوت الكبير بين هذه الأعداد إلا أننا نجزم أن جموع السبي في هذه المعارك الحاسمة والفاصلة كانت عظيمة بسبب سرعة تتابع الأحداث، والذهول الذي أصاب القوم، وكثرة قتلى المشركين الذين خلفوا وراءهم من النساء و الذراري أعداداً هائلة.

ثم بعد ذلك انطلق المسلمون في بلاد فارس وساحوا فيها، ولم تشر المصادر إلى سبي ذي بال إلا عندما حاصروا مدينة تُسْتَر ومكثوا سنة أو أكثر في ذلك الحصار حتى اقتحموها عنوة، فقتلوا وسبوا، وطلبَ الهرمزان[٢٨٤] -

---

(٢٧٤) القعقاع بن عمرو التميمي فارس شجاع مشهور وشاعر فحل، شارك في فتوح العراق والشام، يقال إن له صحبة ، مات سنة ٤٠ تقريباً. الإصابة ٢٣٩/٣.

(٢٧٥) تاريخ الطبري ٢٨/٤، غزوات ابن حبيش ٢٧٦/٢، ٢٨٢.

(٢٧٦) تاريخ الطبري ٢٧/٤، الدينوري ، أحمد بن داود ، أبو حنيفة (ت ٢٨٢هـ)، الأخبار الطوال (تحقيق: عبد المنعم عامر، مكتبة المثنى، بغداد "د.ت") ص ١٢٨.

(٢٧٧) تاريخ الطبري ٢٩/٤، غزوات ابن حبيش ٢٧٦/٢.

(٢٧٨) غزوات ابن حبيش ٢٣٧/٢. الشعبي هو عامر بن شراحيل الشعبي محدث فقيه مشهور، سيأتي المزيد عنه بإذن الله.

(٢٧٩) ابن الزبير، القاضي الرشيد (القرن الخامس)، الذخائر والتحف (تحقيق: محمد حميد الله، الطبعة الثانية، وزارة الإعلام في الكويت، الكويت ١٩٨٤م) ص ١٥٨.

(٢٨٠) هو محمد بن خالد الهاشمي في كتابه الفتوح، عن ابن حبيش ٢٣٧/٢.

(٢٨١) غزوات ابن حبيش ٢٣٧/٢.

(٢٨٢) المصدر السابق نفسه.

(٢٨٣) المصدر السابق ٢٣٥/٢.

(٢٨٤) الهرمزان المهرجاني: كان من أحد البيوت السبعة في أهل فارس، له ملك الأهواز وما حولها، قاتل المسلمين إلى أن هزم وحمل =

وكان قد التجأ إليها - الأمان والنزول على حكم عمر فأعطي ذلك، وأوفد إلى المدينة(٢٨٥). وجعل أبو موسى أحد عشر رجلاً من جند المسلمين يحفظون السبي قبل قسمته، وأمر القائم على القسمة أن لا يفرق بين المرأة وولدها، ثم فضَّله برأس من السبي بعد أن أنجز عمله(٢٨٦).

ثم كانت بعد ذلك معركة نهاوند(٢٨٧) وهي من المعارك الحاسمة في حروب المسلمين مع الفرس، بل كانت قاصمة الظهر بالنسبة لهم، فسبى منها المسلمون سبياً كثيراً من النساء والأطفال(٢٨٨).

واجتمع في بيروذ(٢٨٩) جموع من الفرس والأكراد فتصدى لهم أبو موسى الأشعري ﷺ، لكنه ذهب ممداً لبعض جيوش المسلمين فأسند قيادة الجيش للربيع بن زياد(٢٩٠)، فهزمهم الله تعالى، ثم عاد أبو موسى وقد تم الفتح، وأخذ ما كان معهم من السبي فتنقى منهم ستين غلاماً من أبناء الدهاقين(٢٩١) وعزلهم، والسبب في ذلك أن هؤلاء الأبناء يُفادَون بأقيام عالية من قبل ذويهم، فيكون ذلك أنفع للمسلمين من أعيانهم، ففاداهم أبو موسى، وقسم ذلك بين المسلمين(٢٩٢). ثم كان من آخر اللقاءات في هذه الجبهة في زمن الفاروق لقاء سلمة بن قيس الأشجعي(٢٩٣) مع جموع من المشركين الأكراد، فنصر الله تعالى المسلمين عليهم، فقتلوا المقاتلة وسبوا الذرية(٢٩٤).

أما أذربيجان(٢٩٥) شمال بلاد الجزيرة فإنها لما فتحت أول مرة كان ذلك عنوة بعد قتال شديد، فسُبي منها سبيٌ كثير، سمى ابنُ خياط بعضَ مَن ينسبُ مِن السبي إليها(٢٩٦).

= إلى المدينة فأسلم وعفا عنه عمر وسماه عرفطة قتل سنة ٢٣هـ .ابن قتيبة، محمد بن عبد الله بن مسلم، أبو محمد (ت ٢٧٦هـ)، المعارف (تحقيق: ثروت عكاشة، الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨١م) ص ٤٢١، تاريخ الطبري ٥٧٠/٣، ٧٢/٤، ٢٤٣.

(٢٨٥) تاريخ الطبري ٨٦/٤.

(٢٨٦) تاريخ خليفة ص ١١٩.

(٢٨٧) نهاوند: مدينة إقليم الجبال (عراق العجم) جنوبي همذان انتصر فيها المسلمون على الفرس.معجم البلدان ٣١٣/٥.

(٢٨٨) البداية والنهاية ١١٢/٧.

(٢٨٩) ناحية بين الأهواز ومدينة الطيب.معجم البلدان ٥٢٦/١.

(٢٩٠) الربيع بن زياد بن أنس الحارثي، له صحبة، من الأمراء الشجعان الفاتحين، ولاه النبي ﷺ البحرين، وله أخبار مع عمر ﷺ، مات سنة = ٥٢هـ. **الصفدي**، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ) الوافي بالوفيات (حققه مجموعة من الكتاب، دار النشر: فرانز شتاينر بفيسبادن) ٧٩/١٤.

(٢٩١) جمع دُهقَان ، رئيس القرية أو الإقليم، فارسي معرب، ويعني القوي على التصرف مع شِدَة. المعرَّب ص ١٤٦، المعجم الوسيط ٣٠٠/١.

(٢٩٢) تاريخ الطبري ١٨٣/٤-١٨٥.

(٢٩٣) سلمة بن قيس الأشجعي الغطفاني، له صحبة، سكن الكوفة، واستعمله عمر ﷺ على بعض مغازيه. الوافي بالوفيات ٣١٨/١٥، تهذيب التهذيب ١٥٤/٤.

(٢٩٤) تاريخ الطبري ١٨٧/٤.

(٢٩٥) أذَربيجان: إقليم واسع غرب بحر الخزر، دخله المسلمون فاتحين أكثر من مرة.

(٢٩٦) تاريخ خليفة ص ١٢٥.

بلاد الشام ومصر وإفريقية:

بعد المعارك الأولى الحاسمة في بداية فتح المسلمين لبلاد الشام كاليرموك وأجنادين[٢٩٧] وفِحل[٢٩٨] دخلت معظم بلاد الشام في طاعة المسلمين صلحاً إما مباشرة، وإما بعد قتال، ولذلك كان يجري عليهم نظام الجزية. وحتى المعارك الأولى المشار إليها آنفاً لم تورد المصادر شيئاً عن ما حصل فيها من السبي. أما أعظم سبي حازه المسلمون فيما ذكر في بلاد الشام فهو سبي مدينة قيسارية [٢٩٩] التي افتتحها معاوية بن أبي سفيان ﷺ عنوة، فقد بلغ أربعة آلاف رأس، فبعث بهم معاوية إلى الخليفة عمر ﷺ فأنزلهم بالجُرف شمال المدينة، ثم قسمهم بين المسلمين، وعلى يتامى الأنصار خاصة،وكان في قيسارية حين فتحت خَلقٌ من العرب، ومنهم شقراء التي كان يذكرها حسان بن ثابت[٣٠٠] في شعره قبل الإسلام[٣٠١].

أما مصر فقد دانت لعمرو بن العاص ﷺ إلا بعض قرى كان أهلها أعواناً للروم على المسلمين فلما افتتحها عمرو سبى أهلها وحملهم إلى المدينة[٣٠٢].

وسبى من أطرابلس الغرب لما افتتحها[٣٠٣]، ولما صالح عمر أهل أنطابلس على الجزية شرط لهم أن يبيعوا من أحبوا من أبنائهم في جزيتهم[٣٠٤].

<u>السبي في عهد عثمان وعلي رضي الله عنهما:</u>

على الرغم من أن معظم بلاد فارس وما جاورها دانت للمسلمين في زمن الفاروق ﷺ

---

(٢٩٧) أجنادين: بلد بين الرملة وبيت جيرون من أرض فلسطين. تاريخ الطبري ٤١٧/٣.

(٢٩٨) فِحْل: لم يحدده ياقوت أو البكري في موقع، وإنما اكتفيا بقول: موضع بالشام كانت فيه وقعة المسلمين مع الروم، لكن البلاذري يقول: إنه من الأردن فتوح البلدان ص ١٢٢، معجم البلدان ٢٣٧/٤، والبكري، عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي، أبو عبيد (ت ٤٨٧هـ)، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع (تحقيق: مصطفى السقا،الطبعة الثالثة، عالم الكتب، بيروت ١٤٠٣هـ) ١٠١٤/٣.

(٢٩٩) قيسارية: بلد على ساحل بحر الشام من أعمال فلسطين معجم البلدان ٤٢١/٤.

(٣٠٠) حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي، أبو الوليد الأنصاري، الصحابي شاعر النبي ﷺ وأشعر أهل المدر، مخضرم عاش ستين سنة في الجاهلية ومثلها في الإسلام، مات سنة = ٥٤هـ. الأغاني ١٣٨/٤، تهذيب التهذيب ٢٤٧/٢، الإصابة ٣٢٦/١.

(٣٠١) فتوح البلدان ص ١٤٧، وتاريخ دمشق ٤١٧/١٢-٤١٨. ومما قال فيها:

ما حِلتُ عن عهدِ ما علمت ولا
أحببتُ حبي إياك من أحد
تقولُ شَقرَاءُ لو صَحَيْتُ عن
الخَمْرِ لأصبَحتُ مُثْرِي العَدد

(٣٠٢) تاريخ دمشق ١١٦/٣٦، معجم البلدان ٤٩٢/١.

(٣٠٣) ذكر ابن عساكر بعض من أصيب فيها من السبي، تاريخ دمشق ٤١٠/٣٧، أطرابلس الغرب: مدينة في آخر أرض برقة وأول إفريقية فتحت سنة ٢٣. معجم البلدان ٢١٧/١.

(٣٠٤) تاريخ خليفة ص ١١٦، أنطابلس: من بلاد برقة بين إفريقية ومصر ، المصدر السابق نفسه.

إلا أن الجيوش الإسلامية الفاتحة اضطرت إلى العودة إلى كثير منها لإعادة فتحها بسبب انتقاض أهلها وغدرهم بالمسلمين، وذلك فيما يظهر بسبب قرب العهد بدولهم التي ثُلت عروشها، وبسبب جهلهم بالإسلام وعدم وقوفهم عن كثب على محاسنه، وجرت في هذه الحروب الأحكام التي جرت في الحروب الأولى من القتل والسبي وغيره. هذا بالإضافة إلى فتوحات جديدة تمت في عهد عثمان خاصة.

كان من أوائل ما فتح في هذه الفترة مدينة هَمَذان(٣٠٥)، وقد ألمح ابن خياط إلى بعض من ينتسب إليها من السبي(٣٠٦).

وأعيد فتح بلاد أذربيجان حيث انتقضت في أول عهد عثمان فغزيت هي وإرمينية(٣٠٧) فأصاب المسلمون فيهما سبياً(٣٠٨)، وبخاصة إرمينية، قال ابن حبيش عنها: أصاب الناس فيها ما شاءوا من سبي(٣٠٩). وغزا سلمان بن ربيعة الباهلي(٣١٠) بَرْذَعة(٣١١) فقتل منهم وسبى، وأصاب من بَلَنْجَر سبياً(٣١٢).

وانتقض أهل الإسكندرية على عمرو بن العاص فغزاهم وسباهم، لكن عثمان ردَّ السبي إلى ذمتهم(٣١٣).

وفي كورة سابور(٣١٤) افتتح المسلمون فتحاً جديداً؛ عدة قلاع عنوة فسبوا أهلها؛ مثل قلعة بَحْرَة التي تسمى قلعة الشيوخ، وقلعة الرهبان عندما غدر أهلها بالمسلمين، وقتلوا منهم بعدما صالحوهم، فقتِلت مقاتلتهم وسبيت ذراريهم(٣١٥).

ولما آلت ولاية مصر إلى عبد الله بن سعد ابن أبي السرح(٣١٦) غزا إفريقية، فلقي

---

(٣٠٥) هَمَذان: مدينة بفارس من أكبر مدن الجبال، معجم البلدان ٤١٠/٥.

(٣٠٦) تاريخ خليفة ص ١٣١.

(٣٠٧) إرْمينية: إقليم يضم بلاداً كثيرة غرب أذربيجان، معجم ما استعجم ١٤١/١.

(٣٠٨) تاريخ الطبري ٢٤٦/٤-٢٤٧.

(٣٠٩) غزوات ابن حبيش ٤٠٥/٢.

(٣١٠) سلمان بن ربيعة بن يزيد الباهلي، يقال له صحبة، وهو من القضاة والقادة الفاتحين، استشهد في إرمينية سنة ٣٠هـ. طبقات ابن سعد ١٣١/٦، تهذيب التهذيب ١٣٦/٤، الإصابة ٦١/٢.

(٣١١) بَرْذَعة: في أقصى بلاد أذربيجان، ومعناها بالفارسية موضع السبي، وذلك أن أحد ملوك الفرس سبى سبياً من وراء إرمينية فأنزلها بها، معجم البلدان ٣٧٩/١.

(٣١٢) تاريخ دمشق ٤٧/٩، بَلَنْجَر: مدينة ببلاد الخزر خلف باب الأبواب، معجم البلدان ٤٨٩/١.

(٣١٣) تاريخ خليفة ص ١٣٣، والوافي بالوفيات ١٩٢/١٧.

(٣١٤) سابور: كورة مشهورة بأرض فارس، وبها مدينة بهذا الاسم أيضا، معجم البلدان ١٦٧/٣.

(٣١٥) تاريخ خليفة ص ١٣٣-١٣٤.

(٣١٦) عبد الله بن سعد بن أبي السرح القرشي، العامري، فارس من أبطال الصحابة، كانت له غزوات في إفريقيا في البر والبحر، وفاته سنة ٣٦ أو ٣٧ هـ. الوافي بالوفيات ١٩١/١٧، دول الإسلام ص ٣١.

جُرْجير[٣١٧] وهو في جموع كبيرة فقتل جرجير وسبى المسلمون وغنموا غنائم مجزية في تلك المعركة[٣١٨].

وأصاب عبدالله بن عامر بن كريز[٣١٩] من أصْبَهان[٣٢٠] لما افتتحها سبياً نجد له ذكراً في المصادر بسبب اشتغال بعضهم بالعلم أو بَنِيهم[٣٢١]، ومثل ذلك أصيب من إصطخر[٣٢٢].

ثم وجه ابنُ عامر الربيعَ بن زياد الحارثي إلى سجستان فافتتح مدناً وقرى وأخذ منها سبياً كثيراً جداً. يذكر البلاذري أن مدة ولاية الربيع على سجستان وفتوحه فيها استغرقت سنتين ونصفاً، سَبى في هذه المدة أربعين ألف رأس[٣٢٣]، وقد يستكثر هذا العدد أو يظن أن فيه شيئاً من المبالغة، لكن هذا لا ينفي أن أعداد السبي كانت كبيرة بدليل أنه في إحدى حالات الصلح مع بعض المدن اتفق على أن يقدم أهل البلد ألف وصيف مع كل وصيف جام – أي إناء – من ذهب[٣٢٤]. فإذا كان هذا في حالة الصلح، ففي حالات الحرب لا شك أنه ترتفع أرقام السبي إلى أكثر من هذا بكثير، مع الأخذ في الاعتبار طول مدة الفتح، وكثرة المعارك. وينسب إلى سبي سجستان عدد من أهل العلم[٣٢٥].

---

(٣١٧) جُرْجير: كان والياً لهرقل على بعض بلاد إفريقيا والمغرب ما بين أطرابلس إلى طنجة، فخلع هرقل وملك البلاد وسك العملة. ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله، أبو القاسم (ت ٢٥٧هـ)، فتوح مصر وأخبارها (طبعة ليدن ١٩٢٠م) ص ١٨٣.

(٣١٨) تاريخ خليفة ص ١٣٤-١٣٥، فتوح مصر ص ١٨٣-١٨٤.

(٣١٩) عبد الله بن عامر بن ربيعة بن كريز، أبو عبد الرحمن الأموي، شجاع سخي، تولى البصرة في زمن عثمان ﷺ كانت له فتوحات عظيمة بالمشرق، مات سنة ٥٩ هـ. الوافي بالوفيات ٢٢٩/١٧، تاريخ الإسلام (٤١-٦٠) تاريخ الإسلام (تحقيق: عبد السلام تدمري، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، بيروت) ص ٢٥٧.

(٣٢٠) أصْبَهان (أصفهان): إقليم واسع في وسط فارس، واسم للمدينة أيضاً، معجم البلدان ٢٠٦/١.

(٣٢١) تاريخ خليفة ص ١٣٨، **الأصبهاني**، أحمد ابن عبد الله، أبو نعيم (ت ٤٣٠ هـ)، مسند أبي حنيفة (تحقيق نظر محمد الفاريابي، = الطبعة الأولى، مكتبة الكوثر، الرياض ١٤١٥ هـ) ٧٤/٢، ابن حيان، عبد الله بن محمد بن جعفر الأنصاري، أبو محمد (ت ٣٦٩ هـ)، طبقات المحدثين بأصبهان (تحقيق: عبد الغفور البلوشي، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤١٢هـ) ٤٠٦/١، ٣٣٦، ٣٣٥، تاريخ الطبري ٢٥٩/٥، ٢٦٤.

(٣٢٢) تاريخ خليفة ص ١٣٧، الشيرازي، إبراهيم ابن علي بن يوسف، أبو إسحاق (ت ٤٧٦هـ)، طبقات الفقهاء (تحقيق: خليل الميس، دار القلم، بيروت "د. ت") ٧٢/٢، تاريخ دمشق ٢٢٧/٥٧، سير أعلام النبلاء ٤٧٩/٨، إصْطَخْر: مدينة بفارس من أقدم مدنها وأشهرها، كان بها مسكن ملوك الفرس، معجم البلدان ٢١١/١.

(٣٢٣) فتوح البلدان ص ٣٨٦.

(٣٢٤) المصدر السابق نفسه.

(٣٢٥) تاريخ خليفة ص ١٤٠، ابن عبد البر، التمهيد ١٦٧/٢، تاريخ دمشق ٣١٦/٢٧، سير أعلام النبلاء ٤٥٦/٧-٤٥٧.

وهُزم قارن[٣٢٦] الذي جمع الجموع من باذغيس وهَراة[٣٢٧] لحرب المسلمين على يد عبدالله بن خازم السلمي[٣٢٨]، بل قُتل وشُرد أصحابُه، وأصاب المسلمون في إثر هذه المعركة سبياً كثيراً، ذكر ابن خياط أسماء بعض السبايا التي تنسب إليها[٣٢٩].

وحين انتقض أهل قبرص[٣٣٠] غزاهم معاوية رضي الله عنه فقتل وسبى[٣٣١].

وفي السنوات الأخيرة من ولاية ابن أبي السرح لمصر غزا النوبة فهادنوه على أن يدفعوا كل سنة ثلاثمائة وستين رأساً من السبي[٣٣٢]، وقد ذكر العلماء أنه يجوز للمسلمين الفاتحين أن يصالحوا أهل البلاد على رؤوس معلومة من السبي[٣٣٣]، قال الليث بن سعد[٣٣٤]: فإن باعوا نساءهم وأبناءهم لم أر بذلك بأساً أن يشترى[٣٣٥].

هذه أبرز الفتوحات في زمن عثمان التي ورد أن المسلمين حصلوا على شيء من السبي فيها، وهي ممتدة تقريباً في الفترة ما بين سنتي ٢٤ إلى ٣٤ هجرية وهي السنة التي ابتدأت الفتنة تطل برأسها على الأمة الإسلامية، فصُرفت عندئذ همة المسلمين عن الفتوحات، وأصيبت الأمة في ذاتها.

وامتدت الأزمة إلى زمن علي بن أبي طالب رضي الله عنه فلم تكن هناك فتوح؛ اللهم إلا إعادة إخضاع لما ينتقض من بعض البلاد. ولكن في سنة ٣٦ هجرية غزا الحارث بن مرة العبدي[٣٣٦] بلاد السند، فتوغل فيها، وأصاب منها سبايا كثيرة حتى إنه قسم في يوم واحد ألف رأس، لكنه أصيب هو وجيشه في جبال القيقان[٣٣٧].

****

(٣٢٦) قارن: أحد أشراف الفرس وقادتهم الكبار، قاتل المسلمين في القادسية ثم هرب وجمع الجموع لحرب المسلمين، فقتل سنة ٣٢ أو ٣٣ هـ، تاريخ خليفة ص ١٤٣-١٤٤، تاريخ الطبري ٥٧٠/٣، ٣١٥/٤.

(٣٢٧) باذغيس: ناحية تشتمل على قرى من أعمال هراة ومرو الروذ في فارس معجم البلدان ٣١٨/١، وهَراة: مدينة بفارس قرب إصطخر، معجم البلدان ٣٩٧/٥.

(٣٢٨) عبد الله بن خازم بن أسماء السلمي، أبو صالح البصري، قيل له صحبة، كان شجاعاً شارك في الفتوحات، توفي سنة ٧٢ هـ، المحبر ص ٢٢١، تهذيب التهذيب ١٩٤/٥.

(٣٢٩) تاريخ خليفة ص ١٤٤، تاريخ الطبري ٣١٥/٤، تاريخ دمشق ١٣/٢٨-١٤، كامل ابن الأثير ٦٨/٣.

(٣٣٠) قُبرص: جزيرة معروفة في بحر الروم، غربي بلاد الشام، معجم البلدان ٣٠٥/٤.

(٣٣١) فتوح البلدان ص ١٥٨.

(٣٣٢) فتوح مصر ص ١٨٨.

(٣٣٣) مصنف ابن أبي شيبة ٥٣٨/٦.

(٣٣٤) الليث بن سعد، أبو الحارث الأصبهاني الفهمي إمام أهل مصر في زمانه، سيأتي مزيد من الحديث عنه بإذن الله تعالى.

(٣٣٥) فتوح البلدان ص ٢٣٩.

(٣٣٦) الحارث بن مرة العبدي، قائد تقدم للجهاد متطوعاً بإذن علي رضي الله عنه في بلاد السند، وكانت له انتصارات وسبي، قتل في إحدى معاركه سنة ٤٢ هـ، فتوح البلدان ص ٤٢١.

(٣٣٧) تاريخ خليفة ص ١٧٣، فتوح البلدان ص ٤٢١.

ذلك أهم ما ألمحت إليه المصادر في حديثها عن الفتوحات من سبي في الفترة المحددة في البحث، ولكني أستطيع القول جازماً أنه لم يذكر كل شيء عن السبي فيها، بل أغفلت الإشارة إلى حالات كثيرة جداً، لأنه لم يكن من أهداف تلك المصنفات تتبع ظاهرة السبي، والتفصيل في شأنها عند كل فتح من الفتوح، وإلا هل يتصور مثلاً أنه لم يحصل سبي في بلاد فارس إلا من البلاد التي سبقت الإشارة إليها في هذا البحث، مع أن مدنها وقراها التي فتحت عنوة تعد بالمئات، وتكرر فتح بعضها أكثر من مرة.

ولم نر أي إشارة ذات قيمة عن حصول سبي من المعارك التي خاضها المسلمون في الشام إلا في قيسارية، فهل يعقل أنه لم يقع سبي في تلك الحروب البتة ؟! إلا أن هنا أمراً لا بد من تقريره قد يزيل هذا الاستغراب، وهو أن الشام لم تكن كبلاد فارس والمشرق في اتساعها وكثرة مدنها وقراها ورساتيقها، وأمر آخر وهو أن أكثر بلاد الشام كان دخول المسلمين إليها صلحاً، وإذا كان الصلح فليس ثمة سبي إلا ما كان داخلاً في شروط الاتفاق.

السبايا من بنات الملوك و الأشراف

لنا وقفة هنا عند صنف آخر من السبايا لا يختلف عما سبق إلا بكون هؤلاء المسبيات ينتمين إلى أصحاب سلطان أو جاه أو نفوذ في بلادهن أو في أقوامهن، و أفردته بالحديث هنا لأبين أن الله سبحانه وتعالى إذا سخط على أمة من الأمم ورفع يده عنها لم يبال بها بأي واد هلكت، وسلط عليها من يساوي في أهلها بين الشريف والوضيع والرئيس والمرؤوس. وقد كان صحابة رسول الله ﷺ مدركين لهذه السنن الربانية التي شاهدوها في فتوحاتهم واقعاً ملموساً، معتبرين بما يجري على أولئك المحادين لله تعالى من الذل والهوان. فمثلاً هذا أبو الدرداء ﷺ (٣٣٨) ينعزل في زاوية يبكي عندما فتح الله على المسلمين جزيرة قبرص، وحيزت السبايا من النساء والذراري، فيسأله جبير بن نفير الكندي(٣٣٩) عن بكائه في وقت هو أقرب إلى الاستبشار والفرح، فيبين له أن الناس إذا تركوا أمر الله تعالى هانوا عليه مهما كان علوهم وسلطانهم، فيسلط عليهم السباء وإذا سُلّط على قوم السباء فليس لله عز وجل فيهم حاجة(٣٤٠).

---

(٣٣٨) عويمر بن مالك بن قيس الأنصاري الخزرجي، أبو الدرداء، صحابي من الحكماء الفرسان القضاة، جمع القرآن الكريم حفظاً في زمن الرسول ﷺ. حلية الأولياء (دار الكتب العلمية، بيروت "دبت") ٢٠٨/١، الإصابة ٣/ ٤٥.

(٣٣٩) لم أعثر له على ترجمة.

(٣٤٠) تاريخ الطبري ٢٦٢/٤، غزوات ابن حبيش ٢٦٤/١-٢٦٥.

والآن سأعرض نماذج من سبايا هذه الفئة:

من دلائل نبوة الرسول ﷺ أنه حدث أصحابه عن بعض ما سيقع في مستقبل الزمان، ومن ذلك أنه أخبر عن فتح المسلمين لمملكة الحيرة العربية الواقعة على التخوم الفارسية، وأن بها حينئذ الشيماء بنت بقيلة الأزدية(٣٤١)، فاستوهبها إياه رجل من الصحابة يقال له خريم بن أوس(٣٤٢)، فوهبها إياه، فلما فتح خالد ابن الوليد الحيرة وصالحهم استثناها لهذا الصحابي، الذي لم يلبث أن زهد فيها لما رآها عجوزاً قد تغيرت، فباعها بثمن بخس(٣٤٣).

فهذه الشيماء الأزدية أميرة عربية تستثنى في الصلح لتكون سبيَّة لرجل من الصحابة أمي لا يدري أن هناك عدداً يزيد على ألف كما تذكر الروايات(٣٤٤) !!

وأميرة عربية أخرى هي ليلى بنت الجودي بن عدي بن عمرو الغساني، ابنة ملك دمشق(٣٤٥)، كانت مُنعَّمة مدللة غاية التدليل(٣٤٦)، فاستدار بها الزمان فوقعت سبية للمسلمين بيد عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ﷺ(٣٤٧)، وكان عبد الرحمن قد رآها في سفر له إلى الشام في الجاهلية أو أول الإسلام، وكان حولها ولائد فشغف بها وقال فيها شعراً(٣٤٨)، فلما فتح المسلمون دمشق نقَّلها إياه عمر بن الخطاب ﷺ(٣٤٩). ومما

(٣٤١) عند الطبري اسمها كرامة بدلاً من الشيماء، وأبوها عبد المسيح، وأخوها عمرو بن عبد المسيح، وبقيلة لقب جدها الحارث ٣٦٤/٣-٣٦٦، لكن اسمها الوارد في البحث أدق لأنه جاء في رواية صحيحة عند الهيثمي، وأن أخاها عبد المسيح، مجمع الزوائد ٢٢٣/٦.

(٣٤٢) خريم بن أوس بن حارثة الطائي صحابي وفد على النبي ﷺ منصرفه من تبوك فأسلم. تجريد أسماء الصحابة ١٥٨/١، الإصابة ٤٢٤/١، وانظر فتوح البلدان ص ٢٤٥، وعند الطبري اسمه شويل ٣٦٤/٣-٣٦٦. والذي جعل خريماً يستوهبها من الرسول أن كان قد رآها في الجاهلية، فأعجبته، فلما ذكرها الرسول لقنه عدي بن حاتم مسألتها، تاريخ الطبري ٦٦/٣.

(٣٤٣) تاريخ الطبري ٣٦١/٣-٣٦٦، وغزوات ابن حبيش ٣٨/٢، و مجمع الزوائد ٢٢٢/٦-٢٢٣.

(٣٤٤) تاريخ الطبري ٣٦٦/٣، غزوات ابن حبيش ٢٨/٢.

(٣٤٥) تاريخ دمشق ٣٤/٣٥، ٦٠/٧٠، وعند الطبري أنه الجودي بن ربيعة أحد زعيمي دومة الجندل ٣٧٨/٣.

(٣٤٦) الأغاني ٢٧٥/١٧، تاريخ دمشق ٥٩/٧٠.

(٣٤٧) عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي قحافة القرشي التيمي، أمه أم رومان، شهد بدراً مع المشركين، ثم أسلم في هدنة الحديبية، ومن خلاله أنه لم يؤثر عنه كذبة قط، مات سنة ٥٣هـ. الأغاني ٢٧١/١٧ وما بعدها، تاريخ دمشق ٢٤/٣٥ وما بعدها.

(٣٤٨) تاريخ دمشق ٣٤/٣٥، و الأغاني ٢٧٣/١٧، ومما قال فيها:

تذكرتُ ليلى والسماوةُ دونَها
وما لابنةِ الجوديِّ ليلى ومَا ليا
وأنّي تُعاطي قلبُه حارثية
تحلُّ ببُصرى أو تحلُّ الجوَابيا
وكيف يلاقيها بلى ولعلّها
إذا الناسُ حَجّوا قابلاً أن تُلاقيا

(٣٤٩) تاريخ دمشق ٦٠/٧٠، وقيل إن أبا بكر هو الذي نفله إياها بعد استطابة أنفس من كان معه، المصدر نفسه ٥٧/٧٠، فتكون والحالتئذ من سبي خالد في دومة الجندل، وقيل إن خالدا اشتراها من السبي، تاريخ الطبري ٣٧٩/٣.

يلفت النظر في قصة عبد الرحمن معها[٣٥٠] أنه إذا خرج من عندها ثم رجع إليها رأى في عينيها أثر البكاء، فيسألها عن سبب ذلك، ثم يُخَيِّرها بخصال لإكرامها، فلا تختار، ثم تقول: "أبكي للملك من يوم البؤس"[٣٥١]. أجل تبكي للملك الذي ضيعه أهلها بعداوة الإسلام وجمع الجموع لحربه وإيقاف تقدمه، فآل بها ذلك إلى هذا المصير.

وفي فتوح المسلمين في ديار بن تغلب عند الثَّنيّ والزُّمَيْل أخذوا سبايا من بنات أشراف تغلب وبني نمير، فبُعث بهن مع الأخماس إلى المدينة، وكان منهن أروى بنت مؤذن النمري، وليلى بنت خالد، وريحانة بنت الهذيل بن هبيرة[٣٥٢]، وهن اللاتي يقول فيهن أبو مفزِّر من قصيدة له:

وليلى قد سَبيناها جهاراً
وأروى بنت مؤذن في ضروب
وريحان الهذيل قد اصطفينا
وقلنا دونكم عنق الذنوب[٣٥٣]

وكان منهن الصهباء بنت ربيعة بن بجير التغلبي وتكنى بأم حبيب، اشتراها علي بن أبي طالب ﷺ من ذلك السبي الذي قدم المدينة، فأنجبت له عمر بن علي ورقية[٣٥٤].

وسبى المسلمون قبل موقعة القادسية أخت مَرْزُبان[٣٥٥] الحيرة، وهي في طريقها مزفوفة إلى صاحب الصَّنّين[٣٥٦] - وهم من أشراف العجم - فأخِذت ومعها ثلاثون امرأة من الدهاقين ومائة من التوابع، فقسم سعد ذلك على المسلمين، ونقل الخمس[٣٥٧].

ويروي ابن عبد البر أن أم عثمان بن عبد الرحمن بن عوف هي غزال[٣٥٨] بنت كسرى، من سبي سعد بن أبي وقاص يوم المدائن[٣٥٩]. لكن يضعف هذه الرواية أن كسرى أخرج عياله إلى حلوان قبل حلول المسلمين بالمدائن، ثم لحق بهم مع حاشيته[٣٦٠]. فكيف تكون أخذت من المدائن؟!

وفي رواية للطبري عن ابن إسحاق أن المسلمين أصابوا في جلولاء ابنة لكسرى يقال

(٣٥٠) للتفصيل انظر: تاريخ دمشق ٣٤/٣٥.
(٣٥١) المصدر السابق ٥٩/٧٠، الأغاني ٢٧٥/١٧.
(٣٥٢) تاريخ الطبري ٣٨٣/٣.
(٣٥٣) الذَّنُوب: الفَرَسُ الوافرة الذَّنَب، غزوات ابن حبيش ٦١/٢.
(٣٥٤) تاريخ الطبري ٣٨٢/٣-٣٨٣، تاريخ دمشق ٣٠٥/٤٥.
(٣٥٥) المَرْزُبان: الرئيس من الفرس، جمعه: مَرَازِبَة، ومعناه حافظ الحدّ. المعرَّب ص ٣١٧.
(٣٥٦) الصَّنّين: بلد كان بظاهر الكوفة معجم البلدان ٤٣١/٣.
(٣٥٧) تاريخ الطبري ٤٩٣/٣-٤٩٤، غزوات ابن حبيش ١٢٣/٢-١٢٤.
(٣٥٨) سيأتي في بعض الروايات أن أم علي بن الحسين (غزالة).
(٣٥٩) الاستيعاب ٨٤٦/٨.
(٣٦٠) تاريخ الطبري ١٣/٤-١٤.

لها: منجانة، ويقال ابنة ابنه[٣٦١]، ويَرِدُ على هذه الرواية التعليل الذي أورد على سابقتها !.

ويمكن أن نقبل رواية عن الشعبي أن المسلمين أخذوا يوم المدائن مجموعة من جواري كسرى، وكنَّ قد جُلبن إليه من الآفاق، فكنَّ يتصنعنَّ له، ولاسيما أنه يذكر أن أمه كانت إحداهن[٣٦٢] فهو قريب من الحدث، إضافة إلى أن جواري كسرى كان عددهن كبيراً جداً فيُحتمل بقاء بعضهن.

وقد ذكر الزمخشري في كتابه ربيع الأبرار أن الصحابة لما أتوا المدينة بسبي فارس في خلافة عمر ﷺ كان فيه ثلاث بنات ليزدجرد – آخر ملوك الفرس - فباعوا السبايا، وأمر عمر ببيع بنات يزدجرد أيضاً، ورأى علي بن أبي طالب ﷺ أن بنات الملوك لا يعاملن معاملة غيرهن من بنات السُّوقَة ! واقترح أن يُقوَّمْن، ومهما بلغ ثمنهن قام به من يختارهن، فقومن، فأخذهن علي بن أبي طالب، فدفع واحدة لعبد الله بن عمر، وأخرى لولده الحسين، والثالثة لمحمد بن أبي بكر، فأولد عبدالله ولدَه سالماً[٣٦٣]، وأولد الحسينُ ولدَه زين العابدين[٣٦٤]، وأولد محمدٌ ولده القاسم[٣٦٥].

وحقيقة، يخالج النفس شيء من الشك إزاء هذه الرواية، فهي مع أنه لم يذكر فيها من أين أخذن ؟! – فقد يَرِدُ احتمال أنهن أخذن بعد ما تشتت أمر يزدجرد غِبَّ ملاحقة المسلمين له وتشرده في الديار، ولاسيما أن المسعودي ذكر أنه خلّف ثلاث بنات، هن: أدْرك، وشَهْربَانو، ومَرْدَوَنْد[٣٦٦] - ولكن يلفت النظر ذلك

(٣٦١) المصدر السابق ٥٧٨/٣.
(٣٦٢) فتوح البلدان ص ٢٦٣.
(٣٦٣) سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي، أحد فقهاء المدينة السبعة، كان ثقة ثبتاً كثير الحديث، ورعاً عابداً فاضلاً، يشبه أباه في الهدى والسمت، مات سنة ١٠٦هـ. طبقات ابن سعد ١٩٥/٥، ابن الجوزي، صفة الصفوة (تحقيق: محمود فاخوري، الطبعة الأولى، دار الوعي، حلب ١٣٨٩هـ) ٩٠/٢ تاريخ الإسلام (١٠١-١٢٠) ص ٨٨، دول الإسلام ص ٧٥، تقريب التهذيب ٣٦٠.
(٣٦٤) علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أبو الحسن الملقب بزين العابدين، ثقة ثبت، عابد يقال له ذو الثفنات، صاحب صدقة في السر، ليس للحسين ولد إلا منه، مات سنة ٩٤هـ. طبقات ابن سعد ٢١١/٥، صفة الصفوة ٩٣/٢، المعارف ص ٢١٤، ابن خلكان، أحمد بن محمد بن أبي بكر،أبو العباس (ت ٦٨١ هـ)،= وفيات الأعيان (تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت (د.ت)) ٢٦٦/٣، البداية والنهاية ١٠٣/٩، تقريب التهذيب ص ٦٩٣.
(٣٦٥) الزمخشري، جار الله محمود بن عمر (ت ٥٣٨ هـ)، ربيع الأبرار ونصوص الأخبار (تحقيق: سليم النعيمي (د.ن، د.ت)) ٣/ ١٨-١٩، القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق التيمي، أحد الفقهاء السبعة، كان فاضلاً خيّراً ثقة من كبار التابعين عمي في أواخر أيامه، توفي بقديد بين مكة والمدينة في سنة ١٠٦هـ. طبقات ابن سعد ١٨٧/٥، صفة الصفوة ٨٨/٢، تاريخ الإسلام (١٠١-١٢٠) ص ٢١٧، البداية والنهاية ٢٥٠/٩، تقريب التهذيب ص ٧٩٤.
(٣٦٦) المسعودي، علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ)، مروج الذهب ومعادن الجوهر (تحقيق: شارل بلا، الطبعة الأولى، الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٧٩ م) ٣٢٧/١.

التوافق الغريب وهو إنجاب هؤلاء الثلاث أولئك الأعلام الكبار، فكأنه شيء مقصود ! وأمر آخر وهو أن صاحب نسب قريش ذكر أن هؤلاء الرجال لأمهات أولاد[٣٦٧]، ولم يسمِّهن، وابن سعد في الطبقات لم يُسمِّ أم سالم[٣٦٨]، وذكر اسمين عربيين لأم القاسم (سودة)[٣٦٩] وأم علي بن الحسين (غزالة)[٣٧٠]. لكن المبرّد يؤكد أن أم علي بن الحسين بالذات اسمها (سلافة) من ولد يزدجرد، وقال: معروفة النسب، ومن خيرات النساء[٣٧١]. ويتابعه على ذلك ابن خلكان[٣٧٢]. وذكر المبرد أنها عمة أم يزيد الناقص[٣٧٣]. وينقل محقق مروج الذهب عن كريستين في كتابه إيران في عهد الساسانيين ص ٥٠٨ أن تَطلُّعَ العلويين للإمامة يؤكده تزوج الحسين بن علي بشهربانو؛ إذ هم ولد رسول الله ﷺ من جهة وولد ملوك فارس من جهة أخرى[٣٧٤]. ولكن لا دليل على هذا.

ولما قابل عبد الله بن سعد بن أبي السرح جُرْجير في المعركة التي سبقت الإشارة إليها في سنة ٢٧هـ أبرز جرجير ابنته - وكانت من أجمل النساء - أمام جنده، و حرضهم على قتال المسلمين وقتل قائدهم، و بذل نصف ملكه وتزويج ابنته لمن يقوم به ، لكن المسلمين كانوا أسرع منه فقتلوه، ووهبت ابنته لقاتله؛ عبدالله بن الزبير[٣٧٥]. لكن ابن عبد الحكم يذكر أنها صارت في سهم رجل من الأنصار، و أنها انتحرت[٣٧٦]. وكلتا الروايتين تؤكد وقوع السبي عليها .

وعودة أخرى إلى آل كسرى، ففي سنة ٣١ هـ لما صالحَ عبدُ الله بن عامر أهل

(٣٦٧) الزبيري، المصعب بن عبد الله بن المصعب، أبو عبد الله (ت ٢٣٦ هـ)، نسب قريش (تحقيق: إ. ليفي بروفنسال، الطبعة الثانية، دار المعارف بمصر ١٣٧٦ هـ) ص ٥٨، ٧٩، ٣٥٧.

(٣٦٨) طبقات ابن سعد ١٩٥/٥.

(٣٦٩) المصدر السابق ١٨٧/٥.

(٣٧٠) المصدر السابق ٢١١/٥، وقال ابن قتيبة: يقال أنها أمة سندية اسمها سلافة، ويقال غزالة، المعارف ص ٢١٤، و قال ابن الجوزي غزالة، صفة الصفوة ٩٣/٢، وقال ابن كثير اسمها سلامة البداية والنهاية ١٠٣/٩.

(٣٧١) الكامل ٦٤٥/٢.

(٣٧٢) وفيات الأعيان ٢٦٧/٣.

(٣٧٣) الكامل ٦٤٦/٢، وأم يزيد هي شاهفرند بنت فيروز بن يزدجرد بن شهريار، وهي التي أهديت لقتيبة بن مسلم في فتوحه لبلاد ما وراء النهر مع أخت لها، فأرسلهما إلى الحجاج، فأخذ إحداهما، وأرسل الأخرى إلى الوليد بن عبد الملك، فولدت له يزيد، وكان يزيد يقول مفتخراً:

أنا ابن كسرى وأبي مروان
وقيصر جدي وجدي خاقان

لأن هذه المرأة معرقة بنسبها إلى بعض الخواقين وإلى ملك الروم. انظر تاريخ الطبري ٢٩٨/٧، مروج الذهب ٦٣/٤.

(٣٧٤) مروج الذهب ٤١٨/٧، تحقيق شارل بلا.

(٣٧٥) غزوات ابن حبيش ٣٦٨/١.

(٣٧٦) فتوح مصر ص ١٨٤-١٨٥.

أبرشـــهر(٣٧٧) ، أعطـــوه جاريـــتين مـــن آل كسـرى(٣٧٨)، وقـد يكـون هـذا صـحيحاً، لأن كسرى هرب في سنة ٣٠ هـ إلى بلاد خراسان فتشتت أمره هنالك وهلك(٣٧٩).

وهكذا يبرز للعيان كيف أدال الله عز وجل على أولئك المتكبرين المتغطرسين الصادين عن سبيله بوقوع أهليهم وفلذات أكبادهم سبايا بأيدي المؤمنين المستضعفين الحاملين لواء نشر دعوة التوحيد، إذلالاً لأولئك و إكراماً لهؤلاء، فلم يحملهم البطر على مجاوزة الحد، بل عاملوهم بما تقتضيه شريعة الإسلام السمحة من الرفق والرحمة والإكرام.

آثار السبي على الأمة الإسلامية

لاشك أن من أهم الثمار في دراسة موضوع السبي الوقوف على أهم الآثار التي نتجت عن دخوله في المجتمعات الإسلامية إيجاباً أو سلباً، واللافت للنظر من خلال استعراضنا السابق أنه لما انتشرت الفتوحات الإسلامية واتسع نطاقها كثر تبعاً لذلك السبي والاسترقاق من الأمم الأخرى الرافضة للإسلام الواقفة في سبيله حين خذلهم الله تعالى فغُلبوا على أمرهم، ووزع ذلك السبي على المسلمين، وكثر بأيديهم كثرة هائلة، حتى إنه ليروى أنه كان للزبير بن العوام ﷺ ألف مملوك يؤدون إليه الخراج(٣٨٠).

وكانت أعداد كبيرة من سبي الفتوحات ترد إلى المدينة النبوية بحكم أنه كان يؤخذ الخمس من الأنفال، فيُنفّل منه القائد ما يشاء من أهل جيشه، ثم يرسل الباقي إلى الخليفة ليصرفه في مصارفه، قال تعالى: ﴿ واعْلَمُوا أنَّ مَا غَنِمتُم مِنْ شَيءٍ فإنَّ لله خُمُسَهُ ولِلرّسُولِ ولِذِي القُربَى واليَتَامَى والمَسَاكِيْنِ وابنِ السَّبِيْلِ ﴾ [الأنفال، آية ٤١].

وكان الخليفة الألمعي عمر بن الخطاب ﷺ يتوجس خيفة من كثرة ورود السبي إلى المدينة ذكوراً وإناثاً، وأثر عنه قوله: "هلاك العرب إذا بلغ أبناء بنات فارس"(٣٨١) ، وكان رأيه أن لا يدخلها أحد منهم لتظل على نقائها وصفائها، لكن بعض الصحابة غلبوه عن هذا الرأي، فكثر السبي في المدينة وما حولها، وظهرت أجناس متعددة فيها، فلما طُعن ﷺ وسأل عن مَنْ طعنه وأُخبر أنه أبو لؤلؤة المجوسي، قال لابن عباس: " هذا عمل أصحابك كنت أريد أن لا يدخلها علج من

---

(٣٧٧) قيل هي نيسابور، من مدن خراسان. معجم البلدان ٦٥/١.

(٣٧٨) تاريخ الطبري ٣٠٢/٤، غزوات ابن حبيش ٤١٣/١.

(٣٧٩) الأخبار الطوال ص ١٤٠، تاريخ خليفة ص ١٤٠.

(٣٨٠) أي أنه كان مكاتباً لهم على العتق، دول الإسلام ص ٣٠، البداية والنهاية ٢٢٨/٧، وقد لا يكون هؤلاء كلهم من سبي الفتوحات، فربما كان لسوق النخاسة أثر في ذلك.

(٣٨١) مصنف ابن أبي شيبة ٤١٠/٦، و٥٠٦/٧.

السبي فغلبتموني "[٣٨٢]. ومن باب توجسه خيفة من السبايا لما رأى كثرة ورودهن إلى المدينة أنه كان يستعيذ بالله من شر ذلك؛ روى أبو حنيفة الدينوري أن المسلمين غنموا غنيمة لم يغنموا مثلها قط يوم جلولاء، وأنهم سبوا سبياً كثيراً من بنات أحرار فارس، فذكروا أن عمر بن الخطاب ﷺ كان يقول: اللهم إني أعوذ بك من أولاد سبايا الجلوليات، فأدرك أبناؤهن قتال صفين[٣٨٣]. وذلك لأن للمسبيات عموماً مفاهيم وقيماً وتقاليد قد تخالف جوهر الإسلام الصافي أو تعكر عليه، ولاسيما أن الأولاد ينزعون في الغالب إلى أمهاتهم ويتأثرون بهن. وأدت هذه الكثرة أيضاً إلى أن اشتكى بعض الشعراء من الهجنة التي خالطت أنساب العرب فقال:

إن أولادَ السَّراري كثروا يا ربِّ فينا
ربِّ أدخلني بلاداً لا أرى فيها هَجينا[٣٨٤]

وكان العرب يأنفون من اتخاذ السبايا أمهات أولاد حفاظاً على أصالة أولادهم ونقاء عرقهم حتى إنهم كانوا إذا رغبوا في نكاحهن عمدوا إلى العزل[٣٨٥]. وأهل المدينة بالذات كان هذا الأمر ظاهراً فيهم حتى نشأ فيهم علي ابن الحسين، وسالم بن عبد الله، والقاسم بن محمد، ففاقوا أهل المدينة فقهاً وورعاً وتقى وعبادة ، فعند ذلك رغب الناس في السراري واتخاذ أمهات الأولاد وفشى في الناس وظهر[٣٨٦]. ولو ألقيتَ نظرة على كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد رحمه الله تعالى ـ حيث تراجم الصحابة رضي الله تعالى عنهم وأبنائهم ـ لرأيتَ عجباً من كثرة ما تسرَّوا من السبايا ومن كثرة ما أنجبن لهم من أولاد. وقد أحصيتُ فيه ما يزيد على ثلاثمائة وعشرين حالة، نصَّ فيها ابن سعد على أن هذا الولد أو أولئك الأولاد لأمهات أولاد[٣٨٧].

ومع ذلك فقد كان من طبائع العرب المغروسة فيهم النظرة الدونية لمن يخالط نسبه هجنة كائناً من كان؛ ألا ترى هشام بن عبد الملك[٣٨٨] يخاطب زيد بن علي بن

---

(٣٨٢) طبقات ابن سعد ٣/٣٥٢.
(٣٨٣) الأخبار الطوال ص ١٢٩.
(٣٨٤) المبرد، محمد بن يزيد، أبو العباس (ت ٢٨٥ هـ) ، الكامل (تحقيق: محمد أحمد الدالي، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤١٣ هـ) ٢/٦٥٠، والهجين عند العرب هو الذي أبوه شريف وأمه وضيعة، أي أمة. المصدر السابق نفسه.
(٣٨٥) صحيح البخاري (كتاب العتق، باب من ملك من العرب رقيقاً فوهب وباع وجامع وفدى وسبى الذرية..) حديث ٢٥٤٢.
(٣٨٦) تاريخ الإسلام (١٠١ـ١٢٠) ص ٩٠، عن أبي الزناد.
(٣٨٧) وقد لا تكون جميع أمهات الأولاد المشار إليهن من سبي الفتوحات، لأنه لم يفصل فيهن، أو تبين حالاتهن، لكن ليس هناك شك في أن الغالبية العظمى كانت منهن لكثرتهن في تلك الفترة.
(٣٨٨) هشام بن عبد الملك بن مروان الأموي، أبو الوليد القرشي، أحد خلفاء بني أمية الكبار ومن أشدهم كرها لسفك الدماء، حافظ لبيت المال، حازم عاقل، توفي سنة ١٢٥ هـ. تاريخ = =

الحسين فيقول: يا زيد لقد بلغني أنك تذكر الخلافة وتتمناها ولست هناك وأنت ابن أمة؟![٣٨٩] فيرد عليه لا يضيرني أن أكون ابن أمة وجدي رسول الله ﷺ[٣٩٠].

ويقول محمد النفس الزكية[٣٩١] في خطاب له إلى المنصور العباسي[٣٩٢]: " لم تلدني العجم، ولم تُعْرق فيَّ أمهات الأولاد "[٣٩٣]. ويقول أحدهم وهو يتجرع شيئاً من المرارة بسبب ذلك:

فإنْ تَكُ أمّي من نساءٍ أفاءَ ها
جيادُ القَنَا والمُرْهفات الصفائح
فَتَباً لنَصْلِ الحُرِّ إنْ لم أنلْ به
كرائمَ أولادِالنساءِالصرائح[٣٩٤]

ويلاحظ في هذه الأبيات ردة الفعل الناجمة عن سوء النظرة الاجتماعية.

ومع هذا فإن أبناء السبايا (أمهات الأولاد) لما كثروا في المجتمع الإسلامي صاروا لا يرون في ذلك عيباً أو نقيصة تحط من شأنهم أو قدرهم أو مكانتهم الاجتماعية، وكانوا يتصدّون لمن يمسهم من هذا الجانب[٣٩٥]، بل إن بعضهم اعتبروا ذلك مصدر فخر واعتزاز، ونظموا القصائد والأشعار متمدحين، فهذا أحدهم يقول مفتخراً بأخواله:

يا رُبَّ خالٍ لي أغرَّ أبْلَجَا
من آل كسرى يَعْتدي مُتَوَّجا[٣٩٦]

وآخر يرتجز:

أنا ابنُ سَعْدٍ وتوسَّطتُ العَجَمْ
فأنا فيما شِئتُ مِنْ خَالٍ وعَمْ [٣٩٧]

وفي العصور التالية برز أبناء السبايا واشتهروا وكان من أبناء أمهات الأولاد خلفاء وقادة ووزراء ونبهاء ووجهاء، وتبعاً لذلك صار لبعضهن سلطان وتدبير للأمور، وكان بعضهن يجلسن للمظالم والنظر في رقاع الناس[٣٩٨].

الإسلام (١٢١-١٤٠) ص ٢٨٢، البداية والنهاية ٣٥١/٩.

(٣٨٩) تاريخ الطبري ١٦٥/٧.

(٣٩٠) المصدر السابق ١٦٦/٧.

(٣٩١) محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أبو عبد الله الملقب بالمهدي وبالنفس الزكية، ثار في المدينة على أبي جعفر المنصور سنة ٤٥هـ بعد حبسه لأبيه وأهل بيته، ثم قتل في العام نفسه. البداية والنهاية ٨٢/١٠، الوافي بالوفيات ٢٩٧/٣.

(٣٩٢) عبد الله بن محمد بن علي العباسي، أبو جعفر المنصور، وأبو الخلفاء العباسيين، كان شجاعاً حازماً مهيباً، محباً للعلم والعمارة، توفي سنة ١٥٨. تاريخ بغداد ٥٣/١٠، الوافي بالوفيات ٤٣٣/١٧.

(٣٩٣) المبرد، كامل ١٤٨٩/٣.

(٣٩٤) المصدر السابق ٦٤٦/٢، في النشرة التي بين يدي ورد (لفضل الحر) بدل (لنصل الحر)، وكذا في نشرة دار المعارف ببيروت سنة ١٣٨٦هـ، وهو فيما يبدو لي تصحيف، لأن سياق المبرد يرجح كلمة (النصل) بدل (الفضل)؛ ثم ليس لهذه الأخيرة معنى قويم في البيت .

(٣٩٥) المصدر السابق ١٤٩٢/٣.

(٣٩٦) المصدر السابق ٦٤٧/٢.

(٣٩٧) المصدر السابق ٦٤٩/٢.

(٣٩٨) أحكام الأسرى ص ٢٨٥.

وهذه جوانب من الآثار الإيجابية للسبي:

- كان المسلمون يستفيدون من السبي أحياناً في افتكاك بعض الأسرى المسلمين من أسر العدو والمفاداة بهم، وهذه طبيعة الحروب فآسر ومأسور، وساب ومسبي، ويوم لك ويوم عليك[٣٩٩].

- ومن ذلك إعتاق الأرقاء المسلمين واستنقاذهم من العبودية بسبي العلوج الذين لم يسلموا[٤٠٠].

- بيع السبي في مصالح المسلمين لشراء الخيل أو السلاح مثلاً، أو لرد ثمنه في بيت المال؛ فقد باع رسول الله ﷺ من سبي بني قريظة على رجل يهودي[٤٠١]. وبعث رسول الله ﷺ بما بقي من هذا السبي أثلاثاً؛ ثلثاً إلى تهامة، وثلثاً إلى نجد، وثلثاً إلى طريق الشام، فبيعوا بالخيل والسلاح والإبل والمال[٤٠٢].

ومن الأمثلة على بيع السبي ما روى ابن عساكر أن عمر ﷺ باع على عبيدالله بن مَعْمَر[٤٠٣] وعبدالله بن عامر بن كريز رقيقاً من سبي، ففضل من ثمنهم ثمانون ألف درهم، فقضى عنهما طلحة بن عبيدالله ﷺ[٤٠٤]

---

(٣٩٩) كما في صحيح مسلم رحمه الله تعالى أن سلمة بن الأكوع ﷺ أصاب وهو غاز مع أبي بكر ﷺ لبني فزارة سبايا وذراري، فنفّله أبو بكر منهن بنتاً من أجمل بنات العرب، فلما قدم المدينة استوهبها رسولُ الله ﷺ منه، فوهبها له، " فبعث بها رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ففدى بها ناساً من المسلمين كانوا أسروا بمكة ". صحيح مسلم (كتاب الجهاد والسير، باب التنفيل وفداء المسلمين بالأسارى) حديث ١٧٥٥.

(٤٠٠) كما في حديث أبيض بن حمال لما أمره أبو بكر الصديق ﷺ أن يعتق ثلاثة إخوة من كندة كانوا عبيداً له في الجاهلية، فأعطاه أبو بكر ستة من علوج سبي القادسية مكانهم. الطبراني، المعجم الكبير ٢٧٧/١، مجمع الزوائد ١٠٦/٤، وإسناده حسن.

(٤٠١) ذكر الواقدي أن هذا اليهودي واسمه أبو الشحم اشترى امرأتين مع كل واحدة منهما ثلاثة أطفال غلمان، وجوار بخمسين ومائة دينار، واشترى محمد بن مسلمة ﷺ بنصيبه من الفيء ثلاثة؛ امرأة معها ابناها بخمسة وأربعين ديناراً. المغازي ٥٢٢/٢-٥٢٤.

(٤٠٢) المصدر السابق ٥٢٣/٢، سيرة ابن هشام ٣٣٨/٣-٣٣٩، سنن البيهقي ١٢٨/٩، وعند الإمام أحمد أنه لا يجوز بيع السبي إلا على المسلمين، فلا يباعون على الكفار، سواء كانوا ذميين أو حربيين، صغاراً كانوا أم كباراً، ويعلل ذلك بأنهم إذا كانوا في أيدي المسلمين رجي إسلامهم، وإذا بيعوا إلى الكفار يئس من إسلامهم، قال ابن القيم: وهو فعل ظاهر منتشر عن عمر ﷺ أقره الصحابة وكتب به إلى الأمصار. أحكام أهل الذمة (تحقيق: صبحي الصالح، الطبعة الثالثة، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٣ م) ٦٦١/٢، ١٢٥٧/٣، ١٢٥٥-١٢٥٨، وأعلام الموقعين ٣٢/٢، وانظر مصنف ابن أبي شيبة ٤٦/٦-٤٧.

(٤٠٣) عبيدالله بن مَعْمَر بن عثمان القرشي التيمي، أمير من القادة الشجعان الأشداء ومن أجواد قريش، كانت له جهود في الفتوح زمن عثمان ﷺ توفي في إحدى المعارك سنة ٢٩ هـ، الإصابة ٤٤٠/٢.

(٤٠٤) طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو القرشي التيمي، أبو محمد، من السابقين الأولين إلى الإسلام، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، كان يلقب بطلحة (الجود) (الخير) =

لمَّا رآهما موقوفين(٤٠٥). وباع عبد الله بن مسعود ﷺ (٤٠٦) على الأشعث بن قيس الكندي سبياً من سبي الإمارة بعشرين ألفاً(٤٠٧).

ويفهم من هذا أن أعداد السبي المباع لصالح بيت المال كان كبيراً، وأن بيعه في تلك الفترة يشكل رافداً جيداً له .

- كانوا يزاولون مهناً متعددة في المجتمعات الإسلامية؛ كالخدمة، حيث كان رسول الله ﷺ وخلفاؤه يُخدمون من السبي المحتاجينَ لذلك من المسلمين، كالعميان الذين ليس لهم من يقودهم إلى المساجد(٤٠٨)، وأهل البيوت الذين مات عائلوهم(٤٠٩)، أو من لا خادم لهم(٤١٠).

وكانوا يمارسون أعمال أسيادهم في الزراعة والرعي، وربما جاء بعضهم بأساليب زراعية لم تكن معروفة، أو حمل معه بذوراً زراعية جديدة، إضافة إلى الأطعمة والأشربة والألبسة التي اعتادوها والتي تختلف عما هو مألوف في البيئة الجديدة التي انتقلوا إليها، هذا وزاول بعضهم مهناً لم تكن مرغوبة لدى العرب بل كانوا يأنفون منها، كالصياغة والحجامة والقصابة (٤١١)، وبعضهم اشتغل بالبناء ونقلوا شيئاً من فن العمارة الفارسي إلى المدن التي انتقلوا إليها(٤١٢). ومن هنا يلاحظ مدى تأثيرهم على الحياة الاجتماعية والاقتصادية في البلاد الإسلامية.

ومن أشرف الأعمال التي قاموا بها الجهاد في سبيل الله تعالى، فقد كان من أبرز القادة الفاتحين أيام بني أمية موسى بن نصير، وأصله من عين التمر، سُبي أبوه منها، أو من جبل الخليل بالشام في عهد الصديق ﷺ(٤١٣)، فكان له مآثر عظيمة في فتح بلاد المغرب والأندلس رحمه الله تعالى، ويقال إنه لم يُسبَ في الإسلام مثل سبي موسى بن نصير في فتوحاته(٤١٤).

= (الفياض) لجوده وكرمه، قتل في معركة الجمل سنة ٣٦ هـ، طبقات ابن سعد ٢١٤/٣، الرياض النضرة ٥/٤، الإصابة ٢٢٩/٢.

(٤٠٥) تاريخ دمشق ١٠٢/٢٥، ١٢٦/٣٨.

(٤٠٦) عبدالله بن مسعود بن غافل الهذلي، أبو عبد الرحمن من السابقين إلى الإسلام، خادم رسول الله ﷺ، من أكبر الصحابة فضلاً وعلماً، سكن الكوفة ونشر علمه بها، توفي سنة ٣٢ هـ، طبقات ابن سعد ١٥٠/٣، الإصابة ٣٦٨/٢.

(٤٠٧) الدارقطني، علي بن عمر، أبو الحسن (ت ٣٨٥هـ)، سنن الدارقطني (مراجعة: السيد عبدالله هاشم، دار المعرفة، بيروت ١٣٨٦هـ) ٢٠/٣.

(٤٠٨) تاريخ دمشق ٣٢٧/٢١.

(٤٠٩) فتوح البلدان ص ١٤٧.

(٤١٠) مغازي الواقدي ٥٢٣/٢، الإصابة ١٩٩/٨.

(٤١١) تاريخ الطبري ٣٨٦/٣.

(٤١٢) فتوح البلدان ص ٣٨٨.

(٤١٣) المصدر السابق ص ٢٤٨، تاريخ دمشق ٦١ /٢١١، معجم البلدان ٤٧١/٤.

(٤١٤) البداية والنهاية ١٧٣/٩، الناصري، أحمد بن خالد أبو العباس (ت ١٣١٥هـ)، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (تحقيق: جعفر الناصري وزميله، دار الكتاب،الدار البيضاء ١٤١٨هـ) ١٥٢/١.

وقد كان بعضهم يحسنون الكتابة ولهم بَصَر بالدواوين والعمل بها، ويروي البلاذري أن عمر ﷺ جعل بعض سبي قيسارية في الكتاب والأعمال للمسلمين[٤١٥]. ولكن في مرة أخرى لما عُرض عليه رجل من أهل الأنبار وقيل له إن له بصراً بالديوان فلو اتخذته كاتباً ! رفض وقال: لا أتخذ بطانة من دون المؤمنين[٤١٦]. وسأورد هنا مثلين لعَلَمَين اشتهرا بالكتابة فيما بعد من سبي فترة البحث،

أولهما: **صالح بن عبد الرحمن**، أبو الوليد الكاتب، سبي أبوه وسبي معه من سجستان على يدي الربيع بن زياد الحارثي في سنة ٣٠ من الهجرة، اشترتهما امرأة فأعتقتهما، وتعلم صالح فأتقن، وتردد على ديوان زياد وابنه، وصحب زاذان فروخ كاتب الديوان للحجاج فتعلم منه، وكان ذكياً حافظاً أجاد العربية والفارسية، وتمكن من نقل ديوان الخراج في العراق من الفارسية إلى العربية في سنة ٧٨ هـ، وهو أستاذ لعامة كتاب أهل العراق. توفي في حدود سنة ١٠٣هـ.[٤١٧]

ثانيهما: **عبد الحميد الكاتب** بن يحيى بن سعيد العامري ولاء، كاتب مروان بن محمد، أصله من سبي القادسية، وحيد دهره في فنه، يضرب به المثل في البلاغة، له مجموع ديوان رسائل يقع في ألف ورقة، وعنه أخذ المترسلون في الكتابة، كان وفياً مع مروان فظل معه إلى أن قتل سنة١٣٢ هـ[٤١٨].

ولعل أشرف مهنة زاولها هذا الصنف من الناس ونبغوا فيها وتفوقوا على الأقران هي مهنة طلب العلم والاشتغال به تعلماً وتعليماً، فقد برزوا من خلاله وتسنموا مكانة سامقة في المجتمع. وقد يكون السر في ذلك والله تعالى أعلم أن هذه الدماء الجديدة وبخاصة الفارسية لما دخلت إلى البيت العربي المسلم وهي تختلف عنه في تكوينها وسماتها، وحصل التلاقح والامتزاج، ظهر جيل جديد يحمل خصائص الدمين معاً، فأدى ذلك إلى الكياسة والنبوغ والتفوق، ألا ترى إلى عمر ﷺ يقول:

---

(٤١٥) فتوح البلدان ص ١٤٧.

(٤١٦) تاريخ الطبري ٢٠٢/٤.

(٤١٧) فتوح البلدان ص ٣٨٥، والجهشياري، محمد ابن عبدوس، أبو عبد الله (ت ٣٣١هـ)، الوزراء والكتاب (تحقيق: مصطفى السقا وزملائه، الطبعة الثانية، مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة ١٤٠١هـ) ص ٣٨، وابن النديم، (ت ٤٣٨هـ)، الفهرست (دار المعرفة ، بيروت "د.ت") ص ٣٣٨، وتاريخ دمشق ٣٤٣/٢٣ـ ٣٤٤.

(٤١٨) ويذكر أنه كان ذا بصر ورأي؛ فقد اشار على مروان بن محمد أن يصاهر بني العباس لما رأى أمرهم في إقبال، ومع أن مروان استحسن رأيه إلا أنه رفض قائلا: أكره أن أطلب النصر بأحراح النساء، أي فروجهن. الوزراء والكتاب ص ٧٢ وما بعدها، الفهرست ص ١٧٠، تاريخ دمشق ٩٤/٣٤ وما بعدها.

" ليس قوم أكيس من أولاد السراري، لأنهم يجمعون عز العرب ودهاء العجم "(٤١٩). ولقد قيل إن الموالي والعتقاء وأبناءهم وأبناء العرب من السبايا قد تميزوا في الفقه والقدرة على استنباط الأحكام بما كان لهم من الثقافة والكتابة والنباهة مقتضى حضارتهم التي عاشوا فيها قبل أسرهم في الفتوحات الإسلامية(٤٢٠). وفي الجيل الثاني لعهد الفتح برز عدد كبير من أبناء السبايا والموالي فتبوَّأوا مكان الصدارة في المجتمعات الإسلامية بحمل لواء العلم، وصاروا من سادة التابعين وفضلاء المسلمين. سأل عبد الملك بن مروان(٤٢١) عن فقهاء الأمصار، فلما عرضوا عليه، قال: ما أراهم إلا أبناء السبايا !! (٤٢٢).

وعند بلوغ الزهري(٤٢٣) سنَّه نظر فرأى الموالي قد تبوأوا الصدارة في العلم والفتيا في سائر الأمصار الإسلامية، فقال: إنا لله قد صار العلم إلى الموالي، ثم قال: إذا تقاعد أبناء المهاجرين والأنصار عن تعليم العلم يغلبهم الموالي(٤٢٤).

هذا ولا يمكننا استقصاء حملة العلم والنابهين من هذه الطائفة في سائر الفنون، فهم أكثر من أن نستطيع حصرهم في مثل هذه الدراسة، ولكننا نورد نماذج وأمثلة لبعضهم غير من سبقت الإشارة إليه(٤٢٥)، فمنهم:

- عبد الله بن عون بن أرطبان،أبو عون المزني مولاهم البصري، جده أرطبان من سبي ميسان(٤٢٦).
- محمد بن سيرين أبو بكر الأنصاري ولاء البصري، أبوه سيرين من سبي عين التمر(٤٢٧).

---

(٤١٩) المبرد، كامل ٦٤٩/٢.
(٤٢٠) أحكام الأسرى ص ٢٨٥.
(٤٢١) عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي، أبو الوليد القرشي، بدأ حياته بطلب العلم ثم انصرف إلى الملك بعد وفاة أبيه، من أعظم خلفاء بن أمية وأحزمهم، مات سنة ٨٦هـ. تاريخ بغداد ٣٨٨/١٠، البداية والنهاية ٦١/٩.
(٤٢٢) تاريخ دمشق ٣٤٧/٦١.
(٤٢٣) محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري، أبو بكر القرشي، أحد الفقهاء المحدثين بالمدينة، حافظ زمانه، أول من دون الحديث في المدينة، وانتقل إلى الشام واستقر بها، مات سنة ١٢٤ هـ. ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد، أبو حاتم البستي (ت ٣٥٤ هـ)، الثقات (الطبعة الأولى، دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد ١٣٩٣هـ) ٣٤٩/٥،= = والوافي بالوفيات ٢٥/٥، تاريخ دمشق ٢٩٤/٥٥.
(٤٢٤) الخليلي، الخليل بن عبد الله بن أحمد، القزويني أبو يعلى (ت ٤٤٦هـ)، الإرشاد في معرفة علماء الحديث (تحقيق: محمد إدريس، الطبعة الأولى، مكتبة الرشد، الرياض ١٤٠٩هـ) ١٨٩/١، ١٩١.
(٤٢٥) كالأعلام الثلاثة الكبار، القاسم بن محمد وسالم بن عبدالله وعلي بن الحسين.
(٤٢٦) عبد الله بن عون من سادات أهل زمانه عبادة وفضلاً وورعاً ونسكاً وصلابة وشدة على أهل البدع، محدث ثقة ثبت، توفي سنة ١٥٠ هـ. تاريخ خليفة ص ٩٧، ١٤٤، ٢٦٠، ثقات ابن حبان ٣/٧، تقريب التهذيب ص ٥٣٣.
(٤٢٧) وقيل من سبي ميسان، الإرشاد ١٨٩/١، وقيل من سبي جرجرايا، سير أعلام النبلاء =

- محمد بن إسحاق بن يسار، أبو بكر المطلبي مولاهم المدني، نزيل العراق، جده يسار من سبي عين التمر[٤٢٨].
- أسلم، أبو زيد العدوي مولاهم، مولى عمر ﷺ من سبي عين التمر[٤٢٩].
- حُمران بن أبان، مولى عثمان بن عفان ﷺ، اشتراه في زمن الصديق من سبي عين التمر[٤٣٠].
- أفلح، أبو عبد الرحمن الأنصاري ولاء، مولى أبي أيوب ﷺ، من سبي عين التمر[٤٣١].
- عبيد بن حنين، مولى آل زيد بن الخطاب، وقيل مولى الحكم بن أبي العاصي، من سبي عين التمر[٤٣٢].
- عامر بن شراحيل الشعبي، أبو عمرو الحميري، أمه من سبي جلولاء أو القادسية[٤٣٣].

= ٦٠٦/٤، لكن البلاذري يقول هو من أهل جرجرايا وكان في زيارة لأقاربه في عين التمر فأخذ مع أهل الكنيسة، فتوح البلدان ص ٢٤٨-٢٤٩. ومحمد بن سيرين عالم البصرة وفقيهها، رأى ثلاثين من الصحابة، وهو أحد معبري الرؤيا المشهورين، ثقة ثبت عابد كبير القدر، مات سنة ١١٠هـ. طبقات الفقهاء ٩٢/٢، التمهيد ٢١٦/١٩، ثقات ابن حبان ٣٤٨/٥-٣٤٩.

(٤٢٨) محمد بن إسحاق إمام من أئمة المغازي والسير، قال ابن حبان: لم يكن أحد بالمدينة يقارب ابن إسحاق في علمه أو يوازيه في جمعه وهو من أحسن الناس سياقاً للأخبار، صدوق يدلس، توفي سنة ١٥١هـ. ثقات ابن حبان ٣٨٠/٧، تاريخ بغداد ٢١٦/١، سير أعلام النبلاء ٣٥/٧.

(٤٢٩) أسلم الفقيه من جلة الموالي علما ودينا وثقة، وابنه زيد أحد ثقات أهل المدينة، كان من العلماء الفضلاء العباد مات سنة ٨٠هـ وهو ابن أربع عشرة ومائة سنة. **الخزاعي**، علي ابن محمود، أبو الحسن (ت ٧٨٩هـ)، تخريج الدلالات السمعية (تحقيق: إحسان عباس، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٤٠٥هـ) ص ٥٩٣، التمهيد ٢٤٠/٣، سير أعلام النبلاء ٩٨/٤، تقريب التهذيب ص ١٣٥.

(٤٣٠) حمران بن أبان من العلماء الأجلاء أهل الوداعة والرأي والشرف، كان يأذن على عثمان أوكاتباً له، وافر الحرمة عند عبد الملك ابن مروان، وهو ثقة، مات سنة ٧٥هـ. التمهيد ٢١١/٢٢، تاريخ دمشق ٨٧/٢، ١٧٢/١٥، ١٧٥، معجم البلدان ٧٤/٤، تقريب التهذيب ص ٢٧٠.

(٤٣١) أفلح ثقة من كبار التابعين، روى البخاري في تاريخه بسند صحيح عن ابن سيرين أنه قتل يوم الحرة سنة ٦٤هـ، وقد روى له مسلم. تاريخ دمشق ١٧٨/٩-١٧٩، الإصابة ٢٠٨/١، تقريب التهذيب ص ١٥٢.

(٤٣٢) عبيد بن حنين كان عالماً ثقة وليس بكثير الحديث، مات سنة ١٠٥هـ. طبقات ابن سعد ٢٨٥/٥، التمهيد ٢١٦/١٩-٢١٧، تقريب التهذيب ص ٦٤٩.

(٤٣٣) عامر الشعبي من رجال الحديث الثقاة وهو فقيه مشهور، قال مكحول: ما رأيت أفقه منه، اتصل بعبد الملك بن مروان واستقضاه عمر ابن عبد العزيز، توفي سنة ١٠٣هـ. تاريخ الطبري ٢٨/٤، تاريخ بغداد ٢٣٤/١٢، الاكتفاء ٢٢٨/٤، تهذيب التهذيب ٦٥/٥.

- نافع بن هرمز أوكادش، أبو عبد الله المدني، مولى ابن عمر، من سبي نيسابور(٤٣٤).
- عنبسة بن سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية، أخو عمرو بن سعيد الأشدق، أبو خالد الأموي، أمه أم ولد من سبي سلمان بن ربيعة من بلنجر(٤٣٥).
- حماد بن سابور أو ميسرة، أبو القاسم، المعروف بحماد الراوية، كان أبوه من سبي سلمان بن ربيعة(٤٣٦).
- حماد بن أبي سليمان مسلم الكوفي، أبو إسماعيل الأشعري مولاهم، سبي أبوه من أصبهان(٤٣٧).
- الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي ولاء، أبو الحارث المصري، من سبي أصبهان(٤٣٨).
- وردان، أبو عبيد ويقال أبو عثمان، مولى عمرو بن العاص، من سبي أصبهان(٤٣٩).
- مروان بن سليمان بن يحيى بن أبي حفصة، أبو السمط، جده أبو حفصة من سبي إصطخر(٤٤٠).
- وضّاح بن عبد الله اليشكري، أبو عوانة الواسطي، من سبي جرجان(٤٤١).

---

(٤٣٤) نافع اختلف كثيراً في مصدر سباه؛ فقيل من طالقان، وقيل من الجبل، وقيل من الديلم، وقيل من المغرب، وقيل من خراسان، ولكن المشهور أنه من نيسابور وهو عالم فقيه ثقة ثبت مشهور، توفي سنة ١١٧هـ. المعارف ص، التاريخ الكبير ٣٩١/٢، تاريخ دمشق ٤٢٥/٦١.

(٤٣٥) عنبسة بن سعيد روى عن أبي هريرة، وروى عنه الزهري، كان عند الحجاج بالكوفة، وهو ثقة، مات على رأس المائة. ثقات ابن حبان ٢٦٨/٥، تاريخ دمشق ٩/٤٧، تقريب التهذيب ص ٧٥٦.

(٤٣٦) حماد الراوية، وقيل كان أبوه من سبي الديلم، وهو من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها، عاش إلى سنة ١٥٦ وفيها مات. الفهرست ص ١٣٤، الأغاني ٧٩/٦.

(٤٣٧) حماد بن أبي سليمان، فقيه الكوفة صدوق، اتهم بالإرجاء، مات سنة ١١٩ هـ. مسند أبي حنيفة ٧٤/٢، طبقات المحدثين بأصبهان ٣٣٥/١، ثقات ابن حبان ١٥٩/٤، تاريخ دمشق ١٥٢/٥٨.

(٤٣٨) الليث بن سعد ثقة ثبت فقيه وإمام مشهور، نزل مصر فكان من سراتها، قال الشافعي: الليث أفقه من مالك بن أنس إلا أنه ضيعه أصحابه، توفي سنة ١٧٥هـ. طبقات ابن سعد ٥١٧/٧، تاريخ بغداد ٣/١٣، طبقات المحدثين بأصبهان ٤٠٦/١، الوافي بالوفيات ٤١٢/٢٤، تقريب التهذيب ص ٨١٧.

(٤٣٩) وردان، روى عن مولاه عمرو، وشهد فتح مصر، وقدم دمشق في أيام معاوية ﷺ وروى عنه. تاريخ خليفة ص ١٣٨، ثقات ابن حبان ٥٠٠/٥، تاريخ دمشق ٤٢٨/٦٢-٤٢٩، معجم البلدان ٢٨٤/٣.

(٤٤٠) مروان بن أبي حفصة (يزيد)، شاعر مجود محكم للشعر، من أهل اليمامة، قدم بغداد ومدح المهدي والرشيد، ومدح أيضاً معن بن زائدة، توفي سنة ١٨٢هـ. الأغاني ٧٤/١٠، تاريخ دمشق ٢٨٧/٥٧، سير أعلام النبلاء ٤٧٩/٨.

(٤٤١) أبو عوانة، مولى يزيد بن عطاء الواسطي، سكن البصرة، وهو من رجال الحديث، ثقة ثبت صدوق، توفي سنة ١٧٦هـ. تاريخ بغداد ٤٩٠/١٣، تاريخ جرجان ٤٨١/١، تقريب التهذيب ص ١٠٣٦.

- حُميد بن أبي حميد الطويل، أبو عبيدة البصري، هو أو أبوه من سبي سجستان[٤٤٢].
- مالك بن دينار، أبو يحيى البصري، كان أبوه من سبي سجستان[٤٤٣].
- سليمان بن مهران(الأعمش)،أبو محمد الأسدي الكاهلي مولاهم، كان أبوه من سبي الديلم[٤٤٤] وغير هؤلاء كثير[٤٤٥] .

الآثار السلبية:

ومع هذه الجوانب الإيجابية والآثار النافعة ظهرت أيضاً آثار سلبية متنوعة، لكن أشدها خطورة ما كان متصلاً بالدين، وذلك أن المسلمين لما فتحوا بلاد فارس على وجه الخصوص كانت تعج بمذاهب دينية متعددة، فلما تم الفتح ذابت تلك المذاهب وانقمعت في وجه الإسلام، ودخل كثير من الفرس في الإسلام، لكن بعضهم لم يستطع التجرد من آثار تلك العقائد التي توارثوها أجيالاً متعاقبة ودهوراً طويلة، فانتقلت معهم إلى الحياة الجديدة وصُبغ بعضها بصبغة إسلامية، وظهر أثرها فيما بعد على الفرق التي تنتسب إلى الإسلام، وبخاصة الشيعة[٤٤٦]. وبمقتضى الحضارات التي كانت للفرس والروم نظر بعض من كان يمتُّ إليهم بسبب من الموالي أو السبايا أو أبنائهن إلى بعض المشكلات المستجدة على الحياة الإسلامية بعد انقطاع الوحي في ضوء ما كان لديهم من معايير وفكر، ولكن بلبوس الإسلام، فظهر الابتداع في أصول الدين، واستحدث الكلام في الرأي

---

(٤٤٢) حميد الطويل اختلف في اسم أبيه على عشرة أقوال، سمع من أنس بن مالك، وهو ثقة فيه تدليس، توفي في حدود سنة ١٤٢ هـ وهو يصلي، وله خمس وسبعون سنة. التمهيد ١٦٧/٢، سير أعلام النبلاء ١٦٤/٦، تاريخ دمشق ٢٥٥/١٥، تقريب التهذيب ص ٢٧٤.

(٤٤٣) مالك بن دينار، مولى بني ناجية، من الزهاد التابعين والأخيار الصالحين، كان محدثاً صدوقاً عابداً، توفي حوالي سنة ١٣٠ هـ. ثقات ابن حبان ٣٨٣/٥، تاريخ دمشق ٥٦/ ٣٩٣، سير أعلام النبلاء ٣٦٣/٥، تقريب التهذيب ٩١٥.

(٤٤٤) الأعمش، شيخ المقرئين والمحدثين، ثقة ثبت فصيح، وفيه تشيع يسير، مات سنة ١٤٧هـ وهو ابن ثمان وثمانين سنة. الذهبي، معرفة القراء الكبار (تحقيق: محمد سيد جاد، الطبعة= الأولى، دار الكتب الحديثة، القاهرة "د.ت") ٩٦/١، سير أعلام النبلاء ٢٢٦/٦.

(٤٤٥) انظر على سبيل المثال: تاريخ خليفة ص ١٣٨، فتوح البلدان ص ٣٨٥، تاريخ الطبري ١٥١/٢، ٣٦٤، الأغاني ٤٠٤/٤، المعجم الكبير ١٥٧/٢٠، طبقات المحدثين بأصبهان ٣٣٥/١، ٣٦٦، غزوات ابن حبيش ٢٤/٢، تاريخ دمشق ٤١٠/٣٧، ٤٩/٥٢، ٣٠٥/٦٠، والحسيني، محمد بن علي بن الحسن، أبو المحاسن (ت ٧٦٥هـ)، الإكمال لرجال أحمد (تحقيق عبد المعطي أمين قلعجي، جامعة الدراسات الإسلامية، كراتشي ١٤٠٩هـ) ص ٦٤٧، معجم البلدان ٤٧٠/٢.

(٤٤٦) أحمد أمين ، فجر الإسلام (الطبعة الحادية عشرة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٧٥م) ص ١١٢.

في أوائل الدولة العباسية[٤٤٧]، وكان علماء الإسلام حريصين على التمسك بنصوص الوحي واتباع آثار الرسول ﷺ وآثار أصحابه، وينفرون من اتباع الرأي، لأنه متى اتبع الرأي جاء رجل آخر برأي أقوى فيُتَّبَع وهكذا، كما قال الإمام مالك رحمه الله تعالى[٤٤٨]. كتب عثمان ﷺ في أول ولايته كتاباً إلى عامة الناس يأمر فيه بالاتباع والاقتداء، لأن في ذلك العلو والتمكين، ويحذر من الابتداع، ثم ذكر أن من أسباب ظهوره في هذه الأمة " بلوغ أولادكم من السبايا "[٤٤٩]، وهذا نظر ثاقب، وقول صحيح ، أثبتته الأيام والأحداث فيما بعد، فكان لأبناء السبايا أثر واضح في هذا الجانب؛ روي عن هشام بن عروة عن أبيه أن أمر بني إسرائيل لم يزل مستقيماً معتدلاً حتى ظهر فيهم المولَّدون؛ أبناء سبايا الأمم، فقالوا فيهم بالرأي، فضلوا وأضلوا[٤٥٠]. قال سفيان ابن عيينة[٤٥١]: فنظرنا في ذلك، فوجدنا ما حدث من الرأي - يعني في أمة محمد ﷺ - إنما هو من المولدين أبناء سبايا الأمم، وذكرَ بعض من كان بالمدينة وبالبصرة وبالكوفة[٤٥٢]، ثم قال: وجدنا ربيعة[٤٥٣] ابن سبي، والبتي[٤٥٤] ابن سبي، وأبا حنيفة[٤٥٥] ابن سبي، فنرى أن هذا من ذاك[٤٥٦].

- ومن الآثار السلبية التأثير على الحياة داخل البيت العربي المسلم الذي كانت تسوده البساطة بكل معانيها فدخلته عناصر من أجناس متعددة فارسية أو رومانية، أو سورية،

---

(٤٤٧) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، أبو العباس (ت ٧٢٨ هـ)، مجموع الفتاوى (جمع وترتيب عبدالرحمن بن قاسم وابنه محمد، طبع مجمع الملك فهد في المدينة المنورة١٤١٦ هـ) ٣١٨/٢٠.

(٤٤٨) تاريخ بغداد ٣٩٦/١٣.

(٤٤٩) تاريخ الطبري ٢٤٥/٤.

(٤٥٠) مصنف ابن أبي شيبة ٥٠٦/٧.

(٤٥١) سفيان بن عيينة بن أبي عمران بن ميمون الهلالي ولاء، أبو محمد الكوفي ، حافظ كبير ثقة، واسع العلم، حج سبعين حجة وتوفي سنة ١٩٨ هـ. تاريخ بغداد ١٧٤/٩، صفة الصفوة ٢٣١/٢.

(٤٥٢) الفتاوى ٣١٨/٢٠.

(٤٥٣) ربيعة بن أبي عبد الرحمن (فروخ) التيمي مولاهم، أبو عثمان المدني، المشهور بربيعة الرأي، قال ابن سعد: وكأنهم يتقونه للرأي، وهو ثقة فقيه حافظ مشهور، مات سنة ١٣٦. ابن سعد، الطبقات الكبرى (القسم المتمم = لتابعي أهل المدينة، تحقيق: زياد محمد منصور، الطبعة الثانية، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة ١٤٠٨هـ) ٣٢٠/١، الرازي، الجرح والتعديل ٤٧٥/٣، دول الإسلام ص ٩٢، تقريب التهذيب ص ٣٢٢.

(٤٥٤) عثمان بن أسلم أو سليمان بن جرموز البتي الزهري مولاهم، أبو عمرو البصري، ثقة صدوق كان صاحب رأي وفقه. طبقات ابن سعد ٢٥٧/٧، الجرح والتعديل ١٤٥/٦، ثقات ابن حبان ١٥٨/٥.

(٤٥٥) النعمان بن ثابت التيمي مولاهم، أبو حنيفة الكوفي، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة والجماعة، وهو صاحب الرأي، الفقيه المشهور، مات سنة ١٥٠ هـ في بغداد. طبقات ابن سعد ٣٦٨/٦-٣٦٩، تاريخ بغداد ٣٢٣/١٣، دول الإسلام ص ١٠٣.

(٤٥٦) تاريخ بغداد ٣٩٥/١٣.

أو مصرية تحمل هذه العناصر تأثيراتها المختلفة دينياً وأخلاقياً وسلوكياً وتربوياً واجتماعياً ولغوياً، فأصيب البيت المسلم بلوثة من تلكم التأثيرات ظهرت بعض سماتها سريعة، لكن التأثير القوي برز بصورة أوضح على الأجيال التالية التي عاصرت تلك التغيرات منذ عهد طفولتها. ولدينا مثال يبين مدى سرعة التأثر والتغير الذي أصاب أخلاق العرب الفاتحين في فترة وجيزة جداً، وهي ما بين فتح نهاوند وإمارة معاوية ﷺ؛ فقد روى الطبري عن سيف أن رجلاً من الدهاقين من ذوي الرأي عاشر المسلمين وخالطهم بعد فتح نهاوند، ثم جاء الكوفة في زمن معاوية ﷺ فلاحظ التغير الشديد في أخلاق القوم، فلما رمقهم وسبر حالهم عرف أن ذلك من قبل مولّديهم(٤٥٧). هكذا تغيير في الأخلاق وفي الطبائع والسلوك، وتأثير على الأولاد بنزع العروق إلى الأرومات الأصلية لتلك السبايا. ولاشك أن الطبائع المغروسة في النفوس يصعب التجرد منها تماماً، فتبقى منها عوالق كامنة تستتار في مناسبات معينة فيبرز أثرها.

وطبائع العرب وأخلاقهم حتى قبل الإسلام تختلف اختلافاً كلياً عن طبائع الأمم الأخرى التي فتحها المسلمون وأخذوا منها السبايا، فمثلاً يتميز العرب في مجال الغيرة على العرض والمحافظة على الشرف عن سائر الأمم؛ ولذلك لا تجد للزنى على سبيل المثال ذكراً في أوساط بيوتاتهم وإنما في أوساط أخرى غير صريحة ، ومن هنا يلاحظ أن بعض النساء العربيات ينقمعن حياء عندما يجري ذكره بحضرتهن، وبعضهن يتساءل باستغراب: " أوَ تزني الحرة "(٤٥٨) ؟!.

أرسل أبو موسى الأشعري ﷺ إلى عمر بن الخطاب يستشيره في جارية من السبي يريد أن يشتريها ليتخذها أم ولد، فكتب إليه ينهاه أن يتخذ منهن، لأنهم قوم لا يتعايرون بالزنا، ونُزع الحياء من وجوههم، وأشار عليه بجارية من سبايا العرب تحفظه في نفسها وتخلفه في ولده(٤٥٩).

ولا يُنكر أثر الجواري اللائى كنَّ يعشن قبلُ في بيوت الملوك أو الأمراء أو الكبراء وتخلقن بأخلاقهم، وتأدبن بآداب الحضارات اللاتي ينزعن إليها، ثم انتقلن بعد ذلك إلى البيوت المسلمة أن يكنَّ نقلن شيئاً مما هو مألوف في ظل حياتهن القديمة إلى الحياة الجديدة، كالغناء أو الطرب أو ما أشبه ذلك، لكن ليس بالصورة الواسعة المألوفة التي يومئ إليها صاحب كتاب فجر الإسلام(٤٦٠) ، والتي استقاها من كتاب الأغاني.

- روى ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي

---

(٤٥٧) تاريخ الطبري ٤/١٣٥-١٣٦.
(٤٥٨) مجمع الزوائد ٦/٣٧.
(٤٥٩) تاريخ دمشق ٣٨/٤٢٧.
(٤٦٠) أحمد أمين، فجر الإسلام ص ١٧٦-١٧٩.

صلى الله عليه وسلم : " إذا مشت أمتي بالمطيطاء وخدمها أبناء الملوك فارس والروم رد الله بأسهم بينهم وسلط شرارهم على خيارهم "(٤٦١)؛ مع ما في هذا الحديث من علامات نبوته صلى الله عليه وسلم، فيه إشارة إلى بعض الآثار السلبية التي سيحدثها دخول بنات فارس والروم السبايا خادمات في بيوت المسلمين، وأن ذلك سيؤدي ببعض المسلمين إلى الزهو والكبرياء، فيسلط الله تعالى بسبب ذلك الأشرار على الأخيار، وقد ظهر نوع من هذا التسليط كما في وقعة الحرة سنة ٦٣ هـ(٤٦٢).

- ومن الإفرازات السيئة لانتقال بعض السبي إلى حاضرة الإسلام في أيام انتشار الفتوحات الإسلامية وكثرة ورود السبي إليها أن ذلك حرك كوامن الحقد والحسد في قلوب فئام منهم على أمة الإسلام، وعلى حكامها خاصة، لأنهم رأوا عروشهم ثُلّت ودولهم قُوِّضت على أيديهم، فأكلت الغيرة قلوبهم، كما روى الشعبي أن أبا لؤلؤة فيروز المجوسي غلام المغيرة بن شعبة كان يتألم ويتحسر على سبي نهاوند ويمسح على رؤوسهم لما جيء بهم إلى المدينة، ويقول: أكل عمرُ كبدي، لأنه كان أصله من نهاوند(٤٦٣)، وكان الروم قد سبوه في حروبهم مع الفرس.

واستطاع هذا الخبيث أن يفجع أمة الإسلام بخليفتها الراشد عمر بن الخطاب ﷺ بعد مؤامرة دبرها مع بعض العناصر التي تشاركه التوجه؛ وفق بعض الروايات الصادرة عن شهود العيان .

لكن الله تعالى أعلم بحقيقة ذلك وهل كان عن ملأ أو انفراد. وقد كنا ألمحنا قبل إلى موقف عمر ﷺ من دخول السبي إلى المدينة وعرفنا كراهيته لهذا الأمر لولا أنه غُلب على أمره، فجاءت الوقائع مثبتة بعد نظره(٤٦٤).

---

(٤٦١) سنن الترمذي ٥٢٦/٤، وصحيح ابن حبان ١١٢/١٥، والهيثمي، موارد الظمآن (تحقيق: أحمد بن عبد الرزاق حمزة، دار الكتب العلمية، بيروت "د.ت") ٤٦٠/١، والمعجم الأوسط ٤٨/١، و ٥٣/٤. والمطيطاء: بمعنى التمطي وهو التبختر ومد اليدين. الزمخشري، الفائق في غريب الحديث (تحقيق: علي البجاوي، وزميله، الطبعة الثانية، دار المعرفة، بيروت "د.ت") ٣٧١/٣.

(٤٦٢) التباني، محمد العربي، إفادة الأبرار ببراءة الأخيار (الطبعة الثانية، دار الباز مكة المشرفة ١٤١٤ هـ) ٢٥٥/٢.

(٤٦٣) تاريخ الطبري ١٣٦/٤، تاريخ دمشق ٤٠٩/٤٤، البداية والنهاية ١١٢/٧.

(٤٦٤) وهو عبد الرحمن بن أبي بكر الذي رأى الهرمزان وأبا لؤلؤة وجفينة يتناجون، فسقط من بينهم خنجر فإذا هو الذي طعن به عمر، فخرج عبيد الله بن عمر في حالة غضب، فقتل الهرمزان وجفينة وابنة أبي لؤلؤة، وحلف أن لايترك بالمدينة سبياً، حتى ردعه الصحابة وأخذوا السيف منه - تاريخ دمشق ٦٢/٣٨.

وهكذا نرى كيف برزت بعض الآثار السيئة عن دخول السبي في أمة الإسلام، وكيف حدثت بعض التحولات في حياة المسلمين، وكيف كُسر الباب الذي كان موصَداً في وجه الفتن، فالله تعالى المستعان، ولكن هذه هي الحياة فليس في وقائعها غالباً خير محض أو شر محض، بل لابد من هذا وهذا، والأمة المحنكة هي التي تستطيع أن تحوز الخير كله أو جله، وتتحاشى الشر كله أو جله.

الخاتمة:

أبرز البحث أن دين الإسلام هو الدين الصحيح الذي يجب أن يُصار إليه على مستوى العالم، فمن وقف في سبيل تبليغه فقد عرَّض نفسَه وأهلَه للأسر والسباء، مع التنبيه أنه لم يكن من أهداف المسلمين في الجهاد الحصول على السبي، وإنما لكسر وإضعاف من يصد عن سبيل الله تعالى. وأن الله تعالى نفَّل المسلمين الغنائم في الجهاد، ومنها السبي ليقويّ قلوبهم ووعدهم بتحقق ذلك في فتوحاتهم لتكون عاجل بشرى لهم بما أعد لهم في الآخرة.

ولما تحقق لهم ذلك الموعود لم يبطروا بل عاملوا السبي بأعلى خلق وأسمى سلوك إنساني وأشرعت أبوابُ الحرية أوسعَ ما تكون، وردُّ السبي إلى أهله في حالات كثيرة فُصِّلت في البحث. وتزوج الرسول ﷺ والمسلمون من النساء السبايا، وهذا غاية ما تكون المواساة والتكريم.

ولما ارتد المرتدون وخذلوا المسلمين في أحرج المواقف سباهم المسلمون، ولكنهم لما آبوا وندموا رُدَّ عليهم سبيهم، حتى إذا كان عهد عمر ﷺ فودي من ظل منهم مسبياً وعاد السبي إلى عشائرهم.

ولما نهض المسلمون في الفتوحات بدأت قرى الكفر تتهاوى الواحدة بعد الأخرى في بلاد العراق وفارس والشام ومصر وغيرها مخلفة وراءها أعز ما تملك، فحاز المسلمون ذلك وتفيأوه، وحصل بأيديهم أعداد لا تحصى من السبي اقتسموه، وأرسلوا بأخماسه إلى خلفائهم في مدينة رسول الله ﷺ فوزعوه، وأعز الله تعالى بذلك الإسلام وأهله، وأذل الكفر وأهله، في وقائع كثيرة تجدد فيها هذا المعنى وتأكد، حتى وقعت بنات الملوك والأشراف سبايا بأيدي المسلمين وتحققت سنة من سنن الله تعالى برفع أوليائه وخفض أعدائه. ومما أبرز البحث أن السبي من فتوحات الشام كان أقل بكثير من سبي بلاد فارس والمشرق، لأن بلاد الشام لم تكن كتلك في اتساعها وكثرة مدنها وقراها ورساتيقها، ولأن أكثر أهل بلاد الشام صالحوا المسلمين فسلِموا من السبي.

ثم بعد بسط وتتبع لحالات السبي من خلال الفتوحات الإسلامية، وقف البحث مستجلياً

لأهم الآثار وأبرز النتائج التي تمخضت عن حدوث هذه الظاهرة الجديدة على المجتمعات الإسلامية إيجاباً أو سلباً، فأبرز ما تحقق بسببها من مصالح للمسلمين، من افتكاك الأسرى من العدو، أو شراء رقاب الأرقاء المسلمين وإعتاقهم برقاب من السبي غير المسلم، أو بيع السبي لسد الحاجة إلى المال أو الخيل أو السلاح أو الإبل، للتقوي على العدو، وبيّن أن وجود السبي سد فراغاً في شغل وظائف في المجتمعات الإسلامية، وأنه شارك في الجهاد ونشر الإسلام، وأن من أفضل ما أبرزه السبي تلك العناصر التي توجهت بكليتها نحو العلم وطرقت أبوابه المختلفة، وأبدعت فيه تعليماً وتصنيفاً، وذكر البحث نماذج لهذه الفئة.

ثم وقف أخيراً عند الدَّخَن الذي نتج عنه والآثار السلبية منه، كظهور الابتداع في الدين، وإحداث التغيير على الحياة الاجتماعية داخل البيت المسلم، وعلى الأخلاق والطباع والعادات والتقاليد. وأشار إلى بعض العناصر الخبيثة من السبي التي لم تنتفع من وجودها في حظيرة الإسلام وغاظها ما رأت من عز الإسلام وخذلان الكفر، فكادت الأمة المسلمة بخليفتها الراشد الذي تحققت على يديه أعظم الفتوحات وأهم الإنجازات.

العصور، المجلد الحادي عشر، الجزء الثاني، ٦٩ – ٧٦ (٢٠٠١م)

ثلاثة نقود فضية تيمورية غير منشورة باسم شاه رخ بن تيمورلنك ٨٠٧ ـ ٨٥٠ هـ/ ١٤٠٤ ـ ١٤٤٧م

د. خلف فارس الطراونة

خلاصة البحث:

تعد فترة حكم شاه رخ بن تيمورلنك أطول فترة زمنية لحاكم تيموري، تمكن خلالها من جعل الدولة التيمورية تحتفظ بقوتها رغم الانقسام الذي حصل لها بعد وفاته.

ولذلك تعتبر نقوده الفضية على قدر كبير من الأهمية لدراستها، الأمر الذي دفعني للبحث عنها، بحيث تمكنت من الحصول على ثلاثة دراهم تنشر لأول مرة، وتعد إضافات جديدة للنقود التيمورية بشكل عام ونقود شاه رخ بن تيمورلنك بشكل خاص.

فقد أكدت لنا تلك الدراهم التي تحمل التاريخ بالأرقام بدلاً من التواريخ الكتابية أنها تسبق بذلك النقود المملوكية التي حملت التاريخ بالأرقام بالفترة نفسها، إضافة إلى أن الأسرة التيمورية اعتمدت على النقود الفضية بشكل رئيسي أكثر من الذهب والنحاس.

مقدمة عامة:

حكمت الأسرة التيمورية في الفترة ما بين ٧٧١ – ٨٩٩هـ/ ١٣٧٠ – ١٤٩٤م. ويعد تيمورلنك هو المؤسس الحقيقي لها، ويعود بجذوره إلى قبيلة جوركان إحدى فروع قبيلة برلاس التترية وهو حفيد قراشور نويان وزير جقطاي الابن الثاني لجنكيزخان، أطلق عليه تيمور كوركان ومعناه صهر الملوك، واشتهر بأسماء واختلفت الروايات في أصل تيمور ولكنها أجمعت على أن تيمور تركي الأصل، وأن أمه تكية خاتون هي من سلالة جنكيز خان وأن اسم والدها تراغاي[1].

وعلى ما يبدو أن ظهور التيموريين كان سريعاً وخطرهم كان أسرع من ذلك، إذ استولى تيمورلنك في سرعة مدهشة على بلاد ما وراء النهر وجعل سمرقند عاصمة لبلاده، وما لبث أن احتل خراسان وهرات وطبرستان وجرجان، ثم زحف إلى مدينة تبريز واستولى

(١) ستانلي لين بول، الدول الإسلامية، القسم الثاني إضافات وتصحيحات بارتولد وخليل أدهم. نقله من التركية إلى العربية محمد صبحي فرزات وأشرف على ترجمته وعلق عليه محمد أحمد الدهان. طبع في مطبعة الملاح – دمشق. (١٩٧٤م) ص ٥٨٨-٥٨٩.

- حكيم أمين عبد السيد، قيام دولة المماليك الثانية. دار الكتاب العربي للطباعة والنشر. القاهرة – (١٩٦٧م)، ص ١٢١.
- أدوردفان زامباور، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي. أخرجه زكي محمد حسن وحسن أحمد محمود وترجم بعض فصوله سيده إسماعيل كاشف. =

عليها سنة ٧٨٨هـ / ١٣٨٦م[٢].

وكان من جراء فتوح تيمورلنك أن دولة ما وراء النهر بلغت درجة من الأهمية لم تبلغه من قبل فقد توسعت تلك الدولة من دلهي إلى دمشق ومن بحيرة آرال إلى خليج البصرة وأصبحت هراة في داخل خراسان مقر حكم شاه رخ أكثر الحكام التيموريين قوة[٣].

ونستطيع القول بأن شاه رخ بن تيمورلنك الذي حكم ما بين سنة ٨٠٧ ـ ٨٥٠هـ / ١٤٠٤ ـ ١٤٤٧م وهي أطول فترة حكم لحاكم تيموري تمكن من كسر شوكة الحرص التي تجلت لدى أقربائه فجعل الدولة التيمورية تحتفظ بقوتها مدة من الزمن، ولكن بعد وفاته سنة ٨٥٠هـ / ١٤٤٧م جرّ مملكته للانقسام إلى إمارات صغيرة هيأت للصفويين في إيران وللشيبانيين في بلاد ما وراء النهر طريقاً ممهداً للاستيلاء عليها، ومع ذلك فإن ضياع ممالكهم لم يطفئ أسرة تيمورلنك كلها، فقد أسس من هذه السلسلة بابرشاه في الهند دولة جديدة وكبيرة هي لدى الأوروبيين إمبراطورية المغول الكبرى "سلطنة الهند".

التاريخ بالأرقام:

لقد ذكر في آيات كثيرة من القرآن الكريم أرقام كتابية فمن الآحاد قوله تعالى: ﴿ ثاني اثنين ﴾ ومن العشرات قوله ﴿ تلك عشرة كاملة ﴾ ومن المئات قوله ﴿ ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً ﴾ ومن الألوف قوله ﴿ فلبث فيهم ألف سنة ﴾. وظهرت هذه الأرقام التي تكتب بالكلمات على النقود الأموية والعباسية والأيوبية والمملوكية ومعظم الدولة الإسلامية، ومثال ذلك، "ضرب هذا الدرهم بمدينة دمشق سنة مئة"، "ضرب هذا الدرهم بمدينة السلام سنة خمس وثلاثين ومئة"، "ضرب هذا الدرهم بالبصرة سنة ثلثماية"، "ضرب هذا الدرهم بشيراز سنة أربع وتسعين وخمس مية"، وهكذا حتى نهاية الدولة المملوكية[٤]. التي بدأت تظهر على بعض نقودها التواريخ بالأرقام كما في نقود السلطان الأشرف قايتباي الفضية لسنة ٨٧٩هـ[٥].

وعلى ما يبدو أن ذكر الأرقام على النقود كان أقدمها زمن الدولة المملوكية، ولكن نقود

= مطبعة الرائد العربي – بيروت – لبنان (١٩٨٠م)، ص ٤٠١.

E. Blochet, Les Inscriptions de Samarkand, Revue Archéologue, Paris. 1897), PP. 7-10.

(٢) أ. يو. يكوبوفسكي، تيمورلنك "وصف موجز لسيرة حياته". ترجمه عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم. مجلة دراسات، م١٥ ع ١٧، الجامعة الأردنية (١٩٨٨م)، ص ص ٩٢ ـ ١٤٨.

- عبدالسيد، الدول الإسلامية، ص ص ٥٨٨-٥٨٩.

(٣) لين بول، الدول الإسلامية، ص ٥٨٨-٥٨٩.

(٤) S. Album, Numismata Orientalia Illustrata, (New York, 1977), pp. 47-53.

(٥) رأفت محمد النبراوي، النقود الإسلامية في مصر عصر دولة المماليك الجراكسة. طبعة ثانية – القاهرة (١٩٦٦م)، ص ص ١٥٧-١٦٦.

شاه رخ بن تيمورلنك الفضية تحمل تواريخ بالأرقام أقدم من ذلك بكثير وعلى النحو التالي سنة ٨٣٠هـ، ٨٣٣هـ، ٨٣٧هـ[٦] (انظر لوحة (١) الأرقام ١، ٢، ٣). ومن ضرب مدن مهمة مثل شروان ويزد وأستراباد، مما زاد من أهمية هذه النقود الفضية[٧] التي ظهرت في عصر دولة المماليك البرجية وتحمل تاريخ سكها بالأرقام العربية وذلك منذ عهد السلطان الأشرف إينال لسنة ٨٥٧هـ. ومن النقود التيمورية التي ورد عليها تاريخ سكها بالأرقام نقود فضية باسم السلطان شاه رخ جاء بظهرها - ضرب / شيراز / ٨١٦هـ - وأخرى ضرب هراة سنة ٨١٩هـ، وقد جاء بمركز الظهر ألقاب واسم شاه رخ وبالسطر الأخير ورد تاريخ الضرب سنة ٨١٩هـ دون أن تسبقه كلمة سنة، وهناك الكثير من نقود شاه رخ عليها تاريخ سكها بالأرقام ضربت بدور ضرب مختلفة مثل أصفهان، وساري، ويزد، وخوارزم، وقم وقزوين[٨]. هذا نشر كل من ميشيل متشنر Michael Mitchiner[٩] درهم من ضرب مدينة يزد لسنة ٨٢٩هـ، إضافة إلى درهم نشره سعود ذياب Soud Theyab[١٠] ومن ضرب مدينة يزيد لسنة ٨٣٧هـ، ودرهم نشره لين بول[١١] Lane-Poole من ضرب مدينة أصفهان لسنة ٨٢٩ هـ، ونشر مايكل بروم[١٢] Michael Brome درهماً آخر من ضرب مدينة أصفهان لسنة ٨٣٠هـ. فهذه الأرقام التي استعملها العرب المسلمون لم تكن الهندية كما يقال، ولكن بعد أن كان العرب يكتبون الأعداد بالحروف وجدوا في طريقة الهنود سهولة ويسراً فاستخدموا النظام الذي اتبعوه على أن شكل الرقم العربي ليس كشكل الرقم الهندي وأن الذي أخذه العرب هو الفكرة القائمة على النظام العشري المعروف[١٣]. فقد هذب العرب بعضها واستعملوها ولكن الأخذ منها لم يكن

---

(٦) M. Mitchiner, The World of Islam. (London, 1977), pp. 278-281.

(٧) محمد باقر الحسيني، "مدن الضرب على النقود الإسلامية". مجلة المسكوكات ع ٥، مطبعة الجمهورية - بغداد، (١٩٧٤م) ص ١٠٦، ١١١، ١١٦.

- E. V. Zambaur, Diemun pragungen Gen Des Islams. (Wiesbandn, Germany, 1968), pp. 45, 144.

(٨) رأفت محمد النبراوي، التاريخ الهجري على النقود الإسلامية، مجلة العصور، المجلد الرابع، الجزء الثاني ١٩٨٩م، لندن - دار المريخ للنشر، ص ص ٢٢٤-١٤٤.

(٩) Mitchiner, p. 279, No. 1933.

(١٠) Saud Theyab, Monneies Islamiques de Musees, D'Arabe Saoudite, These de Doctorate Universite de Paris, Sorbonne, Paris IV, Avril, 1990, p. 419, No. 922.

(١١) Stanley, Lane-Poole, Catalogue of Oriental Coins in the British Museum, Vol. X London, 1890, p. 148, No. 64.

(١٢) Michael, Brome, A Handbook of Islamic Coins, London, 1985, p. 139, No. 218.

(١٣) سالم محمد الحميدة، الأرقام ورحلة الأرقام عبر التاريخ. بغداد (١٩٧٥م) ص ١٠٩.

- أحمد فهمي أبو الخير، علوم العرب الرياضية وانتقالها إلى أوروبة. القاهرة، (١٩٣٠م) ص ١٧-١٨.

حـرفياً؛ لأن شـكل الأرقـام الهـندية يختـلف اختلافاً واضحاً عن أشكال الأرقام العربية[١٤].

تعتبر النقود التيمورية على قدر كبير من الأهميـة ومـنها نقـود شـاه رخ بـن تيمورلـنك الفضية باعتباره أكثر حكامهم قوة وأطول فترة حكـم تميـزت خلالهـا نقـوده بتـنوع طـرازها ونـدرة مـا بقـي ونشـر مـنها. ويمكـن أن نعتـبر نقودهـم مـنذ الـبداية نقـوداً إسـلامية بكـتابات عربية ارتبطت أشكالها وقيمها بأوامر السلطة الـتيمورية إلا أنهـا حـافظت عـلى النصـوص الكتابيـة الإسـلاميـة دون التبعيـة لـلـدولـة المملـوكية، عـلماً بأنهـا عاصـرت أكـثر مـن خمسـة عشـر سـلطاناً مملـوكياً مـنهم ممـاليك بحـرية وممـاليك بـرجية[١٥]. فقد أظهـرت لـنا نقودهم الفضية أسماء لتيمورلنك وسيورغتمس وتيمـور كوركـان ومحمـود وشـاه رخ بـن تيمورلنك ومعظم أسرة سلالتهم حسب تواريخ حكمهم[١٦].

علاوة على تدوينها لأسماء ملوك وحكام وأمـراء أغفلـتهم الدراسـات والمصـنفات التاريخية، لذلك تعتبر وسيلتنا لتصحيح بعض الشـواهد الـتاريخية الـتي لـم تذكـر سـهواً أو أغفـلت عمـداً بحيـث تعكـس هـذه الحقـائق الـتغيرات فـي الأحـداث السياسـية فـي بـلد أو مديـنة أو تـتحدث لـنا عـن تطورهـا الـثقافية وعقيدتهـا الديـنية وعاداتهـا الاجـتماعية[١٧]. ولابـد مـن القـول أن الـنقود الـتيمورية كـانت أسبق من النقود المملوكية في تسجيل تـاريخ السك بالأرقام، ورغم ذلك فـإن تـاريخ السك بالأرقام ظهر على النقود الإسلامية على أقل تقدير منذ القرن السادس الهجري، ومنها درهم نحاس أرتقي محفوظ بمكتبة الملك فهد الوطنية بالـرياض ضـرب سنة ٥٦٨هـ، ومـنها أيضـاً فلس نحاس أرتقي ضرب آمد سنة ٦١٤هـ في عهد الملك ناصر الدين محمود بن محمد ٥٩١ – ٦١٩هـ. ومن الناحية الدينية فإن نقود شاه رخ بـن تيمورلـنك حمـلت أسـماء الخـلفاء الراشـدين "أبـو بكـر وعمـر وعـثمان وعـلي" بحيـث سـجلت عـلى الـنقود بصـيغ وألقـاب وأدعيـة مختـلفة لـتعكس اعتـناق أصـحابها لمذهب أهل السنة والجماعة[١٨].

---

(١٤) أحمد مطلوب، الأرقام العربية. كلية الآداب – جامعة بغداد. مؤسسة الرسالة – بيروت، ط٣، (١٩٨٣م) ص ٦٣-٦٤.

(١٥) سمير شما، النقود الإسلامية التي ضربت في فلسطين. مطـبعة الجمهوريـة – دمشـق (١٩٨٠م) ص ٦٣ – ٦٤.

(١٦) عـباس العـزاوي، تـاريخ الـنقود العـراقية لمـا بعد العهود العباسية ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م – = = – ١٣٣٥هـ / ١٩١٧م. شـركة الـتجارة والطباعة – الصالحية، بغداد (١٩٥٨م) ص ٦٢.

- R. J. Plant, Arabic Coins and how to read them. Seaby, London, 1973, p. 94.

(١٧) ألكسندر كشيشيان، ضـرب النقود العربية في أرمينية وتداولها داخل وخارج الإمبراطورية العربية. الجمعية الخيرية العمومية الأرمينية، حلب، طبعة أولى (١٩٧٧م)، ص ٥.

نقود شاه رخ بن تيمورلنك:

تعالج هذه الدراسة ثلاثة نقود فضية "درهم" تشكل ثلاثة طرز جديدة لم يسبق النشر عنها، وعلى ضوء ما تمكنت من الاطلاع عليه من كاتولوجات عربية وأجنبية وكتب ومقالات حديثة تتحدث عن النقود بشكل عام. والأهم من كل ذلك أن دراساتنا عن نقود شاه رخ بن تيمورلنك قليلة. وفيما يلي دراسة وصفية للكتابات التي عليها:

١- الطراز الأول:

الوجه



الظهر



النوع: فضة
الوزن: ٥,٠٧٧ غم
القطر: ٢١ ملم
المكان الحالي: متحف الآثار الأردنية.

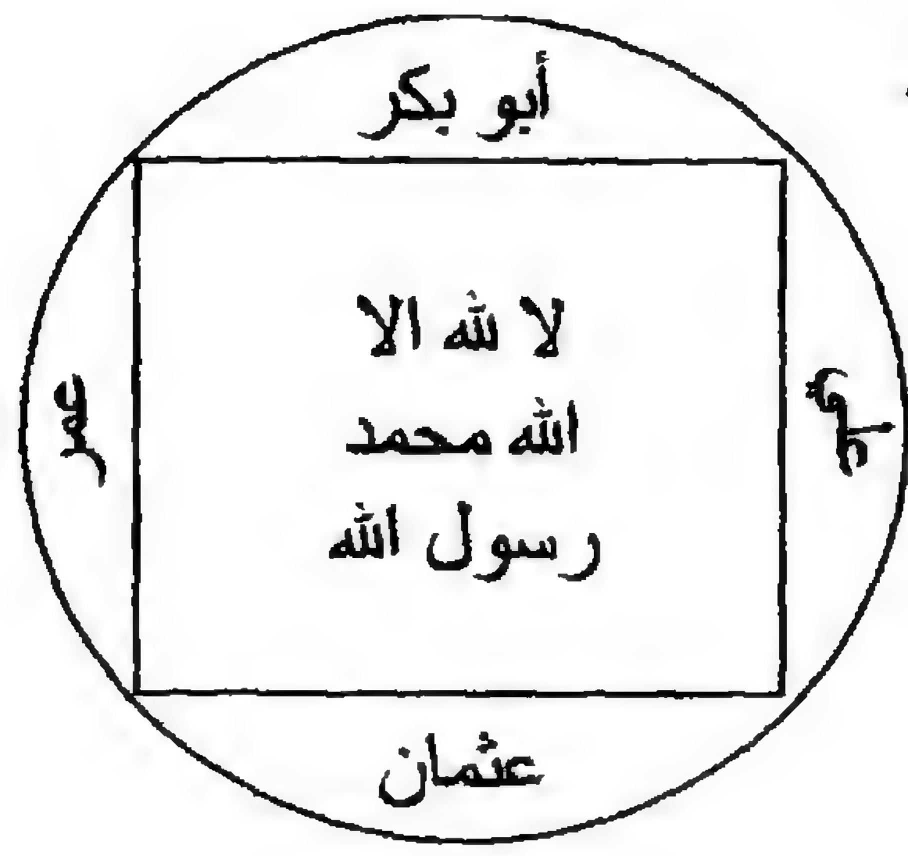
تتكون كتابات وجه الدرهم من ثلاثة أسطر كتابية أفقية ومتوازية / **لا الله إلا / الله محمد / رسول الله**، دونت داخل إطار مربع انحصر داخل إطار دائري قسم كتابات المدر إلى أربعة أقسام دون فيه أسماء الخلفاء الراشدين الأربعة "أبو بكر وعمر وعثمان وعلي" ظهر اسم "أبو بكر" بشكل مواز لكتابات السطر الأول وفوق إطار المربع، و"عمر" بشكل عمودي على يسار المربع و"عثمان" بشكل متواز لكتابات السطر الثالث ومن تحت المربع و"علي" دونت بشكل عمودي على يمين المربع، وظهرت كتابات ظهر الدرهم بخمسة أسطر أفقية متوازية جاء فيها: **ضرب يزد / السلطان الأعظم / شاه رخ بهادر خلد الله / ملكه وسلطانه / سنة ٨٣٠**. دون حرف "النون" من اسم السلطان فوق حرف "الألف" وظهر حرف "الراء" من اسم رخ فوق حرف "الشين" وجاء حرف "الدال" من بهادر فوق حرف "الهاء" وحرف "الراء" فوق حرف "الألف" كما جاء حرف "الواو" من السطر الكتابي الرابع فوق حرف "السين" من اسم السلطان. انظر لوحة (١) رقم (١). وتقرأ كتابة ظهر هذا الدرهم هكذا: "السلطان الأعظم شا رخ بهادر خلد الله ملكه وسلطانه ضرب يزد سنة ٨٣٠". وعن معنى كلمة بهادر فهو كما ذكر في الفارسية والآردية تعني البطل.

---

(١٨) رأفت محمد النبراوي، النقود الإسلامية منذ بداية القرن السادس وحتى نهاية القرن = التاسع الهجري مكتب زهراء الشرق، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ١٢.

٢- الطراز الثاني:

الوجه



الظهر



النوع: فضة

الوزن: ٤,٩٠٨ غم

القطر: ٢٢ ملم

المكان الحالي: متحف الآثار الأردني.

يتشابه هذا الطراز مع الطراز الأول بالنسبة لكتابات الوجه مع اختلاف بسيط وهو كما في السطر الكتابي الأول فقد دون فيه "الله" بدل "إله" وأعتقد أنه خطأ وقع فيه النقاش بتوصيله أحرف "الألف واللام هاء" مع بعضها بعضاً، بحيث ظهرت كأنها كتابة "الله".

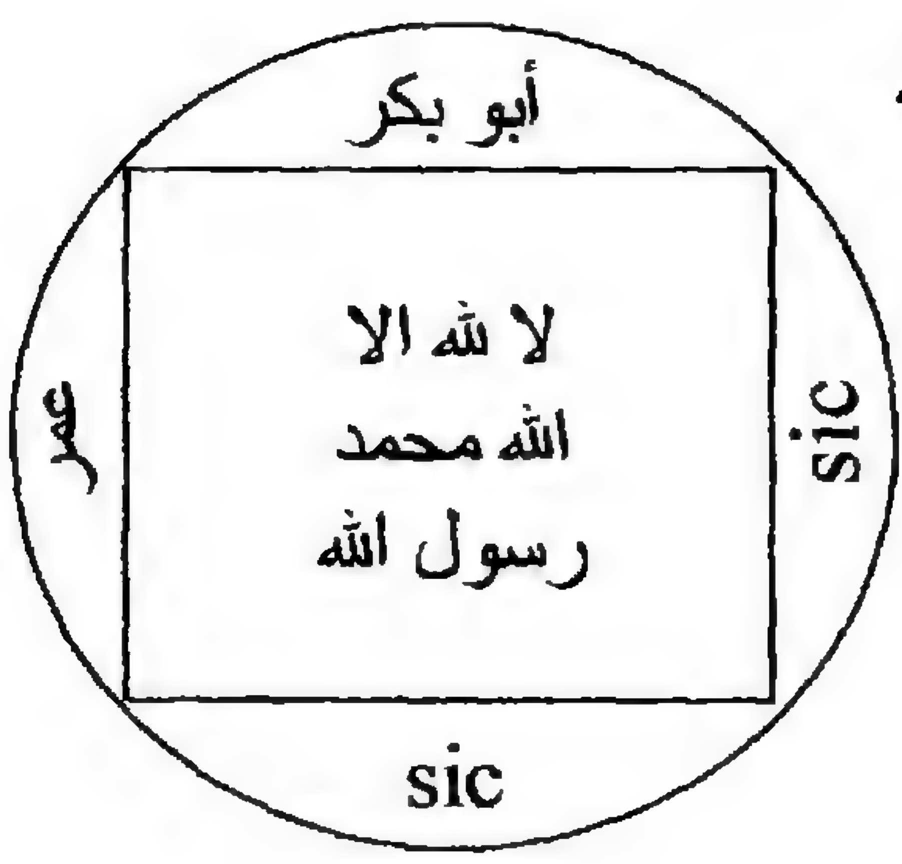
أما كتابات ظهر هذا الطراز فقد دونت بخمسة أسطر كتابية متوازية جاء في السطر الكتابي الثاني اسم السلطان ظهر فيه حرف "النون" فوق حرف "السين" وحرف "الراء" فوق حرف "الشين" من اسم شاه وحرفا "الدال والراء" من بهادر فوق حرف "الألف". وحرف الألف من "شروان" يتقاطع مع حرف "الواو". انظر لوحة (١) رقم (٢). ظهرت كتابته كما يلي: **ضرب / السلطان الأعظم / شاه رخ بهادر خند الله / ملكه وسلطانه / شروان ٨٣٣**.

وتقرأ على النحو التالي:

"السلطان الأعظم شاه رخ بهادر خلد الله ملكه وسلطانه ضرب شروان ٨٣٣".

٣- الطراز الثالث:

الوجه



الظهر



النوع: فضة

الوزن: ٥,١٠٥ غم

القطر: ٢١ ملم

المكان الحالي: متحف الآثار الأردني.

يتشابه هذا الطراز مع الطرازين الأول

والثاني من حيث كتابات الوجه وعدد الأسطر الكتابية وطريقة تدوينها. ولكن ينفرد عنهما بالنسبة لكتابات الظهر فقد جاءت داخل إطار دائري بأربعة أسطر كتابية متوازية دون في السطر الكتابي الأول رقم "٨٣٧" تبعه "ضرب" وجاءت كتابة اسم مدينة الضرب "استرا" مقسومة إلى ثلاثة أقسام تحيط بعنصر زخرفي نباتي، ظهر حرف "الألف" الأول قبل العنصر الزخرفي والألف الأخيرة بعد العنصر الزخرفي وأحرف "السين والتاء والراء" مع بعضها بعضاً بسطر كتابي واحد. وقد أحيط بالإطار الدائري كتابة تسير باتجاه عقارب الساعة وعلى النحو التالي:

"**خلد الله ملكه وسلطانه**" ولم تكتمل الكتابة بسبب طمس بعض أجزاء الدرهم مع العلم أن حرف "النون" من اسم السلطان دونت فوق حرف "السين". وتقرأ الكتابة كما يلي: **٨٣٧ / ضرب / استرباد / خلد الله ملكه وسلطانه**. بحيث تشير هذه العبارة إلى دوام الملك والسلطان له من الله سبحانه وتعالى. أما لقب "السلطان الأعظم" التي تكرر ذكرها على الدرهم الأول والثاني فكلاهما يشير إلى أن السلطان تعني الحجة والبرهان، ولقد ورد في آيات كثيرة من القرآن الكريم، وأصبح لقباً عاماً على المستقلين من الولاة يضرب على نقودهم، والأعظم من العظمة بمعنى الكبرياء وهو يستعمل مع الإمام والسلطان ومن في معناهما، فيقال الإمام الأعظم ولكن في حالة تفرعه عن لقب سلطان فهو يشير إلى سعة النفوذ وقدرة على السيطرة على مجمل الأمور العامة(١٩). انظر لوحة (١) رقم (٣).

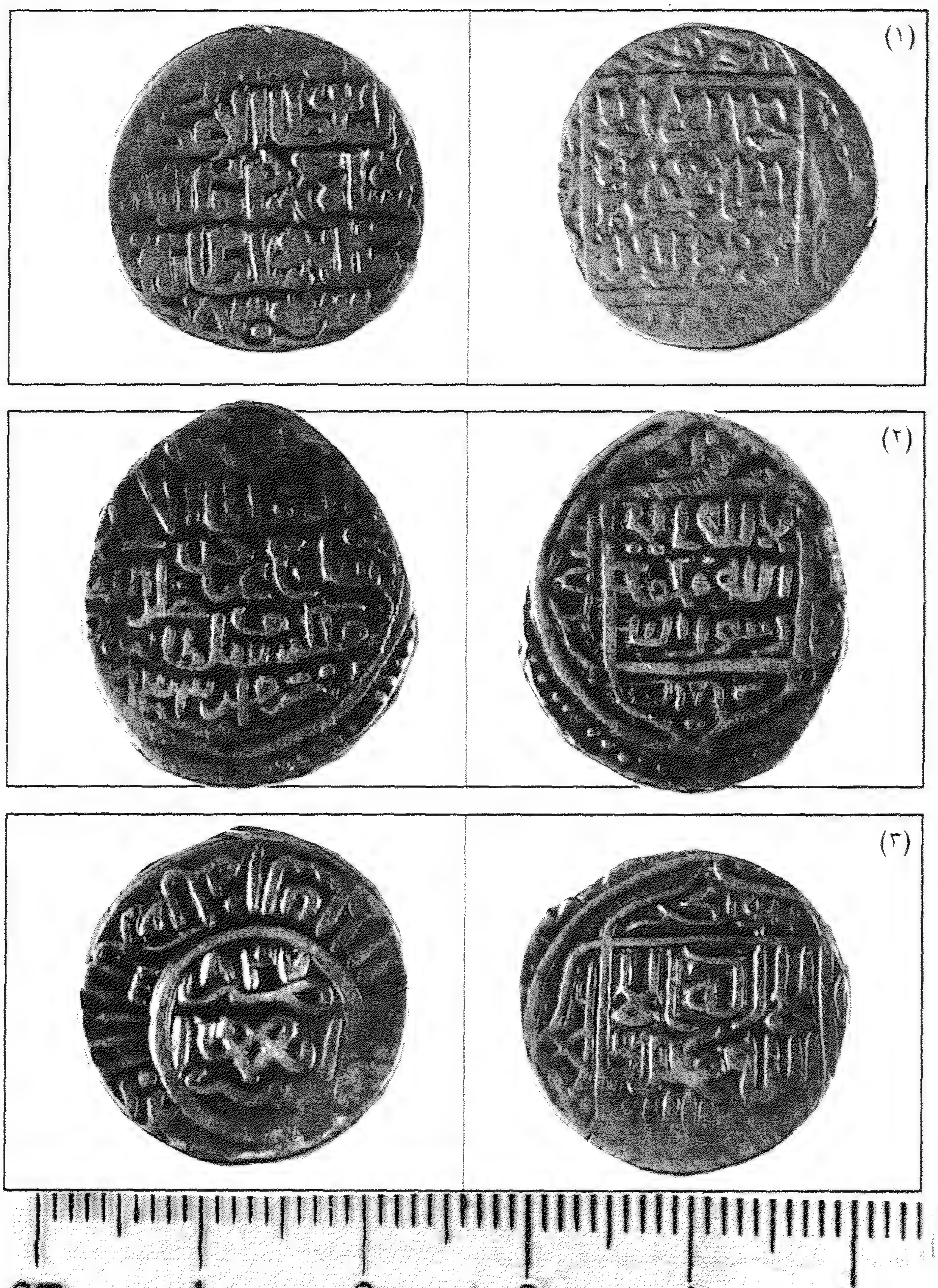
النتيجة:

توصلت الدراسة إلى أن الأسرة التيمورية اعتمدت على معدن الفضة أكثر من معدن الذهب والنحاس، على الرغم من أهمية النقود الفضية وخصوصاً نقود شاه رخ بن تيمورلنك التي تحمل تواريخ رقمية، وذلك اعتماداً على نشر ثلاثة دراهم جديدة من مقتنيات متحف الآثار الأردني – عمان والتي تميزت بارتفاع أوزانها مقارنة مع مثيلاتها المنشورة.

---

(١٩) حسن الباشا، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٨م، ص ٣٢٣، ٣٣٠.

لوحة رقم (١)



العصور، المجلد الحادي عشر ، الجزء الثاني ، ٧٧ – ٩٨ (٢٠٠١م)

مكانـة سليمـان القانـوني وأثره في تاريخ الشرق والغرب
٩٢٧ ـ ٩٧٤ هـ/ ١٥٢٠ ـ ١٥٦٦ م

د. فهمي توفيق محمد مقبل

خلاصة البحث:

حفلت حياة سليمان القانوني بالأحداث التاريخية الكبرى، كما كانت مليئة بالإنجازات التاريخية، ففتوحاته في الشرق والغرب أدخلته التاريخ من أوسع أبوابه، وجسدته قائداً (سلطاناً) عظيماً، لتظل شخصيته ـ التي اختلفت عن شخصية والده (سليم الأول) ـ حية في ذهن شعبه التركي (العثماني) والأمة الإسلامية والعالم، بفضل ما اشتهر عنه من عدل وتسامح وإصداره "قانوننامة" (مجموعة من القوانين) ليعرفه عالمه الداخلي (التركي) باسم "القانوني" والخارجي الأوربي باسم "العظيم".

لكن من المفارقات اللافتة (المؤسفة الغامضة) في حياة القانوني، أنه في الوقت الذي كان فيه عدواً لدوداً للغرب الأوربي ـ مستأنفاً فتوحاته فيه بعد أن ربط أبوه سليم العالم العربي بالعالم الأوربي ـ منحها "امتيازات" اقتصادية وثقافية ودينية في الأقطار العربية، رأى فيها مؤرخون كثر (عرب وعجم) أنها فتحت الطريق أمام النفوذ الاستعماري الأوربي لبلادنا. ليحقق في النهاية أطماعه الاستعمارية فيها، بل وليقوض أسس الدولة العثمانية نفسها تمهيداً لإسقاطها وإلغائها!

توطئة:

في خضم أحداث دولية كبرى مثيرة ومتغيرات إقليمية مؤثرة فسحت الطريق لطي صفحة من التاريخ وفتح صفحة جديدة[1] بدأت بتسلم

---

(١) لعل أبرز هذه الأحداث التاريخية الكبرى ـ التي شهدها الشرق والغرب في آن ـ سيطرة العثمانيين على الوطن العربي، ثم ظهور =

سليمان[٢] عرش السلطنة العثمانية خلفاً لأبيه سليم الأول (٩١٨- ٩٢٧هـ/١٥١٢-١٥٢٠م) ليكتب اسمه في صفحات التاريخ، كأشهر سلاطين سلالة آل عثمان الحاكمة، وواحد من أعظم شخصيات التاريخ العالمي، وليجعل من عصره عصراً ذهبياً، ببلوغ السلطنة العثمانية في عهده أوج قوتها وعنفوانها وأقصى درجات الكمال هيبة ورفعة ومكانة، حتى أضحت خليقة بلقب "إمبراطورية" دولة عالمية، أو القوة العظمى في العالم والأدوم ذكراً على امتداد التاريخ العثماني الطويل.

"ففي زمنه وحتى أيامنا كان القانوني بالنسبة للغرب كما بالنسبة للشرق رمز عظمة كان هو المستفيد منها كما كان هو صانعها".[٣]

التشابه والتباين بين (سليمان) الابن وأبيه (سليم):

في الوقت الذي سار فيه الابن سليمان الأول "القانوني" على خطى أبيه سليم الأول ممتشقاً سيفه (سيف العثمانيين) فاتحاً في الغرب تارة وفي الشرق تارة أخرى، ومحاكياً

= نتائج الكشوف الجغرافية في العالم الجديد وأهميتها الاستراتيجية الباهرة، وتجدد الصراعات بين ملوك أوربا وأمرائها وكان أكثرها شراسة تناحر الملك تشارلز الخامس Charles V ملك إسبانيا الاستعمارية (٩٢٢هـ / ١٥١٦م) من جهة وغريمه الأول فرنسيس الأول Francis I (٩٢١-٩٥٤هـ / ١٥١٥-١٥٤٧م) ملك فرنسا من جهة أخرى. هذا إلى جانب ظهور المصلح الديني مارتن لوثر Martin Luther (٨٨٨-٩٥٣هـ / ١٤٨٣-١٥٤٦م) كما ظهر في الوقت نفسه ايفان الرابع "الرهيب" Ivan IV "The Terrible" قيصر روسيا (٩٥٤- ٩٩٢هـ / ١٥٤٧-١٥٨٤م). انظر See Merle Severy, The World of Suleyman the Magnificent, in National Geographic (Magazine) Vol.172, No.5 November 1987, P.552. وقارن أحمد عبدالرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، بيروت، القاهرة - ١٩٨٢م ، ص ٩٤ وما بعدها. أيضاً فهمي توفيق مقبل، دور العرب في اكتشاف العالم الجديد (أمريكا) دار الثقافة، القاهرة، ١٩٩٤م، هنا وهناك.

(٢) سليمان الأول القانوني (عاشر سلاطين آل = عثمان) من مواليد عام (٩٠٠هـ / ١٤٩٥م) وتولى مقاليد الحكم خلفاً لأبيه السلطان سليم الأول، وحكم مدة ٤٦ سنة (٩٢٧-٩٧٤هـ / ١٥٢٠-١٥٦٦م) وقد اشتهر بألقاب عدة غير القانوني منها: الأكبر، العظيم، ظل الله على الأرض، ملك ملوك الأرض شرقاً وغرباً... إلخ. ومن الجدير بالذكر أن على الأمير الذي ينتسب لأسرة عثمان أن يحترف مهنة ويتقنها إلى جانب مهارته في الحكم والقتال، وانسجاماً مع هذا المبدأ تربى سليمان منذ نعومة أظفاره على حرفة الصياغة، في مسقط رأسه مدينة طرابيزون Trebizoned. انظر Severy, op. cit., p.567. للمزيد انظر محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، ط٢، ١٩٨٣م، ص ١٩٨، وما بعدها، أيضاً جيل فينشتاين، " الإمبراطورية في عظمتها - القرن ١٦م " في تاريخ الدولة العثمانية (كتاب) إشراف روبير مانتران، ترجمة بشير السباعي، ج١، دار الفكر للدراسات - بالتعاون مع البعثة الفرنسية للأبحاث والتعاون - القاهرة، باريس، ١٩٩٣م، ص ٢٣٧. وقد صدر الأصل الفرنسي للكتاب سنة ١٩٨٩م عن دار فايار في باريس بعنوان: Histoire De L Empire Ottoman, Sous la direction Robert Mantran, Fayard (Librairie) Paris, 1989.

(٣) انظر فينشتاين، المرجع السابق، ج١، ص٢٣٧. أيضاً فريد بك، المرجع السابق، ص ١٩٨.

والده بالحيوية الذهنية والجسدية وشغفه بضروب الأدب والشعر والتاريخ، وبتوقيره رجال العلم والدين وإنزالهم المنزلة الكريمة في مجالسه، فإنه في الوقت نفسه سار في اتجاه معاكس لمعظم سياسات أبيه الداخلية منها والخارجية. فعلى نقيض أبيه الذي اشتهر في الكثير من مواقفه بالقسوة والتشدد وعدم الرحمة مع أعدائه في الداخل والخارج، فقد اتخذ سليمان من سياسة التسامح والاعتدال والعدل نهجاً في التعامل مع رجال دولته ورعيته، وطبقها بمنتهى الشفافية. وقد توج أول أعماله الرسمية ببناء ضريح (مسجد) ومدرسة وفاء وتخليداً لذكرى والده. كما قام بإطلاق سراح ١٥٠٠ من أسرى الحرب المصريين (المماليك) والإيرانيين (الصفويين). ومما يعتبر من آيات إنصافه تعويضه التجار عن بضائعهم التي صادرها والده (سليم) نتيجة الإجراءات التي اتخذها في أثناء حربه مع الصفويين في إيران، هذا في الوقت الذي شنّ فيه حرباً - لا هوادة فيها - على الفساد بفرضه عقوبات صارمة على الخارجين عن القانون مهما كانت مناصبهم ورتبهم ومكانتهم، مؤكداً حماية أرواح الأشخاص وأملاكهم وشرفهم أياً كانت أصولهم ومنابتهم وعقائدهم.[٤] وتنظيمه كذلك للضرائب، والتشديد على رجال الشرطة التأكد من طاعة أحكام المحاكم وقوانينها، وحذر موظفي الدولة من الطغيان بالافتئات على حقوق الرعايا جاعلاً الكفاءة معياراً للتعيين والترقية.

وصوناً لهذه القرارات والإجراءات قام بإصدار ما يعرف بـ"قانوننامة" (مجموعة القوانين) الذي اشتهر بسببها باسم "القانوني" وبصفات التقوى والشهامة والمثل الأعلى للعدالة، ونتيجة لذلك حظي بتأييدٍ واسع النطاق محلياً وعالمياً.[٥]

لاغرو، إذ اتفق مؤرخون في الشرق والغرب على اعتبار عصر سليمان القانوني من أزهى عصور الدولة العثمانية بما شهده من نهضة علمية شاملة تزامنت مع الاستكشافات العلمية والجغرافية الأوربية الكبرى، لكن العثمانيين حققوا تفوقاً – في هذا العصر – على الدول الأوربية عسكرياً وسياسياً وإدارياً وعلمياً. موطدين أقدامهم شرقاً وغرباً وبدا لأوربا أنهم العدو الذي لا يقهر، فتسابق ملوك أوربا وأمراؤها على خطب ودهم والتزلف إليهم، كما رأى المسلمون فيهم جيش خلاص ينقذهم من تهديدات أعداء دينهم (الإسبان والبرتغاليون)

---

(٤) لمعرفة البلدان التي جرى ضمها (عثمنتها) كلياً أوجزئياً في الشرق والغرب وعدد سكانها والتوسع الديموغرافي عموماً في زمن سليمان القانوني بخاصة، والتي تشكل كمجموعات جنسية ولغوية ودينية البنيان الكلي للدولة العثمانية. انظر فينشتاين، المرجع السابق، ج١، ص٢٣٩، ٢٤١. أيضاً مصطفى، المرجع السابق، ص٩. كذلك Severy, op. cit., p.552؛ =

= موفق بني المرجة، صحوة الرجل المريض أوالسلطان عبدالحميد الثاني والخلافة الإسلامية، ط٨، دار البيارق، بيروت، ١٩٩٦م، ص ٤٢.

(٥) انظر مصطفى، المرجع السابق، ص ص٨٨-٨٩، ١٠٠. أيضاً Severy, op. cit. , p.569. كذلك قدري قلعجي، الخليج العربي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٥م، ص٣٧٢.

فـي الخـليج العـربي والـحـوض الـغـربي للبحر المتوسط بخاصة.[٦]

القـانوني – مكانـتـه وعلاقـتـه مـع الشـرق وأثره فيه:

لا ريب أن ثمة انقلاباً – استثنائياً تاريخياً – في الخطط الإستراتيجية للدولة العثمانية وقع في عهد سليم الأول (٩١٨–٩٢٧هـ / ١٥١٢–١٥٢٠م) عندما أوقف الزحف العثماني صوب الغـرب، واتجـه بـه صـوب الشـرق بعامـة والوطن العربي بخاصة. "حقيقة أن الفتوحات العثمانية لم تنقطع البتة في الجبهة الغربية، ولكن لاشك في أن مركـز الثقل في التوسع العثماني قد انتقل نهائياً من الغـرب إلـى الشـرق منذ بدايـات القـرن (١٠هـ/ ١٦م) حتى يمكن القول أن موقف الدولة العثمانية في الجبهة الغربية - منذئذٍ – بات موقفاً دفاعياً أكثر منه هجومياً."[٧] وأياً كانت نتائج هذا الانقلاب على مستقبل الدولة العثمانية، فإنه من المؤكد أن سيطرة العثمانيين على الوطن العربي أعادت له وحدته السياسية، التي فقدها إثر سقوط الخلافة العباسية سنة (٦٥٦هـ / ١٢٥٨م). بيد أن حالة الوطن العربي عشية زحف العثمانيين نحوه لم تكن تختلف كثيراً عن حالته عند سقوط بغداد بأيدي المغول قبل ٢٥٨ سنة. فالانقسامات الداخلية نخرت عظام الدويلات والإمارات والمشيخات الصغيرة المبعثرة، وأوهنت أوصالها وفككتها، حتى أضحت في أضعف حال وأسوأ مآل.[٨]

مهما يكن من أمر، فإن السلطان سليم الأول وخليفته ابنه سليمان كانا بعد ضم البلاد العربية إلى كيان الدولة العثمانية حريصين تماماً على استقرار الأوضاع الداخلية في البلاد العربية، وعدم اتخاذ أي إجراءات من شأنها أن تمس العرب، خصوصاً فيما يتصل بخصوصيتهم الثقافية ولسانهم العربي.. هذا في الوقت الذي أحدثت الفتوحات العثمانية في الشرق بخاصة تأثراً وتأثيراً متبادلاً بين الدولة العثمانية نفسها من جهة، وبين مجتمعات

(٦) انظر بني المرجة، المرجع السابق، ص٤١. انظر كذلك Marshall G. H. Hodgson, The Venture of Islam - Conscience and History in a World Civilization - Vol.3, The University of Chicago press, Chicago and London, 1974, pp.100,107-110,121.

(٧) انظر محمد أنيس، الدولة العثمانية والشرق العربي (١٥١٤ – ١٩١٤)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٠م، ص١٠٢، كذلك Hodgson, op. cit., p.131.

(٨) للوقوف على حالة الوطن العربي عشية طرق العثمانيين لأبوابه، وانتصارهم الحاسم على المماليك بقيادة الملك الأشرف قانصوه الغوري = (٩٠٧-٩٢٢هـ / ١٥٠١-١٥١٦م) في مرج دابق (إلى الشمال الغربي من حلب) سنة (٩٢٢هـ / ١٥١٦م) وعلى طومان باي الثاني (٩٢٢هـ / ١٥١٦-١٩١٧) نائب الغوري في مصر وخليفته بعد مقتله، وذلك في موقعة الريدانية وهي (العباسية اليوم – على أبواب القاهرة) سنة (٩٢٢هـ / ١٥١٧م) انظر رأفت الشيخ، في تاريخ العرب الحديث، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٩٢م، ص ص ٢٠-٢٢. انظر كذلك حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٨٧، ص ص ٣٥٨-٣٥٩؛ علي حسون، تاريخ الدولة العثمانية، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٢م، ص ٤٨؛ أنيس، المرجع السابق، ص ٤٠.

الشرق الأدنى والأوسط من جهة أخرى – المجتمع العربي على وجه الخصوص – اللذين خضعا للسيطرة العثمانية قرابة ٤٠٠ سنة.. لكن في المحصلة النهائية يلاحظ أن "الفتوحات العثمانية صبغت الدولة العثمانية بصبغة شرقية بدخول بلاد إسلامية عريقة في إسلاميتها وعروبتها داخل نطاق هذه الدولة العالمية"(٩) التي باتت تبسط سيطرتها على أراضٍ شاسعة تمتد عبر القارات الثلاث (أوربا وآسيا وإفريقيا) مما جعلها خليقة أن توضع في مصاف أوسع الكيانات السياسية التي عرفها التاريخ العالمي.(١٠)

لا جدال أن العرب بعد خضوعهم للدولة العثمانية الفتية – سواء في مشرق وطنهم أم مغربه – ظلوا ردحاً من الدهر ينظرون إلى العثمانيين نظرة ملؤها الثقة والاحترام تعاظم دورهم كحماة للدين الإسلامي والمبشرين بعودة الروح للخلافة الإسلامية! وتصديهم لتهديدات القوى الأوربية الاستعمارية لأقطارهم عصرئذ.. ولعل هذه النظرة ازدادت تأصلاً بعد أوبة البلاد العربية إلى وحدتها الجغرافية والسياسية في ظل الوجود العثماني، بعد أن وصل حالها إلى الحضيض – كما رأينا فيما تقدم – وصارت كيانات متناحرة متنافرة متدابرة متباعدة. وبعد أن عجز المماليك عن إحداث أي تغيير إيجابي يخرجهم من حالة الركود والتردي ويتسارع نحو الأسوأ. كما أصبح مصيرهم معلقاً – أكثر من أي وقت مضى – بالعثمانيين، بعد أن ألحق البرتغاليون بالمماليك هزيمة نكراء مدوية، في موقعة ديو Diu البحرية (ثغر يقع إلى الشمال الغربي من مدينة بومباي – الهند) سنة (٩١٥هـ / ١٥٠٩م). والتي نجم عنها استفحال الخطر البرتغالي في مشرق الوطن العربي من جهة، والإسبان في مغربه من جهة أخرى، ومن ثم تهديد البرتغاليين للمقدسات الإسلامية في مكة والمدينة يدفعهم التعصب الأعمى والعداء المشبع بالحقد والكراهية للعرب والمسلمين الناتج عن غيظهم الشديد على الوجود العربي الإسلامي في الأندلس – الذي دام نحو ثمانية قرون – (٨٩٢-٨٩٨هـ / ٧١١ -١٤٩٢م) ولإخفاق الحروب الصليبية (٤٨٨-٦٩١هـ / ١٠٩٥-١٢٩١م) في تحقيق أهدافها وأطماعها في العالم العربي. مقتنعين بأعمال الكشف الجغرافي الذي جاء كثمرة من ثمار النهضة الأوربية الحديثة، التي بدورها

---

(٩) انظر أنيس، المرجع السابق، ص ١٤١، كذلك انظر محمد بيرم التونسي، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ج١، دار صادر، بيروت، صورة عن النسخة الأصلية، طبعة المطبعة الإعلامية بمصر (القاهرة) (١٣٠٢هـ / ١٨٨٤م)، ص٣ من الباب الثالث. وقارن Cf. Bernard Lewis, The Arabs in History, Hutchinson, London, 1977, pp.16=

ff. Also George W. F. Stripling, The = Ottoman Turks and The Arabs (1511-1574) Porcupine press Philadelphia - Penncylvania, U.S.A. , 1977, p.59.

(١٠) انظر فنيشتاين، المرجع السابق، ج١، ص ٢٣٨، أيضاً انظر See Lewis, op. cit., p.17؛ بني المرجة، المرجع السابق، ص ٤١.

نهلت من منابع الحضارة العربية الإسلامية وارتوت من وعاء حكمتها الأنقى حتى الثمالة.(١١)

لا ريب أن العثمانيين شكلوا للعرب بخاصة والمسلمين بعامة مخرجاً آمناً ونافذة نجاة أنقذهم من حالة الهلع التي سببتها تهديدات القوى الاستعمارية الأوربية- البرتغالية الإسبانية – ساعتئذ. وخير مثال على ذلك وقوف سليمان القانوني إلى جانب عرب المغرب في مواجهة الأسطول الإسباني بتكليفه خير الدين بربروسا Barbarossa(١٢) بالتصدي للأسطول الإسباني بزعامة أسرة آل هابسبورج Habsburg الملكية (١٣) فأقلع لهذا الغرض – من إسطنبول سنة (٩٤١هـ / ١٥٣٥م) بعد أن كانعينه القانوني أميراً للبحر سنة (٩٤٠هـ / ١٥٣٤م) – مجهزاً بالعدة والعدد ليلحق بالبحرية الإسبانية هزائم عدة توجت بهزيمة نكراء مشهودة أدخلتها الكتب التاريخية باسم معركة كورفز سنة (٩٤٥هـ / ١٥٣٨م) تم فيها تحطيم الأرمادا الصليبية (الأسطول الإسباني) بقيادة اندريه دورية، لتنعم بعدها بلاد المغرب العربي – طوال عهد سليمان القانوني- بالاستقرار والهدوء النسبي(١٤). هذا في الوقت الذي تخلصت فيه ليبيا من نير احتلال " فرسان القديس يوحنا " الذين ورثوها هدية من الإسبان سنة (٩٤٢هـ / ١٥٣٥م). بعد أن احتلها الإسبان بدورهم سنة (٩١٦ هـ /

(١١) انظر Stripling, op. cit., p.63. كذلك الشيخ، المرجع السابق، ص ٢٨ و ٣٤؛ أيضاً فاروق أباظة، " القوى البحرية الإسلامية ومواجهة النشاط البحري الاستعماري في فجر العصور الحديثة " في المؤرخ العربي (مجلة) مقدم إلى ندوة " الحضارة الإسلامية وعالم البحار " التي عقدها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، الفترة (٦-٨ تشرين الأول – نوفمبر) ١٩٩٣م، ص ص ٣٤٢ – ٣٤٣.

(١٢) للتعرف على الجذور التاريخية لأسرة آل بربروس، وأصلهم ودورهم في الدولة العثمانية في المجال البحري بخاصة، انظر فريد بك، المرجع السابق، ص ٢٣٠؛ محمود السيد الدغيم، " أضواء على تاريخ البحرية الإسلامية العثمانية حتى نهاية عهد السلطان سليم " في المؤرخ العربي (مجلة) مقدم إلى " ندوة الحضارة الإسلامية وعالم البحار " التي عقدها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، الفترة (٦-٨ تشرين الأول – نوفمبر) ١٩٩٣م، ص ٣٩٦، وراجع الهامش ١٠٠= = من المرجع نفسه؛ كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه فارس ومنير بعلبكي، ط٧، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٧م، ص ص ٤٥٣ – ٤٥٥؛ John B. Glubb, A short History of The Arab Peoples, Quartet Booke, London, 1978, pp.262-263,270; Hudgson, op. cit. , p.117.

(١٣) عن تاريخ أسرة آل هابسبورج Habsburg الملكية، ووصول عدد من أفرادها إلى عروش دول أوربية عدة (إسبانيا والنمسا) بخاصة. انظر World Book (The) Encyclopedia, Vol. 9 World Book International, A Scott Fetzer Co., London - Chicago, 1994, p.3.

(١٤) راجع حول تاريخ الجزائر (العثمانية) بخاصة، محمود عامر " الوثائق العثمانية المتعلقة بالجزائر وأهميتها " بحث مقدم للندوة الدولية حول الأرشيف الخاص بتاريخ الجزائر، والمنشور في مطبوعات الأرشيف الوطني الجزائري رقم ١٥، ١٩٩٨م، ص ١٢٩ وما بعدها (ألحق مع البحث أكثر من ٥٠ وثيقة).

١٥١٠م) وأضحت بعد أن تمكنت القوات العثمانية من دحرهم وإخراجهم منها سنة (٩٥٨ هـ / ١٥٥١م) تحت سيادة الدولة العثمانية.[١٥]

أما عن موقف القانوني في الجبهة الشرقية للوطن العربي، فيمكن القول أنها استأثرت باهتمامه البالغ الذي يفوق اهتمامه بباقي الجبهات الأخرى، حيث كان يواجه خطرين عظيمين، الأول خطر البرتغاليين على الخليج العربي وتعاظم تدخلهم في شؤونه، والثاني الخطر الصفوي[١٦] الذي أضحى يتزايد مرة أخرى في العراق، وحتى يصل سليمان القانوني إلى الخليج العربي كان لابد من فتح العراق، أي المرور عبرفارس. أو بكلمة أخرى ردع الأسرة الصفوية وتقليم أظفارها حتى يتسنى له تأمين ظهر القوات العثمانية في العراق والذي سيطل من خلاله – بعد الفتح – على الخليج العربي.

ولتاريخ الصراع العثماني الصفوي قصة طويلة، ترجع بدايتها إلى عهد والد القانوني سليم الأول (٩١٨–٩٢٧هـ / ١٥١٢–١٥٢٠م) الذي قام – إلى جانب أسباب أخرى – بالتصدي لأطماع الصفويين في العراق ومحاولتهم بسط المذهب الشيعي فيه منذ العام (٩١٤هـ / ١٥٠٨م) كمقدمة للسيطرة على العالم الإسلامي ؟! ويرى بعض المؤرخين أن هذه الأطماع كانت سبباً رئيسياً في اندفاع الدولة العثمانية صوب الشرق بهدف حماية آسيا الصغرى (الأناضول) العثماني بصفة خاصة والعالم العربي والإسلامي السُّني بصفة عامة.. أياً تكن الأسباب فإن سليم الأول دفع بقواته نحو إيران (الصفوية) ليحرز نصراً خارقاً على قوات "الشاه" إسماعيل الصفوي

---

(١٥) عن معارك الأسطول العثماني في عهد القانوني وشخصية خير الدين بربروسا فيها انظر الدغيم، المرجع السابق، ص ٣٩٧ وما بعدها، أيضاً فهمي توفيق مقبل، " تساؤلات حول أسباب غياب المنافسة البحرية العثمانية في الكشوف الجغرافية للعالم الجديد " في مجلة الجمعية التاريخية السعودية، العدد الثاني، جامعة الملك سعود، الرياض، تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠٠٠م، كذلك الشيخ، المرجع السابق، ص ٢٢. وللتوسع انظر محمد سهيل طقوش، العثمانيون من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة العثمانية (٦٩٨ - ١٣٤٣هـ / ١٢٩٩ - ١٩٢٤م)، دار بيروت المحروسة، ١٩٩٥، ص ص ٢٠٨-٢١٧؛ بروكلمان، المرجع السابق، ص ص ٤٥٢-٤٥٥، ٤٦٨-٤٧١.

(١٦) الصفوية، سلالة فارسية (إيرانية) تمتد جذورها التاريخية كحركة دينية إلى سنة (٦٥٢هـ / ١٢٥٢م) قبل سقوط عاصمة الخلافة العباسية (بغداد) بست سنوات، تحركت إلى حركة شيعية حوالي سنة (٨٠٣هـ / ١٤٠٠هـ) ثم إلى حركة سياسية على يد إسماعيل الصفوي سنة (٩٠٧هـ / ١٥٠١م) بعد أن نصب نفسه شاهاً على إيران. وكانت نهاية الحكم الصفوي لإيران سنة (١١٣٥هـ / ١٧٢٢م) عندما غزتها القوات الأفغانية واحتلت عاصمتها أصفهان. للمزيد من المعلومات انظر مصطفى، المرجع السابق، ص ٧٧ وما بعدها. كذلك أنيس، المرجع السابق، ص ١٠٥ وما بعدها؛ انظر هنا بني المرجة، المرجع السابق، ص ٤١، هامش رقم ٤؛ انظر أيضا World Book (The) op. cit.,vol.10,p.338 ; Hudgson, op. cit., pp. 16ff.

(٩٠٦-٩٣١هـ / ١٥٠٠- ١٥٢٤م) في موقعة جالديران (جالدَران) (سهل في أذربيجان – إيران) سنة (٩٢٠هـ / ١٥١٤م) ودخل عاصمة ملكه تبريز.. ثم قفل عائداً إلى إسطنبول لأن "اختلاف المذهب – كما يرى المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي **Toynbee** بين العثمانيين السُّنيين والإيرانيين (الصفويين) الشيعة جعل العثمانيين لا يرحبون بالسيطرة على إيران خوفاً من عدم استتباب الأمور لهم فيها" (١٧).

وقد استمر القانوني على سياسة والده في إضعاف الصفويين وعدم تمكينهم من استرجاع قوتهم التي تعني في حال استردادها تهديداً للإيالات (الولايات) العثمانية (العربية) في المشرق العربي بعامة والعراق بخاصة. لذا لم يتردد سليمان القانوني في حشد قواته للتوجه إلى العراق وبسط سلطته عليها بحجة إعداد الشاه طهماسب الأول بن إسماعيل (٩٣١-٩٨٤هـ / ١٥٢٤-١٥٧٦م) حملة عسكرية ضد عامله في بغداد الذي انحاز للسلطان العثماني سليمان القانوني شاقاً عصا الطاعة على سيده الشاه طهماسب الذي نَهَجَ نَهْجَ أبيه (إسماعيل) في عدم الاعتراف بالقانوني خليفة على المسلمين.. وباتخاذ القانوني هذه الحملة ذريعة لإعلان الحرب على فارس (إيران)، حتى سارعت جيوشه إلى ملاقاة الشاه طهماسب وقواته صيف سنة (٩٤١هـ / ١٥٣٤م) ليلحقوا بها هزيمة مذلة وملاحقة الشاه وعسكره حتى عاصمة ملكه تبريز.. ومن ثم ليستولي سليمان القانوني في شتاء العام نفسه على بغداد دون أي عناء يذكر، وليتوج نصره بانتزاع مدينة البصرة (٩٤٥هـ / ١٥٣٨م) من أيدي الصفويين أيضاً بموازرة الشيخ راشد بن مغامس الذي سلم مفاتيح المدينة إلى السلطان سليمان، لتصبح البصرة إيالة عثمانية ولتغدو الدولة العثمانية نفسها دولة خليجية تقف وجهاً لوجه أمام قوات الغزو الاستعماري البرتغالي(١٨).

لاشك أن سيطرة العثمانيين على البصرة وخليجها – حيث يتعانق نهرا دجلة والفرات مع بعضهما بعضاً – مكنّهم في الوقت نفسه من السيطرة على الطريق التجاري القائم ما بين البصرة والهند. ومن الجدير بالذكر أن القانوني كان أكثر السلاطين العثمانيين وعياً بحماية الطرق البحرية وحماية السواحل الواسعة والمتعددة التي تحت النفوذ العثماني، لذا لا عجب أن سعى العثمانيون إلى استخدام نهري دجلة والفرات لتحقيق تطلعاتهم الرامية

---

(١٧) انظر الشيخ، المرجع السابق، ص ٢٦. انظر أيضاً أنيس، المرجع السابق، ص ١٠٣؛ كذلك Hudgson, op. cit. , pp. 23ff.

(١٨) انظر بروكلمان، المرجع السابق، ص ٤٥٢ وما بعدها؛ قلعجي، المرجع السابق، ص ٣٧٢؛ مصطفى، المرجع السابق، ص ص =

= ٩٠-٩١. وقارن أحمد عزت عبدالكريم، دراسات في تاريخ العرب الحديث، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٠، ص ص ٢٤- ٢٥. وللمزيد من التفاصيل انظر Stripling , op. cit. pp.78-87 , أيضاً طقوش، المرجع السابق، ص ص٢٠٢-٢٠٧.

إلى تأديب القبائل العاصية في خليج البصرة بالتحديد، ثم الحيلولة دون وصول البرتغاليين إلى الخليج ، وبالتالي مراقبة الجبهة الفارسية (الصفوية) وإخضاعها على نحو غير مسبوق.[١٩] وربما كان هذا الدافع الأخير سبباً مهماً لقيام القانوني بحملاته العسكرية الثلاث ضد فارس، كانت الأولى بين سنتي (٩٤١هـ / ١٥٣٤م) و(٩٤٢هـ / ١٥٣٥م) ومن أهم نتائجها إلى جانب فتح العراق والبصرة. ترسيخ أقدام العثمانيين في منطقة أرضروم [٢٠] والعراق كله، والثانية سنة (٩٥٥-٩٥٦هـ / ١٥٤٨-١٥٤٩م) أضافت إلى الدولة كل الأراضي الممتدة شمال شرقي نهر دجلة حتى بحيرة وان (شرق تركيا الشرقية)، والثالثة والأخيرة كانت بمثابة حرب كبرى وقعت ما بين سنتي (٩٦٢- ٩٦٣هـ / ١٥٥٤-١٥٥٥م) واستهدفت السيطرة على إقليم أذربيجان Adharbaijan (الفارسي) وألحقت به خراباً هائلاً، تم على أثرها توقيع محالفة بين الدولتين العثمانية والفارسية، ثبتت بموجبها الحدود بينهما على ما كانت عليه سنة (٩٦٣هـ/ ١٥٥٥م).[٢١]

وبالرغم من بقاء الدولة العثمانية دولة خليجية حتى الأيام الأخيرة من الحرب العالمية الأولى (١٣٣٣-١٣٣٧هـ / ١٩١٤-١٩١٨م) موجودة - على نحو خاص - في الأحساء والبصرة (شرق الجزيرة العربية) عموماً، فإن وجودها ظل على الدوام كمن تغوص قدماه في الوحل، غير مستقر، حتى بات حكمهم اسمياً لا فعلياً. لكن هذا لم يحل دون أن يحظى العثمانيون بالولاء الديني الذي كنَّه عرب الخليج لهم[٢٢].

ونتيجة للعدوان البرتغالي على مسلمي الهند، لبّى القانوني استغاثة ملكا الدولتين المسلمتين كالكوتا وبومباي اللتين لفحت نيران العدوان البرتغالي وجههما، فأصدر أمراً إلى سليمان باشا واليه على مصر حين ذاك، لتجهيز حملة عسكرية (بحرية) على عجل لنجدة المسلمين في الهند وتخليصهم من لظى نيران البرتغاليين ولهيبها، فأبحر لهذا الغرض أسطول عثماني مؤلف من سبعين سفينة حربية.. ومع أن الأسطول العثماني لم

---

(١٩) انظر محمود عامر، " نهرا دجلة والفرات في العهد العثماني وأهميتهما في المجالين العسكري والاقتصادي " في مجلة كلية الآداب، جامعة صنعاء، العدد ٩، ١٩٨٩م، ص ٢٢٢. وقارن Cf - Stripling, op. cit., pp.93-96.

(٢٠) أرضروم، أي " أرض الروم " ويلفظها الأتراك أرز روم Erzurum وتقع في شرق الأناضول وإلى الجنوب الشرقي من طرابيزون Trabzoned وهي اليوم إحدى مدن تركيا الحية.=

= انظر فريد بك، المرجع السابق، ص ٢٨١ هامش رقم ٢. كذلك لويس المعلوف وآخرون، المنجد في اللغة والإعلام، ط ٢٨، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٦، ص ٣٥.

(٢١) انظر مؤنس، المرجع السابق، ص ٣٥٩. وقارن Glubb, op. cit. , pp.233-238.

(٢٢) انظر قلعجي، المرجع السابق، ص ص ٣٧٤ - ٣٧٥.

يحقق النتائج المرجوة للحملة بعد أن تفادى البرتغاليون مواجهته! فإنه في الوقت نفسه انتقم لمسلمي الهند من البرتغاليين أشد الانتقام ببسط سيطرته على الطرق البحرية (الاستراتيجية)، وإنزال هزائم بحرية نوعية بالأسطول البرتغالي نكست رايته (رايتهم) في البحر، مما حقق للعثمانيين فتح كل من اليمن وعدن، سنة (٩٤٥هـ / ١٥٣٨م) وليمسكوا بمفتاح البحر الأحمر، وليحرموا المراكب الأوربية المعادية من الإبحار فيه حماية للأمكنة المقدسة للمسلمين في الحجاز، وهو المبدأ الذي غدا تقليداً ملزماً للمراكب المسيحية العدوة، وظلت الدولة العثمانية تفرضه حتى أواخر القرن (١٢هـ / ١٨م)، هذا إلى جانب وصول طلائع القوات العثمانية إلى سواكن (مدينة في السودان على البحر الأحمر) ومُصَوَّع (مرفأ في شمال شرقي إريتريا – إثيوبيا سابقاً) والاقتراب من أرض الصومال وبلاد الحبشة حيث وقع ملك هذه الأخيرة فاسيليداس Fasilidas معاهدة مع العثمانيين تمبموجبها إغلاق الموانئ الحبشية في وجه البرتغاليين[٢٣].

في الحقيقة إن العثمانيين أساءهم للغاية ظهور البرتغاليين في منطقة البحر الأحمر وباب المندب والمحيط الهندي. واعتبر العثمانيون – أكثر من أي وقت مضى – تلك المناطق مناطق نفوذ لهم، خصوصاً بعد فتحهم لمصر وإعلان شريف مكة السيد بركات بن يحيى طاعته لهم، فتطلعوا لإخضاع اليمن لسلطانهم لتوطيد نفوذهم في المنطقة وهو الأمر الذي تحقق لهم سنة (٩٤٥هـ / ١٥٣٨م) – كما نوهنا فيما تقدم – وحقق الوجود العثماني في اليمن والحجاز بعامة لهم السيادة على الأمكنة الإسلامية المقدسة في الحجاز وعلى رأسها المسجد الحرام وكعبته المشرفة في مكة المكرمة، والمسجد النبوي الشريف حيث قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) في المدينة المنورة، فضلاً عن المسجد الأقصى أول القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ومسرى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في القدس (فلسطين). مما جعل للدولة العثمانية زعامة دينية مطلقة على العالم الإسلامي.

إن امتداد الفتوحات العثمانية إلى ثلاث قارات جعل منها دولة آسيوية أوربية إفريقية، ولكن فتوحاتها في العالم العربي – وسيطرتها عليه من الجزائر غرباً إلى الخليج العربي شرقاً ومن حلب شمالاً إلى خليج عدن وبحر العرب جنوباً – صبغها بصبغة عربية

(٢٣) راجع فيما يتعلق بتثمين نتائج الحملة العسكرية البحرية العثمانية بعيون غربية، Stripling, op. cit., pp.89-93. انظر هنا أنيس، المرجع السابق، ص ١٣٣؛ قلعجي، المرجع السابق، ص ٣٧٣؛ مؤنس، المرجع السابق، ص ٣٥٩؛ محمد حسن العيدروس، السياسة العثمانية تجاه الخليج العربي – في النصف الأول من = القرن ١٩م، دار المتنبي، أبوظبي، د.ت، ص ٩-١٢؛ Basheer A. Kazim, Portuguese Explorations and Their aims, in Al-Watheekh (Magazine), Issue 13, July, 1988, pp.216-227. See here p. 219.

واضحة، ميزها عن طابعها الأناضولي (اليوناني) الأوربي. ولا مراء في أن أهم أثر للدولة العثمانية في حياة العالم العربي بخاصة والإسلامي بعامة أنها حالت دون تمكين الاستعمار الغربي (الأوربي) من تحقيق أطماعه الاستعمارية فيه حتى (أواخر القرن الثاني الهجري / القرن الثامن عشر الميلادي). (٢٤)

القانوني مكانته وعلاقته وأثره في الغرب:

بعد أن ربط السلطان سليم الأول العالم العربي بالعالم (اليوناني) الأوربي غدت دولته - كما تقدم- تمتد عبر ثلاث قارات، آسيا وأورباوإفريقيا، كما غدت جيوشها من أكبر وأكبر جيوش العالم القديم تعداداً وتدريباً وتسليحاً وتنظيماً، متجاوزة بفتوحاتها في أوربا كل الخطوط الحمر التي رسمتها دولها المسيحية وبابا روما نفسه، مما جعل الأوربيين ينظرون إلى هذه الفتوح على أنها فتوح إسلامية، وفي الوقت نفسه، هزيمة للمسيحية حتى تماهت في أذهانهم صورة الدولة العثمانية بصورة الدين الإسلامي حتى أصبح كل مسلم عندهم عثمانياً، وكل عثماني مسلماً! مما أوغر صدورهم على الدولة العثمانية وأخذت مشاعر الحقد والعداء تتفاعل وتتصاعد باطراد. وقد وصف هذه المشاعر الأوربية العدائية، المؤرخ الإنجليزي ريتشارد نولز Noelz – مؤرخ عصر ملكة إليزابيث الأولى Elizabeth I (٩٦٦ - ١٠١٢هـ / ١٥٥٨– ١٦٠٣م) – بقوله: "إن الإمبراطورية العثمانية هي مصدر الرعب في العالم". (٢٥)

---

(٢٤) لعل من وحي هذا كله، صدح الشاعر محمد بيرم التونسي (الثاني) بقصيدة مديح عصماء وثناء سابغ على الدولة العثمانية، عنوانها: "عقد الدرر والمرجان في سلاطين آل عثمان". نأخذ منها هنا الأبيات لصلتها الوثيقة بموضوع البحث "سليمان القانوني":

"وعاشرَهُم ذو الرأي والبأس والندَا (سليمان) جراع العدا كاس علقم
قد انتظمت بغدادُ في سلكِ ملكه فصارَ لهُ أمرُ العراقيين ينتمي
وقد ظهرتْ آثارُهُ فحديثُها حداةُ الوَرى تحدُوبها كل موسم
فمنها ويا للهِ غزو رودس * تغنى بها طيرُ الفلا بترنم
وفي سكتوار ** بعد أن فتَحَتْ له أجابَ إلى المولى بقلبِ مسلم "

* رودس (Rhodes) جزيرة من جزر الأرخبيل اليوناني، فتحها القانوني (٩٢٩ هـ / ١٥٢٢م) تقع بالقرب من الشاطئ الغربي الجنوبي من تركيا الآسيوية (آسيا الصغرى). انظر المنجد، المرجع السابق، ص ٣١٢.

** يعني الشاعر مدينة سكدوار (المجرية) وتسمى اليوم (زيجت) أو (تسيكيد) Szeged الكائنة في جنوب المجر على الحدود مع صربيا Serbia (يوغسلافيا الحالية) انظر محمد فريد، المرجع السابق، ص ٢٥٠ هامش رقم ٣. انظر القصيدة كاملة في كتاب محمد بيرم التونسي (الخامس)، المرجع السابق، ج٥، ص ٤٨ – ٥١، انظر هنا ص ٤٨. أما عن مراجع المادة العلمية للهامش نفسه، فانظر محمود عامر " النظم الإدارية العثمانية في اليمن " في الإكليل (مجلة) تصدرها وزارة الإعلام والثقافة، صنعاء، العدد ٢، ١٩٨٩م، ص ٩٦، كذلك أنيس، المرجع السابق، ص ١٤١.

(٢٥) انظر رشوان جاب الله، صفحات من تاريخ الدولة العثمانية، جامعة الزقازيق، كلية الآداب، الزقازيق، ١٩٩٦م، ص١٣، ص ص ١٦ - ١٧. وقارن Cf. Halil Halid , The Crescent versus cross, Luzac and Co., London, 1907, pp.10ff. Also G. Wyman Bury, Pan-Islam Macmillan and Co., London, 1919, pp. 11ff and Passim. Also Cf. A. L. Tibawi, American =

بيد أن هذه النظرة التحاملية العدائية التي عكسها المؤرخون والمراقبون الأوربيون ضد الدولة العثمانية - حتى وقت قريب- أخذت تتراجع وتتسم -إلى حد بعيد- بالموضوعية والحيدة وتقديم التاريخ العثماني بصورة أفضل وأكثر اتزاناً.. مهما يكن من أمر حول فكرة أوربا والأوربيين المشوهة عن العثمانيين واعتبارهم ردحاً طويلاً من الزمن شوكة في حلقهم، ولكن الأوربيين يتوقفون في نظرتهم العدائية هذه عند سليمان القانوني. ففي الوقت الذي أسبغ فيه الأتراك (العثمانيون) والعرب على سليمان لقب "القانوني" فإن الأوربيين لقبوه ووصفوه بالجليل أو السامي The Magnificent [٢٦].

في الحقيقة لو أجرينا مقارنة بين القانوني ومعاصريه من ملوك أوربا وأمرائها لوجدنا القانوني يفوقهم نبلاً وحزماً وتحضراً وتمدناً. وخير دليل على هذه الحقيقة أن الملك الفرنسي فرنسوا الأول Francis I (٩٢١-٩٥٤هـ / ١٥١٥-١٥٤٧م) أبرز حكام أوربا وأعظمهم - عصرئذ - اعتبر سليمان القانوني حاميه وحليفه[٢٧].

يقول فينشتاين (جيل) في ضوء هذه الحقيقة: "إن الشخصية الخاصة لـ"الأكبر" (القانوني) كانت توحي عبر مظهره الجسماني وسلوكه المتميز بالعظمة، بصورة تليق بملك بالغ القوة، وعلى الرغم أن المراقبين الفرنسيين كانوا قليلي الحماس لهذا العاهل "الكافر" الذي كانت لديهم كل المسوغات للخوف منه، فإنهم قد أجمعوا مع ذلك على الاعتراف بعظمته... ومع وقوفهم عند بعض السلبيات في عهده لكنها ليست كافية لإهدار السمعة الرفيعة لهذا العاهل: سمعة رجل حكيم يتميز بسمو أخلاقي استثنائي، ومخلص لتعهداته، وفاضل في حياته الخاصة..."[٢٨] ثم يضيف فينشتاين قائلاً: وإذا كانت "الإمبراطورية" العثمانية تؤكد نفسها عندئذ بوصفها القوة العالمية الأولى، فإن عصر سليمان يبدو في الوقت نفسه بوصفه أحد أروع عصور الحضارة العثمانية في مجالات العلوم والفنون والآداب: فعلى هذا الصعيد يبرز التأثير الشخصي للسلطان كمشجع لهذه المجالات بل وكَمُلْهِمٍ مُباشِرٌ لها، الأمر الذي سوف يجعل الرحالة الأوربيين بخاصة يتأثرون بأبهة الاحتفالات الرسمية التي تتنافس فيها الملابس القشيبة الزاهية الألوان، وتتلألأ فيها الحلي الثمينة والسروج الفاخرة المصممة للجياد، وهم يقدرون عبر هذا التراكم النوعي

= Interests in Syria, (1800-1901) - A study of Educational Literary and Religions Work - Clarendon press, London, 1966, pp. 26ff. and passim.

(٢٦) انظر Severy, op.cit.,p.552؛ كذلك مصطفى، المرجع السابق،ص٨٩، ١٧، ٨٠؛ أيضاً مؤنس، المرجع السابق، ص٣٥٩.

(٢٧) انظر وقارن Severy, op.cit.,p.584. انظر أيضاً طقوش، المرجع السابق، ص ٢٢٣.

(٢٨) فينشتاين، المرجع السابق، ص ص ٢٣٧-٢٣٨.

للثروات العثمانية عظمة التركي (سليمان) الأكبر[٢٩].

لكن من المؤكد – في الوقت نفسه - أن علاقة القانوني بأوربا وملوكها عموماً لم تكن دائماً سمناً على عسل، فقد شابها – مع البعض من دول أوربا – التوتر الشديد والعداء السافر والمواجهات الساخنة الدامية.. وكما رأينا فيما تقدم، فإنه على رغم ما انطوت عليه شخصيته "الصارمة" كرجل محب للسلام مولعاً بالفنون والآداب، إلا أنه نفسه شارك شخصياً في ثلاث عشرة حملة عسكرية كبرى، عشر منها في أوربا وثلاث في آسيا، ربما سعياً لتحقيق حلم والده سليم وجهوده الرامية إلى إقامة "إمبراطورية" دولة عثمانية عالمية. ولعل هذه من المفارقات التي تستحق الالتفات إذ إن والده كرس جهوده ومعظم وقته في الجانب الشرقي من دولته، بيد أن خليفته ابنه الوحيد سليمان كرس معظم جهوده ووقته – كما بينته الأحداث - في الجانب الغربي منها! لكن يبدو أن معظم هذه الجهود الحربية كانت أقرب للمحافظة على أملاك الدولة العثمانية في أوربا وردع القوى الأوربية الطامعة باستغلال فرصة انشغال الدولة العثمانية لشؤون الشرق وشجونه، أكثر منها جهوداً حربية للتوسع وضم أراض أوربية جديدة إلى أملاك الدولة العثمانية، وإن خالفت هذه القاعدة أحياناً بعض الأعمال والفتوحات الحربية غير الحاسمة.[٣٠]

الحق، أنه مهما تباعدت نقاط الالتقاء والاختلاف أو تقاربت حول جهود القانوني ونواياه الحربية على الجبهة الغربية، فإنه من المؤكد بدأ حكمه بداية موفقة، فاحتل سنة (٩٢٧هـ / ١٥٢١م) بلغراد Belgrade (Beograd) (عاصمة الصرب) ويعني هذا الفتح بسط سيطرة العثمانيين على الحدود الشمالية للدولة. ومما يجدر ذكره أن محمد الفاتح (٨٥٥–٨٨٦هـ / ١٤٥١–١٤٨١م) كان قد حاصرها لكنه أخفق في الاستيلاء عليها.

هذا وقد أعقب القانوني هذا النصر باستيلائه سنة (٩٢٨هـ - ١٥٢٢م) على جزيرة رودس (انظر هامش رقم ٢٤) معقل فرسان القديس يوحنا ليؤمن بذلك تحركاته وأملاكه في شرق البحر المتوسط ولتؤكد الدولة العثمانية زعامتها على البحر المتوسط ولتعد دولة متوسطية أيضاً بكل معنى الكلمة.. هذا ولم يمض على فتح بلغراد خمس سنوات حتى استأنف سليمان الحرب ضد المجر Magyar (Hongrie) مُنزلاً بالمجريين هزيمة نكراء في موقعة مهاج (موهاكس) Mohacs (٩٣٣هـ - ١٥٢٦م) إذ قتل فيها ملكهم لويس الثاني Louis II (٩٢٢–٩٣٣هـ / ١٥١٦–١٥٢٦م) – ولم يناهز عمره لحظتئذٍ العشرين عاماً – وقتل معه نخبة قادته ونبلائه وكهنته وقتل وأسر أيضاً ما يزيد على عشرين

(٢٩) فينشتاين، المرجع السابق ص ٢٤٠.

(٣٠) انظر مؤنس، المرجع السابق، ص ٣٥٩. أيضاً طقوش، المرجع السابق، ص ١٦٥.

ألف مجري، ليحتفظ العثمانيون بالمجر كولاية عثمانية لمدة ١٤٠ سنة. هذا وفي العام نفسه استولى العثمانيون على مدينة بود (بودا) لأول مرة [٣١] وحولوها إلى هشيم تذروه الرياح. [٣٢]

ونتيجة لمقتل ملك المجر لويس الثاني في موقعة موهاكس، انتقل عرش المجر (بالوراثة) إلى فرديناند الأول Ferdinand I (٩٦٦ - ٩٧٢هـ / ١٥٨٨ - ١٥٦٤م) ملك النمسا - سليل عائلة هابسبورج- شقيق الإمبراطور شارل (شارلكان) الخامس Charles V ملك إسبانيا (٩٢٢ - ٩٦٤هـ / ١٥١٦-١٥٥٦م). لكن - لسوء طالع - فرديناند الأول ظهر له من ينافسه على كرسي عرش المجر، هوجان زابوليا (زابولي) John Zapolya (أمير ترانسلفانيا) Transylvania - مقاطعة في رومانيا إلى الجنوب على الحدود مع المجر - الذي استجار بسليمان فأجاره وهبّ على رأس جيش عثماني جرّار، ليحتل بود (بودا) مرة ثانية (٩٣٦هـ / ١٥٢٩م) ولينصب حليفه (زابوليا) على المجر ملكاً (٩٣٦-٩٤٧ هـ/ ١٥٢٩-١٥٤٠م) وفي الوقت نفسه تابعاً له. [٣٣]

لم يشبع القانوني نهمه بفتح المجر، بل استمر زاحفاً إلى فينا Vienna (عاصمة النمسا) فحاصرها ستة عشر يوماً (٤-٢٠ صفر سنة ٩٣٧هـ / ٢٧ من شهر أيلول-سبتمبر إلى ١٣ تشرين الأول-أكتوبر سنة ١٥٢٩م) ومع أن سليمان شدد النكير عليها، فإن قلة المؤن ونفاد الذخيرة والبرد القارس أملت عليه فك الحصار - وكانت هذه المرة الأولى التي لا يحالف النصر فيها القانوني - لهذا كرّ عليها كرة أخرى سنة (٩٣٩هـ / ١٥٣٢م) ليمحو ما لحق به من فشل أمامها في المرة الأولى، لكن مرة أخرى لم تجر رياح القانوني بما تشتهي سفنه. [٣٤] وقد يكون

(٣١) بود (وبست) / بودابست Budapest عاصمة المجر اليوم. وقبل أن تكون بودابست مدينة واحدة كانت مدينتين بود Bud وبست Pest، ثم توحدت المدينتان في مدينة واحدة، ليصبح اسمها بودابست. انظر فريد بك، المرجع السابق، ص ٢١١، هامش ٢، أيضاً المنجد، المرجع السابق، ص ١٤٨؛ وللتوسع والمزيد من الفائدة، انظر World Book (The) op. cit., Vol.2, pp.612-613; also Ibid, Vol. 1, pp. 313-314.

(٣٢) انظر Severy, op. cit., pp.579-580. كذلك مؤنس، المرجع السابق، ص ٣٥٩؛ للمزيد من التفاصيل عن معركة موهاكس Mohacs وتداعياتها ونتائجها، كذلك عن الجذور التاريخية للصراع بين عائلة هابسبورج = Habsburg والعثمانيين في أوربا، المجر بخاصة انظر فريد بك، المرجع السابق، ص ص ١٩٩ - ٢٠٢، ٢٠٤ - ٢٠٥، ٢١٠ - ٢١٩؛ انظر أيضاً بروكلمان، المرجع السابق، ص ص ٤٥٠-٤٥١؛ طقوش، المرجع السابق، ص ص ١٦٥، ١٦٧ - ١٦٨، ١٧٤ - ١٧٧.

(٣٣) انظر بروكلمان، المرجع السابق، ص٤٥١. كذلك انظر مؤنس، المرجع السابق، ص ٣٥٩؛ فريد بك، المرجع السابق، ص ٢١٤ - ٢١٥؛ World Book (The) op. cit., Vol.3, p.352.Also Hodgson, op. cit., pp.114-114.

(٣٤) انظر فريد بك، المرجع السابق، ص ص ٢١٦ - ٢١٧. أيضاً بروكلمان، المرجع السابق، ص ٢ - ٤؛ كذلك World Book (The), op. cit., Vol.20,pp.374-375؛ وانظر أيضاً Hudgson, op. cit., pp. 114-115.

من أسباب هذا الفشل في الحملتين، المستجدات الطارئة والأحداث الجارية في آسيا – الجبهة الشرقية – التي اضطرت القانوني إلى أن يولي وجهه شطرها ويكرس عنايته ووقته ويستنفر جيشه لها. (٣٥)

مهما يكن من أمر، فإنه يمكن القول أن العثمانيين استطاعوا بفتوحاتهم في أوربا أن يؤمنوا حدود دولتهم من الجهات الشمالية منها، بفضل إيجاد سلسلة من حكامها (ملوكاً وأمراء) قبلوا طوعاً أو كرهاً بالخضوع والتبعية للسيادة العثمانية. ففي الوقت الذي دخلت فيه البندقية Venise في معاهدة مع القانوني سنة (٩٤٧هـ / ١٥٤٠م) ضمنت فيها لنفسها آخر معاقلها في المورة Peloponnese (Murea) نجد الأمر في منطقة الشمال الغربي من أوربا مختلفاً، فقد دخل أشراف البوسنة في الإسلام رغبة وطواعية، لتصبح بلادهم منذاك التاريخ جزءاً من صميم أراضي الدولة العثمانية.(٣٦) أما فيما يتصل بجبهة بلاد المجر، فقد ازدادت قبضة سليمان القانوني على جزء واسع منها نتيجة وفاة حليفه الملك زابوليا سنة (٩٤٧هـ / ١٥٤٠م) الذي لم يخلف إلا طفلاً رضيعاً، مما أطمع فرديناند (ملك النمسا) بمحاولة جديدة للاستيلاء على المجر، لكن الفشل كان له بالمرصاد، حيث هزم في المرتين التي واجه فيهما جيوش القانوني، الأولى سنة (٩٤٨هـ / ١٥٤١م) والثانية سنة (٩٥٠هـ / ١٥٤٣م) وبهاتين الهزيمتين النمساويتين تغيرت الخارطة السياسية والجغرافية لبلاد المجر، إذ قسمت إلى ثلاثة أقسام، قسم تابع للدولة العثمانية، وقسم داخل في دولة النمسا (آل هابسبورج) والثالث والأخير في ترانسلفانيا.(٣٧)

لاشك أنه منذ سقوط بلغراد سقط ذلك الجدار المنيع الذي ظل طويلاً حجر عثرة أمام تقدم العثمانيين إلى الأقاليم الواقعة فيما وراء نهر الدانوب، في الوقت الذي أصبح فيه الطريق – من بلغراد إلى بود (وبست) في الدانوب الأوسط – ممهداً أمامهم دون أي عائق يذكر. (٣٨)

لكن لم يحل هذا كله دون إبقاء جذوة الصراع متقدة لا يخمد أوارها فقد استمر الصراع بين آل هابسبورج (بفرعيهم الإسباني والنمساوي) والعثمانيين على أشده. فقد ألحق العثمانيون – الذين ضموا أسطولهم إلى الأسطول الفرنسي – بالهابسبورج (الإسبان بخاصة) هزيمة تاريخية، وكان من نتائجها استرداد مدينة نيس Nice الفرنسية (مرفأ على

(٣٥) انظر بروكلمان، المرجع السابق، ص ٤٥٢.

(٣٦) انظر مؤنس، المرجع السابق، ص ٣٥٩. أيضاً بروكلمان، المرجع السابق، ص ٤٥٤؛ طقوش، المرجع السابق، ص ص ١٦٩–١٧٠.

(٣٧) انظر مؤنس، المرجع السابق، ص ٣٥٩. للمزيد حول الملابسات والأحداث التي أعقبت وفاة زابوليا، انظر طقوش، المرجع السابق، ص ١٨٩ – ١٩١؛ فريد بك، المرجع السابق، ص ٢٣٦؛ وقارن أيضاً Cf. Glubb, op. cit., pp. 230-231.

(٣٨) انظر طقوش، المرجع السابق، ص ١٦٩.

المتوسط) سنة (٩٥٠هـ / ١٥٤٣م) منهم.[٣٩] هذا في الوقت الذي تمكن فيه العثمانيون من طرد الإسبان من طرابلس الغرب الليبية سنة (٩٥٩هـ / ١٥٥١م) (راجع فيما تقدم)، وقصموا ظهر الإسبان قصماً في منازلة بحرية ثانية جرت بين أسطولهم والأسطول العثماني سنة (٩٦٨هـ /١٥٦٠م) قرب سواحل جزيرة جربة التونسية - والتي دخلت التاريخ باسمها "موقعة جربة" - وهي الموقعة التي أدت إلى سحق قطع الأسطول الإسباني المشاركة في المعركة واستسلام الحملة البحرية الإسبانية بكاملها.[٤٠]

وللدلالة على عمق الجرح الإسباني (الهابسبورجي) يتناول فينشتاين وصف سفير فرديناند لدى السلطان القانوني للوضع الذي آلت الأحوال بين السلطنة من جهة وأسرة هابسبورج من جهة قائلاً:"والحال أن بوسبيك Busbeeck سفير فرديناند الهابسبورجي لدى السلطان، مقتنع بجبروت الخصم التركي (العثماني) وحريص على تبرير سياسة سيده الحذرة، يصف الوضع بشكل ممتاز بقوله: إن سليمان يبرز أمامنا بكل الرهبة المستمدة من نجاحاته الخاصة ونجاحات أسلافه... وهو على رأس جيش مجهز بفضل موارد ممالك عديدة. ومن القارات الثلاث التي تتقاسم نصف الكرة الأرضية الشرقي الذي نحن فيه، تسهم كل قارة بنصيبها في إنزال الدمار بنا. وشأنه في ذلك شأن صاعقة، فإنه يضرب ويسحق ويمحق كل ما في طريقه".[٤١]

في الحقيقة إن التقارب العثماني الفرنسي توثقت عراه نتيجة العداء المشترك الذي يكنه الطرفان لأسرة هابسبورج الملكية في (إسبانيا والنمسا) بخاصة، والذي استأثرت فرنسا بسببه - طوال قرون عدة - بمركز رفيع وحظوة لدى العثمانيين من بين كل الدول الكبرى في كل ما يتصل بالسياسة الشرقية.[٤٢] ولتصبح هذه العروة الوثقى لا انفصام لها، بمنح الدولة العثمانية فرنسا سنة (٩٤٣هـ / ١٥٣٦م) امتيازات خاصة اشتهرت باسم "الامتيازات الأجنبية" "Capitulations".[٤٣] جعلت من فرنسا قوة مرهوبة الجانب يحسب

(٣٩) للتعرف على جذور هذا التحالف المبكر بين العثمانيين والفرنسيين انظر بروكلمان، المرجع السابق، ص ٤٥٤. كذلك انظر فريد بك، المرجع السابق، ص ٢٣٧؛ طقوش، المرجع السابق، ص ص ١٧٢، ١٩٠ - ١٩١؛ Glubb, op. cit., p.231 وقارن، سامي ريحاني، المجتمعات العسكرية عبر التاريخ، دار الحداثة، بيروت، ١٩٩٦م، ص ٢٤٤.

(٤٠) انظر وقارن فينشتاين، المرجع السابق، ص ص ٢٣٨ - ٢٣٩؛ انظر هنا المنجد، المرجع السابق، ص ٢١٠.

(٤١) فينشتاين، المرجع السابق، ص ٢٤٠.

(٤٢) انظر بروكلمان، المرجع السابق، ص ٤٥١.

(٤٣) راجع نص المعاهدة (الترجمة العربية) كاملاً عند فريد بك، المرجع السابق، ص ٢٢٣ - ٢٢٩. وانظرها في نصها الفرنسي عند: T. D. Testa Recueil de Traites de la porte ottoman avec les puissances Entrangere, Paris, 1901, Vol. I, pp. 51-53 ولقراءة لنصوص المعاهدة مع دراسة علمية لأبعادها المختلفة، انظر طقوش، المرجع السابق، ص ص ١٨٤ - ١٨٩. وانظر قراءة لها برؤية غربية: Hodgson, op. cit., pp.142-144. Also Robert L. Tignor, Modernization and British Colonial Rule in Egypt 1882-1914, Princenton University press, Princeton, U.S.A., 1966, pp. 51-52, 123, 363, 394.

لها كل حساب، خصوصاً بعد أن احتمت وراء الأسطول العثماني في غرب البحر المتوسط، إذ كان يحمي جناحها الجنوبي، مما مكن لملوكها فرصة نشر قواتها في الشمال وتأمين حدودها القومية ضد أي هجوم قد يشنه أعداؤها.. هذا فضلاً عما حققته معاهدة الامتيازات – ذات الستة عشر بنداً – للفرنسيين على صعيد الشأنين الاقتصادي والإقامة، حيث أعفت الفرنسيين من الخضوع للقانون العثماني وتطبيق القانون الفرنسي عليهم، مع منحهم حرية التنقل والملاحة والمتاجرة بلا قيود، مع فرضها ضرائب على جميع السفن الأجنبية التي تبحر في المياه العثمانية أن ترفع على ساريتها راية فرنسا، وأن تكون تحت رعايتها. كما ضمنت المعاهدة للمقيمين الفرنسيين في الدولة العثمانية حرية العبادة، وحق نقل الملكية والمبادلات الاقتصادية دون أي رسوم جمركية تقل عما يدفعه رعايا الدول الأخرى! كما اعتبر سليمان القانوني، ملك فرنسا وحده دون سائر ملوك أوربا مساوياً له مخاطباً إياه بلقب "باديشاه" (أي ملك الملوك) لا بلقب بك – في الوثائق الرسمية.[٤٤]

أثارت الامتيازات الأجنبية حفيظة العديد من المؤرخين العرب بخاصة، ورأوا فيها انتقاصاً لكرامة الدولة العثمانية وسيادتها فضلاً عن أنها لم تعد بالفائدة الإيجابية على البلاد العربية بخاصة والدولة العثمانية والأمة الإسلامية بعامة، وأن سلبياتها كانت أكثر من أن تحصى وهي بمثابة "حصان طروادة" أوربي حديث، اخترقت فيه القوى الغربية حصوننا الداخلية! لتهيمن بعد حين على مقدرات الوطن العربي المادية وتنال بعمق من قواه الروحية وخصوصيته الثقافية.. لعله من الصعوبة بمكان معرفة الأسباب الكامنة بدقة التي دفعت سليمان القانوني لإبرام معاهدة مصيرية دس فيها السم في الدسم! وأياً كانت أهداف القانوني ونواياه وتقديراته السياسية (الإستراتيجية) لأوضاع دولته الداخلية والخارجية ومدى حاجتها إلى إبرام مثل هذه المعاهدات (التحالفات) فإنه في هذا الموقف لم يحسن القراءة، حتى لو رأى في الامتيازات صفقة سياسية يحافظ فيها على أملاك دولته الواسعة الشاسعة ويأمن غدر الذئب الأوربي من أن يعيث فيها فساداً وخراباً! إن منح الامتيازات – بإجماع معظم المؤرخين العرب – كانت بمثابة خنجر مسموم غرزه الغرب الأوربي في ظهر الوطن العربي مازال جرحاً لا يلتئم!

لقد فتحت الامتيازات بطريقة أو بأخرى أبواب الوطن العربي للنفوذ الاستعماري الأوربي الذي استغل الامتيازات لممارسة نشاطاته التجارية والتعليمية على أوسع نطاق، منشئاً البنوك والوكالات التجارية والمدارس والكنائس بحجة رعاية المسيحيين، مما كان له أثره الخطير على أقطار الوطن العربي أدى

(٤٤) انظر مصطفى، المرجع السابق، ص ٩٥. كذلك طقوش، المرجع السابق، ص ١٨٥ – = ١٨٦؛ حسون، المرجع السابق، ص ٦٨. أيضا Hudgson, op. cit., p.142.

في النهاية إلى تحقيق الأطماع الاستعمارية الأوروبية عندما حانت الفرصة بمرض الدولة العثمانية وعجزها وانهيارها.[٤٥] ولعل خير دليل على ذلك، أن من إفرازات هذه الامتيازات ونتائجها ظهور الحركة الصهيونية في فلسطين والتي جاء من رحمها الأشِر "دولة إسرائيل". يقول وليد الخالدي في كتابه الموسوم قبل الشتات، عن الآثار السلبية للامتيازات الأجنبية في فلسطين: "لم يعرقل العثمانيون نشاط التجار الأوروبيين في مدن فلسطين الساحلية.. وبحلول القرن (١٣هـ /١٩م) كانت دول أوربية كثيرة قد فتحت لنفسها قنصليات في فلسطين، وخلال النصف الثاني من القرنين المذكورين بدأت البعثات التبشيرية المسيحية، من كاثوليكية وبروتستانتية ورومية أرثوذكسية، تتغلغل بمدارسها ومستشفياتها ومطابعها وأنزالها. وكانت فلسطين، قياساً بجميع الولايات العربية (العثمانية) أكثر المناطق انفتاحاً على أوربا المسيحية" ! ويضيف الخالدي: "أن نظام الامتيازات الأجنبية أعطى الأجانب الزائرين أو المقيمين حتى من اكتسب الجنسية الأجنبية من المواطنين أنواع الحصانة تجاه السلطات الإدارية والقضائية العثمانية. ولقد استفاد أكثر من استفاد من هذه الامتيازات أوائل المهاجرين الصهاينة إلى البلاد.

هذا وتجدر الإشارة إلى أن تعداد سكان فلسطين في أواخر القرن (١٣هـ/١٩م) كان مليون نسمة تقريباً، منهم نحو ١١% من المسيحيين والباقي من المسلمين السُنة في معظمهم، وكان عدد اليهود (وقتئذ) نحو ٢٥,٠٠٠ شخص، نصفهم من المتدينين. وكان هناك بعض اليهود ممن يحملون جنسيات أجنبية مختلفة لكنهم كانوا يتمتعون (مع الأسف) بحماية نظام الامتيازات التي ذكرنا".[٤٦] هذا بالإضافة إلى أن من نتائج هذه الامتيازات أن جعلت من سفراء الدول الأوروبية في الآستانة شركاء للدولة العثمانية في قراراتها السياسية والاقتصادية والعسكرية. وأصدق مثال على هذه الشراكة أن فرنسا بعد احتلالها الجزائر سنة (١٢٤٦هـ / ١٨٣٠م) أقدمت على إنزال قوات لها في لبنان سنة (١٢٧٧هـ / ١٨٦٠م) بذريعة حماية المسيحيين (الموارنة) من الدروز (المسلمين) – إثر نشوب حرب أهلية آنذاك بينهما – وقد حظيت فرنسا برضا الدول الأوروبية في ذلك، لإيصال رسالة إلى الدولة العثمانية بأنها تشاركها في شؤونها الداخلية ما دام الأمر يتعلق بالمسيحيين الذين منحت الدولة العثمانية نفسها حقوقاً للأوربيين

(٤٥) الشيخ، المرجع السابق، ص ٤٢. وقارن Cf. H. Wood, Pharooh to Farouk, John Murray, London, 1955, pp. 221,243. et seq., 277,278.

(٤٦) وليد الخالدي، قبل الشتات، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٨٧م، ص ص ٣١– = ٣٢؛ وعن أثر الامتيازات بالقدس الشريف بالذات انظر فريد بك، المرجع السابق، ص ٢٩٣ و٤٩١. انظر أيضاً Joan Haslip, The Sultan - The Life of Abdul Hamid II - History Book Club, London, 1973, pp. 25, 26, 64, 227.

بحمايتهم.[٤٧] ونجد صورة الامتيازات في تونس في أبشع مظاهرها، فبعد احتلال فرنسا للجزائر سنة (١٢٤٦هـ/١٨٣٠م) عاشت تونس تحت تهديد غزو فرنسي وشيك لأراضيها، وخلال المدة الزمنية التي سبقت احتلالها من سنة (١٢٤٦-١٢٩٩هـ / ١٨٣٠-١٨٨١م) أي حوالي ٥١ سنة، كان النفوذ الفرنسي فيها لا يقل عن النفوذ الذي أعقب غزوها. وبالاختباء وراء الامتيازات الأجنبية ربط المستعمر الاقتصاد التونسي بالاقتصاد الفرنسي وأخضع كل الأنظمة المالية والاقتصادية في تونس لصالح الفرنسيين بخاصة والأوربيين بعامة. ومن المضحك المبكي أنه جعل امتيازات أخرى في النواحي الروحية، فقد أجبر الفرنسيون السلطات التونسية على بناء الكنائس وإقامة التماثيل للقديسين كتمثال القديس لويس Louis (ت ١٠٠٠هـ/١٥٩١م – فرنسي، شفيع الشبيبة عند الكاثوليك) وكانت نتيجة هذه الامتيازات أن ارتبكت أحوال البلاد السياسية والاقتصادية... لينتهي الأمر بتونس إلى الوقوع في براثن الاحتلال الفرنسي لمدة ٧٥ سنة (١٢٩٩-١٣٧٦هـ/١٨٨١-١٩٥٦م).[٤٨] زد على هذا أن الامتيازات أضعفت ولاء العناصر غير التركية (الأقليات) في السلطنة العثمانية: حين اتجهت القوميات الأوربية بحثاً عن حلول أو حماية. والأسوأ من هذا وذاك أن تأثير التغريب بلغ النخبة العثمانية وإن كانت مسلمة متمسكة بإسلامها وذلك من خلال انتشار التعليم الأوربي.[٤٩]

لا جدال – يقول العزاوي – في أن لهذه الامتيازات عواقب وخيمة على "الإمبراطورية" العثمانية نفسها، فقد أتاحت المعاهدة وخصوصاً البنود الرابع والخامس والسادس والسابع – التي تعد أكثر إجحافاً بحق العثمانيين – أتاحت لفرنسا تحقيق مصالح تجارية وسياسية وقضائية لم تكن تحلم بها أي دولة أوربية! فكما هو واضح فإن النصوص تدل على تنازلات قانونية تتعلق بالسيادة العثمانية على أراضيها دون ذكر لأي معاملة بالمثل على سبيل المثال التكافؤ (الندية) بالعلاقة. وثالثة الأثافي، فقد اشترط فرنسوا الأول Francis I (ملك فرنسا) أن يكون لبابا روما وملك إنجلترا وملك اسكتلندا الحق في الاشتراك بمنافع هذه المعاهدة لو أرادوا.[٥٠]

(٤٧) انظر قيس العزاوي، الدولة العثمانية (قراءة جديدة لعوامل الانحطاط) الدار العربية للعلوم، بيروت، ومركز دراسات الإسلام والعالم، فلوريدا، الولايات المتحدة، ١٩٩٤م، ص ٢٧. وقارن الشيخ، المرجع السابق، ص ٦٠؛ أيضاً Lewis,op.cit.,pp.19,161.

(٤٨) انظر الشيخ، المرجع السابق، ص ص ٨٠-٨١.

(٤٩) انظر العزاوي، المرجع السابق، ص ٢٥.

(٥٠) انظر المرجع السابق، ص١٧، ١٩، ٢٠. وقارن Cf. Charles swallow, The Sick Man of Europe-Ottoman Empire to Turkish Republic - 1789-1923, Ernest Benn, London and Tonbridge, 1973, pp. 10, 58, 125, 127.

يبدو أن من المسوغات التي دفعت القانوني لمنح الامتيازات للدول الأوربية (فرنسا أولاً) تتمثل في فشله في اقتحام أسوار فينا (عاصمة النمسا) المنيعة سنة (٩٣٧هـ / ١٥٢٩م)، إذ جعلته يعي بأنه لا يمكن أن يكون في مقدور دولته مستقبلاً التوغل أكثر مما وصلت إليه في أوربا، خصوصاً أن الأسلحة الأوربية واقتصاديات أوربا وسياساتها كانت تزداد قوة باستمرار. وبالتالي فلكل دولة مدى معين (لقوتها) في التوسع، ودولة مركزها الآستانة من المنطق في - رأيهم – أن يقف مداها عند المجر.(٥١)

ولعل ما يؤكد هذا الأمر (هواجس القانوني)، أنه بالقدر الذي جاءت فيه المعاهدة لمصلحة أوربا بعامة وفرنسا بخاصة نجد بابا روما يعتبر التحالف الفرنسي العثماني فضيحة كبرى في أوربا المسيحية ! (٥٢) حتى إن الملك الفرنسي فرنسوا الأول المستفيد الأول من هذه الامتيازات، نازعه اتجاهان، فهو من جهة يسعى إلى التعاون مع العثمانيين انسجاماً مع مصلحة بلاده البحتة، وهو من جهة أخرى لا يريد أن يتهم بالمروق بالخروج عن دينه بالتعاون مع العثمانيين. (٥٣)

ويسوق العزاوي رأي المؤرخ التركي يلماز اوزتونا دليلاً على الأبعاد الخطيرة الكامنة في معاهدة الامتيازات، حيث يعتبرها اوزتونا (من وجهة نظره): "معاهدة مساعدة لتنمية فرنسا عسكرياً واقتصادياً والحيلولة دون وقوعها لقمة سائغة لألمانيا وإسبانيا".. ويرى العزاوي هنا أن هذا التثمين هو الأقرب إلى الحقيقة التاريخية لأن هناك ما يثبته تاريخياً، فقد جاء في رسالة ابن فرانسوا الأول هنري الثاني Henry II ملك فرنسا (٩٥٤-٩٦٧هـ / ١٥٤٧-١٥٥٩م) إلى السلطان سليمان القانوني قوله "لم يبق لدى فرنسا أي أمل في المساعدة من أي مكان آخر عدا حضرة سلطان العالم، حيث إن حضرة صاحب سلطان العالم قد قدم من قبل مساعدات لمرات عديدة. إن فرنسا ستكون ممتنة إلى الأبد لو سوعدت بمقدار من النقود والبضاعة". وهكذا يعترف ملك فرنسا بأن السلطان سبق وساعد بلاده التي لا أمل لها سوى استمرار المساعدة... ويضيف العزاوي: ".. ولكن يبقى أن نتساءل إذا صح ذلك مع فرنسا فكيف يوافق السلطان (سليمان) على جعل هذه الامتيازات مفتوحة لإنجلترا وبابا روما إن شاءوا تمتعوا بها، وهو في حرب مصيرية معهم وبالذات مع بابا روما الذي بات يساند شارل الخامس؟ (ملك النمسا وزعيم الهابسبورج)... إننا أمام أسئلة محيرة لم تزل تبحث عن جواب".(٥٤)

---

(٥١) انظر العزاوي، المرجع السابق، ص ٢٢.

(٥٢) انظر الشيخ، المرجع السابق، ص ٢٦. أيضاً مصطفى، المرجع السابق، ص ١٠٣.
Cf. Hodgson, op. cit., pp.107ff-113ff.

(٥٣) انظر طقوش، المرجع السابق، ص ١٨٨. وقارن عبدالكريم، المرجع السابق، ص ٣٨ وما بعدها.

(٥٤) العزاوي، ص ٢٢، ٢٣ – ٢٤. للاطلاع على نص الرسالة كاملاً وتثمينها انظر المرجع نفسه والصفحة نفسها، وعن النتائج التي أسفرت عنها معاهدة الامتيازات الأجنبية انظر المرجع نفسه ص ص ٢٤ – ٢٩. كذلك=

أما علي حسون، فيرى في الامتيازات إسفيناً دق في نعش الدولة العثمانية ووشت آثاره فيما بعد بمدى ما خلّفه من سلبيات بادية للعيان على مختلف الأصعدة في بلادنا العربية بخاصة، هذا عدا عن عهد القوة الذي بدأ بالتراجع بعد وفاة القانوني (٩٧٤هـ/١٥٦٦م) مباشرة. وربما كانت الامتيازات من بعض أخطاء القانوني ومن ثم من جملة الأسباب التي عجلت بانتهاء العصر الذهبي للدولة العثمانية، لتظهر بعدها وبشدة أعراض الضعف والانحطاط اللذين أوصلاها إلى فراش المرض فالاحتضار البطيء حيث انطفأت شمعتها وأفل نجمها![٥٥]

أما رأي محمد فريد بك المحامي في الامتيازات فيقول: "... وبذلك صارت فرنسا الدولة الأوروباوية الوحيدة الحائزة على امتيازات لرعاياها. ولكن كان هذا الاتفاق سبباً في تدخل فرنسا وباقي دول أوربا في شؤون المملكة (العثمانية) الداخلية..." وكان من أبشع هذه المؤامرات والدسائس التي حاكتها هذه الدول بواسطة زوجته الروسية (اليهودية) روكسلانا Roxelana حيث أمر القانوني – بعد أن زينت له روكسلانا هذه مؤامرة على عرشه – بقتل أخلص رجاله وأوفيائه المقربين وزيره وسر عسكره إبراهيم باشا سنة (٩٤٢هـ / ١٥٣٦م) هذا فضلاً عما دبرته من مكيدة أدت إلى قتل ولده النجيب الأمير مصطفى أكفأ أبناء سليمان من زوجة أخرى. مما أدى إلى نشوب ثورة كبرى، اضطر فيها سليمان أواخر أيام حكمه إلى قتل الآلاف من الساخطين على القتلة والمتآمرين، مما كان له أثر بالغ على نفسية سليمان القانوني وهيبته، فكف يده رويداً رويداً عن إصدار القرارات المصيرية للدولة، والنظر في شؤونها العامة.[٥٦]

لقد بدا حين توفي سليمان القانوني سنة (٩٧٤هـ / ١٥٦٦م) أن شمس الدولة "الإمبراطورية" العثمانية بدأت بالغروب، ولم يعط القوس باريها فقد نجحت روكسلانا (سيدة الدسائس) – والذي وقع سليمان تحت تأثيرها – بتوريث ولدها سليم (الثاني) (٩٧٤-٩٨٢هـ / ١٥٦٦-١٥٧٤م) عرش أبيه سليمان. وهو الذي لم يكن أهلاً للحكم ولا مؤهلاً لمضارعة فتوحات أجداده العثمانيين، التي حققوها خلال العقود السابقة، ولا حتى الحفاظ على فتوحات أبيه وإنجازاته التاريخية الكبيرة. ولا يختلف

= طقوش المرجع نفسه، ص ص ١٨٦ – ١٨٩.
أيضاً Hodgson, op. cit., pp. 142-144.
وقارن P. J. Vatikioties, The History of Egypt - From Muhammad Ali to Sadat - Weidenfeld and Nicolson, London, 1976, pp. 190,223,224,254,255,312,321,322.

(٥٥) انظر حسون، المرجع السابق، ص ص ٦٩، ٧٣.

(٥٦) انظر حسون، المرجع السابق، ص ص ٦٩، ٧٣.

(٥٧) انظر فريد بك، المرجع السابق، ص ٢٣٠. وللمزيد من الأمثلة على التدخل الأوربي السافر في شؤون الدولة العثمانية المترتبة على نتائج الامتيازات انظر المرجع نفسه، ص ص ٢٤٦ – ٢٤٨. وانظر كذلك، مصطفى، المرجع السابق، ص ١٠٢. وقارن Cf. Swallow, op., cit., p.125 وأيضاً Vatikiotis, op. cit., p. 188.

اثنان على أن عهده يمثل نهاية العصر الذهبي للدولة العثمانية وبداية عصر التدهور والانحطاط!

الخاتمة:

لا جدال أن الدولة العثمانية في عهد القانوني وصلت أقصى مراتب القوة والمجد – ولم تستطع أي من دول الأرض آنذاك من مزاحمة الدولة العثمانية كسيدة القوة في العالم – ولا أحد ينكر أن القانوني يعد أعظم شخصية في التاريخ العثماني – في عيون مؤرخي الشرق والغرب – بوصفه أول من سنّ القوانين الحازمة المحكمة المطبقة في جميع مؤسسات دولته وفروعها، لتنعم الدولة بنهضة داخلية غير مسبوقة تجني ثمارها رقياً علمياً واقتصادياً وإدارياً وعسكرياً... هذا بجانب سياسة خارجية مشبعة بالحماس الجهادي الواعي والانضباط العسكري المنظم تمثلت في فتوحات سليمان التاريخية التي لم يستطع أحد من خلفائه من بعده أن يحاكيها أو يجاريها أو حتى يحافظ عليها..

لكن من المؤلم حقاً أن يعرّض القانوني كل هذه الإنجازات العظيمة وسجله التاريخي الناصع إلى الشبهة! إذ لا يجد المؤرخون العرب والمسلمون الغيورون أي مسوغات منطقية معقولة تضطر القانوني إلى منح فرنسا – ثم من بعدها دول أوربية أخرى – امتيازات كان من إفرازات نتائجها الآنية والبعيدة المدى – سواء على الدولة العثمانية نفسها بعامة أو بلادنا العربية بخاصة – نتائج كارثية مفجعة بكل ما تعني الكلمة من معانٍ وأبعاد..

إنه لأمر مؤسف حقاً، إنه في الوقت الذي كان فيه لهذه الامتيازات آثار مدمرة على الحياة الاقتصادية والثقافية والدينية.. في البلاد العربية فإن حالة التدهور – في الوقت نفسه – تسارعت وتيرتها في مجمل أحوال الدولة العثمانية وجسدها الذي بدا من الوهن والضعف، أعجز من أن يحفظ روحها التي فاضت منه إلى الأبد بإلغاء السلطنة (الخلافة) سنة (١٣٤٢هـ / ١٩٢٤م).

العصور، المجلد الحادي عشر، الجزء الثاني، ٩٩ – ١١٨ (٢٠٠١م)

الأكاديميون الألمان والصراع العربي – الإسرائيلي*

د. علـي محـافظـة

أولى الأكاديميون الألمان اهتماماً ضئيلاً للصراع العربي – الإسرائيلي قبل سنة ١٩٦٠م. وكان معظم ما نشر باللغة الألمانية عن هذا الموضوع في أواخر الأربعينيات والخمسينيات مجرد مقالات في دوريات وطنية ودولية سياسية أو دينية مثل: "Frankfurter Hefte" و "Weltbuehne" و "Eruopa Achiv" و "Die Internationale Politik" و "Die Gemeinde" و "Der Monat" و "Geist und Tat" و "Stimme der Gemeinde" و "Kirche in der Zeit". وقد ركزت معظم هذه المقالات على إسرائيل والعلاقة الألمانية – الإسرائيلية[1].

---

* قدم هذا البحث باللغة الإنجليزية إلى مؤتمر المستشرقين الألمان الذي عقد في جامعة بون بين ٩/٢٨ و ١٠/٢/١٩٩٨م.

(١) فيما يلي نماذج من هذه المقالات: فرانك بوسارد Frank Bussard: حصاد حلو – حصاد مر فلسطين، في مجلة Welt Buehne عدد (٩) شباط ١٩٤٩م، ص ص ٢٠٢ – ٢٠٨، وفالتر ديرك Walter Dirk: إسرائيل والألمان، في مجلة Frankfuter Hefte آذار ١٩٥٢م ص ١٥٧، وفيلي آيشلر Willi Eichler: إسرائيل في مجلة Geist und Tat، حزيران ١٩٤٨م، ص ٢٤٣؛ وهوغو إلياس Hugo Elias: نتائج قيام دولة إسرئيل في Weltbuehne عدد (١٨) في ١٩٤٩/٥/٣م، ص ص ٦١٩ – ٦٢٢؛ وأدولف فرويندنبرج Adolf Freundenberg: نحن واليهود، في مجلة Stimme der Gemeinde عدد (١٨) ١٩٥٨/٨/١م، ص ص ٥٨١ – ٥٨٦، وإسرائيل: الغرب في الشرق أو شيء جديد ؟ في مجلة Stimme der Gemeinde عدد (١٦) في ١٩٥٨/٨/١٥م، ص ص ٥٩٧ – ٦٠٤؛ وهلموت جوليفتسر Helmut Gollwitzer: أكثر بلاد الأرض إثارة، في مجلة Kirche in der Zeit، أيار ١٩٥٨م، ص ص ٥٢ – ٦١، وهاينرش جرويبر Heinrich Grueber: سلام إسرائيل – هو سلامنا، في مجلة stimme der Gemeinde أيلول ١٩٥٢م، ص ص ٢٧٣ – ٢٧٨؛ وفولغانج هاريش Wolfgang Harich: مأساة اليهود، في مجلة Weltbuehne عدد (٢٤) ١٩٤٨/٦/٥م ص ٦٩١ – ٦٩٦؛ مرغيت ميركر Margerette Merker: الكفاح في فلسطين، في مجلة Weltbuehne عدد (٢٣) ١٩٤٨/٦/٨م، ص ص ٦٥٢ – ٦٥٦، وباول ميركر: الدولة الجديدة للشعب اليهودي تقوم، في Weltbuehne عدد (٦) ١٩٤٨/٢/١م، ص ص ١١٠ – ١١٦، أنيلوره شيلنج Annelore Schilling: أرض إسرائيل كتجربة اجتماعية في مجلة Frankfurter Hefte، تموز ١٩٥٠م، ص ٧٦٦ – ٧٧١؛ كارل فون شنتزلر Karl Von Schnitzler: مرة أخرى اليهود والخلاص، في مجلة Frankfurter Hefte شباط ١٩٤٩م، ص ص ١١٣ – ١٢٥؛ هربرت فينر Herbert Wener: عودة إسرائيل إلى وطنها في مجلة Stimme der Gemeinde عدد (١٣) ١٩٥٥/٧/١م، ص ٣١٦، هيرمان فوله Hermann Volle: اتفاقية التعويضات بين جمهورية ألمانيا الاتحادية ودولة إسرائيل في مجلة Eurpa Archiv آب ١٩٥٣م، وفرانتس بيم Franz Boehm: واجب دولي حق إسرائيل في الوجود، في مجلة Die Gegenwart ١٩٥٦م، عدد (٢٦٦)، ص ص ٤٩٦ – ٥٠٠.

تتضح بجلاء عواطف الكتاب في هذه الدوريات المؤيدة لإسرائيل. والاستثناء الوحيد مقالتان للمستشرق الألماني المعروف فريتس شتيبات Fritz Steppat[(٢)].

وبدأ اهتمام الأكاديميين والباحثين الألمان بالصراع العربي الإسرائيلي منذ الستينيات من هذا القرن يتزايد بسبب الأزمة السياسية الألمانية – العربية سنة ١٩٦٥م. وبسبب تنامي الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية للبلاد العربية في العالم نشأت الأزمة السياسية الألمانية – العربية نتيجة تسريب معلومات إلى الصحف الألمانية والأمريكية في أواخر سنة ١٩٦٤م عن مساعدات ألمانية مجانية لإسرائيل تمت بين سنتي ١٩٥٧م و ١٩٦٤م وبلغت قيمتها (٣٠٠) مليون مارك آنذاك (أي ما يعادل ملياري مارك حالياً)[(٣)]. وقد اعترفت الحكومة الألمانية بصفقات الأسلحة المذكورة، فما كان من الرئيس المصري جمال عبد الناصر إلا أن رد على ذلك بدعوة فالترا أولبراخت Walter Ulbrecht، رئيس مجلس الدولة في ألمانيا الشرقية، لزيارة مصر. اعتبرت حكومة ألمانيا الاتحادية هذه الدعوة عملاً عدائياً ضدها؛ لأنها لا تعترف بألمانيا الشرقية التي كانت تدور في فلك الاتحاد السوفيتي، وتعد نفسها ممثلة لجميع الألمان. ولذا أقدمت على إقامة علاقات دبلوماسية كاملة مع إسرائيل في ١٩٦٥/٥/٨م. ردت 'حدى عشرة من الدول العربية (مصر والعربية السعودية والأردن وسوريا والعراق ولبنان واليمن والجزائر والكويت وليبيا والمغرب) بقطع علاقتها الدبلوماسية مع ألمانيا الاتحادية وسحبت اثنتان منها (ليبيا والمغرب) سفيريهما من بون[(٤)].

ولأغراض هذه الدراسة يمكن تصنيف الأكاديميين الألمان في تناولهم للصراع العربي – الإسرائيلي ودراسته وفقاً لميولهم السياسية والأكاديمية في ثلاث مجموعات أو اتجاهات: أولها: مجموعة متعاطفة مع إسرائيل تتبنى مواقفها في هذا الصراع، وثانيها: مجموعة حيادية تتبنى موقفاً موضوعياً من الصراع، وثالثها: مجموعة ذات موقف إيجابي من العرب وتقف من الصراع موقفاً موضوعياً.

أولاً: الاتجاه المتعاطف مع إسرائيل:

نشأ الاتجاه المتعاطف مع إسرائيل في ألمانيا الغربية في كنف الكنيسة الإنجيلية

---

(٢) Fritz Steppat: Tegionale Sicherheits Bestrebungen im Mittleren Osten الآمال الأمنية الإقليمية في الشرق الأوسط in Europa Archiv 10/1955 ; Die Palestina Frage und Israel القضية الفلسطينية وإسرائيل. in: Die Internationale Politik 1955, pp. 654-662.

(٣) Franz Josef Strauss, Erinnerungen, Beerlin, Wolf Jobst Siedler Verlag, 1989, p.382.

(٤) Volker Hentschel, Ludwig Erhard: Ein Politikerleben, Muen, Olzog, 1996, pp. 550 - 558.

والحــزب الاشتــراكي الديمقراطـي Social Democratic Party (SPD). فالكنيســة الإنجيلية، لأسباب دينية عقديـة، تتعاطف مع إســرائيل لاعــتقادها أن قيــام إســرائيل فــي الأراضـي المقدسـة من شأنه أن يعجل بعودة المسيح إلى الأرض، وتخـليص البشـرية مـن آثامها ومآسيها، وإقامة العدل ونشر المسيحية في العالم كلـه. ولذا تعتقد الكنيسة الإنجيلية أن قيام إسرائيل لــه شرعيته الدينية الواردة في الكـتاب المقـدس. أمــا الحـزب الاشــتراكي الديمقــراطي فينــتمي مــع حــزب العمــل الإسـرائيلي (مابـاي) إلى الاشـتراكية الدوليـة. ولقادته علاقات وثيقة مع قادة حزب العمل من بــن غوريــون وأشــكول إلى جولــد مائيــر. فقد ولدت "مجموعـة عمل الغفران Aktion Suehnezeichen" في مجمع الكنيسة الإنجيلية فــي ألمانيـا الـذي عقد بيـن ٢٦ و ٣٠ نيســان ١٩٤٨م وكـان هدفهـا الرئيســي حـث الشـباب الألمــاني عــلى مســاعدة إســرائيل وبولــندا والاتحــاد الســوفيتي مــن خــلال مشــروعات اجتماعية، وذلك طلباً للمغفرة عن معاناة تلك الشعوب تحت الاحتلال النازي(٥).

وبمسـاندة مـن الأسـتاذ هـلموت جولفيتسـر Helmut Gollwitzer عالم اللاهوت البرليني، تأسســت أول مجموعــة دراســية ألمانيــة – إسرائيلية (DIS) سنة ١٩٥٧م. وكانت مهمتها الرئيسية نشر المعلومات عن إسرائيل، وتنظيم اللقاءات الألمانية – الإسرائيلية. وامتد نشاطها السياسي إلى الأوساط المحافظة والليبرالية في الـبداية، وضـمت طلـبة قريـبين مـن "رابطـة الطلبة الاشتراكيين الألمـان Sozialistische Deutsche Studentenbund (SDS)" حـتى سنة ١٩٥٩م. وقد نشرت المجموعة الدراسية الألمانية – الإسرائيلية في كانون الثاني / يناير ١٩٦٠م دوريـة غيـر منـتظمة هـي "الـنقاش Diskussion" التي اهتمت بموقف الرأي العام من العلاقات الألمانية – الإسرائيلية(٦).

وقد وقـع مـا يربو علـى ثلاثـة آلاف طـالب وأستاذ بياناً في كانون الثاني / يناير ١٩٦٠م، يعبر عن صـداقتهم نحـو اليهود بعامـة ودولـة إسرائيل بخاصـة وتفهمهم لموقفها. وبعد ذلك بشـهر واحـد عقد مؤتمـر طلابـي شـارك فيـه (١٦٠) طالباً تحت شعار "التغلب على اللاسامية Uberwindung des Antisemitismus". وقـد حـث المؤتمـرون الحكومـة الاتحاديـة الألمانيـة علـى إقامـة علاقـات دبلوماسية مـع إسـرائيل. ودعـت حكومـة إسـرائيل المجموعـة الدراسية الألمانيــة – الإســرائيلية (DIS) فــي بــرلين لحضــور محاكمــة ايخمــان Eichmann فــي القـدس سنة ١٩٦٠م. ومـن الجدير بالذكـر أن

(٥) Martin W. Kloke: Israel und die deutsche Linke: Zur Geschichte eines schwierigen Verhaeltnisse, Frankfurt/Main, Haag und Herchen Verlag, 1990.

(٦) المصدر نفسه، ص ٥٣.

المجموعة الدراسية الألمانية – الإسرائيلية لم يقتصر نشاطها على برلين وحدها وإنما امتد إلى مناطق ألمانيا الاتحادية الأخرى، وأصبح لها فروع في عدد من جامعات ألمانيا الغربية، وغدا لها رابطة مركزية هي Bundes DIS في ٢٥ أيار ١٩٦١م. وأقامت هذه الرابطة علاقات وثيقة مع الاتحاد الوطني لطلبة إسرائيل National Union of Israeli Students منذ سنة ١٩٦٢م(٧).

لقد خدمت نشاطات أستاذ اللاهوت البرليني جولفيتسر الأهداف الإسرائيلية. فقد ألقى محاضرة في ٢٤ حزيران / يونيو ١٩٦٣م بعنوان "دولة إسرائيل والعرب" وأكد فيها أن البلاد الواقعة بين البحر المتوسط ونهر الأردن موضوع نزاع بين إسرائيل والعرب(٨).

وبتوجيه منه وجه أربعة عشر أستاذاً جامعياً ألمانياً غربياً، في تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٦٤م، كتاباً مفتوحاً إلى رئيس البرلمان الألماني (البندستاغ) كورت جيرستنماير Kurt Gerstenmaier ووزير الخارجية الألماني جوهارد شرودر Gerhard Schroeder وأعضاء لجنة الشؤون الخارجية في البندستاغ. تضمن الكتاب المفتوح المطالبة بإقامة علاقات دبلوماسية مع إسرائيل، واستدعاء العلماء والفنيين الألمان والشركات الألمانية التي تنتج الأسلحة الهجومية الحديثة في مصر، وتعزيز العلاقات بين ألمانيا الغربية وإسرائيل وبين الشعب الألماني والشعب اليهودي. وقد أشار الأكاديميون الألمان الغربيون في كتابهم هذا إلى أن سياسة ألمانيا الاتحادية نحو الشرق الأوسط تعطي الانطباع بأنها تشجع على إبادة اليهود من خلال الدعم الألماني المنظم لمصر، وطالبوا الحكومة الألمانية بتطبيع العلاقات الألمانية – الإسرائيلية وجاء كتابهم: "إن عدم اعترافنا بإسرائيل يشجع العرب على الأمل في إزالة دولة إسرائيل من الوجود في يوم ما. أما تطبيع علاقاتنا مع إسرائيل فإنه، على عكس ذلك، يساهم في تجنب مصير كهذا"(٩).

وبعث جوليفيتسر ببرقية إلى المستشار الألماني الغربي في ٧ آذار / مارس ١٩٦٥م فكانت بمثابة رسالة تغطية للكتاب المفتوح(١٠).

وذهب المؤلفون الألمان المنتمون إلى الكنيسة الإنجيلية بعيداً في تخيلاتهم الغيبية في فهم الجهود الصهيونية السياسية وتفسيرها تفسيراً دينياً مسيحياً. حتى إن كاتباً علمانياً إنسانياً واشتراكياً مثل هاينس – يواخيم هايدورن Heinz Joachim Heydorn وصف

---

(٧) المصدر نفسه، ص ص ٥٤ ـ ٥٥.
(٨) المصدر نفسه، ص ٥٤.
(٩) المصدر نفسه، ص ص ٥٩ – ٦٠،
Joerg Seelbach: Die Augnahme der diplomatischen Beziehungen Zu Israel als =
=Problem der deutschen Politik seit 1955, Meisenheim am Glan Verlag Anton Hain 1970, p. 115.

(١٠) J. Seelbach, op. cit., p. 116

إسرائيل بالعبارات التالية: "إسرائيل ليست دولة إنما واجب، وليست شعباً وإنما مجتمع، وليست قوة وإنما وعد. إسرائيل يوتوبيا (مدينة فاضلة) وحقيقة فريدة في الوقت نفسه، إنها حياة الإنسانية المستمدة من الانتظار"(١١).

وفي حزيران / يونيو ١٩٦٧م، بعد أسبوعين من نهاية حرب حزيران العربية – الإسرائيلية، عقد مؤتمر في جامعة فرانكفورت على الماين للتعبير عن التضامن الألماني مع إسرائيل. وألقى الأكاديميون الأستاذة إرنست بلوخ Ernst Bloch ورولف رندتورف Rolf Rendtorff وأرينج فيتشر Iring Fetscher وهاينس – يواخيم هايدورن خطباً أيدوا فيها إسرائيل(١٢).

أما بالنسبة إلى الحزب الاشتراكي الديمقراطي (SPD)، فقد كان رئيس هذا الحزب كورت شوماخر Kurt Schumacher أول سياسي ألماني أشار إلى فكرة دفع التعويضات لإسرائيل، في مؤتمر الحزب في نورنبرج Nurenberg سنة ١٩٤٧م(١٣). بدأ الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني اتصالاته مع القوى الاشتراكية الديمقراطية الإسرائيلية في مرحلة مبكرة ولا سيما مع حزب ماباي (حزب العمل) والهستدروت (اتحاد العمال الإسرائيلي). ولما شاركت إسرائيل في العدوان الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦م رفع اليسار الألماني الغربي شعار "نداء للتضامن مع إسرائيل". وكان الحزب الاشتراكي الديمقراطي الوحيد الذي انتقد التورط الإمبريالي للحملة العسكرية الإسرائيلية على مصر(١٤).

وفي آذار / مارس ١٩٥٧م، قام إريش اولنهاور Erich Ollenhauer، رئيس الحزب الاشتراكي الديمقراطي على رأس وفد حزبي صغير، بزيارة رسمية لإسرائيل. فكان أول ألماني يخاطب الجمهور الإسرائيلي بعد الحرب العالمية الثانية. كما شارك الاشتراكي الديمقراطي فيلي براندت Willy Brandt، عمدة مدينة برلين في مؤتمر دولي عقد في إسرائيل سنة ١٩٦٠م(١٥). وقد أهدى الاشتراكي الألماني رولف فوجل Rolf Volgel الذي زار إسرائيل خمساً وثلاثين مرة قبل سنة ١٩٦٧م، كتابه "سبيل ألمانيا إلى إسرائيل Deutschland Weg nach Israel" إلى اليهودي الصهيوني الألماني كارس ماركس Karl Marx بصفته "صحفياً ويهودياً ألمانياً حاول من خلال صحيفته الأسبوعية اليهودية

---

(١١) M. W. Kolke, op. cit., p. 47

(١٢) المصدر نفسه، ص ٦٧.

(١٣) المصدر نفسه، ص ٤٣.

(١٤) المصدر نفسه، ص ص ٤٨ - ٤٩.

(١٥) المصدر نفسه، ص ٥٠.

المستقلة أن يجسر الهوة بين ألمانيا وإسرائيل"[١٦].

غير أن حرب حزيران / يونيو ١٩٦٧م أدت إلى ظهور خلاف في أوساط اليسار الألماني الغربي، دون التأثر بمواقف الأحزاب السياسية، فقد أظهرت لأول مرة نقداً علنياً للسياسة الإسرائيلية. وتضمن هذا النقد شكاً متزايداً في شرعية الدولة الصهيونية. وبدأوا باتخاذ موقف حيادي من الصراع العربي – الصهيوني. ودعت هذه الحيادية بعض التنظيمات اليسارية إلى الامتناع عن حضور مهرجانات التضامن مع إسرائيل. وقد استنكر قادة "جمعية الملاحقين في النظام النازي Vereinigung der Verfolgten der Naziregimes" بقوة الدعم المزعوم الذي تقدمه لمنظمات الشباب والطلبة التي تؤيد إسرائيل. وتحولت هذه الحيادية ببطء إلى موقف مؤيد للعرب داخل ما عرف باسم "اليسار الألماني الجديد Der Neue Linke"[١٧].

وفي أوائل السبعينيات من هذا القرن وقع ميشيل لاندمان Michael Landmann، الأستاذ في جامعة برلين الحرة، باعتباره صهيونياً اشتراكياً تحت تأثير العداء لإسرائيل من جانب الطلبة اليساريين. وقد أعرب عن أمله في أن يقوم اليسار الألماني الجديد بدور الوسيط في الصراع العربي – الإسرائيلي[١٨].

وباستثناء الكنيسة الإنجيلية والحزب الديمقراطي، جعلنا نتفحص مؤلفات بعض الأكاديميين الألمان الذين تناولوا الصراع العربي – الإسرائيلي وتبنوا هذا الاتجاه. ولنبدأ بكتاب يورج زيلباخ Joerg Seelbach "إقامة العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل كمسألة سياسية ألمانية منذ سنة ١٩٥٥م Die Aufnahme der diplomatischen Beziehungen als Problem der deutschen Politik seit 1955، فقد اعتبر زيلباخ وجهة النظر العربية في شرعية إسرائيل مجرد دعاية[١٩]. وأشار إلى نوع من التعاون قام بين حسن فقوسة، ممثل جامعة الدول العربية في بون وصحيفة اليمين الألماني المحافظ "الصحيفة القومية الألمانية – صحيفة الجنود Deutsche Nazional Aeitung Zeitung" لأن هذه الصحيفة اقتبست تصريحات لفقوسة في مقالة كتبها جرهارد فراي Gerhard Frey بعنوان "إسرائيل تعيش إلى المالي الألماني" في عددها الصادر في ٢٩ كانون الثاني / يناير ١٩٦٥م[٢٠]. وأكد زيلباخ في كتابه الآنف

(١٦) Rolf Wogel: Deutschland Weg nach Israel, Stuttgart-Degerloch, Seewald Verlag, 1967, p. 9.

(١٧) M. W. Kolke, op. cit., pp.67-8,71.

(١٨) المصدر نفسه، ص ١١٣.

(١٩) J. Seelbach, op. cit., p. 7.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ص ١٢ ـ ١٣.

الذكر أن من الأهداف الرئيسية لجامعة الدول العربية القضاء على دولة إسرائيل(٢١). وفي تحليله لمضاعفات الحرب الباردة بين الكتلة السوفيتية والدول الغربية تجاهل بعض الدول العربية مع الاتحاد السوفيتي(٢٢). وسوغ لإسرائيل شن حملتها العسكرية على مصر سنة ١٩٥٦م، وتبنى وجهة النظر الإسرائيلية تبنياً كاملاً(٢٣). ويمثل هذا الاتجاه المؤيد لإسرائيل كريستيان هاكه Christian Hacke أستاذ السياسات الدولية في جامعة الجيش الألماني في هامبورغ Universität der Bundeswehr in Hamburg في بداية الثمانينيات من هذا القرن. فقد ذكر في كتابه "السياسة الخارجية لألمانيا الاتحادية Dee Aussenpolitik der Bundesrepublik Deutschland" أن سياسة ألمانيا في الشرق الأوسط، باستثناء إسرائيل كانت ناجحة منتصف الستينيات. وتوصل إلى الاستنتاج أن "جمهورية ألمانيا الاتحادية، لغيابها عن عضوية الأمم المتحدة حتى سنة ١٩٧٣م، لم تكن ملزمة بتبني موقف واضح من الصراع العربي – الإسرائيلي"(٢٤).

ومن ممثلي هذا الاتجاه هورست ايمكه Host Ehmke أستاذ القانون الدستوري والمدير السابق لمكتب المستشار الألماني فيلي براندت. ففي دراسته حول اليسار الجديد في ألمانيا الغربية وإسرائيل، لم يشر إلى موقف اليسار الجديد من الصراع العربي – الإسرائيلي، وتجاهل هذا الموضوع تجاهلاً تاماً. لقد حلل العوامل والظروف الاجتماعية التي كانت وراء ظهور هذه الجماعة السياسية(٢٥). وأعرب عن ارتياحه لأن جولدا مائير Golda Meir رئيسة وزراء إسرائيل الراحلة، قبلت بسياسة المستشار براندت الشرقية(٢٦).

وتبنى هلموت هوبل Helmut Hubel من "الجمعية الألمانية للسياسة الخارجية Deutsche Gesellschaft fuer Auswaertige Politik" تفسيراً عم في أواخر الستينيات وطوال السبعينيات، بأن سياسة أديناور نحو الشرق الأوسط كانت مدفوعة بصورة رئيسية بدافع أخلاقي. ولكنه اعترف بأن أول مستشار لألمانيا الغربية أدرك أن البداية الجديدة في هذه السياسة يمكن أن تتحقق بعد الاعتراف رسمياً وعلناً بالذنب

(٢١) المصدر نفسه، ص ١٥.
(٢٢) المصدر نفسه، ص ص ٢٠ – ٣٠.
(٢٣) المصدر نفسه، ص ص ٥٠ – ٥٤.
(٢٤) Christian Hacke: Die Aussenpolitik der Bundesre publik Deutschalnd: Weltmacht Wieder Willen ? Berlin, Ullstein Buchver, 1977, p. 117.

(٢٥) Horst Ehmke: Mittendrin: Von der Grossen Koalition zur Deutschen Einheit, reinbech bei Hamburg, Rowohlt taschenbuch Verlag 1996, pp. 176-185 .
(٢٦) المصدر نفسه، ص ١٢٨.

الألماني. وبالإضافة إلى هذا الاعتراف، اعتقد المستشار أن تقديم المساعدة لليهود الناجحين من المحرقة ولدولة إسرائيل قد يعطي انطباعاً طيباً لدى صناع القرار الأمريكيين الذين قد يدعمون، بالمقابل، طلبات القروض المالية التي تحتاج إليها ألمانيا الاتحادية من أجل إنعاش اقتصادها.

وسوغ هوبل العلاقة الخاصة بين ألمانيا وإسرائيل. وعدها نتيجة لقرن من التاريخ المشترك والعديد من الروابط الإنسانية والثقافية – الدينية والسياسية. ولكنه أشار إلى أن هذه العلاقة الخاصة تكمل العلاقة الأخرى التي استطاعت ألمانيا الاتحادية أن تقيمها مع الولايات المتحدة الأمريكية. وأكد هوبل أن "بون باعتمادها الحيوي على الحضور العسكري الأمريكي وضماناته النووية، سعت تقليدياً إلى تجنب أي خلاف مع واشنطن". وعزا التحول الذي حدث في دبلوماسية ألمانيا الغربية مزيداً من التوازن، إلى حاجة ألمانيا إلى النفط العربي وإلى الجهود الأوروبية المشتركة للتعامل مع الأزمة النفطية في السبعينيات. ولكنه أشار إلى أن هذه السياسة الجديدة لم تسفر إلا عن نتائج لفظية. واعتقد أن الموقف الألماني الغربي من الصراع العربي – الإسرائيلي كان محكوماً بعلاقتين خاصتين تربطان ألمانيا بإسرائيل وبالولايات المتحدة الأمريكية[٢٧]. أما العلاقة الخاصة بإسرائيل فناشئة عن مسؤولية الحكومة الألمانية الاتحادية، بصفتها ممثلة للشعب الألماني كله، عن الاضطهاد والمجازر التي تعرض لها اليهود إبان الحكم النازي في ألمانيا بين سنتي ١٩٣٣ و ١٩٤٥م، والتزامها بدفع التعويضات لإسرائيل، باعتبارها ممثلة ليهود العالم من جهة، وعدم إلحاق الأذى بإسرائيل وباليهود بصورة مباشرة أو غير مباشرة من جهة أخرى. والعلاقة الخاصة بالولايات المتحدة الأمريكية تقوم على مسؤولية الأخيرة عن حماية ألمانيا الاتحادية من أي هجوم سوفيتي مقابل التزام حكومة ألمانيا الاتحادية بالسير في ركاب السياسة الأمريكية في العالم، ولاسيما السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط المؤيدة لإسرائيل.

ومن ممثلي هذا الاتجاه ميشيل فولفسون Michael Wloffsohn، أستاذ التاريخ الحديث في جامعة الجيش الألماني في ميونخ، الذي أكد في كتابه "العلاقات الألمانية الإسرائيلية: استطلاعات وتفسيرات ١٩٥٢ – ١٩٨٦م: Deutsch-Israelische Beziehungen Umfragen und Uniterpretationen 1952 - 1986" أن اتفاقية التعويضات التي أبرمت بين ألمانيا الاتحادية وإسرائيل قد حسنت من صورة ألمانيا في العالم، ولاسيما في عيون اليهود والإسرائيليين. وقد تتبع استطلاعات

(٢٧) Helmut Hubel: German and the Middle East Cinflict in Germany and the Middle “Shahram Chubin (ed.): = East. London, Pinter Publishers, 1992, pp. 42-47.

الرأي العام في ألمانيا الاتحادية حول الصراع العربي – الإسرائيلي من سنة ١٩٥٢م حتى سنة ١٩٨٦م. وحلل هذه الاستطلاعات وفقاً للأحزاب السياسية والأقاليم الألمانية والمجموعات العمرية والمثقفين والمدن والريف[٢٨].

ثانياً: الاتجاه المحايد:

ظهر الاتجاه المحايد بين الأكاديميين الألمان الغربيين في الثمانينيات من هذا القرن وما بعد ذلك. وأهم من يمثل هذا الاتجاه الأساتذة أودو شتاينباخ Udo Steinbach وفريدمان بيتنر Friedmann Buettner وبيتر هونزيلر Peter Huenseler وكارل كايزر Karl Kaiser وآخرون.

أشار شتاينباخ في ورقته "ملاحظات حول موقف جمهورية ألمانيا الاتحادية من نزاع الشرق الأوسط Bemerkungen Zur Haltung der BRD gegenueber dem Nahostkonflikt " التي قدمها إلى الندوة التي عقدت في أوسلو Oslo بين ١٠ و ١٣ نيسان ١٩٧٢م وموضوعها "السياسات الأوروبية نحو النزاع العربي – الإسرائيلي"، إلى أن ألمانيا الغربية لم تتبن سياسة شرق أوسطية، بعد الحرب العالمية الثانية، للأسباب التالية:

١- الوضع السياسي العام لألمانيا بعد هزيمتها.

٢- العبء الأخلاقي الناجم عن الجرائم التي ارتكبت بحق اليهود في عهد الرايخ الثالث.

٣- تقسيم ألمانيا إلى كيانين سياسيين هما: ألمانيا الاتحادية وألمانيا الديمقراطية.

٤- العداء الداخلي في النظام الحزبي في ألمانيا الاتحادية.

يرى شتاينباخ أن ألمانيا الاتحادية كانت تابعاً، في سياستها نحو الشرق الأوسط، للسياسة الأمريكية التي كانت معادية للعرب ومؤيدة لجلاء إسرائيل سياسياً واقتصادياً وعسكرياً. ويرى أيضاً أن القرارات الخاطئة التي اتخذتها ألمانيا الاتحادية مثل اتفاقية تزويد إسرائيل بالسلاح التي أبرمت بين المستشار اديناور ودافيد بن غوريون David ben Gurion رئيس وزراء إسرائيل يمكن أن تعزى إلى التحريض الأمريكي. وتزامن هذا التطور السياسي مع الشعور العميق والحقيقي لدى الألمان بالذنب نحو اليهود، والذي تحول نفسياً وإنسانياً إلى إسرائيل. وقد أوجد هذا الشعور "العلاقة الخاصة" مع الدولة اليهودية. وأدى هذا التأكيد القوي على هذه الفكرة من خلال التعويضات الألمانية الاقتصادية

---

(٢٨) Michael Wolffsohn: Deutsch-Israelische Beziehungen: Umfragen und Interpretationen 1952-1986, Muenchen, Bayerische =

= Landeszentrale fuer Politische Bildungsarbeit, 1986, pp. 38 – 41, 44 - 80.

والمالية والعسكرية لإسرائيل، في رأي شتاينباخ، إلى عزل ألمانيا الاتحادية عن الدول العربية، وإلى قطع الأخيرة علاقاتها الدبلوماسية معها[٢٩]. وأنكر شتاينباخ، في ورقته هذه، وجود صداقة تقليدية حقيقية بين الألمان والعرب، لأن هذه الصداقة (المزعومة) كانت قائمة على العداء لليهود والبريطانيين والفرنسيين والأمريكيين والروس.

غير أن قيام الكيانين الألمانيين، وبروز المعسكرين الغربي والشرقي بعد الحرب العالمية الثانية عقدا الواقع. فقد أيدت ألمانيا الاتحادية إسرائيل بينما تبنت ألمانيا الديمقراطية موقف الاتحاد السوفيتي من الصراع العربي - الإسرائيلي وأيدت العرب. أما بالنسبة إلى العرب فإن ألمانيا الديمقراطية قامت بدور الألمان الطيبين الذين التزموا بالصداقة التقليدية العربية - الألمانية. ورأت ألمانيا الاتحادية في الأنظمة العربية القومية أنظمة اشتراكية تنتمي إلى المعسكر الاشتراكي. وبناء على ذلك لابد من محاربة العرب والاشتراكيين بكل الوسائل. هذه مواقف العرب والألمان كما رآها شتاينباخ في بداية السبعينيات. لقد تبنت الصحف الألمانية الغربية ولاسيما صحافة شبرنجر Springer Press الموقف الرسمي الألماني الغربي. ويرى شتاينباخ أن موقفاً ألمانياً غربياً أكثر اتزاناً قد ظهر خارج المجموعات البرلمانية. لقد تبنى اليسار الجديد هذا الموقف بعد حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧م. وظهر بصورة رئيسية في الجامعات الألمانية الغربية، حيث أخذ بعض الطلبة وأعضاء الهيئة التدريسية يدافعون عن وجهة النظر العربية وعن حقوق الفلسطينيين، من جهة، وعدوا إسرائيل دولة استعمارية في الشرق الأوسط من جهة أخرى[٣٠].

لقد أعلن المستشار الألماني براندت عن سياسة شرق أوسطية جديدة لحكومته مبنية على مقاربة أكثر توازناً. وقد شرح هذه السياسة في الثاني من آذار/ مارس ١٩٧٢م بالكلمات التالية: "نحن لا نرغب في تنمية علاقاتنا التقليدية الطيبة والإنسانية وتطويرها مع العالم العربي فحسب، وإنما نريد أيضاً إقامة علاقات تجارية واقتصادية تخدم مصالحنا المتبادلة. هذا ما أعنيه بسياسة متوازنة". وقد أشار شتاينباخ إلى أن هذه السياسة كانت نتاج سياسة براندت الشرقية Ostpolitik. لقد كانت سياسة غامضة بحيث فهمها كل من العرب والإسرائيليين فهماً مختلفاً. لقد كانت، في الواقع، سياسة إقليمية -

---

(٢٩) Udo Steinbach: Bemerkungen zur Haltung der BRD gegenueber dem Nahostkonflikt in: Nupi-Rapport: European Policies in the Arab-Israeli = Conflict, Oslo, April 10-13, 1972, pp. 126 - 127.

(٣٠) المصدر نفسه، ص ص ١٢٧ - ١٢٨.

مستقلة عن الكتلتين العالميتين، ولها هدف واحد: ضمان المصالح الاقتصادية والسياسية والعسكرية لجمهورية ألمانيا الاتحادية وأوروبا في منطقة مهمة جداً(٣١).

وفي رأي شتاينباخ، تقوم سياسة التوازن Dei Ausgewogene Politik على مبدأين سياسيين هما:

١- الاعتراف بقرارات المنظمات الدولية، وأولها هيئة الأمم المتحدة، وتأييد جهود طرف ثالث لتسوية النزاع ما دام الطرفان يوافقان على أهداف التسوية وتقويمها.

٢- دعم العمل على اتخاذ موقف عام غربي أو أوروبي غربي لتسوية أزمة الشرق الأوسط وتنفيذها في نطاق سيادة ألمانية جديدة(٣٢) . وكرر شتاينباخ رأيه في سياسة ألمانيا الاتحادية الغربية للشرق الأوسط في مقالته "موقف ألمانيا من الشرق الأوسط" المنشورة في مجلة "Arab-American Affairs Journal" سنة ١٩٨٤م. وأشار إلى أن المقاربة الألمانية الغربية للشرق الأوسط، حتى بداية السبعينيات، كانت خاضعة للعلاقة الخاصة الألمانية مع إسرائيل التي نجمت عن المحرقة Holocaust وعن الصدمة التي عاناها الألمان كثيراً بعد الحرب العالمية الثانية وسقوط النظام النازي"(٣٣). وخلص إلى أنه "بدون الدرع الأوروبي، كانت ألمانيا الاتحادية ستواجه صعوبات كبرى في تحرير نفسها من أعباء الماضي وانتهاج سياسة شرق أوسطية تتفق ومصالحها السياسية والاقتصادية(٣٤)". أما بالنسبة إلى سياسة ألمانيا الشرق أوسطية خلال السنوات العشر الممتدة من ١٩٧٣ إلى ١٩٨٣م، فيرى شتاينباخ أن ألمانيا الاتحادية "لم تجرؤ على اتخاذ قرارات سياسية تبين استقلالها عن إسرائيل"(٣٥).

وفي مقالة أخرى بعنوان "الدول العربية والنزاع مع إسرائيل Die Arabische Staaten und der Konflit mit Israel" نشر سنة ١٩٨١م، حلل شتاينباخ أهداف الدول العربية واستراتيجيتها نحو إسرائيل. وتتناول بالتفصيل استراتيجية الرئيس جمال عبدالناصر بين سنتي ١٩٥٥ و ١٩٧٠م وخلص إلى أن عبدالناصر لم يفكر قط في تدمير إسرائيل، وإنما اختار طريقاً وسطاً بين الاعتراف غير المشروط بالوضع الراهن والرفض الكلي لوجود إسرائيل. كما حلل شتاينباخ مواقف نظامي البعث في سورية والعراق ومنافستهما لعبدالناصر في الصراع العربي – الإسرائيلي. وعرض بموضوعية

(٣١) المصدر نفسه، ص ص ١٢٩ - ١٣٠.
(٣٢) المصدر نفسه، ص ١٣١.
(٣٣) Udo Steinbach: Germany's Attitude toward the Middle East, in: "Arab- = American Affairs", Washington, No. 10, Fall 1948, p. 33.
(٣٤) المصدر نفسه، ص ٣٤.
(٣٥) المصدر نفسه، ص ٣٦.

لمواقف دول شبه الجزيرة العربية ودول المغرب، مبرزاً التباين في المواقف بين المتشددين والمعتدلين من حكام هذه الدول.

وأرى أن شتاينباخ قد أصاب حقاً حين قال: "إن الخلافات في السياسيات الخارجية للدول العربية حالت دون تبني خط سياسي عام وضاح نحو الدولة اليهودية، أو تطوير أي خطط عامة استراتيجية – تكتيكية، أو أية تدابير متفق عليها". كما أنه أوضح كيف أن الدول العربية لم تستطع التغلب على آثار صراعها مع إسرائيل بالإقدام على إصلاحات شاملة اقتصادية واجتماعية وسياسية وعسكرية.

وأشار إلى أن التغيرات التي حدثت في السبعينيات مثل: التحول في طبيعة الصراع من صراع عربي – إسرائيلي إلى صراع فلسطيني – إسرائيلي، وتنشيط دور الولايات المتحدة الأمريكية في الصراع، واستعادة العرب للثقة بأنفسهم بعد حرب ١٩٧٣م، ودور النفط في الصراع، ومؤتمر جنيف للسلام سنة ١٩٧٤م، والتحول في ميزان القوى بين الدول العربية نفسها قد مهدت الطريق إلى إبرام اتفاقية كامب ديفيد سنة ١٩٧٨م واتفاقية السلام المصرية – الإسرائيلية سنة ١٩٧٩م(٣٦).

كان اهتمام شتاينباخ الرئيسي بالمستقبل. ففي مقالة نشرت سنة ١٩٩٦م، يرى أن السياسة الألمانية الجديدة في الشرق الأوسط يجب أن تقوم على المبادئ الثلاثة التالية:

١- يجب أن تكون ذات خطى سير متوازيين: ألماني – أوروبي. أي أنها ينبغي أن تكون في إطار السياسات العامة الخارجية والأمنية للاتحاد الأوروبي.
٢- يجب أن تعترف بالخصوصيات المحلية Subregional مثل المنطقة الإسرائيلية – الفلسطينية.
٣- يجب أن تأخذ في الحسبان النقاط الحساسة للقضايا الخاصة مثل تنامي الأصولية الإسلامية في تصعيد محتمل للصراع العربي – الإسرائيلي، في حالة فشل عملية السلام(٣٧).

ويمثل هذا الاتجاه المحايد مزيدمان بيتر، الأستاذ في جامعة برلين الحرة، وبيتر هونزيلر من معهد الأبحاث التابع للجمعية الألمانية للسياسة الخارجية في بون. ففي مقالتهما المشتركة "العلاقات السياسية بين ألمانيا الاتحادية والدول العربية: تطور الموقف وآفاق المستقبل Die Politische Beziehungen Zwischen der Bundesrepublik Deutschland und der

(٣٦) Udo Steinbach: Die Arabische Staaten und der Konflikt mit Israel, in: K. Kaiser und U. Steinbach (ed.): Deutsche-Arabische Beziehungen, =

= Muenchen-Wien, R. Oldenboug Verlag, 1981, pp. 261-279.

(٣٧) Udo Steinbach: Interseesen und Handlungsmoeglichkeiten Deutschl- =

Arabischen Staaten: Entwichlung Stand und Perspektiven" المنشورة سنة ١٩٨١م يشيران إلى أن الصراع العربي – الإسرائيلي هو المعيار الذي به نعرف حالة العلاقات بين أي دولة والدول العربية. وطرح المؤلفان السؤال التالي: أمن الواجب أن تكون للعلاقة الألمانية مع إسرائيل الأولوية على العلاقات الألمانية مع العالم العربي ؟ لقد حلل المؤلفان العوامل الداخلية والخارجية التي أرثت في الموقف الألماني من الصراع العربي – الإسرائيلي. وأبرزوا التناقضات التي اتسمت بها السياسة الغربية في الشرق الأوسط بين سنتي ١٩٤٩ و ١٩٦٥م. تلك التناقضات التي كان من الصعب جداً حلها وانتهت بقطع العلاقات الدبلوماسية بين عشر من الدول العربية وألمانيا الاتحادية، وسحب سفراء ثلاث دول أخرى من عاصمتها بون في ١٣ أيار/ مايو ١٩٦٥م[٣٨]. وبينا كيف وصلت العلاقات العربية – الألمانية إلى أدنى مستوياتها سنة ١٩٦٧م، حينما وقف الألمان الغربيون بالإجماع إلى جانب إسرائيل وزودوها بالأموال والمواد التي تحتاج إليها.

وأكد المؤلفون في مقالتهما هذه أن هدفهما ليس تصحيح صورة النزاع العربي – الإسرائيلي، ولا الغوص في جذور التحيز الألماني الواسع لإسرائيل، وإنما إيضاح موقف العرب الذين لم يعد بإمكانهم أن يعترفوا بالصداقة العربية – الألمانية التي تتكرر على الألسن، في لحظة هزيمتهم الكبرى[٣٩].

وقد شرح المؤلفان الموقف الذي اتخذه اليسار الألماني الجديد، الذي شرع في قبول مشروعية الموقف العربي والحقوق الفلسطينية. وأوضحا "سياسة التوازن" التي نادى بها المستشار براندت (١٩٦٩ – ١٩٧٢م)[٤٠]، وكيف أنها وصلت إلى طريق مسدود بعد لقاء ممثلي دول الجماعة الأوروبية الست في باريس وموافقتهم على ورقة عمل اعتبرت خطوطاً رئيسية للسياسة المستقبلية الأوروبية الغربية في الشرق الأوسط، وذلك في يومي ١٣ و ١٤ أيار/ مايو ١٩٧١م. ولكن ألمانيا الاتحادية اضطرت إلى التراجع والتخلي عن هذه السياسة تحت الضغوط الأمريكية والإسرائيلية[٤١].

= ands im Nahen und Mittleren Osten, in: Karl Kaiser und Joachim Krause (eds.): Deutschland neue Aussenpolitik, Bd.3, Muenchen, R. Oldenbourg Verlag, 1996, p. 189.

(٣٨) Friedmann Buttner: und Peter Huenseler: Die Politische Beziehungen zwischen der Bundesrepublik Deutschland und den Arabischen =

= Staaten: Entwicklung Stand und Perspektiven, in: "K. Kaiser und U. Steinbach (eds.): Deutsch-Arabische Beziehungen, Muenchen-Wien, R. Oldenbourg Verlag, 1981, pp. 111-114.

(٣٩) المصدر نفسه، ص ص ١٢٥ – ١٢٦.

(٤٠) المصدر نفسه، ص ص ١٢٧ – ١٢٨.

(٤١) المصدر نفسه، ص ص ١٣٤ – ١٣٥.

ويرى المؤلفون أن لحرب أكتوبر سنة ١٩٧٣م تأثيراً ملموساً على الموقف الألماني من نزاع الشرق الأوسط. فقد اعترفت حكومة ألمانيا الاتحادية للمرة الأولى بالحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني من خلال بيان الجماعة الأوروبية الصادر في ٦ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٣م. غير أن جولدا مائير، رئيسة وزراء إسرائيل آنذاك "احتجت على البيان المذكور في ١١/١١/١٩٧٣م خلال مؤتمر الأممية الاشتراكية الذي عقد في لندن، مما اضطر المستشار الألماني براندت إلى أن يؤكد لها العلاقة الخاصة الألمانية – الإسرائيلية، "وأن الألمان ليس بإمكانهم أن يكونوا حياديين في مشاعرهم"(٤٢).

وأشار المؤلفان أيضاً إلى أن حكومة شميدت – جينشر Schmidt-Genscher قد اتبعت السياسة نفسها التي انتهجتها الحكومة السابقة لها. فقد بقيت العلاقة الخاصة مع إسرائيل القاعدة الرئيسية لهذه السياسة. وقد أبرز المؤلفان التناقض بين السياسة المتوازنة والعلاقة الخاصة مع إسرائيل(٤٣). وأوضحا كيف زال التناقض أو كيف حله وزير الخارجية الألماني الغربي جينشر في خطابه أمام وزير الخارجية المصري أثناء زيارة الأخير لبون في ٢٩/٣/١٩٦٧م بهذه العبارات:

"لقد تعامل العالم مع قضية الفلسطينيين لمدة طويلة على أنها مجرد قضية لاجئين، ولم يعمل النظر فيها بما يكفي، لكي يرى حق الشعب الفلسطيني في أن يعيش في دولة ذات سلطة. ولابد من السير في الطريق التي تؤدي إلى اعتراف الطرفين بحق كل منهما في تقرير المصير وفي وجود دولته"(٤٤).

وعرض المؤلفان في النهاية وجهة نظرهما في الصراع العربي – الإسرائيلي، إنها تقوم على اعتراف كل طرف (إسرائيل والفلسطينيين) بحقهما في الوجود وحقهما في تشكيل حياتيهما ونظاميهما السياسيين، وحقهما في تقرير المصير في البلاد نفسها التي يطالبان بها. ويعتقد المؤلفان أن لابد من تقسيم فلسطين بين الإسرائيليين والفلسطينيين، وأن الدولة الواحدة لا تقوم إلا بالاحتلال(٤٥).

وسار في الاتجاه المحايد توماس كرامر Thomas W. Krammer في دراسته "العلاقات الألمانية – المصرية في الماضي والحاضر". فقد سجل بموضوعية الهجرة اليهودية إلى فلسطين، بين المقاومة الفلسطينية لهذه الهجرة(٤٦). وحلل الجوانب السياسية

---

(٤٢) المصدر نفسه، ص ص ١٣٧ – ١٣٨.
(٤٣) المصدر نفسه، ص ص ١٣٩ و ١٤٤.
(٤٤) المصدر نفسه، ص ١٤٤.
(٤٥) المصدر نفسه، ص ص ١٤٨، ١٥٠.
(٤٦) Thomas W. Krammer: Deutsch-Aegyptische Beziehungen in Vergangenheit und Gegenwrt, Tuebingen und Basel, Horst Erdmann Verlagg, 1974, p. 107.

والأيديولوجية للصراع العربي – الإسرائيلي بشيء من التفصيل[٤٧].

وتناول الحروب العربية – الإسرائيلية الأربع (١٩٤٨م و١٩٥٦م و١٩٦٧م و١٩٧٣م)[٤٨]. كما حلل الأزمة العربية – الألمانية في سنة ١٩٦٥م وأثرها على العلاقات الألمانية المصرية[٤٩]. ومن هذا الاتجاه الحيادي هارتموت إلزنهاوس Hartmut Wlsenhaus الأستاذ في جامعة ماربورغ Marburg. فقد كتب مقالة بالفرنسية بعنوان: جمهورية ألمانيا الاتحادية والسياسة الأوروبية الجديدة في البحر المتوسط La République Fédérale d'Allemagne et une nouvelle politique européenne en Méduterrranée سنة ١٩٧٨م.

وأشار إلى أن ألمانيا الاتحادية في سياستها في البحر المتوسط اتبعت وأيدت سياسة الولايات المتحدة الأمريكية في هذه المنطقة، حيث فرضت قيوداً على المصالح العليا للدول الأعضاء في منظمة حلف شمال الأطلسي. واستمرت السياسة الخارجية لألمانيا الاتحادية خاضعة لهيمنة العلاقات بين الشرق والغرب ولأولوية الحفاظ على التحالف الأطلسي[٥٠].

ويرى إلزنهاوس أن ألمانيا الاتحادية عاجزة عن أن تكون قوة دافعة في سياسة جديدة في البحر المتوسط تقوم على التعاون العربي – الأوروبي. وأن على البلاد الأوروبية التي على الأطراف مثل إيطاليا وفرنسا وإسبانيا والبرتغال أن تمارس ضغوطاً على ألمانيا الاتحادية لتبني سياسة جديدة[٥١].

وتبنى هذا الاتجاه الحيادي أيضاً توماس ريسه – كابن Thomas Risse-Kappen، الذي نشر مقالة بعنوان "السير في حقل ألغام: السياسة الخارجية الألمانية والشرق الأوسط" في كتاب "ألمانيا والشرق الأوسط: أنماط ومشروعات مستقبلية" الصادر سنة ١٩٩٢م. وقد لخص دوافع السياسة الألمانية في الشرق الأوسط. وأكد أن للإسرائيليين والعرب تأثيراً دائماً على هذه السياسة. وأن النفوذ الإسرائيلي قائم على أنصار إسرائيل في المجتمع الألماني. فالكنائس المسيحية واتحادات العمل تعد من أنصار إسرائيل. والكنيسة البروتستانتية تواصل الحوار المسيحي – اليهودي منذ أمد طويل في هذا الإطار. واتحاد العمال الألمان (DGB) له صلات وثيقة مع الهستدروت في إسرائيل. وهناك ما يربو على

---

(٤٧) المصدر نفسه، ص ص ١١٠ – ١١٤.
(٤٨) المصدر نفسه، ص ص ١١٥ – ١٦٢.
(٤٩) المصدر نفسه، ص ص ٢٣٧ – ٢٥٩.
(٥٠) Hartmut Elsenhaus: La République Fédérale d'Allemagne et Une Nouvelle politique européenne en Méditerrannée, in "Tevue d'integration européenne =

= Publiée par le Centre d'Etudes et de Documentation européennes de l'Université de Montréal, Janvier 1978, vol. I, No. 2, p. 200.

(٥١) المصدر نفسه، ص ١٢٨.

ستين مدينة وبلدة ألمانية متآخية مع مدن وقرى إسرائيلية. والتبادل بين الشباب في إسرائيل وألمانيا الغربية يأتي في المقام الثاني بعد تبادل الشباب بين ألمانيا الغربية وفرنسا في الإعداد والدعم المالي من جانب ألمانيا الاتحادية. و"جمعية الصداقة الألمانية – الإسرائيلية" و"مجموعة العمل من أجل السلام في الشرق الأوسط" وراء هذا النفوذ الإسرائيلي في المجتمع الألماني(٥٢). وقد كشف ريسه كابن عن أن "الاتصالات الألمانية مع العالم العربي محدودة جداً مقارنة مع العلاقات الواسعة جداً بين المجتمعين الألماني والإسرائيلي". وأن "جمعية الصداقة الألمانية – العربية" لا يمكن أن تقارن مع مثيلتها "جمعية الصداقة الألمانية – الإسرائيلية" في العدد والنفوذ السياسي. وتقف "رابطة الشرقين الأدنى والأوسط Nah und Mittle-Ost Verein" و"اتحاد الصناعات الألماني Bundesverbund der deutschen Industrie" إلى جانب العرب فتخدمان التوازن إلى حد ما. وأكد ريسه كابن أن الانقسام التقليدي في السياسة الألمانية بين اليمين واليسار لا أثر له في الموقف من قضايا الشرق الأوسط. وأبرز الإشكالية الناجمة عن "المسؤولية الخاصة نحو إسرائيل والمصالح الاقتصادية الحيوية الألمانية في البلاد العربية". ورأى أن سياسة ألمانيا السلبية نحو الشرق الأوسط لا يمكن النظر فيها من خلال الضغوط المتضاربة المحلية والدولية التي تؤدي إلى أهداف متناقضة، وإنما هي نتاج عملية غريبة لاتخاذ القرارات موجهة نحو بناء إجماع في الرأي في بلاد تحبذ ثقافتها السياسة ومؤسساتها السياسية البنية الديمقراطية الاتحادية. وخلص في دراسته إلى القول: "إن إمكانات الحكومة الاتحادية لانتهاج سياسة خارجية فعالة في المنطقة (أي الشرق الأوسط) محدودة إلى حد ما". والوحدة الألمانية، في نظره، لن تغير من هذا الوضع؛ لأن ألمانيا الموحدة ليست كياناً جديداً وإنما هي امتداد أوسع لألمانيا الاتحادية السابقة"(٥٣).

ثالثاً: الاتجاه الموضوعي – الإيجابي:

مع أن قلة من الأكاديميين الألمان يمثلون هذا الاتجاه، فقد بدأ في الظهور في بداية السبعينيات من هذا القرن. وكان فرانتس آنشبرانجر Franz Anspranger من أوائل من تبنى هذا الاتجاه. ففي ورقته "النزاع العربي – الإسرائيلي والسياسة الخارجية لجمهورية ألمانيا الاتحادية" التي قدمها إلى الندوة التي عقدت في أوسلو بين ١٠ و ١٣

---

(٥٢) ThmasRisse-Kappen: Muddling through Mined territory: German Foreign Policy Making and the Middle East, in "Shahrm Chubin (ed.): =

= Germany and the Middle East: Patterns and Prospects", London, Pinter Publishers, 1992, pp. 182-184.

(٥٣) المصدر نفسه، ص ص ١٨٤-١٨٥ و ١٩٠.

نيسان/ إبريل ١٩٧٢م أشار آنشبرانجر إلى أن سياسة ألمانيا الغربية الخارجية بين سنتي ١٩٥٢م و١٩٧٢م لم تكن سياسة خارجية قائمة على المصالح القومية وإنما مجرد تقديم خدمات للسياسات الدولية. وأكد أن السيادة الشرق أوسطية لألمانيا الاتحادية منذ سنة ١٩٥٠م لم تكن حيادية وإنما كانت سياسة متناقضة بصورة أساءت إلى مصداقية الدولة. وانتقد السياسة الألمانية القائمة على مبدأ هالشتاين Halstein Doktrin خلال الأزمة الألمانية – العربية سنة ١٩٦٥م ووصفها بأنها سياسة غير واقعية.

ومن خلال المنظور نفسه، فإن السياسة الألمانية نحو الشرق الأوسط كان يجب أن تقوم على المشاركة في إيجاد حل للنزاع العربي – الإسرائيلي، بدلاً من تجاهل هذا النزاع(٥٤). وبدت العلاقة بين ألمانيا الغربية وإسرائيل لآنشبرانجر كما لو كانت حالة خاصة في السياسة الداخلية. إذ تشمل هذه العلاقة: التغلب على الماضي النازي، وإزالة الآثار النازية، والتربية السياسية، ومكافحة النازيين الجدد، وتعويض اليهود عن الجرائم التي ارتكبت بحقهم(٥٥).

وفسر التعاطف الذي أظهره الألمان الغربيون نحو إسرائيل سنة ١٩٦٧م بنظرة الألمان إلى إسرائيل كما لو كانت مستعمرة ألمانية تقاتل من أجل بقائها. وشبه المشاعر الألمانية الغربية نحو إسرائيل بالمشاعر الفرنسية نحو الجزائر قبل سنة ١٩٦١م أو بالمشاعر البريطانية نحو روديسيا. ورأى بعض الألمان، في تقديره، في إسرائيل بروسيا الجديدة. وتعاملت صحافة شبرنجر مع إسرائيل كما لو كانت "ألمانيا الفضلى وبروسيا الجديدة" محاطة بجيران معادين لها(٥٦).

وحلل آنشبرانجر الصداقة التقليدية الألمانية – العربية من وجهة نظر سيكولوجية تجريبية، انطلاقاً من علم الأمراض النفسية Psych-Pathology. فقد لاحظ أن هذه العلاقات لم تكن قط تقليدية وأشار إلى شخصيات الروائي الألماني الشهير كارل ماي Karl May وهي كورابن نمسي وحجي خلف عمر، وأكد أن الاتصالات بين العرب والألمان على الصعيد الاجتماعي لم تكن ذات بال قبل الحرب العالمية الأولى. والنهضة العربية، في نظره، أثبتت أن صلات العرب بفرنسا كانت أقوى مما كانت عليه بألمانيا.

---

(٥٤) Franz Anspranger: Der Arabisch-Israelische Konflikt und die Aussenpolitik der Bundesrepublik Deutschland, in "Nupi-Rapport/RII 1972, Duropean Policies in the Arab-Israeli Conflict. Acollection of Papers. Presented at the Seminar sponsored by=

=the Norwegian Institute of International Affairs, Oslo, April 10-13, 1972, Edited by Daniel Heradstveit and gunnar Stave, pp. 101,103.

(٥٥) المصدر نفسه، ص ١٤٠.

(٥٦) المصدر نفسه، ص ١٠٥.

وزيارة الإمبراطور الألماني فيليهام الثاني لا يمكن اعتبارها جزءاً من الصداقة العربية – الألمانية، لكنه كان صديقاً للأتراك العثمانيين وليس للعرب. كما أنه لم يكن مؤيداً لتحرر العرب من الهيمنة التركية. ومن خلال هذا المنظور، فإن الصداقة العربية – الألمانية بدأت بعد سنة ١٩١٨م. وكانت اتفاقات الصلح في مؤتمر باريس ١٩١٩ – ١٩٢٠م، في غير صالح العرب والألمان على حد سواء. وفي ألمانيا أدى التمرد على إملاء باريس Pariser Diktat إلى الدكتاتورية النازية. ولذا أمل العرب في نظام الحكم الألماني الجديد قد يساعدهم في التخلص من الهيمنة البريطانية والفرنسية. وأشار آنشبرانجر إلى مشاعر السياح الألمان إلى البلاد العربية في أوائل الخمسينيات من هذا القرن حينما كانوا يواجهون بأسئلة عن هتلر وروممل ومرسيدس(٥٧).

يرى آنشبرانجر أن نشاطات الخبراء العسكريين الألمان في مصر كانت معروفة لدى الحكومة الاتحادية الألمانية، غير أنها لم تتخذ أي إجراء بحقهم ما دامت الحكومة الإسرائيلية لم تحتج على هذه النشاطات. كما أن ردود فعل الحكومة الألمانية ووسائل الإعلام الألمانية على الهجمات التي شنتها أجهزة المخابرات الإسرائيلية على هؤلاء الخبراء كانت ضعيفة إلى حد ما(٥٨).

وتناول آنشبرانجر بتوسع استطلاعات الرأي العام الألماني التي أجريت في ألمانيا الغربية في سنتي ١٩٥٨م و ١٩٦٥م حول الصراع العربي – الإسرائيلي. فقد أشارت نتائج الاستطلاع الأول إلى أن ٦١% من الألمان اعتقدوا أن العرب بوجه عام أصدقاء للألمان، بينما دلت نتائج الاستطلاع الثاني على أن ٧٤% من الألمان عبروا عن رغبتهم في انتهاج موقف حيادي من هجوم عربي محتمل على إسرائيل، وأن ١٠% منهم فقط أعربوا عن الرغبة في مساعدة إسرائيل. وبعد أن ينتقد الباحث صياغة الأسئلة في هذين الاستطلاعين التي كانت متأثرة بالدعاية الإسرائيلية، يبين آنشبرانجر أن الحكومة الألمانية الغربية تجاهلت نتائج هذين الاستطلاعين(٥٩). أما المصالح الاقتصادية لألمانيا الاتحادية فلم يكن لها دور، حسب تقديره، في سياستها في الشرق الأوسط، ولو أرادت الأحزاب السياسية الألمانية حماية هذه المصالح لاتخذت سياسة مؤيدة للعرب، غير أنها تبنت سياسة مناقضة لذلك(٦٠).

وبعد أن يتوسع آنشبرانجر في دراسة التغير الجذري في موقف اليسار الجديد في ألمانيا الغربية يبرز حقيقتين هما:

١- الائتلاف بين اليسار الجديد في أوروبا الغربية والمنظمات الفدائية الفلسطينية،

---

(٥٧) المصدر نفسه، ص ١٠٦.
(٥٨) المصدر نفسه، ص ١٠٦.
(٥٩) المصدر نفسه، ص ص ١٠٦ – ١٠٩.
(٦٠) المصدر نفسه، ص ص ١١٠ - ١١٤.

الذي اعتبره نوعاً من المؤاخاة تتجاوز الحدود القومية.

٢- وقوع اليسار الجديد تحت هيمنة اليسار القديم ولاسيما الحزب الشيوعي الألماني الذي اعتاد أن يتبنى الخط السوفيتي في سياسته الخارجية[٦١].

والأكاديمي الثاني الذي يمثل هذا الاتجاه كينيث ليفان Kenneth Lewan، أستاذ العلوم السياسية في جامعة ميونخ. لقد تناول ليفان الآثار السلبية للسياسة الألمانية في الشرق الأوسط، في مقالة بعنوان "كيف ساعدت ألمانيا الغربية على بناء إسرائيل How West Germany helped to build Israel" نشرت سنة ١٩٧٥م. أبان ليفان كيف أثرت التعويضات الألمانية الغربية لإسرائيل بين سنتي ١٩٥٢م و ١٩٦٧م على ميزان القوى بين الأطراف المتصارعة في الشرق الأوسط.

وحلل المسوغات التي قدمتها الحكومات الألمانية للتعويضات ولاسيما الالتزام الأخلاقي نحو الضحايا اليهود في العهد النازي. ورأى أنه لا يوجد مسوغ أخلاقي يجعل ألمانيا الغربية تقدم تعويضات لدولة إسرائيل مقابل الأفراد اليهود وأسرهم التي عانت الاضطهاد النازي، في وقت كانت فيه دولة إسرائيل نفسها مسؤولة عن تشريد مئات الألوف من اللاجئين الفلسطينيين وطردهم من بيوتهم[٦٢].

وأشار ليفان أيضاً إلى أن المعونة الألمانية لإسرائيل "ساهمت في تصلب مقاومتها لتسوية سلمية وكثفت من التوسع الصهيوني في فلسطين" وتساءل: "هل كان الإحساس بالالتزام الأخلاقي القوي وحده الذي حرك حكومة ألمانيا الغربية، أم كانت مصالح اقتصادية وسياسية معينة الأسباب الحقيقية لهذا القرار؟ وإذا كان الدافع الأخلاقي وراء القرار الألماني، وإذا كانت التعويضات تقتضي دفعها للأفراد مثلما كانت الولايات الألمانية الغربية تفعل منذ سنة ١٩٤٩م، فقد بلغ ما دفعته ألمانيا الاتحادية من تعويضات للأفراد اليهود حتى سنة ١٩٧٢م ما يربو على (٤٣) مليار مارك ألماني، وارتفع هذا المبلغ إلى (٥٢) مليار مارك سنة ١٩٧٤م[٦٣].

وأبرز ليفان كيف أن الصهاينة بذلوا جهوداً كبيرة في واشنطن لاستثناء اليهود الأوروبيين من الهجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية من أجل جلبهم إلى فلسطين. وعلق على هذه الحقيقة بقوله: "وهل يؤهلهم هذا لتلقي المعونة استناداً إلى اعتبارات إنسانية ؟... إن ألمانيا الغربية لم تقدم تعويضات لأي دولة استقبلت اليهود أو غيرهم من اللاجئين الذين كانوا مضطرين إلى الهرب من أوروبا بسبب

(٦١) المصدر نفسه، ص ص ١٢١ - ١٢٢.

(٦٢) Kenneth M. Lewan: How West Germany helped to build Israel, in: = Journal of Palestine Studies, Beirut, Vol. IV, No. 4, Summer 1975, p. 41 .

(٦٣) المصدر نفسه، ص ص ٤٤ - ٤٥.

الاضطهاد النازي"[٦٤]. وناقش ليفان قبول أديناور للطلب الإسرائيلي والصهيوني باعتبار إسرائيل الممثل الشرعي لجميع اليهود أينما كانوا. وأكد الحقيقة الناصعة وهي أن أقلية صغيرة من اليهود تقيم في إسرائيل. واكتشف المغالطة الواضحة في هذا الطلب، لأنه لم تعترف أي دولة في العالم، باستثناء ألمانيا الغربية، بإسرائيل دولة لكل اليهود، وبهذا أخضعت مواطنيها اليهود للتشريع الإسرائيلي[٦٥]. وأضاف ليفان أن ألمانيا الغربية لم تطبق هذه المعاملة لليهود على شعوب أخرى مثل "النور" الذين قاسوا كثيراً من القوانين النازية العرقية. وشكك ليفان في نتائج استطلاعات الرأي العام الألماني التي قام بها معهد ألنباخ Allenbach Institut سنة ١٩٥٢م حول اتفاقية التعويضات الألمانية لإسرائيل، وانتقد صياغة الأسئلة في تلك الاستطلاعات. وأشار أيضاً إلى الضغوط التي مورست على الحكومة الألمانية الغربية للاستجابة للمطالب الصهيونية وتقديم معونة عسكرية لإسرائيل[٦٦].

هذه الاتجاهات الثلاثة مازالت قائمة بين الأكاديميين الألمان الذين يتناولون الصراع العربي – الإسرائيلي في أبحاثهم ودراستهم. ولاشك أن هؤلاء الأكاديميين يؤثرون في الرأي العام الألماني، وبعضهم قريب جداً من الدوائر السياسية الألمانية التي تصنع السياسة الخارجية الألمانية ويؤثر فيها.

(٦٤) المصدر نفسه، ص ٤٧.
(٦٥) المصدر نفسه، ص ٤٨.
(٦٦) المصدر نفسه، ص ص ٥٦ ـ ٥٨.

العصور، المجلد الحادي عشر، الجزء الثاني، ١١٩ – ١٦٢ (٢٠٠١م)

حركة الترجمة اللغوية في المشرق العربي المعاصر

(مصر أنموذجاً)

د. عبد الرحمن العارف

ملخّص البحث

يتضمن هذا البحث أهمية الترجمة - بصفة عامة - للفكر والثقافة والمجتمع، ودورها في الاتصال الحضاري بين الأمم والشعوب والثقافات المختلفة.

ويهدف إلى دراسة واقع الترجمة في المجال اللغوي وعرضه في المشرق العربي المعاصر بعامة، ومصر على وجه الخصوص، والتعرف على المؤلفات اللسانية المنقولة إلى الثقافة العربية، وبيان أثر ذلك على الدراسات اللغوية العربية بوجه خاص، والثقافة العربية بوجه عام.

ويستعرض البحث المراحل التي مرت بها هذه الترجمة، والتطورات التي طرأت عليها، وموقف الدارسين والباحثين منها. كما يستعرض البحث المدارس اللغوية الغربية التي تنتمي إليها هذه الترجمات، وتأثير هذه المدارس على أفكار وتوجهات أولئك المترجمين الذين نقلوا إلى العربية بعضاً من الفكر اللغوي الغربي، وما تبع ذلك من تنشيط للدراسات اللغوية الحديثة (المعاصرة)، وبعث حركة لغوية جديدة.

ويخلص إلى تحديد ملامح هذه الحركة الترجمية، والنتائج التي أسفرت عنها هذه الدراسة.

الترجمة والنقل[1]، والإبداع والابتكار، عنصران يكمّل أحدهما الآخر، وتقوم عليهما حضارات الشعوب وثقافاتها.

وتختص الترجمة والنقل بعنصر التواصل والاحتكاك بين الأمم والشعوب، الذي يقوم أساساً على مبدأ الأخذ والعطاء، وعدم الذوبان

(١) هناك فرق بين الترجمة والنقل، فالترجمة هي تحويل مادة أي كتاب من لغته الأصلية التي ألّف بها إلى لغة ثانية، أما النقل فهو تحويل مادة الكتاب من لغته الثانية التي ترجم إليها إلى أي لغة أخرى. وهذا يعني أن الترجمة هي النقل المباشر عن اللغة الأصلية للكتاب، وإذا نقل عن هذه الترجمة، أي بوسيط، فيعد نقلاً لا ترجمة. ينظر: د. رشيد الجميل، حركة الترجمة والنقل في المشرق الإسلامي، ص ٩ =

= ((الهامش)). وللمزيد حول هذه الفروق اللغوية والاصطلاحية ينظر: طيبة صالح الشذر، ألفاظ الحياة الثقافية في مؤلفات أبي حيان التوحيدي، ص ص ٩٣ – ١٠١.
ويتداخل مصطلح التعريب مع مصطلح الترجمة فيستخدمان وكأنهما مترادفان، وقد يكون التعريب أعم من الترجمة. ينظر: د. يحيى عبد الرؤوف جبر، الترجمة والتعريب، مجلة التعريب، العدد ٥، السنة ٣، ١٩٩٣م، ص ص ٣٠ – ٣١.

في حضارة الآخر، أي أنه - بصفة عامة - حوار الحضارات، والمثاقفة(*) بين المجتمعات والجماعات والأفراد.

أما الإبداع(٢) والابتكار فيختصان بعنصر الذكاء الإنساني لدى الفرد، موروثاً كان أم مُكتسباً، فالترجمة نتاجٌ جماعي، أو هكذا يُتَوَقَّع أن تكون، في حين أن الإبداع عمل فردي، مما يعني أن كليهما يشترك في صنع الحضارة الإنسانية والثقافة المعرفية لدى المجتمع البشري الواحد أو المتعدد.

وقد تمثل العرب هذه الحقيقة، وأدركوا منذ وقت مبكر أهمية التواصل والتعامل مع الأمم المجاورة لهم، وكان سبيلهم إلى ذلك إما عن طريق الترحال من جهة، وإما عن طريق التعامل التجاري من جهة ثانية.

ولما كانت الترجمة وجهاً من وجوه التواصل مع الأمم، فإنها لم تكن وليدة العصر الحاضر، بل إن جذورها ضاربة في أعماق التاريخ الحضاري والثقافي للعرب.

ويذكر مؤرخو نشأة العلوم الإنسانية وتطورها أنها بدأت في القرن الأول الهجري، ثم تطورت بعد ذلك نتيجة لعوامل متعددة(٣)، لتصل مداها إبّان العصر العباسي، وبخاصة عهد المأمون (من ١٩٨ - ٢١٨ هـ)، وكانت قائمة آنذاك على العلوم العقلية أو ما يُسَمَّى بالعلوم المقاصد، كالفلسفة، والطب، والفلك، والرياضيات، والهندسة، دون سواها من العلوم النقلية أو ما يُسَمَّى بالعلوم الوسائل، كالأدب، والاجتماعيات(٤).

فإذا تجاوزنا هذه العصور المضيئة في تاريخ الترجمة والنقل عند العرب، ووصلنا إلى العصر الحديث الذي يُؤَرَّخُ لبدايته - على اختلاف بين المؤرخين - بالحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨ م، فإننا نجد أن الترجمة الأدبية كانت أسبق ظهوراً من الترجمة اللغوية، بل ومن الترجمة العلمية أيضاً(٥) فقد قام الرعيل الأول من أمثال رفاعة

(*) المثاقفة - Acculturation - مصطلح سوسيولوجي له معان متداخلة، ويطلق عادةً على التفاعلات التي تحدث نتيجة شكل من أشكال الاتصال بين الثقافات المختلفة، أو بين مستويات متعددة من الثقافة الواحدة، مثل التأثير والتأثر، والاستيراد والحوار، والرفض والتمثل، وغير ذلك مما يؤدي إلى ظهور عناصر جديدة في طريقة التفكير، وأسلوب معالجة القضايا، وتحليل الإشكاليات.

(٢) قد يتبادر إلى الذهن أن الترجمة ليست إبداعاً، وليس الأمر كذلك، فالترجمة النموذجية ذات الصفات المميزة لاتخلو من الإبداع.

(٣) لمعرفة هذه العوامل ينظر: ديلاسي أوليري، الفكر العربي ومكانه في التاريخ، ص ١٢٠ فما بعدها، د. رشيد الجميلي، حركة الترجمة والنقل في المشرق الإسلامي، ص ص ٣١ - ٥٠، موسى =

= يونان، حركة الترجمة والنقل في العصر العباسي، ص ص ١٣ - ١٥.

(٤) يرى بعض الباحثين أن العربية لم تفتقد الترجمة الأدبية في العصر العباسي، بل كانت موجودةً على نحو من الأنحاء، وإن اتسمت بالمحدودية. ينظر: المنصف الجزار، الترجمة الأدبية، ص ١١٦ فما بعدها (ضمن كتاب: الترجمة ونظرياتها). وينظر: د. أحمد مطلوب، حركة التعريب في العراق، ص ١٤.

(٥) يرى أحد الباحثين أن الترجمة في العصر الحديث بدأت علمية أولاً، وأن الترجمة الأدبية لحقت الترجمة العلمية، وحجته في ذلك أن الذين نقلوا الأعمال الأدبية لم يكونوا أمناء في ذلك، فهم عرّبوا حوادث القصص لا الأدب. ينظر: تعقيب الدكتور شاكر مصطفى على بحث الدكتور صبحي الصالح، ضمن كتاب =

الطهطاوي، ومحمد عوض، وأحمد زكي، والمنفلوطي، وفتحي زغلول... إلخ بترجمة الأعمال الأدبية إلى اللغة العربية كالقصة، والرواية، والمسرحية، والشعر، "وكان هذا أول الأمر بديهياً بقدر ما كان مفيداً..."(٦)

ولما قامت الثورة المصرية في النصف الثاني من القرن العشرين، وتحديداً سنة ١٩٥٢م "أحدثت انقلاباً ثقافياً كان له أثر فعال في الترجمة، وأصبحت الترجمة نابعة من مراكز ثقافية تقوم عليها وزارة الثقافة، وبذلت الدولة جهوداً ضخمة لتشجيع المؤلفين والمترجمين على الإنتاج المخطط، وبذا انتقل أمر الترجمة من الأفراد إلى أيدي المنظمات" (٧)، على أن المؤلفات السياسية والاقتصادية استأثرت بالجانب الأكبر من الترجمة.

أما الترجمة اللغوية فقد تأخر ظهورها عن مثيلاتها من الترجمات، رغم أنها تقف جنباً إلى جنب مع الترجمات الأدبية والعلمية في المكانة والأهمية والفائدة(٨). وربما يُعْزَى السبب في ذلك إلى أن ظروف هذا النوع من الترجمات لم تكن مواتية حينها، فقد كانت أغلب البعثات إلى الخارج – إن لم يكن كلُّها – مُنْصَبَّةً على التخصصات العلمية، مما يعني أن التوجُّه آنذاك كان توجُّهاً علمياً صرفاً، كما أن طابع العصر آنذاك كان طابعاً رومانسياً، مما جعل كبار المترجمين يتجهون إلى ترجمة روائع الأدب الأجنبي.(٩)

أما البعثات اللغوية فلم تُعرف إلا منتصف القرن العشرين، حينما أوفدت جامعة القاهرة (جامعة فؤاد الأول سابقاً) عدداً من المعيدين بها إلى كل من انجلترا، وألمانيا، وفرنسا؛ للتخصص في علم اللغة العام General Linguistics، أو في علم اللغة المقارن Comparative Linguistics، وما تبع ذلك من قيام حركة لغوية حديثة، تأليفاً وترجمة.

والحديث عن الترجمة اللغوية في الوطن العربي بعامة حديث طويل ومتشابك؛ نظراً لتشعب الموضوع من جهة، وعدم توفر المادة العلمية المترجمة في المغرب العربي من جهة ثانية، نتيجة لقلة الاتصال العلمي والثقافي بيننا وبينهم، مع الأسف الشديد، وصعوبة الحصول على هذه المترجمات.

ودراسة واقع حركة الترجمة اللغوية في

= (التعريب ودوره في تدعيم الوجود العربي والوحدة العربية) ص ٢١٧.

(٦) د. صبحي الصالح، تقويم تجربة التعريب في المشرق العربي، ضمن كتاب (التعريب ودوره في تدعيم الوجود العربي والوحدة العربية)، ص ٢٠٣.

(٧) مكتب التربية العربي لدول الخليج، الترجمة قضايا ومشكلات وحلول (٢) تطور الترجمة، ص ص ٤٤ – ٤٥.

(٨) يقول الدكتور صالح القرمادي – رحمه الله – مُعقباً على وجود عدد ضئيل من التراجم العربية لأمهات المؤلفات الغربية المتصلة بالألسنية = العامة: ((وهو لعمري - يعني ميدان الترجمة - من أهم الأبواب – ولعله أهمها – التي بها يمكن بل ينبغي للباحثين العرب أن يساهموا في نشر تعاليم الألسنية العامة الحديثة بربوعنا نشراً سليماً بعيداً عما يكتنف – مع الأسف – الكثير من أعمال التبسيط الألسني الصادرة بالعربية أصلاً من خلل واضطراب)). نقلاً عن تقديمه لترجمة الطيب البكوش لكتاب (مفاتيح الألسنية) لجورج مونان، ص ٦.

(٩) محمود محمود، واقع الترجمة في جمهورية مصر، ضمن كتاب (دراسات عن واقع الترجمة في الوطن العربي، ق ٢) ص ١٣١.

المشرق العربي المعاصر[١٠] ليس بالأمر الهين – كما يُظنُّ لأول وهلة –، إذ هي من الكثرة بمكان، وموادها مبثوثة في مؤلفات مستقلة، وفي المجلات العلمية[١١]، مما يجعل حصرها أمراً في غاية الصعوبة، كما أن تداخل الألسنية (اللغويات أو علم اللغة) مع الدراسات الأدبية، كالنقد الأدبي، والأسلوبية، ووجود ترجمات غير قليلة تعكس هذه العلائقية، كل ذلك جعل من دراستنا لهذه الحركة دراسة كلية شاملة مستقصية شيئاً ليس في مقدورنا الآن، ولذلك اقتصرنا في هذا الحيز من الدراسة على ما ترجم في ميدان علم اللغة العام (الألسنية العامة)، بجوانبه الصوتية، والدلالية، والمعجمية، وفروعه المختلفة، وكذلك علم اللغة التطبيقي.

كما لا أزعم لنفسي أنني أتيت على كل الأعمال اللغوية المترجمة، فذاك أمر تقصر عنه طاقتي، وتندُّ عنه معرفتي، ولكنني حاولت قدر الاستطاعة أن أحيط بها؛ اقتناء، واطلاعاً، وعلماً، وسؤال أهل الذكر.

ونظراً لاتساع خارطة بلدان المشرق العربي المعاصر التي تشتمل على ما يربو على اثنتي عشرة دولة، ورغبة في تناول هذا الموضوع تناولاً رأسياً لا أفقياً، فقد رأيت منهجياً أن أحدد مكاناً للدراسة، يمثل أنموذجاً وصورة صادقة لواقع الترجمة اللغوية في المشرق العربي المعاصر؛ ولذا وقع اختياري على مصر[١٢] لسببين رئيسين مباشرين

(١٠) هناك دراسة سابقة تناولت واقع الترجمة في الوطن العربي – بصفة عامة – بتكليف من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وصدرت في قسمين: أولهما صدر عام ١٩٨٥ م، والآخر عام ١٩٨٧ م. وهذه الدراسة شملت ما ترجم في الفترة من ١٩٧٠ – ١٩٨٠ م، وكان حظ الترجمات اللغوية في هذه الفترة قليلاً جداً، حيث بلغ عددها ٢٠ كتاباً من جملة ٢٨٤٠ كتاباً. نقلاً عن: شحادة الخوري، دراسات في الترجمة والمصطلح والتعريب، ص ١١٠. وهناك دراسات أخرى خُصّصت للترجمة بوجه عام، في كل قطر عربي على حدة، منها فيما اطّلعت عليه: محمد مواعدة، حركة الترجمة في تونس وأبرز مظاهرها في الأدب (١٨٤٠–١٩٥٥م)، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٨٦ م. نورة صالح الناصر، ترجمة الكتب إلى اللغة العربية في المملكة العربية السعودية (١٣٥١ – ١٤١٢هـ) مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، ١٤١٩ هـ، سمير عبد الرحيم الجلبي، النشاط الترجمي في العراق، واقعه ورسائل تطويره، مجلة التعريب، العدد ١٦، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م، ص ص ١٧ – ٣٤.

(١١) أخص بالذكر مجلة (ديوجين) التي تصدر تحت رعاية المجلس الدولي للفلسفة والعلوم الإنسانية، وبدعم من اليونسكو، في طبعتها العربية الصادرة عن مركز مطبوعات اليونسكو بالقاهرة، ففي هذه المجلة مقالات مترجمة تُشكِّلُ – فيما أرى – موضوعاً مستقلاً يحتاج من الباحثين إلى وقفة خاصة، وإفرادها بالدرس والعرض، والتصنيف والتحليل.

(١٢) هناك مؤلفات تناولت واقع الترجمة في مصر، ليس من بينها دراسة واحدة خُصّصَت للترجمة اللغوية، وهي – فيما أمكنني الاطلاع عليه –: جاك تاجر، حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر، دار المعارف، مصر، ١٩٤٥ م، د. جمال الدين الشيال، تأريخ الترجمة في مصر في عهد الحملة الفرنسية، دار الفكر العربي، ١٩٥٠ م، تأريخ الترجمة والحركة الثقافية في مصر في عهد محمد علي، دار الفكر العربي، ١٩٥١ م، د. أحمد عصام الدين، حركة الترجمة في مصر في القرن العشرين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦ م. د. هاشم فرحات، حركة الترجمة في مصر، دراسة ببليومترية=

يضافان لما تقدم من أسباب، وهما: أن مصر من أسبق الأقطار العربية اتصالاً بالغرب، كما أن نصيبها من الترجمات كان النصيب الأكبر مقارنة ببقية أقطار المشرق العربي.(١٣)

على أن هذا لا يعني أنني أغفلت كلياً ما صدر من لغويات مترجمة في بقية البلدان المشرقية، فكثيراً ما كنت أذكر في معرض الموازنة والتحليل ما صدر من ترجمات مماثلة في الجانب اللغوي الواحد، أو في الأعمال العلمية المكررة.

وقبل البدء في عرض واقع الترجمة اللغوية في العصر الحاضر ينبغي التنبيه إلى أن الترجمة لم تعد فناً فحسب، كما كان ينظر إليها، بل أصبحت علماً ذا مواصفات مميزة، ينتمي إلى فروع الألسنية الحديثة وتحديداً اللسانيات التطبيقية Applied Linguistics.(١٤)

وإذا أردنا تحديد البدايات الأولى لهذه الترجمات اللغوية فإنه يمكن القول – ظناً أشبه باليقين -: إن ترجمة مقالتي "لانسون" و"ماييه": (منهج البحث في الأدب واللغة)(١٥) التي قام بها الدكتور محمد مندور (ت ١٩٥٦م) عن الفرنسية، تعد أولى الترجمات اللغوية صدوراً في الوطن العربي، حيث صدرت سنة ١٩٤٦م، عن دار العلم للملايين، بيروت.

والذي يعنينا في هذا المقام هو مقالة اللغوي الفرنسي "انطوان ماييه" (١٩٣٦م): (مناهج البحث في اللغة).(١٦)

وأود أن أثبت بداية أن التوفيق حالف الدكتور مندور في اختياره الجانب المنهجي موضوعاً للترجمة؛ فقد كان المنهج – ومازال – محور الاهتمام في المعارف والعلوم الإنسانية المختلفة، بل إن العناية به وصلت إلى أن أصبح علماً قائماً يسمى (علم المناهج)، أو (علم مناهج البحث)، كما أنه مكمن

= للاتجاهات العددية والنوعية، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩١م. د. شعبان خليفة، حركة ترجمة الكتب في مصر، دراسة عددية ونوعية، عالم الكتاب، العدد ٦، ١٩٨٥م، ص ٣ – ٤، د. لطيفة الزيات، حركة الترجمة الأدبية من الإنجليزية إلى العربية في مصر (رسالة دكتوراه غير منشورة بجامعة القاهرة، كلية الآداب، قسم الصحافة، ١٩٥٧م).

(١٣) ينظر: د. أحمد مطلوب، حركة التعريب في العراق، ص ١٧، د. مصطفى ماهر، علامات على طريق الترجمة من الألمانية إلى العربية، ضمن كتاب (حوار بين الألمان والعرب) ص ٦٨.
وقد قامت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بدراسة إحصائية ببيليوغرافية لما تُرجم في الوطن العربي خلال إحدى عشرة من سنة ١٩٧٠ – ١٩٨٠م، فتبين أن مصر نالت المرتبة الأولى في عدد الكتب المترجمة،=

= حيث بلغت نسبة الترجمة ٦٢% نقلاً عن: شحادة الخوري، دراسات في الترجمة والمصطلح والتعريب، ص ص ١٠٩ – ١١٠.

(١٤) ينظر: د. فوزي عطية محمد، علم الترجمة مدخل لغوي، ص ٦ وما بعدها، جورج مونان، المسائل النظرية في الترجمة، ترجمة: لطيف زيتوني، ص ٥٧ – ٦٣، د. محمود فهمي حجازي، البحث اللغوي، ص ١٢١ – ١٢٤، ج. س. كاتفورد، نظرية لغوية في الترجمة، ترجمة: د. خليفة العرابي – د. محيي الدين حميدي، ص ٣٢، د. فؤاد عبد المطلب، الترجمة والبحث العلمي، مجلة التعريب، السنة ٨، العدد ١٥، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م، ص ٤٣ وما بعدها.

(١٥) صدرتا أولاً في كتاب مستقل، ثم ضَمَّهما بعد ذلك لكتابه: النقد المنهجي عند العرب.

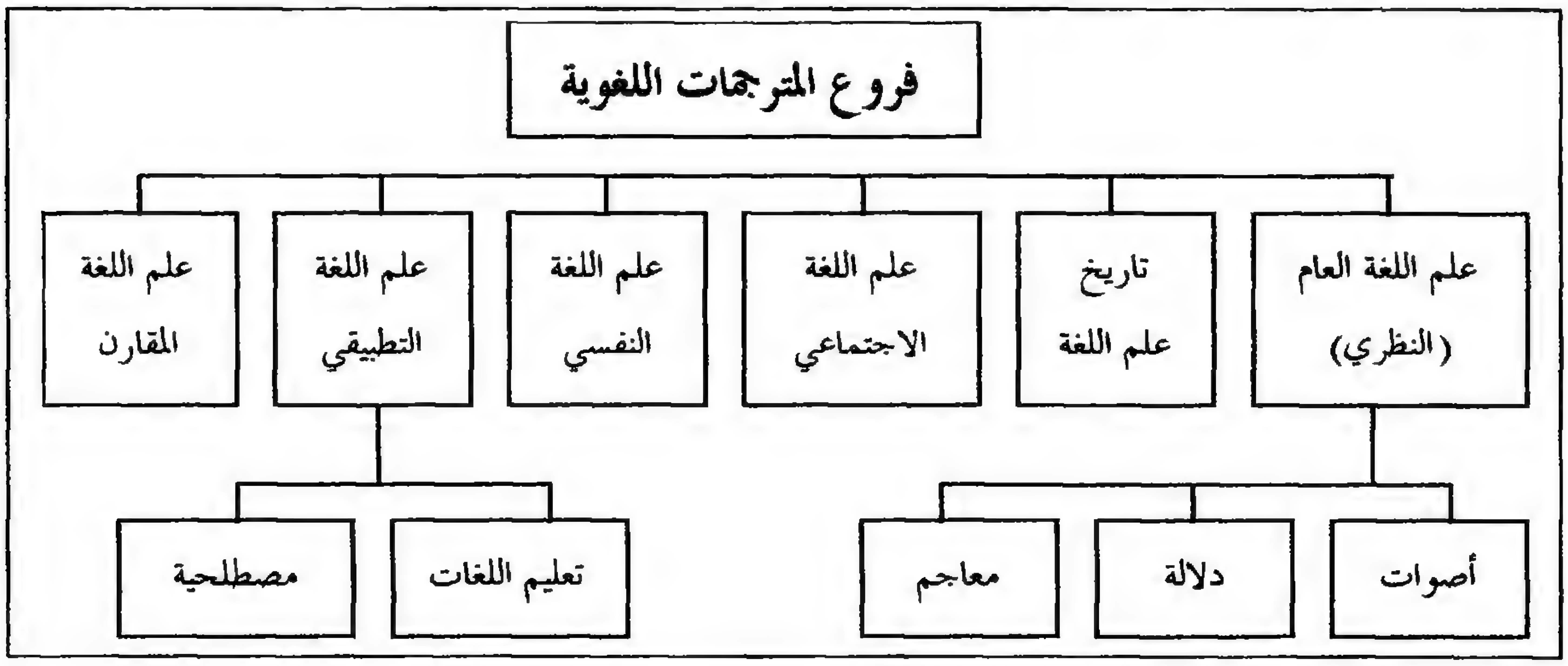
(١٦) كذا كتب على غلاف الكتاب، وبالداخل عنوان آخر هو: علم اللسان.

الاختلاف بين المدارس اللغوية، قديمها وحديثها.

وتعود قيمة هذه المقالة وأهميتها – أيضاً – إلى أنها أظهرت "لأول مرة وبشكل واضح منهج التحليل اللغوي البنيوي إلى مستوياته المختلفة، وطبيعة العلاقة بين هذه المستويات".(١٧)

وقد حفل الكتاب / المقالة بكثير من المصطلحات اللغوية الحديثة التي تعرض للقارئ العربي – ربما لأول مرة – نحو علم الأصوات العام General Phonetics، والفونيمات Phnemes، والحروف الصامتة Consonnes، والصائتة Voyelles، والصوت المزدوج Diphtongue، وعلم الأصوات التجريبي أو الميكانيكي Experimental Phonetics or Instrumental، وعامل الصيغة Morphem (المورفيم)... إلخ، وكان متوقعاً من المترجم أن يفرد لها كشافاً خاصاً بها، وبخاصة أنها تمثل بُعْداً تاريخياً له أهميته في الجانب الاصطلاحي اللغوي الحديث.(١٨)

وبعد هذه الوقفة التاريخية عند أول الأعمال اللغوية المترجمة، أنتقل إلى العرض التفصيلي لبقية المترجمات، موزعة على الشكل التالي :



وسأتناول ذلك كله – إن شاء الله – في ضوء الجوانب التالية: الجانب التوثيقي، والجانب الفني، والجانب التخطيطي(١٩)، تاركاً أمر الجانب العلمي (مستوى الترجمات

---

(١٧) د. حلمي خليل، العربية وعلم اللغة البنيوي، ص ١٦٣. ولمزيد من التفاصيل حول المباحث التي تضمنتها هذه المقالة ينظر: المصدر السابق، ص ص ١٦٢ – ١٦٤.

(١٨) ذكر الدكتور عبد السلام المسدي – وهو يتحدث عن الجهود العربية في المصطلح اللساني – أن الدكتور مندور عمد في تعامله مع المصطلح اللغوي الحديث في هذه الترجمة إلى صياغة المضامين العلمية على نهج التعميم والمقاربة، لا على نهج التخصيص = والمعاينة، واعتذر له بأن المحاولات السابقة – كما هي بالحال عند عبد الواحد وافي في مؤلفه (علم اللغة) – لم تتعد درجة تلقي الاصطلاحي التي هي بمنزلة الدخيل لفظاً ومعنى، ينظر: قاموس اللسانيات، ص ص ٧٣ – ٧٤.

(١٩) لمعرفة مفهوم هذه الجوانب ينظر : دراسات عن واقع الترجمة في الوطن العربي، ق ١، ص ص ٩ – ١٠.

من حيث أمانة النقل، ودقة المصطلح، والإبانة، والوضوح، والأسلوب اللغوي المستعمل)[٢٠] لأولئك الذين لهم قدم راسخة، وخبرة طويلة، ومعرفة باللغات الأصلية التي صدرت عنها تلك المؤلفات المترجمة.

فأما علم الأصوات Phonetics فقد نال حظاً لا بأس به من الترجمات اللغوية، وبلغت المؤلفات المترجمة فيه – فيما أمكنني الاطلاع عليه – أربعة مؤلفات[٢١]. كان أولها صدوراً كتاب "إرنست بولجرام E. Pulgram" (في علم الأصوات الفيزيقي، مدخل إلى التصوير الطيفي للكلام)، وقام بترجمته، والتقديم له، والتعليق عليه: الأستاذ الدكتور سعد مصلوح، ونشر بمكتبة دار العلوم بالقاهرة، سنة ١٩٧٧م.

ويندرج هذا الكتاب تحت علم الأصوات الفيزيقي (الفيزيائي) Physical Phonetics، الذي تنحصر وظيفته في "دراسة التركيب الطبيعي للأصوات، وتحليل الذبذبات والموجات الصوتية المنتشرة في الهواء، بوصفها ناتجة عن ذبذبات ذرات الهواء في الجهاز النطقي، المصاحبة لحركات أعضاء هذا الجهاز".[٢٢]

وتتمثل قيمة الكتاب العلمية – بالإضافة إلى ما تضمنه من مباحث صوتية أكوستيكية – أنه أول مؤلف خاص بهذا العلم يُنقل إلى العربية مترجماً.

وقد قام المترجم بإضافة ملحق للترجمة ضمَّ مجموعة من التعليقات والشروح على النص.

ومن الملاحظات على هذه الترجمة خُلُوُّها من عمل كشاف أو ثبت بالمصطلحات الواردة في الكتاب، وعلى الرغم من اعترافه بأن ترجمة المصطلح العلمي من أشد مشكلات هذا النص المترجم، وقيامه بعمل معجم مشروح للمصطلحات العلمية الواردة في تضاعيف الكتاب، وإدراجها ضمن شروحاته وتعليقاته[٢٣]، فقد كان الأولى إفرادها بملحق مستقل؛ لتكون خطوة في تحديد وضع المصطلح اللغوي الحديث، وحل مشكلاته.

ومن الملاحظات أيضاً أن الدافع لترجمة هذا الكتاب كان دافعاً ذاتياً، كما أن المترجم لم يذكر لنا في المقدمة عن أي اللغات تمَّ نقل الكتاب، ويغلب على الظن أن الترجمة كانت عن الإنجليزية.

وفي الجانب نفسه نجد كتاباً آخر ترجم إلى العربية، (تحت عنوان مبادئ علم أصوات الكلام الأكوستيكي)، لمؤلفه "بيتر ليدفوجد

---

(٢٠) د. محمود إبراهيم، حركة الترجمة في الوطن العربي ص ٨. وللمزيد حول شروط الترجمة الجيدة ينظر: شحادة الخوري، دراسات في الترجمات والمصطلح والتعريب، ص ص ٦٤ – ٦٥.

(٢١) يلاحظ في هذا الصدد أنني أغفلت الحديث عن الكتب والمقالات التي ترجمت إلى العربية، وكانت خاصة بصوتيات اللغة العربية، وأرجأت ذلك إلى موضع آخر من = هذا البحث، واكتفيت في الحصر والعرض بما تُرجم في حقل الصوتيات العامة بفروعها المتعددة.

(٢٢) د. كمال بشر، علم اللغة العام (الأصوات)، ص ١٧. وينظر: د. أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، ص ١ فما بعدها.

(٢٣) مقدمة المترجم، ص ص ٦ – ٧.

Peter Ladefoged"، ترجمه عن الإنجليزية الدكتور جلال شمس الدين، وراجعه الدكتور سعد مصلوح، وصدر سنة ١٩٩٢م، دون ذكر لاسم الدار التي نشرته.

والكتاب هذا كسابقه من حيث إنه يُمَثِّلُ مدخلاً للقراء والباحثين المبتدئين في علم الأصوات الأكوستيكي، فهو يتناول أساسيات هذا العلم دون استيعاب للمسائل الفنية الدقيقة الخاصة به.(٢٤)

وقد حاول المترجم توضيح بعض النقاط الغامضة، وذلك عن طريق شرحها في الهامش، كما ذيَّل الكتاب بثلاث تذييلات: الأولى لتوضيح المصطلحات الواردة في النص وشرحها، والثانية لذكر أسماء المراجع المتعلقة بعلم الأصوات الأكوستيكي، مع وصف موجز لها، والثالثة لمعجم المصطلحات (إنجليزي – عربي).

إن هذين الكتابين – وإن كانا مدخلين لعلم الأصوات الأكوستيكي – يُمَثِّلان أهمية بالغة للباحثين في ميدان علم الأصوات(٢٥)، واللغويات بوجه عام.

ونظراً لأهمية هذا العلم وصعوبة مسائله وقضاياه، فقد أدرك بعض اللغويين المعاصرين ضرورة تقريبه لفهم القارئ العربي، فظهر مؤلَّفان قيِّمان أحدهما للدكتور سعد مصلوح، وهو (دراسة السمع والكلام) صدر سنة ١٩٨٠م، والآخر للدكتور عبد الرحمن أيوب، وهو (الكلام إنتاجه وتحليله) صدر سنة ١٩٨٤م، وكلاهما يُمَثِّل – فيما أرى – جانباً تأثرياً بمؤلَّفات هذا العلم، المترجَم منها وغير المترجَم.

والكتاب الثالث في هذه السلسلة هو Phonetics (علم الأصوات) أو (الصوتيات)، من تأليف "بارتيل مالمبرج" Bertil Malmberg.

وقد صدرت لهذا الكتاب ترجمتان في عام واحد ١٩٨٥م، الأولى كانت على يد الدكتور عبدالصبور شاهين، ونشرت في مكتبة الشباب بالقاهرة، اعتمد خلالها على الطبعة الفرنسية للكتاب – الأصل –، والآخر قام بها الدكتور محمد حلمي هليل، وكانت بواسطة الترجمة الإنجليزية للكتاب، وصدرت عن معهد الخرطوم الدولي للغة العربية.

وهنا تبدو الإشكالية الكبرى متمثِّلة في قيام

---

(٢٤) ينظر: مقدمة المؤلف، ح – ط.

(٢٥) لا بد من الإشارة في هذا المقام إلى صدور ترجمتين لكتابين يتناولان إنتاج الكلام وتحليله، وهما: كتاب (المنظومة الكلامية) للدكتور دنيس وزميله الدكتور بنشن، وكتاب (أساسيات علم الكلام) للدكتورة بوردن والدكتورة هاريس. وقد قام بترجمتهما الدكتور محيي الدين حميدي – من سوريا – وهو أحد المتخصصين في اللغويات الإنجليزية، وقد صدر أولهما عن معهد = = الأنماء العربي، بيروت، سنة ١٩٩١م، وصدر الآخر عن دار الشرق العربي، بيروت.

والكتابان – رغم قيمتهما العلمية – لم يقدم المترجم فيهما أي خدمة علمية للقارىء العربي تحسب له في ميزان الترجمة، فقد خليا تماماً من التعليقات والشروح المضيئة للنص التي تعين على الفهم، واكتفى بنقل النص ليس إلا!

ترجمات متعددة للكتاب الواحد، وهذا أمر عانته ومازالت تعانيه الترجمة في ظل غياب مؤسسة علمية تُنظّمُ جهود المترجمين.

ويطول بنا الحديث لو استعرضنا قائمة الكتب التي نقلت إلى العربية أكثر من مرة،(٢٦) وليس ببعيد عنَّا كتاب "دي سوسير" (Course in General Linguistics) "De Saussure" (محاضرات في علم اللغة العام)، الذي تُرجِمَ إلى العربية ترجمات خمساً، توزَّعت على الأقطار العربية: لبنان (سنة ١٩٨٤م)، ومصر (سنة ١٩٨٥م)، وتونس (سنة ١٩٨٥م)، والعراق (سنة ١٩٨٥م)، والمغرب (سنة ١٩٨٧م).(٢٧)

وقد يُقبل مثل هذا التعدد في ترجمة نصٍّ أدبي، لأن المترجم في هذه الحالة يقوم بقراءة ذاتية لهذا النص، وهنا تتفاوت القراءة من ترجمة لأخرى، وذلك أمر طبعي في النص الأدبي الواحد، مما يجعل "ترجمة النص الأدبي في نهاية الأمر قراءة من جملة قراءات ممكنة"،(٢٨) وأقرب مثال على هذا رباعيات الخيام، وبحيرة لامارتين ... إلخ.

أما تكرار ترجمة العمل اللغوي فمنه ما يُقبَلُ إن كان العمل المترجَم من أمهات المصادر المعرفية التي أحدثت اتجاهاً جديداً ومدرسة فكرية في الثقافة الإنسانية،(٢٩) ومنه ما يُرْفَضُ إن كان ذلك العمل كغيره من الأعمال العلمية التي لم تحدث ثورةً أو إنجازاً في الفكر الإنساني. هذا بالنظر إلى العمل أو الكتاب المترجَم، أما الترجمة نفسها باعتبارها منجزاً علمياً فتلك قضية أخرى ذات أبعاد علمية متعددة للحكم لها أو عليها، وتبرير تكرارها من عدمه.

وأعود إلى ترجمتي كتاب "مالمبرج" فأقول: إنهما حفلتا بالتعليقات والشروح، وعمل معجم للمصطلحات الصوتية الواردة فيه،(٣٠) وإن كانت ترجمة الدكتور عبد الصبور شاهين قد تميزت بإضافة دراسات نظرية وتطبيقية مُعَمّقَة في علم الأصوات العربي عقب بعض فصول الكتاب.

(٢٦) أعددت عبر سنوات طويلة قائمة بالكتب اللغوية التي تكررت ترجماتها، وعسى أن أفرغ في القريب العاجل لنشرها – إن شاء الله.

(٢٧) لمراجعة هذه الترجمات وتقويمها ينظر: د. حمزة بن قبلان المزيني، مراجعات لسانية، ص ص ٨٧ – ١١٦. د. عبد السلام المسدي، مساءلات في الأدب واللغة، ص ٦٣ – ٨٩.

(٢٨) المنصف الجزار، الترجمة الأدبية، ضمن كتاب (الترجمة ونظرياتها) ص ١١٤، ويؤيد الدكتور مصطفى ماهر هذا التعدد إذا كان المترجم مقتنعاً بقدرته على تقديم صياغة أكثر دقة، وأفضل أسلوباً، وعلى الدارسين المهتمين بالترجمة أن يقارنوا بين الترجمات، وتحديد الترجمة الأنجح والأحسن. ينظر: = علامات على طريقة الترجمة من الألمانية إلى العربية، ضمن كتاب (حوار بين الألمان والعرب) ص ٧٠. وللمزيد حول هذا النوع من الترجمة ينظر: د. سامية أسعد، ترجمة النص الأدبي، عالم الفكر، المجلد ١٩، العدد ٤، ١٩٨٩م، ص ص ١٥ – ٣٥.

(٢٩) د. عبد السلام المسدي، ما وراء اللغة – بحث في الخلفيات المعرفية -، ص ص ٢٩ – ٣١.

(٣٠) يرى الدكتور محمود فهمي حجازي أن إعداد المترجم للكشافات الاصطلاحية هو عمل أساسي في النشر العلمي المتقن، وإن كانت ليست من البحث اللغوي بالمعنى الضيق، وليست من علم المصطلحات. ينظر: الأسس اللغوية لعلم المصطلح، ص ٣٠.

وهذا – فيما أرى – حقق للكتاب والترجمة بُعْداً علمياً خاصاً لدى القارئ العربي، تمثل في إفادته من الأفكار العامة للصوتيات، وإحاطته بقضايا علم الأصوات من وجهة نظر الغربيين، ومقارنة ذلك بوجهة نظر العرب في هذا الجانب من الدراسات اللغوية.

أما الكتاب الرابع – والأخير – في هذه القائمة فهو (مبادئ علم الأصوات العام) لمؤلفه "ديفيد ابركرومبي" David Aebercromby، ترجمه إلى العربية الدكتور محمد فتيح، وصدر بالقاهرة سنة ١٩٨٨م، دون ذكر لاسم الدار التي نشرته.

وهو كتاب يتصل بعلم الأصوات النطقي في جانبيه الفوناتيكي والفنولوجي. وقد ألحق به المترجم هوامش خصصها لتعليقاته على القضايا الواردة في هذا الكتاب، اتسمت بتوضيح وجهات النظر المؤيدة أو المخالفة لرأي المؤلف في الدراسات الصوتية الغربية، وموقف الدراسات الصوتية العربية من تلك القضايا، كما ألحق به قائمة بالمصطلحات الصوتية الواردة فيه.[٣١]

وبعد، فلنا على هذا الجانب اللغوي من الترجمات ملاحظة أحسب أنها مهمة، وهي أن بعض الإصدارات في علم الأصوات المؤلفة بلغات أجنبية، سواء في علم الأصوات العام، أو في علم الأصوات العربية، والنظريات الصوتية عند العرب، لم تنل حظها من الترجمة، كما هي الحال في The Phonetics of Arabic (صوتيات العربية) لمؤلفه "قاردنر" Gairdner، و (علم الأصوات عند سيبويه وعندنا) لمؤلفه "شادة"، و General Phonetics (علم الأصوات العام) لمؤلفه "هفنر" Heffener... إلخ.[٣٢]

وأما علم الدلالة Semantics فبالرغم من أن الموضوع الأساسي له هو المعنى، والمعنى كما هو معروف هو حجر الزاوية في التحليل اللغوي، فإن حظه من الترجمات اللغوية في مصر ضئيل إذا ما قورن ببقية المستويات (الجوانب) اللغوية الأخرى، وقورن أيضاً بالترجمات العديدة للمؤلفات الدلالية التي صدرت في بقية أقطار المشرق العربي.[٣٣]

ومن أوائل الترجمات في هذا الجانب كتاب (دور الكلمة في اللغة) للغوي الإنجليزي "استيفن أولمان" Estephen Ullmann، قام

---

(٣١) للمزيد ينظر ما كتبه الدكتور محمد حسن عبد العزيز عن هذه الترجمة في: مجلة كلية دار العلوم، العدد ١٨، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م، ص ص ٣٦ – ٣٧.

(٣٢) للمزيد حول هذه المؤلفات ينظر: مقدمة الدكتور صالح القرمادي لكتاب جان كانتينو المترجم (دروس في علم أصوات العربية)، ص ص ١١ – ١٣.

(٣٣) منها – فيما اطلعت عليه – بيار غيرو: علم الدلالة، ترجمة: انطوان أبوزيد، بيروت، ١٩٨٦م، علم الإشارة ((السيميولوجيا)) ترجمة: د. منذر العياشي، دمشق، ١٩٨٨م، السيمياء، ترجمة: انطوان أبوزيد، بيروت، = ١٩٨٤م، جون ليونز: علم الدلالة، ترجمة: مجيد الماشطة وزملائه، البصرة، ١٩٨٠م، علم الدلالة السلوكي، ترجمة مجيد الماشطة، بغداد، ١٩٨٦م، اللغة والمعنى والسياق، ترجمة: د. عباس صادق الوهاب، بغداد، ١٩٨٧م، آن، اينو: مراهنات دراسة الدلالات اللغوية، ترجمة: د. خليل أحمد وزميله، ١٩٨٠م، دمشق. هربيرت بركلي: مقدمة إلى علم الدلالة الألسني، ترجمة: د. قاسم المقداد، دمشق، ١٩٩٠م، كلود جرمان وريمون لوبلان: علم الدلالة، ترجمة: د. نور الهدى لوشن، دمشق، ١٩٩٤م.

بترجمته والتعليق عليه الأستاذ الدكتور كمال بشر، أحد رواد الدرس اللغوي المعاصر في مصر، وصدر سنة ١٩٦٢م، عن دار الطباعة القومية بالقاهرة.

ومؤلف هذا الكتاب من أكثر اللغويين الأوربيين الذين أثروا المكتبة اللغوية الغربية بمؤلفات دلالية متعددة،(٣٤) حتى إنه يُعدُّ أحد أعلام الدرس الدلالي الحديث.

وتدور مباحث الكتاب حول قضايا دلالية متنوعة، من أهمها قضية المعنى المتعدد Multiple Meaning، وكيفية معالجة المعنى اللغوي.(٣٥)

وقد وضع المترجم للكتاب مقدمة ضافية، عَرَّفَ فيها بالكتاب وموضوعاته، وخطته في الترجمة، وكذلك بالمؤلف وإسهاماته في العلوم الإنسانية، وآرائه في دراسة المعنى.

كما حاول المترجم – ونجح في المحاولة – تقريب مباحث هذا العلم (علم الدلالة) إلى القارئ العربي، عن طريق ضرب الأمثلة من واقع اللغة العربية بديلاً عن أمثلة المؤلف، وأضفى على الترجمة تعليقات وشروحات علمية نافعة؛(٣٦) توضيحاً لغامض، وتفصيلاً لمجمل، ومناقشة لفكرة.

وكان لهذا الكتاب تأثير على المترجم والمتلقي على حَدٍّ سواء، ولعل من أوضح تأثيره على المترجم ما قام به عقيب الفراغ من ترجمته من كتابة مقالات عدة في الموضوع نفسه تحت عنوان (دراسات في علم المعنى).(٣٧)

وبالنسبة للطرف الآخر من المعادلة فمازال هذا الكتاب يمثل مصدراً رئيساً من مصادر الدراسات اللغوية المعاصرة، والدلالية على وجه الخصوص.

ومن الملاحظات على هذه الترجمة أن عنوان الكتاب الأصلي هو Words and Their Use، والترجمة الحرفية له هي (الكلمات وما تستعمل له)،(٣٨) إلا أن الدكتور بشر ترجمه إلى (دور الكلمة في اللغة)؛ مُعلِّلاً ما قد يوحي بالتناقض بين العنوان المترجَم وموضوع الكتاب الرئيسي بقوله: "فالكلمة هي أداة المعنى، أو هي – كما قرر المؤلف نفسه – أصغر وحدة من وحدات المعنى، وهي التي تتكون منها الوحدات الأخرى، كالعبارة والجملة...".(٣٩)

ومن الملاحظات أيضاً خُلو الترجمة من عمل قائمة بالمصطلحات اللغوية الواردة في الكتاب، رغم تصريح المترجم المتفق مع ما

---

(٣٤) لمزيد من التفاصيل حول إسهامات أولمان في الدرس الدلالي ينظر: د. كمال بشر، دراسات في علم اللغة، ق ٢، ص ص ١٥٦ – ١٦٢، د. أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص ٢٨.

(٣٥) لمعرفة مباحث الكتاب وآراء المؤلف بشكل مفصَّل ينظر: د. كمال بشر، قضايا لغوية، ص ص ١٤٧ – ١٦١.

(٣٦) بلغت هذه التعليقات – فيما ذكر – مئة وأربعة وتسعين تعليقاً، ينظر: مقدمة المترجم، ص ٨.

(٣٧) نشرها في مجلة الأزهر بين عامي ١٩٦١ – ١٩٦٢م.

(٣٨) ينظر: د. البدراوي زهران، العقاد وعلم السيمية، ضمن (أبحاث المؤتمر العلمي الأول: عباس محمود العقاد في ذكراه المئوية) ص ٦٠.

(٣٩) مقدمة المترجم، ص ٤.

ذكره المؤلف من أن صعوبة الكتاب تكمن في كثرة المصطلحات واضطرابها، واختلاف العلماء في معنى هذه المصطلحات،[٤٠] وهذا في حد ذاته كان من المفترض أن يكون سبباً مقنعاً ومطلباً مُلحاً لبلورة تلك المصطلحات في قائمة خاصة بها، ناهيك عن كونه من أوائل المترجمات، لا في علم الدلالة فحسب بل في علم اللغة كما تقدم.

والكتاب الثاني في هذه السلسلة هو (علم الدلالة) Semantics لمؤلفه "بالمر" F.R. Palmer، ترجمه الدكتور صبري إبراهيم السيد، وصدر سنة ١٩٨٦م، عن دار قطري ابن الفجاءة بقطر.

والكتاب هذا بمثابة مدخل عام لعلم الدلالة، سَلَّطَ فيه المؤلف الضوء على المسائل الأساسية، وموقف اللغويين الغربيين من قضاياه، كالسياق غير اللغوي، The Non Linguistic Context والترادف Synorymy، والتضاد Antonymy، والسياق اللغوي Linguistic Context.

وقد قدم له المترجم بمقدمة موجزة وغير كافية، تحدث فيها حديثاً مقتضباً عن موضوعات الكتاب، دون أن يُعَرِّفَ القارئ بآراء المؤلف، أو أن يُطلعه على منهجه في الترجمة، واكتفى بالقول: إنه نيل الكتاب بمجموعة من المصطلحات الإنجليزية التي وردت داخل نصوصه، ومقابلها بالعربية.[٤١] أما التعليقات على قضايا الكتاب فلا نكاد نجد منها شيئاً سوى النزر اليسير.

والأمر اللافت للنظر وجود ترجمتين أخريين لهذا الكتاب، إحداهما صدرت قبل عام من الترجمة المصرية السابقة، أي في عام ١٩٨٥م، اضطلع بها الدكتور مجيد الماشطة من العراق، وقد نجد عذراً لهذه الترجمة والتي سبقتها، لأنهما صدرتا في عامين متتاليين، مما يجعل مظنة عدم علم إحداهما بالأخرى أمراً محتملاً وقائماً.

أما الترجمة الأخرى – وهي مثار الاستغراب والدهشة – فقد قام بها الدكتور خالد محمود جمعة، وصدرت في الكويت عام ١٩٩٧م، أي بعد مرور إحدى عشرة سنة – تقريباً - من صدور الترجمتين السابقتين!، فهل كان المترجم على علم بهما ولكنه لم يقتنع بهما لأي سبب من الأسباب، أم أنه لم يكن على علم بذلك؟[٤٢] لست أدري، وبخاصة أن مقدمة ترجمته تخلو من الإجابة عن هذه التساؤلات، والذي أعلمه على وجه العموم أنه كان ينبغي أن يُختَزل الجهد، ويُصرف في ترجمة عمل علمي آخر، يضاف إلى رصيد المعرفة والثقافة العربيتين.

والذى أراه في هذا المقام أن هذا الكتاب – بوجه خاص – كان يكفيه ترجمة واحدة

---

(٤٠) نفسه، ص ٨.

(٤١) ينظر: مقدمة المترجم، ص ٨.

(٤٢) ما ذكرته هنا على وجه الإيجاز سبق للدكتور عبد السلام المسدي أن فصَّلَ القول فيه حول قضية مشابهة لما نحن بصدده، وهي ترجمة = الدكتور عبدالقادر قنيني لكتاب سوسير (محاضرات في علم اللغة العام)، التي صدرت سنة ١٩٨٧م. ينظر: ما وراء اللغة، ص ص ٣٠ – ٣٥.

تحقق الهدف المنشود. وهنا تبدو مرةً ثانية الضرورة القصوى لتنظيم أعمال المترجمين والنقلة في مؤسسة علمية ترعى جهودهم، وتنسق أعمالهم، أو في صدور دورية ببيليوغرافية منتظمة ترصد جهود المترجمين في الوطن العربي، ما تمَّ منها وما هو في طريقه للنشر.(٤٣)

وأنتقل بعد هذا إلى إبداء ملاحظة على الكتابين المترجمين في علم الدلالة – أعني (دور الكلمة في اللغة)، و (علم الدلالة) –، وهي أنهما يعالجان جانباً واحداً من جوانب البحث الدلالي، وهو ما يُعرفُ باسم المعاني المعجمية Lexical Meanings، وهي التي تختص بدلالة المفردة المعجمية أو الوحدة الجذرية Lexeme، أما الجانب الآخر وهو ما يُعرف باسم المعاني النحوية (التركيبية) Gramatical Meanings، الذي يهتم بدلالة العبارات والجمل – فليس له وجود استقلالي ضمن هذه المؤلفات المترجمة.

صحيح أن كتاب (بالمر) تضمن في بعض أبوابه حديثاً عن دلالة الجملة ودلالة النحو، ولكن هناك كثيراً من المؤلفات الغربية عنيت بهذا الجانب لم يكن لها حظ من الترجمات الدلالية، ومن ذلك – على سبيل المثال – Structural Semantics (علم الدلالة التركيبي) لمؤلفه "جون ليونز" John Lyons.

والكتاب الثالث في هذا الجانب هو Stylistics and Semantics (الأسلوبية وعلم الدلالة) لمؤلفه "ستيفن أولمان"، قام بترجمته والتعليق عليه الدكتور محيي الدين محسب، وصدر سنة ١٩٩٢م، عن مركز الحضارة العربية بالقاهرة.

وهو في واقع الأمر ليس كتاباً، وإنما مقالة كان قد نشرها المؤلف سنة ١٩٧١م. وموضوعها – كما هو واضح – العلاقة بين علم الأسلوب وعلم الدلالة.

وقد وضع المترجم مقدمة متكاملة لهذا البحث أو المقالة، لخَّصَ فيها وجهة نظر "أولمان" حول العلاقة بين هذين العلمين، وناقش كثيراً من القضايا التي أثيرت في هذه المقالة، كاستقلالية علم الأسلوب عن اللسانيات، وثنائية المعنى المعرفي Cognitive Meaning، والمعنى التعبيري Expressive Meaning، والاستعمال المجازي للغة Metaphorical.

وأشار المترجم في نهاية مقدمته إلى منهجه في الترجمة، وهو الاعتماد على التعليقات الموضوعية، كتوضيح فكرة، أو تعقيب على معلومات جزئية، أو تبرير اختيار معين للترجمة، والتعليقات الاصطلاحية التي قدَّم فيها تعريفاً بمفهوم كل مصطلح ورد في النص المترجم، ومقابلاتها العربية، وموقف المعاصرين من هذه المصطلحات، الأمر الذي أضفى على الترجمة طابعاً علمياً مميزاً.

---

(٤٣) للدكتور محمود إبراهيم تصور جيد عن وسائل تنسيق الترجمة والنهوض بها. حركة الترجمة في الوطن العربي، ص ص ١٢ – ١٧.

أما الجانب المعجمي Lexical، فالذي يعنينا منه في هذا المقام ما يطلق عليه المعاجم الموسوعية (دوائر المعارف) Encyclopaedic Dictionaries "وهي معاجم للعلم والفكر، تمد الإنسان لا بالمعنى اللغوي للألفاظ فحسب، بل بخلاصة دقيقة عمَّا يرتبط باللفظ المذكور من بحوث ودراسات علمية".[٤٤]

ومن أوائل المترجمات الموسوعية (دائرة المعارف الإسلامية) لمجموعة من المستشرقين، نقلها عن الإنجليزية ابتداءً من عام ١٩٣٣م، كل من: إبراهيم خورشيد، وأحمد الشنتناوي، وعبد الحميد يونس، وعباس محمود، وراجعها الدكتور مهدي علام، وصدر منها حتى الآن أربعة عشر مجلداً، ولما تكتمل بعد.

وقد قام المترجمون بالتعليق على كثير من مواد هذه الموسوعة، تكملة، وتصحيحاً، ورداً على ما بها من مزاعم.

وهناك (دائرة معارف الناشئين) التي قامت بترجمتها عن الإنجليزية الدكتورة فاطمة محجوب، وصدرت سنة ١٩٥٧م. ولم تكتف المترجمة بالنقل المجرد، بل أضافت إلى الترجمة - وهو ما ينبغي أن يكون - ما يلائم البيئة العربية، ويكشف عن الحضارة الإسلامية.

كما أن الترجمة - وقد صدرت ضمن سلسلة الألف كتاب التي أشرفت عليها إدارة الثقافة العامة بوزارة التربية والتعليم، ومعاونة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية - حظيت بمراجعة علمية قام بها الدكتور محمد خليفة بركات.

وفي الإطار نفسه، واستكمالاً لهذه الموسوعة، قامت الدكتورة فاطمة محجوب سنة ١٩٦٣م بترجمة (دائرة المعارف للشباب).

ومما لا شك فيه أن ترجمة هاتين الموسوعتين تعد إضافة قيمة للمكتبة العربية بعامة، وللنشء والشبيبة العربيين - بوجه خاص -.

وقد كان لهذا النوع من الترجمات تأثير واضح فيما ألِّفَ من موسوعات مماثلة، فكان أن صدرت عدة موسوعات[٤٥] تحمل الفكرة نفسها، والمنهج نفسه.

وهناك مترجمات أخرى مثل (المعجم الديموجرافي المتعدد اللغات) لمجموعة من العلماء، ترجمه عبد المنعم الشافعي، وصدر سنة ١٩٦٧م، بالقاهرة. و (قاموس مصطلحات الأثنولوجيا والفولكلور) وهو من

---

(٤٤) د. حسن ظاظا، كلام العرب من قضايا اللغة، ص ١٤٦. ولمعرفة خصائص هذا النوع من المعاجم ينظر: د. علي القاسمي، علم اللغة وصناعة المعجم، ص ص ٥٦ - ٦٠.

(٤٥) من ذلك: الموسوعة العربية الميسرة، اشترك في وضعها مجموعة من الباحثين في = تخصصات علمية مختلفة، تحت إشراف محمد شفيق غربال، وصدرت سنة ١٩٦٥م. والموسوعة الذهنية، بإشراف الدكتور إبراهيم عبده، صدرت سنة ١٩٦٣ - ١٩٦٤م. والموسوعة الثقافية، بإشراف الدكتور حسين سعيد، وصدرت عام ١٩٧٢م... إلخ.

المعجمات المتخصصة،[٤٦] لمؤلفه "ايكة هولتكرانس"، ترجمه حسن الشامي، ومحمد الجوهري، وصدر سنة ١٩٧٢م، بالقاهرة، ولكنني لم أتمكن من العثور والاطلاع عليهما!، مما يجعلني لا أستطيع تقديم دراسة لهما.

هذا ما يتصل بالأصوات، والدلالة، والمعجم، في المؤلفات الغربية المترجمة إلى العربية.

أما فيما يتعلق بعلم اللغة العام (النظري) Theoretical Linguistics، فإن المترجمات فيه بلغت شأواً كبيراً، تناولت أسسه، وتاريخه، واتجاهاته، ونظرياته، والتعريف به، وصلته بالعلوم الأخرى.

ومن أوائل الترجمات في ذلك كتاب Language (اللغة)، للغوي الفرنسي "ج. فندريس" J. Vendryes، أحد مؤسسي مدرسة جنيف اللغوية Geneva School.[٤٧] وقد قام بترجمته عن الفرنسية كل من الأستاذ عبدالحميد الدواخلي، والدكتور محمد القصاص، وصدر سنة ١٩٥٠م، عن مكتبة الأنجلو المصرية.

وهو كتاب له قيمته العلمية في دراسة اللغة، بل إنه كما يصفه (إميل بينفينيست) E. Benveniste "الكتاب الوحيد بين بقية كتب ذلك العصر... الذي يتمتع بأفق تاريخي أكثر اتساعاً، وهو أقربها إلى المؤلف الذي حلم الكثير من علماء اللغة بكتابته قبل أن يكتشفوا أن من غير الممكن حصر ظاهرة اللغة هذه في حدود كتاب".[٤٨]

وتمثل ترجمة هذا الكتاب أهمية تاريخية وعلمية خاصتين، فهو ثاني كتاب لغوي ضمن قائمة الكتب المترجمة، وأول كتاب نوعي متكامل يُقدّم بشكل مفصل نظريات علم اللغة الحديث وأفكاره في هيكله البنيوي، إضافة إلى أنه يعكس اتجاه التفسير النفسي للظواهر اللغوية أو ما يعرف بـ (اللسانيات التأثيرية) Affective Linguistics، وكذلك الاتجاه الاجتماعي لها.[٤٩]

وقد حفلت الترجمة بكثير من المصطلحات اللغوية التي كانت – كما يقول المترجمان - سبباً في العنت الشديد الذي صادفهم في تعريب هذا الكتاب،[٥٠] إلا أنهما لم يقوما بعمل كشاف لهذه المصطلحات، رغم

---

(٤٦) لمفهوم هذا النوع من المعاجم ينظر: د. محمود فهمي حجازي، البحث اللغوي، ص ص ٦٧ – ٧٧.

(٤٧) لمعرفة نظريات هذه المدرسة واتجاهاتها اللغوية ينظر: ميلكا إفيتش، اتجاهات البحث اللساني، ترجمة: د. سعد مصلوح، و د. وفاء فايد، ص ٢٢٣ فما بعدها، د. محمود جاد الرب، علم اللغة، ص ١٠٤.

(٤٨) جورج مونان، علم اللغة في القرن العشرين، ترجمة: د. نجيب غزاوي، ص ٥٥. وينظر: د. عبد السلام المسدي، قاموس اللسانيات، ص ٧٤.

(٤٩) ميلكا افيتش، اتجاهات البحث اللساني، ص ١٣٢. ولمعرفة مباحث كتاب فندريس (اللغة) وآرائه اللغوية ينظر: د. حلمي خليل، العربية وعلم اللغة البنيوي، ص ص ١٦٤ – ١٦٦.

(٥٠) مقدمة المترجمين، ص ٥. وينظر: د. محمود السعران، علم اللغة، ص ص ٢٤–٢٥، ص ص ٣٠–٣٩.

أهمية ذلك في كتاب بهذه القيمة العلمية والتاريخية.

وعلى الرغم من خُلُوّ الترجمة من التعليقات والشروحات، وذكر المنهج المتبع فيها، وهي ما كانت في أمس الحاجة إليه، فإن المترجمين خدما الدرس اللغوي بتعريب هذا الكتاب، واطلاع القارئ العربي على الاتجاهات الحديثة في دراسة اللغة، وتحليل ظواهرها المختلفة، بلغة سهلة جزلة، وأسلوب بعيد عن التكلف والتعقيد.

ومن الملاحظات الجديرة بالذكر هنا أن المترجمين لم يغفلا ذكر المراجع اللغوية التي كُتبت بلغات مختلفة، والتي أوردها مؤلف الكتاب في نهاية كتابه – وهي من الأهمية بمكان -، كما أنهما لم يُلغيا – كما يعمد إلى ذلك بعض المترجمين! – ما أورده المؤلف من ملاحق ثلاثة خَصَّصَهَا لمتابعة ما استجد من مؤلفات أو نظريات أو اكتشافات كان لها تأثير على علم اللغة عبر السنوات التي تلت تأليف كتابه.

والكتاب الثاني في هذا المقام هو The World's Chief Languages (لغات البشر – أصولها، وطبيعتها، وتطورها) لمؤلفه "ماريوباي" Mario by، الذي يعد أحد أعلام اللغويين المعاصرين. قام بترجمته عن الإنجليزية الدكتور صلاح الدين العربي، وصدر عام ١٩٧٠م، عن قسم النشر بالجامعة الأمريكية بالقاهرة.

وهذا الكتاب – كما هو واضح من عنوانه – يبحث في أصول اللغات البشرية، وتطورها، كما يبحث في القوانين التي تحكمها. وقد اكتفى المترجم بتعريب الكتاب دون التعليق على كثير من القضايا التي أثارها المؤلف، والتي يحمل بعضها مغالطات تاريخية وعلمية.

فمن ذلك قوله عن الدراسات اللغوية العربية – بعد أن اعترف بإسهام علماء النحو العرب بين القرنين السابع والعاشر الميلاديين في تدوين لغتهم وبحثها -: "إن الطابع الغالب على هذا البحث كان طابع المدرسة السكندرية؛ لتأثر هؤلاء النحويين بطريقة الإغريق في معالجة اللغات".(٥١)

إن الدراسات اللغوية العربية بدأت قبل هذا التاريخ الذي حدده "ماريوباي" بزمن طويل، هذا شيء، وشيء آخر أن هذه القضية، أعني تأثر هذه الدراسات بالدرس اللغوي عند الإغريق، شغلت ولاتزال تشغل الباحثين من المستشرقين والعرب على حدٍّ سواء، ولا شك أن فيما ذهب إليه "ماريوباي" تجنياً واضحاً على العقلية العربية، وما أنتجته من إبداع فكري في فروع المعرفة المختلفة، ومن بينها البحث اللغوي.

وليس "ماريوباي" وحده الذي يزعم هذا الزَّعم، بل يشاركه جُلُّ علماء الغرب ممن تناولوا تاريخ الفكر اللغوي عند العرب.(٥٢)

---

(٥١) ص ٥.

(٥٢) لمزيد من التفاصيل ينظر: د. محمد إسماعيل بصل، مدخل إلى معرفة اللسانيات، ص ص٢٣–٣١.

ومن الملاحظات على الترجمة عدم وجود كشاف للمصطلحات اللغوية الواردة في الكتاب. واللافت للنظر – وهو مما يُحْسَبُ في ميزان الجانب التوثيقي للترجمة – أن ترجمة هذا الكتاب تمت بطريقة نظامية مُرَخّص بها، كما ورد في الصفحات الأولى من الكتاب، بمعنى أن الناشر استأذن من صاحب الحق في القيام بترجمة الكتاب إلى العربية، وفي هذا حماية لحقوق المؤلِّف والمترجم على حد سواء. وقد نصَّت الاتفاقيات الدولية بشأن حقوق التأليف والترجمة على أنها ملكية فردية لمنتجها، لا يجوز لغيره استغلالها دون موافقته.(٥٣) وهذه قضية أحسب أن كثيراً من الأعمال اللغوية المترجمة، كما اتضح لي، كانت بعيدةً عن الالتزام بها، والتقيد بأنظمتها وقوانينها.

وأخيراً فإن قارئ هذا الكتاب – رغم أن مؤلِّفه تعرض لقضايا لغوية معقَّدة، كقوانين التغيرات الصوتية، والمعنى اللغوي... إلخ، وعالجها بشيء من الإيجاز – يشعر بكثير من المتعة أثناء قراءته له، ويخرج منه بفوائد علمية متنوعة. وأزعم أن حسن صياغة المترجم، ودقة عبارته، وسلاسة أسلوبه، ذلك ما جعل الكتاب ممتعاً وذا فائدة.

والكتاب الثالث هنا هو Sound and Signs (الأصوات والإشارات) من تأليف "كندراتوف" A.Kondratov، ترجمه عن الإنجليزية شوقي خلال، وصدر سنة ١٩٧٢م، عن الهيئة المصرية العامة للكتاب.

وتدور موضوعاته حول قضايا لغوية متعددة، كالصوت، والدلالة، وعلاقة اللغة بالرياضيات، وإنشاء لغة عالمية لبني البشر، وأخرى للتفاهم مع سكان الكواكب الأخرى.

وقد قدم المترجم له بمقدمة مقتضبة، اكتفى فيها بالتعريف بالكتاب دون أن يعطي معلومات عن المؤلف، أو تحديد منهجيته في الترجمة، سوى ما ذكره من تنويه بأنه استبدل بالأمثلة الإنجليزية أمثلة عربية. كما خلت الترجمة من التعليقات، وقائمة المصطلحات.

وللكتاب ترجمة سابقة قام بها ادور يوحنا، وصدرت في العراق عام ١٩٧١م. وبطبيعة الحال فإن المترجمَين لم يعلم أحدهما باشتغال الآخر في ترجمة هذا الكتاب، حيث إن صدور الكتاب في فترة متقاربة جداً يوحي بذلك، وهذا ما يؤكد مرةً أخرى الحاجة الماسَّة إلى التنسيق والتنظيم الترجمي؛ حفاظاً للجهود، ومنعاً من الازدواجية.

والكتاب الرابع في هذا المقام هو Invitation to Linguistics (أسس علم اللغة) "لماريوباي"، ترجمه عن الإنجليزية الدكتور أحمد مختار عمر، وصدر عام ١٩٧٣م، عن جامعة طرابلس - كلية التربية – بليبيا.(٥٤)

---

(٥٣) لمناقشة واقع هذه القضية في العالم العربي ينظر: دراسات عن واقع الترجمة في الوطن العربي، ق ١، ص ص ١٣٦ – ١٣٨، ق ٢، ص ص ٢١٩ – ٢٢٢، الخطة القومية للترجمة، ص ص ٢٢–٢٣، ص ١٢٢ فما بعدها، ص ١٣٤ فما بعدها.

(٥٤) من الكتب المترجمة في أساسيات علم اللغة كتاب (مبادئ اللسانيات العامة) لـ ((اندريه مارتينيه))، ترجمة الدكتور أحمد الحمو، وصدر عن وزارة التعليم العالي بسوريا، عام ١٩٨٤م، ثم ترجمه مرة أخرى ريمون رزق الله، وصدر في بيروت سنة ١٩٩٠م بعنوان =

وهو كتاب عظيم الفائدة؛ إذ حفل بالكثير من القضايا الأساسية في علم اللغة، كمستويات التحليل اللغوي، ومناهج (*) دراسة اللغة، وكل ما من شأنه أن يقدم للقارئ – أي قارئ – المبادئ الرئيسة لهذا العلم، المجمَع عليها من قبل اللغويين.

وقد أحسن الدكتور أحمد مختار صنعاً بانتقاء هذا الكتاب من بين المؤلفات التي تزخر بها المكتبة اللغوية الغربية ونقله إلى العربية من جهتين: إحداهما أن الكتاب – كما صرح مؤلفه – مختصر إلى حد ما، غايته تقديم الحقائق الأساسية لعلم اللغة لعامة الناس[٥٥]، وهذا ما كان يحتاج إليه القارئ العربي في بدء صلاته بهذا العلم عند الغربيين، والجهة الأخرى أن المؤلّف – كما سبق بيان ذلك – ممن نادى "بتبسيط علم اللغة، والبعد به عن التعقيدات، ونظريات الرياضة التي تضره أكثر مما تنفعه".[٥٦]

وقد كانت لغته التي كتب بها مؤلفاته مثار إعجاب الفيلسوف والكاتب المسرحي الإيرلندي الشهير "برنارد شو" حيث يقول: "لغته وتعبيراته أدق وأعمق بكثير مما يستطيع أن يفعله معظم الكتاب الإنجليز أنفسهم".[٥٧]

وقد كتب المترجم مقدمة تحدث فيها عن الكتاب ومؤلفه، وأبان عن منهجه في الترجمة، وهو الإبقاء على أمثلة المؤلف دون تغيير، والتصرف في بعض حواشي الكتاب، وحذف بعض ملاحقه، وذكر قائمة مراجعه، وتزويد الكتاب بقوائم للمصطلحات الواردة فيه. ولنا ملاحظات على ذلك، منها أن المترجم استبدل في صلب النص أمثلة عربية ببعض الأمثلة الإنجليزية التي ذكرها المؤلف،[٥٨] رغم تصريحه في منهجه بأنه أبقى على أمثلة المؤلف دون حذف أو تغيير!، ولعلنا نعتذر له بأنه قد ذكر هذه الأمثلة في هوامش الكتاب. وكذلك فإنه قام بعمل تعليقات على بعض قضايا الكتاب، وهذا شيء يُحْسَبُ في ميزان الترجمة، ولكن هذا الصنيع لا نجد له ذكراً في منهجه الذي أورده في مقدمته!

وآخر هذه الملاحظات أن عنوان الكتاب الأصلي هو (Invitation to Linguistics)، الذي يترجم إلى (دعوة إلى اللسانيات)، ولكن المترجم عدل عن هذا – ربما لغرابته – واختار الجزء الثاني من العنوان وهو

= (مبادئ لسنية عامة). ومنها أيضاً كتاب (مدخل إلى اللسانيات) لـ ((رونالد ايلوار))، ترجمة الدكتور بدر الدين القاسم، وصدر سنة ١٩٨٠م، عن وزارة التعليم العالي بسوريا، وكتاب (مدخل إلى الألسنية) لـ ((بول فابروكريستيان بايلون))، ترجمة طلال وهبه، وصدر عن المركز الثقافي العربي = - بيروت – الدار البيضاء، سنة ١٩٩٢م.

(*) استخدم المترجم كلمة (فروع) بدلاً من (مناهج)، وفي هذا من التداخل بين المصطلحات ما فيه.

(٥٥) ينظر ص ٣١.

(٥٦) مقدمة المترجم، ص ٧.

(٥٧) نقلاً عن مقدمة المترجم، ص ٨.

(٥٨) ينظر: ص ٤٤، ص ص ٥٢ – ٥٣.

(A Basic Introduction to the Science of Language) ليكون عنواناً للكتاب، وذلك ما صرح به في مقدمته.(٥٩)

وقد أشار إلى هذه الملاحظة الدكتور عبد السلام المسدّي بقوله: "وهو عنوان تصرف في صياغته المترجم"،(٦٠) وعقّب على ذلك مثنياً على الترجمة " ولكن مضمون الترجمة قد جاء على حظ من الجهد، بحيث واءم صاحبها بين دقة العلم وسلاسة العبارة، مع حرص دائم على صياغة المفاهيم في قوالب اصطلاحية هي أقرب ما تكون إلى التأليفية، وإن جنح في بعض السياقات إلى التراكيب التحليلية حيناً وإلى الدخيل حيناً آخر".(٦١)

والكتاب الخامس هنا هو What is Linguistics من تأليف "ديفيد كريستال" David Crystal، ترجمه عن الإنجليزية الدكتور حلمي خليل، وصدر سنة ١٩٧٩م، عن الهيئة المصرية العامة للكتاب – فرع الإسكندرية، بعنوان (التعريف بعلم اللغة).

والكتاب - كما هو واضح من العنوان الذي اختاره المترجم (*) – يكشف عن ماهية هذا العلم، وميادينه التطبيقية، ومناهجه، فهو في واقع الأمر لا يتجاوز أن يكون تمهيداً أو مدخلاً لعلم اللغة، صُنّفَ للشداة من اللغويين، وعامة القراء.

وقد وضع المترجم مقدمة كشف فيها عن أهمية هذا الكتاب، ومباحثه، ومكانة مؤلفه، ومنهجه في الترجمة. وحفل الكتاب بتعليقات المترجم، ومداخلاته العلمية مع وجهة نظر المؤلف في بعض القضايا، وتصحيحه بعض الأوهام التي وقع فيها. ولعل من أوضح الأمثلة على ذلك ما ذكره من أن اهتمام كثير من علماء اللغة العربية بالبحث اللغوي يعود إلى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين.(٦٢) وقد فنّدَ المترجم هذا الرأي، وأثبت أن النشاط العلمي في دراسة اللغة العربية بدأ قبل هذا التاريخ بزمن طويل.(٦٣)

ومن ميزات الترجمة أن المترجم كثيراً ما يربط بين القضايا التي أثارها المؤلف وجهود علماء العربية في تناولها أو الإشارة إليها، وذلك ما يجعل القارئ يقف على أرض صُلْبة في المقارنة والحكم.

أما تعامله مع المصطلحات اللغوية الأجنبية الواردة في الكتاب، فقد أبقى عليها بجانب مقابلها العربي، وجمع ذلك آخر الكتاب على هيئة قائمة مرتبة حسب الترتيب الهجائي للمصطلح الأجنبي.

---

(٥٩) ص ٩.

(٦٠) قاموس اللسانيات، ص ٧٧.

(٦١) المصدر السابق.

(*) عنوان الكتاب هو (What is Linguistics ?) أي ما علم اللغة ؟. وقد تصرَّف المترجم فيه فحوَّره إلى (التعريف بعلم اللغة)، وهو = ما يعرف بالترجمة بالمعنى؛ وربما يعود ذلك إلى أن العادة جرت في التأليف العربية أن تكون بصيغة الخبر وليس الإنشاء.

(٦٢) ينظر: ص ٨١.

(٦٣) ينظر: ص ٨١، وقد سبق لـ ((ماريوباي)) أن قال بهذا الرأي في كتابه (لغات البشر)، كما تقدم.

وهناك ملاحظة على ترجمة هذا الكتاب والذي قبله (أسس علم اللغة)، وهي أن مؤلّفيهما عملا عدة ملاحق لهما، ولم يثبت المترجمان منها سوى ما يتصل بالمصادر اللغوية، وحذفا ماعدا ذلك؛ بحجة عدم أهميتها للقارئ العربي، أو أن الحقائق الإحصائية التي بها أصبحت في ذمة التاريخ!

وعلى الرغم من قلة قائمة المصادر التي أوردها "كريستل"، وكثرتها بالنسبة "الماريوباي"، علاوةً على تبويبه لها بطريقة مفيدة، فإن قائمة "كريستل" تتميز بأنها لم تكتف بالذكر المجرد للمصدر، بل تضمنت تعريفاً به، من حيث موضوعه، وقيمته العلمية، ودراسة نقدية موجزة له. وقد أضاف لها المترجم قائمة أخرى بالمؤلفات اللغوية العربية والمترجمة في القديم والحديث.

والكتاب السادس هو Language and Linguistics (اللغة وعلم اللغة) " لجون ليونز " J. Lyons، ترجمه الدكتور مصطفى التوني، وصدر جزؤه الأول عام ١٩٨٧م، والثاني عام ١٩٨٨م، عن دار النهضة العربية بالقاهرة.

ويضم الكتاب مباحث لغوية متعددة، كتعريف اللغة، وعلم اللغة، ومستوياته، وصلته ببقية العلوم، واتجاهات مدارسه... إلخ.

وقد وضع المترجم مقدمة موجزة تحدث فيها عن فصول الكتاب، ومنهجه في الترجمة، ثم وضع في الجزء الثاني من الكتاب تقديماً له، تناول فيه مسيرة الدراسات اللغوية عند الغرب، واتجاهات التحليل اللغوي فيها، كما قام المترجم بصنع قائمة للمصطلحات اللغوية، أوردها في الجزء الأول – بتقسيم المترجم – من الكتاب، ولكنه لم يقم بهذا الصنيع في الجزء الثاني منه؛ بحجة أن القائمة الأولى تغطي جهده في الجزء الثاني إلى حد كبير. أما تعليقاته على قضايا الكتاب فهي من وجهة نظري قليلة ولا تكاد تُبين. والواقع أن الكتاب – بصفة عامة – رغم فصوله العشرة، وحجمه الكبير، لا يتجاوز أن يكون مقرراً دراسياً لطلاب السنة الأولى من المرحلة الجامعية، كما صرح مؤلفه بذلك.[٦٤]

وقد حظي هذا الكتاب بترجمة أخرى قام بها الدكتور محمد إسحق العناني، وصدرت في الأردن عام ١٩٩١م، بعنوان (اللغة واللغويات)، ويبدو أن الترجمة لم يطبع منها إلا نسخ محدودة، ولذا لم يطّلعْ عليها سوى فئة قليلة من الباحثين.[٦٥]

وبمقارنة العملين نجد أن هناك فروقاً بين الطبعتين المعتمدتين في الترجمة، فليست في ترجمة الدكتور التوني مجموعة الأسئلة والتمارين المذيل بها بعض فصول الكتاب،

(٦٤) ينظر: ص ٤، ترجمة، د. محمد العناني.

(٦٥) تكرم عليّ المترجم فبعث لي – مشكوراً – بالنسخة الأخيرة من ترجمته لهذا الكتاب، وذكر في رسالته المؤرّخة في ١٩٩٥/٨/٢٤م، = أنه قام بترجمة الكتاب عام ١٩٨٧م، أي في السنة التي صدر فيها الجزء الأول من ترجمة الدكتور مصطفى التوني.

كما أن بعض مباحث الفصل الخامس (الدلالة) غير موجودة في ترجمة الدكتور العناني.[٦٦]

يضاف إلى ذلك أن ترجمة الدكتور التوني خلت من مقدمة المؤلف، كما استبعدت قائمة المؤلفات التي أوردها المؤلف في نهاية كتابه، والتي "تمثل معظم – إن لم يكن جميع – وجهات النظر حول الموضوع الذى يسعى القارئ إلى زيادة في المعرفة".[٦٧]

إن كل ذلك يقدِّم مرةً أخرى وبشكل آخر إشكالية اختيار الكتاب المترجم، وتحديداً الطبعة المعتمدة فيه، فالعلم يتطور يوماً بعد يوم، والنظريات اللغوية يجري عليها إضافات وتعديلات كل يوم، والمؤلف نفسه يراجع أفكاره بين الحين والحين، فينقص ويزيد، ويحذف ويضيف، وذلك ما يتطلب من المترجم مراعاة الجدة والحداثة في اختيار الكتاب المترجم،[٦٨] ولا يُستثنى من ذلك سوى أمهات الكتب التي تعد مصادر رئيسة في موضوعاتها.

ومن الملاحظات أيضاً أن ترجمة الدكتور العناني حظيت بموافقة خطية من قبل الناشر (مطبعة جامعة كمبردج)، في حين أن ترجمة الدكتور التوني ليس فيها ما يدل على ذلك !

أما الكتاب السابع في هذه السلسلة فهو Linguistik und Literaturwissenschaft: Stilforschung, Rhetorik, Textinguistik Verlag W. Kohlhammer (علم اللغة والدراسات الأدبية: دراسة الأسلوب، البلاغة، علم اللغة النصي)، لمؤلفه (برند شبلنر) B. Spillner، قام بترجمته عن الألمانية الدكتور محمود جاد الرب، وصدر سنة ١٩٨٧م، عن الدار الفنية للنشر والتوزيع بالقاهرة.(*)

وتدور مباحث الكتاب حول الأسلوب، ومفهومه، وعلاقته بالدراسات الأدبية، والبلاغية، واللغوية، ومناهج تحليله، وعلم اللغة النصي.

وقدم المترجم لهذا الكتاب بمقدمة عرّف بالكتاب والمؤلف، وأشار إلى منهجه في الترجمة. أما تعليقاته على النص، وشروحاته لأفكاره، فكانت تظهر حيناً وتختفي أحياناً أخرى، وقد أرجأ كثيراً من التعليق على قضايا الكتاب لعمل آخر مستقل، يُخَصَّصُ – كما ذكر – "للمقارنة بين ما يتصل منها باللغات الأوربية وبين ما تتميز به لغتنا العربية في مجال اللغة والبلاغة والنقد".[٦٩] ويخلو الكتاب من عمل قائمة بالمصطلحات اللغوية الواردة فيه !

---

(٦٦) ينظر الجزء الأول من هذا الكتاب، ص ص ١٠ – ٢٤٢ (ترجمة: د. مصطفى التوني)، وص ص ٢٠٤ – ٢٣٥ (ترجمة: د. محمد العناني).

(٦٧) مقدمة المؤلف، ص ٥، (ترجمة: د. محمد العناني).

(٦٨) ينظر ما ذكره الدكتور مازن الوعر بخصوص هذه القضية في كتابه: دراسات لسانية تطبيقية، ص ص ٢١٨ – ٢٢١.

(*) مكتوب على الغلاف أنه صدر في طبعته الأولى عام ١٩٩١م، أما المعلومات داخل الكتاب، وتاريخ المقدمة، وكذا سنة الإيداع، فتذكر أنه صدر سنة ١٩٨٧م.

(٦٩) مقدمة المترجم، ص ٩.

ومن الأمور اللافتة للنظر، تلك القائمة الطويلة الببليوغرافية التي حشدها المؤلف في مراجعه، والتي أحسن المترجم صنعاً بالإبقاء عليها، وكم كان مفيداً لو أن المترجم قام بترجمة التبويب الجيد الذي صنعه المؤلف لهذه القائمة، كما فعل من قبل الدكتور أحمد مختار عمر في ترجمته لكتاب (أسس علم اللغة) لمؤلفه "ماريوباي".

والكتاب الثامن هو An Introduction to Linguistics (مدخل إلى علم اللغة) لمؤلفه "لوريتو تود" Loreto Todd. قام بترجمته عن الإنجليزية الدكتور مصطفى التوني، وصدر سنة ١٩٩٤م، عن الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ومؤلف هذا الكتاب مجهول بالنسبة لنا، فلا نكاد نعرف عنه شيئاً، وكان من المفترض أن يقوم المترجم بهذه المهمة، ويُطلع القارئ على مكانة المؤلف وإسهاماته في العلم اللغوي ليس هذا فحسب، بل إن الترجمة خلت أساساً من تقديم لها، يكشف عن مباحث الكتاب، ومنهج المترجم فيها.(٧٠) وقد ألحق المؤلف به قائمة مصطلحات تتضمن المصطلح وتعريفاً به، وتخلو الترجمة من التعليقات والمناقشات، ولعل طبيعة الكتاب بوصفه مدخلاً لا تحتاج إلى ذلك. والكتاب – بوجه عام – لا يتعدى كونه مقدمة موجزة عن علم اللغة، ومستوياته، ومدارسه، وفروعه، ليس إلا.

وهنا تتجدد الإشكالية – أعني إشكالية اختيار الكتاب المترجم، أو نوعية المادة المترجمة -. إن هذه القضية تُعَدُّ "حجر الزاوية في عملية الترجمة؛ إذ إن الكتاب هو الذي ينصرف إليه الجهد، وعليه ينفق المال، وهو الذي سيسهم في التكوين الفكري للقارئ".(٧١) ولذا فإن هذا الاختيار يعد أمراً شاقاً، وتبعاته خطيرة، فلا ينبغي أن يخضع لاعتبار فردي، أو لرأي شخصي، أو لنفع مادي، بل يجب أن توضع لذلك معايير علمية صارمة،(٧٢) يراعى فيها المواءمة بين الحاجة والفعل.

والكتاب التاسع هو Text, Discourse and Process. Toward a Multi Dicplinary Sciene of Texts، لمؤلفه "روبرت دي بوجراند" R. D. Beaugrande، ترجمه عن الإنجليزية أستاذنا الدكتور تمام حسان، وصدر سنة ١٩٩٨م، عن عالم الكتب بالقاهرة.

وموضوع الكتاب الأصلي هو لسانيات النص أو علم اللغة النصِّي.(٧٣) وتدور مباحثه

---

(٧٠) مقدمة المترجم أو تقديمه له عنصر ضروري لجعل الكتاب المترجم ذا قيمة علمية. ينظر: واثق عباس الدايني، الدليل إلى ترجمة الكتب الأجنبية ومراجعتها وتقويمها، ص ٩٠.

(٧١) الخطة القومية للترجمة، ص ٧٠. وينظر: شحادة الخوري، دراسات في الترجمة والمصطلح والتعريب، ص ٦٣، د. مازن الوعر، دراسات لسانية تطبيقية، ص ٢١٨ فما بعدها.

(٧٢) لمعرفة هذه المعايير، ينظر: الخطة المفصلة الخاصة باختيار الكتب المترجمة التي وضعتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ونشرت في كتاب: (الخطة القومية للترجمة) ص ص ٦٨ – ٨٠.

(٧٣) لمفهوم هذا العلم، وتحديد موضوعاته، وصلته بالبلاغة والأسلوبية ينظر: برند شبلنر، علم اللغة والدراسات الأدبية، ترجمة: د. محمود جاد الرب، ص ص ١٨٣ – ٢٠٩، د. سعيد بحيري، علم لغة النص، ص ٣ فما بعدها.

حول إنتاج النص اللغوي، وكيفية تحليل الخطاب، وتعدد وجهات النظر إليه، من الوصف إلى المفاهيم إلى الإعلامية... إلخ.

وقد استهل المترجم عمله الترجمي بمقدمة ضافية، سلّط فيها الضوء على قضايا الكتاب، وآراء المؤلف بشأنها، وأهمية ذلك للقارئ العربي.

ولا شك أن ترجمة هذا الكتاب في هذا الوقت الذي يكثر الحديث فيه عن نحو الجملة ونحو النّص، له أهميته الخاصة، ومعروفٌ أن المترجم كان ممن دعا في كثير من محاضراته التي ألقاها بجامعة أم القرى بمكة المكرمة إلى النحو النصّي بديلاً عن نحو الجملة الذي كان له حضور بارز في الدراسات اللغوية العربية القديمة.

وقد أبقى المترجم على ملاحق الكتاب ومراجعه كما هي في لغتها الأصلية، وترجم ملحق الألفاظ والتصورات الواردة في الكتاب.

وقبل مواصلة عرضنا لا بد من التوقف قليلاً عند كتاب "دي سوسير" (Course in General "De Saussure" Linguistics) (محاضرات أو دروس في علم اللغة العام)، فالكتاب غنيٌّ عن التعريف، ودوره في الدراسات اللغوية المعاصرة – والعلوم الإنسانية بصفة عامة – بمثابة ثورة تعدل في تأثيرها وأهميتها ما قام به "جاليلو" في القرن السابع عشر من تغيير للمفاهيم الكلية للعالم المادي،(٧٤) ومع هذا فإنه لم ينل من اللغويين المعاصرين في مصر، وهم روّاد الدرس اللغوي الحديث في العالم العربي، ما يستحقه من عناية، فلم يقم أحد بترجمته أو نقله إلى العربية، وليس هناك منه سوى شذرات متفرقات جاءت على هيئة تعريف بهذا الكتاب،(٧٥) أو ترجمة لبعض أبوابه وفصوله.(٧٦) ولست أدري ما السبب في زهد هؤلاء اللغويين عن ترجمة هذا الكتاب كاملاً، على الرغم من وجود أفكاره واتجاهاته في مؤلفاتهم.(٧٧)

---

(٧٤) د. محمد حسن عبد العزيز، سوسير رائد علم اللغة الحديث، ص ٦ و ص ١٢١.

(٧٥) نشر الدكتور كمال بشر مقالاً بعنوان "محاضرات في علم اللغة العام، لفرديناندي سوسير"، في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الجزء ٢٩، ١٩٧٣م، ص ٢٣٠ فما بعدها.

(٧٦) قام الدكتور مصطفى مندور بترجمة مختصرة لبعض مباحث الفصل الأول منه، ونشرها في كتابه: اللغة بين العقل والمغامرة، ص ١٥٢ – ١٥٦، كما قام الدكتور عبدالرحمن أيوب بنقل فصول منه إلى العربية، ونشرها ضمن كتاب: مدخل إلى السيميوطيقا، إشراف: سيزا قاسم – نصر حامد أبو زيد، ص ص ١٤٤ – ١٦٥.

(٧٧) يرى الدكتور عبدالسلام المسدي أن سوسير كان غائباً في مرجعيات رواد علم اللغة في المدرسة المصرية، ولم يتهيأ له الحضور المعرفي الفاعل إلا عبر هاجس النقد الأدبي، ويعزو ذلك إلى أن معظم هؤلاء الرواد من ذوي الثقافة الأنجلوسكسونية، ينظر: ما وراء اللغة، ص ص ٣٦–٤٢. وأحسب أن هذا الرأي لا يخلو من مبالغة، فالدعوة إلى البنيوية أو الوصفية، والقول بثنائية اللغة والكلام، والقيم الخلافية، والعلاقات الأفقية والرأسية، والعلامة اللغوية... إلخ، كل ذلك تبناه هؤلاء اللغويون في مؤلفاتهم، وهي أفكار ديسوسيرية محضة.

وهناك كتاب بعنوان (اللغة والحياة والطبيعة البشرية) من تأليف "روي. سي. هجمان"، ترجمه عن الإنجليزية الدكتور داود حلمي السيد – أحد المتخصصين في اللغويات الإنجليزية -، وصدر عن جامعة الكويت سنة ١٩٨٩م، – ولكنني مع الأسف لم أتمكن – حتى ساعة إعداد البحث – من الاطلاع عليه كاملاً،[٧٨] لذلك سأكتفي بمجرد ذكره في هذا الحيّز من الدراسة، دون الخوض في التفاصيل.

هذا ما يتصل بالتعريف بعلم اللغة، أماً المترجمات في تاريخ علم اللغة فقد تأخرت في مصر زمناً طويلاً،[٧٩] وصدر في هذا الشأن كتابان قيّمان: أولهما Trends in Linguistics (اتجاهات البحث اللساني)، لمؤلفه "ميلكا افيتش" Milka Ivic، ترجمه عن الإنجليزية الدكتور سعد مصلوح، والدكتورة وفاء كامل فايد، وصدر سنة ١٩٩٦م، عن المجلس الأعلى للثقافة بمصر.

وقد تناول مؤلفه فيه تاريخ البحث اللغوي (اللساني) عند الأمم، مُركّزاً على تاريخه في القرن العشرين، وتحديد اتجاهاته ومدارسه المختلفة.[٧٩]

والقارئ لهذا الكتاب – رغم ما ذكره "مونين" Mounin من وجود عيب ظاهر فيه، يتمثل في تفتيت التاريخ، وبعثرة لأسماء الأعلام[٨٠] – يجد عرضاً شائقاً ومترابطاً لتطور الدراسات اللغوية عند الأمم المختلفة، ومدى مساهمة كل أمة في ازدهارها. وزاد من قيمة الكتاب العلمية تلك الحواشي التي نيل بها المؤلف كل مبحث من مباحث كتابه، حيث حوت إحالات إلى مراجع لا حصر لها في القضايا اللغوية التي تحتاج إلى مزيد إيضاح. أما المترجمان فقد وضعا تقديماً لعملهما، وَضّحَا فيه أهمية التأليف في تاريخ العلم، والسبب الذي دعاهما إلى ترجمة هذا الكتاب، رغم كثرة أمثاله وتنوعها في المكتبة الغربية، ومنهجهما في الترجمة.

وقد خلت الترجمة من التعليقات المضيئة للنص، كما خلت من المداخلات مع آراء المؤلف، وبخاصة تلك الآراء التي هي أقرب ما تكون للمغالطات منها إلى وجهة النظر العلمية النزيهة أو المحايدة. فمن ذلك – على سبيل المثال – قوله: "وبقدرة انتقائية مدهشة للغاية اصطفى العرب الإنجازات الثقافية للشعوب التي قهروها، وبدأوا – على أساسها

---

(٧٨) يعود الفضل في علمي بهذا الكتاب بعد الله إلى الأستاذ الدكتور عبده بدوي، حيث كان قد أرسل لي رسالة في ١٩٩٧/٢/١٥م، يخبرني فيها به، مرفقاً صورة الغلاف، وفهرس محتوياته، فجزاه الله عن العلم وطلابه خير الجزاء، وجعل ذلك في موازين حسناته.

(٧٩) من أوائل المترجمات العربية في تاريخ الفكر اللغوي كتاب (تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين) لـ "جورج مونان"، ترجمة: د. بدر الدين القاسم، وصدر في دمشق عام ١٩٧٢م. أما الجزء الثاني منه فقد صدر في دمشق - أيضاً – عام ١٩٨٢م، بعنوان (علم اللغة في القرن العشرين)، ترجمة: د. نجيب غزاوي.

(٨٠) علم اللغة في القرن العشرين، ص ص ٣ – ٤.

- بناء ثقافة خاصة بهم، فساروا في تقاليدهم النحوية على خطى الإغريق... ".(٨١)

إن هذا النص يكاد ينطق بمفهومي السُّلْطوية والتبعية،(*) وفي هذا من الغمز واللمز والانتقاص ما فيه، وكان أجدر بالمترجمين أن يقفا من ذلك موقف المدافع عن الحق، المصوِّب لخطأ الرأي، وخطل المنطلق، وانحراف التفكير!

إن هذه القضية - أعني تصحيح الفكر المضاد - أحسب أنها تقع ضمن دائرة الأمانة العلمية للمترجم، والتزاماته الأدبية.(٨٢)

وعودة إلى ترجمة الكتاب، فقد قام المترجمان بعمل قائمتين (مسردين كما أسمياها)، إحداهما للأعلام، والأخرى للمصطلحات الواردة فيه.

ومن الملاحظات على الترجمة أنها تمت تحت مظلة المشروع القومي للترجمة، التابع للمجلس الأعلى للثقافة،(٨٣) وهذا يعني أن مؤسسة علمية رسمية رعت هذه الترجمة، وعهدنا بالترجمات الصادرة عن مثل هذه المؤسسات أن يكون لها مراجع،(٨٤) وأن تحظى بوجود إذن مسبق من الناشر أو المؤلف، وهذا من الأهمية بمكان؛(٨٥) حيث يعكس واقع الترجمة في جانبيها التوثيقي والفني، ولكننا لا نكاد نجد أثراً لذلك أو شيئاً منه.

وما قيل هنا يقال في ترجمة كتاب (مدخل إلى علم اللغة) لـ "الوريتوتود"، وكتاب (أصوات وإشارات) لـ "كندراتوف" السابقين؛ حيث صدرا عن الهيئة المصرية العامة للكتاب.(٨٦) ومهما يكن من شيء، فالكتاب وترجمته سدَّ فراغاً كبيراً كانت تشكو منها

---

(٨١) ص ٣٠.

(*) أقصد بالسُّلطوية هنا قهر العرب للشعوب وتسلطهم عليهم سياسياً، وعسكرياً، واجتماعياً، وثقافياً، أما التبعية فهي عدم الأصالة الفكرية، وهذان المفهومان هما ما يعتقده كثير من المستشرقين عن العرب وثقافتهم وحضارتهم.

(٨٢) أشار إلى هذا أستاذنا الدكتور تمام حسان في ترجمته لكتاب (الفكر العربي ومكانه في التأريخ) لـ "ديلاسي أوليري"، حيث حوى الكتاب كثيراً من الدعاوى والأباطيل تجاه العقلية العربية، وقام المترجم بالرد عليها وتفنيدها. ينظر: تقديم المترجم، ص ص ٥ - ١٥، وتعليقه ص ١٧ "الهامش".

(٨٣) لمعرفة برنامج هذا المشروع، وأهدافه، وإنجازاته، ينظر: محمود محمود، واقع الترجمة في جمهورية مصر، ضمن كتاب (دراسات عن واقع الترجمة في الوطن العربي)، ق٢، ص ص ١٢٥ - ١٢٧.

(٨٤) لبيان أهمية الخبير المراجع ينظر: واثق عباس الدايني، الدليل إلى ترجمة الكتب الأجنبية ومراجعتها وتقويمها، ص ص ٥٨ - ٦٢. د. محمد عبدالرحمن مرحبا، اللغة العربية وما ألحقته بها الترجمات من تشويهات، مجلة الفكر العربي، العدد ٦١، السنة ١١، ١٩٩٠م، ص ٧٠.

(٨٥) للأستاذ شحادة الخوري حديث جيد عن مراجعة الكتب المترجمة، من حيث أنواعها، وهل هي واجبة أم غير واجبة ؟ ينظر: دراسات في الترجمة والمصطلح والتعريب، ص ٦٦ - ٦٧.

(٨٦) قد يكون هناك اتفاقية بين الناشر والمجلس الأعلى للثقافة، أو الهيئة المصرية العامة للكتاب، بشأن ترجمة هذه المؤلفات - كما يفترض أن يكون -، وإذا كان الأمر على هذا النحو، فحينئذ يظل إثبات ذلك في الصفحات الأولى الداخلية للكتاب واجبا قانونياً، وبخاصة أن مصر من الدول العربية المنضمة إلى اتفاقية (برن) لحماية المصنفات الأدبية والفنية.

المكتبة اللغوية العربية منذ زمن ليس بالقصير.

وأما الكتاب الآخر فهو A Short History of Linguistics (موجز تاريخ علم اللغة في الغرب) من تأليف "روبنز" R. H. Robins، ترجمه عن الإنجليزية الدكتور أحمد عوض، وصدر سنة ١٩٩٧م، ضمن سلسلة عالم المعرفة بالكويت.

وفي هذا الكتاب وصف موجز لتاريخ الدرس اللغوي في الغرب، منذ نشأته حتى بداية النصف الثاني من هذا القرن. وقد حاول مؤلفه – كما يقول "جورج مونين": "أن يرسم باختصار إطار الحتميات التاريخية الحقيقية، بالمعنى الواسع للكلمة، والتي يمكن أن تكون أثرت أو استطاعت أن تؤثر فعلاً في هذا التيار من علم اللغة أو ذاك".(٨٧)

وقد وضع المترجم تقديماً (تصديراً كما سمّاه) له، خصّصه – على غير العادة – للتعريف ببعض المصطلحات اللغوية الواردة في النص، دون أن يبين منهجه في الترجمة بوضوح تام. وتخلو ترجمة الكتاب من تعليقات المترجم إلا ما ندر. ومما يُحمد له في هذا الصدد تعليقه على ما وصفه "روبنز" بالاحتلال العربي لإسبانيا،(٨٨) كما يخلو من عمل قائمة بالمصطلحات الواردة في متنه، رغم تصريح المترجم في التصدير أن الكتاب يضم مصطلحات فنية دقيقة، وغير مألوفة لغير المتخصصين،(٨٩) كما أنه لم يقم بترجمة ما أورده المؤلف من ملاحظات عقب كل فصل من فصول الكتاب، واكتفى بإيرادها وإيراد المراجع الإضافية بلغتها الأصلية،(٩٠) عدا ما ورد في الفصل الأول من قيامه بترجمة ما جاء فيه من تعليقات على المراجع.

ومن الملاحظات تصرُّف المترجم في عنوان الكتاب بزيادة عبارة (في الغرب)، على الرغم من عدم وجودها في العنوان الأصلي له وهو (A Short History of Linguistic).

---

(٨٧) علم اللغة في القرن العشرين، ص ٣.

(٨٨) ينظر: ص ١٣٤. وتجدر الإشارة إلى أن "روبنز" لم يتحدث عن الدرس اللغوي عند العرب، وربما كان سبب ذلك يعود إلى أنه خصص كتابه لتاريخ علم اللغة الأوروبي. والواقع أن "روبنز" – كما ذكر بعض اللغويين المعاصرين – ممن يميل إلى تجاهل دور العرب في الدراسات اللغوية، أو القول – على أكثر تقدير – أنها متأثرة بدراسات العبرانيين واليونانيين. ينظر: د. محمد إسماعيل بصل، مدخل إلى معرفة اللسانيات. ص ص ٢٣ – ٢٥.

(٨٩) ينظر: ص ٧.

(٩٠) يرى الدكتور حنفي بن عيسى في حديثه عن قواعد الترجمة التقنية، أن المؤلف إذا ذكر مصادره في الحاشية فإنها لا تترجم، بل تنقل بنصها الأجنبي، بحجة أن ترجمتها تجعل من الصعب على القارئ الرجوع إليها. ينظر: واقع الترجمة في الجمهورية الجزائرية، ضمن كتاب (دراسات عن واقع الترجمة في الوطن العربي، ق١ ص ٥٧). وهذا صحيح، إلا أن ذكر هذه المصادر مع التعليق عليها، وإبداء ملاحظات بشأنها – كما هو في كتاب "روبنز"، وكتاب "ميلكا إفيتش" – يوجب – فيما أرى – ترجمة الملاحظات، وترك عناوين المصادر على ما هي عليه، وهذا ما فعله مترجما كتاب (اتجاهات البحث اللساني).

ومن الملاحظات أيضاً أن الترجمة صدرت ضمن سلسلة عالم المعرفة بالكويت، وهي إحدى المؤسسات العلمية التي يشرف على إصدارها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، وما قيل عن الناحيتين التوثيقية والفنية في الكتاب السابق يقال هنا.

ومجمل القول في هذين الكتابين:[٩١] أن مترجميهما أحسنا الاختيار في نقلهما للعربية، فالكتابان من الشهرة بمكان، فقد وصفها "جورج مونين" بقوله: "إن من غير المجدي أيضا أن يحاول المرء منافسة لوبشي، أو دومورو، أو ميلكا إيفتش، أو روبنس، أو لوردا نفسه، فقولهم الفصل دوماً...".[٩٢]

أما فيما يتصل بمترجمات علم اللغة الاجتماعي Sociolinguistics – وهو أحد الفروع الحديثة في علم اللغة -، فقد صدرت ثلاثة مؤلفات مترجمة، منها ثنتان صدرتا في فترة مبكرة من تاريخ الدرس اللغوي الحديث.

فالكتاب الأول هو Mankind, Nation and Individual From a Linguistic Point of View لمؤلفه "اوتو جسبرسن" Otto Jespersen ترجمه عن الإنجليزية الدكتور عبد الرحمن أيوب، وصدر سنة ١٩٥٤م، عن مكتبة الأنجلو المصرية.

وتدور مباحث الكتاب حول قضايا لغوية اجتماعية، كتأثير الفرد والمجتمع في اللغة، ومقاييس الصواب اللغوي، وأثر الطبقية في التعبير اللغوي، واللغات الخاصة... إلخ.

وقد أدخل المترجم تعليقاته – وهي مهمة دون شك – ضمن النصِّ المترجم، وبذا ضاع قارئ الكتاب بين نصِّ المؤلف وتعليقات المترجم، ولولا وجود أمثلة عربية داخل الكتاب / النص الأصلي لما عُرِفَ المؤلف من المترجم!، فالتصرُّف – كما وصفه في تقديمه للكتاب – اضطره إلى التطويل حيث اختصر المؤلف، والاختصار حيث أطال المؤلف، كما ألجأه إلى كتابة بعض فصول الكتاب من جديد في ضوء ما كتبه المؤلف!

ولا شك أن عملاً كهذا – ولعله الوحيد الذي صادفني في قراءة الأعمال العلمية المترجمة – "كان يسيراً على المترجم أن يضع تعليقاته في الهامش، مع التنبيه على أنها من صنعته؛ حتى لا تختلط مع التعليقات الأصلية للمؤلف، كما كان عليه أن يشير إلىالنصوص التي

---

(٩١) لابد من الإشارة في هذا المقام إلى وجود ترجمة لكتاب Schools of Linguistics Competition and Evolution (المدارس اللغوية – التطور والصِّراع) لـ "جيفري سامبسون" Geofrey Sampson، قام بها الدكتور أحمد نعيم الكراعين، وصدرت عن المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٣م. وقد تناول فيه =

= المؤلف تاريخ الدراسات اللغوية في القرنين التاسع عشر والعشرين، ومدارسها المختلفة، وأعلامها البارزين.
وللكتاب ترجمة أخرى قام بها الدكتور محمد زياد كبَّة، وصدرت عن جامعة الملك سعود بالرياض، سنة ١٩٩٧م!

(٩٢) تاريخ علم اللغة في القرن العشرين، ص ٣.

اختصرها، وإلى تلك التي أطالها؛ حتى يكون القارئ على بينة".(٩٣)

وهذا النوع من الترجمة، أو كما يُسمَّى بـ (الترجمة التأليفية)، وقف بعض المعاصرين منه موقفاً متشدداً، فوصف مبالغة المترجم في التصرف بأنها "مفسدة للترجمة، وتحايل على القارئ، وإهمال في الأداء".(٩٤) ولعلنا نعتذر للمترجم في صنيعه هذا بأنه أول عمل علمي له – كما صرّح في تقديمه للترجمة -، والبداية مزلّة – كما يقولون -.

والواقع أن هذه القضية تفرض نفسها في مجال علم الترجمة، وتشير من قريب إلى وجوب وضع قواعد وضوابط يسير عليها المترجم ويلتزم بها،(٩٥) وهي قضية ذات صلة وثيقة بالناحية الفنية للترجمة.

ومن الملاحظات أيضاً عدم وجود قائمة بالمصطلحات اللغوية الواردة في الكتاب. أما أثر هذا الكتاب فيبدو واضحاً في المؤلف القيِّم الذي أصدره الدكتور محمود السعران بعنوان (اللغة والمجتمع).

والكتاب الثاني هو Language in Society (اللغة في المجتمع)، من تأليف "م. م. لويس" M. M. Lewis، ترجمه أستاذنا الدكتور تمام حسان، وصدر سنة ١٩٥٩م، عن دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة.

وقد وضع الدكتور إبراهيم أنيس – مراجع الترجمة – تصديراً لها، بيَّنَ فيها ما تضمنه الكتاب من مباحث وقضايا، وناقش المؤلف فيما أبداه من آراء ووجهات نظر، مؤيداً إياه تارةً ومعارضاً تارةً أخرى. وتبدو تعليقات المترجم – رغم قلتها – واضحة في بعض القضايا التي أثارها المؤلف.(٩٦) أما منهجه في صياغة المصطلحات فكان "واضح المعالم...، لذلك كان محكماً لزمام وضع الدولة الفنية".(٩٧) وخلت الترجمة من وضع قائمة بالمصطلحات اللغوية الواردة في الكتاب.

ومن الملاحظات – أيضاً – أن الترجمة تمت تحت إشراف قسم الترجمة والألف كتاب بوزارة التربية والتعليم، وهي مؤسسة علمية حكومية، وعلى هذا فلا نستغرب حينما نجد مراجعاً علمياً ولغوياً لهذه الترجمة؛ لأنه أسلوب كان متبعاً آنذاك في الترجمات ذات الصبغة الرسمية.

والميزة التاريخية والعلمية لهذا الكتاب أنه - فيما أعلم - أول عمل لغوي يُتَرْجَم برعاية مؤسسة ثقافية، ويقوم به – ترجمة، ومراجعة

---

(٩٣) د. محمود السعران، اللغة والمجتمع، ص ١٦. وينظر: د. عبدالسلام المسدي، قاموس اللسانيات، ص ص ٧٤ – ٧٥.

(٩٤) د. محمد ديداوي، علم الترجمة بين النظرية والتطبيق، ص ٢٩١.

(٩٥) ينظر: الخطة القومية للترجمة، ص ١٤٦، د. فوزي عطية محمد، علم الترجمة مدخل = لغوي، ص ٦ فما بعدها، يوجين. ا. نيدا، نحو علم الترجمة، ترجمة ماجد النجار، ص ص ٢٨٥ – ٣٠٢.

(٩٦) ينظر: ص ص ٥٦ – ٥٧، حيث تجاهل المؤلف اهتمام الحضارة الإسلامية والعربية بالتنشئة اللغوية للطفل من خلال التربية المدرسية.

(٩٧) د. عبد السلام المسدي، قاموس اللسانيات، ص ٧٥.

- رائدان من رواد الدرس اللغوي الحديث في العالم العربي.

والكتاب الثالث في هذه المجموعة(٩٨) هو Sociolinguistics (علم اللغة الاجتماعي) من تأليف "هدسون" D. Hudson، ترجمه عن الإنجليزية الدكتور محمود عبد الغني عياد، وصدر سنة ١٩٨٧م، عن دار الشؤون الثقافية العامة ببغداد.

وبالنظر في موضوعات الكتاب ومباحثه نجد أن المؤلف قد غطّى مساحة كبيرةً من مجالات علم اللغة الاجتماعي، أو بعبارة أخرى القضايا الاجتماعية المرتبطة باللغة.

وهذا الكتاب - وإن كان يمثل مدخلاً إلى علم اللغة الاجتماعي، ومرجعاً لطلاب المراحل الجامعية الأولى - فإنه يعالج بعمق ووضوح وتفصيل كثيراً من القضايا التي يهتم بها هذا العلم، مما يعني أن هذا الكتاب مُوَجَّهٌ للخاصة والعامة من القرّاء.

وقد قام مراجع الترجمة بعمل مقدمة لها، تحدث فيها عن الكتاب وقيمته العلمية، والجهد الكبير الذي بذله المترجم، كما قام المترجم بعمل تمهيدٍ ضافٍ لترجمته، ذكر فيه أهمية الكتاب، وأسباب ترجمته له، ومدى استفادة القارئ العربي منه، وما تضمنه من مباحث، مبدياً رأيه في الأهداف التي وضعها المؤلف عند تأليف كتابه.

ولما كان الكتاب حافلاً بالمصطلحات اللغوية التي فرضت نفسها على المترجم، فقد أولاها عنايته بوضع ثبت للمصطلحات الأجنبية ومرادفها في العربية.

ومن الملاحظات أن المترجم لم يتطرق لمنهجه في الترجمة، كما أنه استبعد من الكتاب ما أورده المؤلف من قائمة لمصادره ومراجعه، وقد تنبه لهذا الدكتور عبدالأمير الأعسم - مراجع الترجمة في طبعتها الأولى -، واعتذر له بطول هذه القائمة، وعدم استفادة القارئ العام والخاص منها، ورأى أن توثيق النصوص داخل الكتاب يكفي عن ذكر قائمة المصادر.(٩٩)

على أنني أجد في نفسي شيئاً من هذا، فقائمة المصادر مهما كان طولها هي من الأهمية بمكان. صحيح أن القارئ العام قد لا يحتاج إليها، أما المتخصص فهو بحاجة إليها بالتأكيد، إماً لمراجعة ما قد أوجزه المؤلف، وإما لبيان مزيد إيضاح، وإما لغير هذا وذاك، فإيرادها - فيما أرى - ضرورة علمية ومنهجية. ثم إن إثباتها في ثنايا الكتاب لا يكفي

---

(٩٨) هناك مترجمات أخرى في هذا العلم، صدرت في بقية أقطار المشرق العربي، ومنها - فيما أعلم - كتاب Le Langage et La Societe (اللسان والمجتمع) لـ "هنري لوفيفر" Henri Lefebure، نقله عن الفرنسية: مصطفى صالح (سوريا)، وصدر سنة ١٩٨٣م، عن وزارة الثقافة = والإرشاد القومي، دمشق. وكتاب La Sociolinguistique (اللسانة الاجتماعية) للدكتورة جوليت غرمادي، Juliette Garmadi ترجمه عن الفرنسية: د. خليل أحمد خليل (سوريا)، وصدر عن دار الطليعة في بيروت، سنة ١٩٩٠م.

(٩٩) ينظر: ص ٩ (الهامش).

ذلك وحده للتوثيق، فالمعلومات هنا مبتسرة جداً إلى الحد الذي يجعل وجودها كعدمه.

ومما يلاحظ أيضاً غياب التعليقات والشروحات عن الترجمة، وكذا اختلاف أسماء مراجعي طبعتي الكتاب.(١٠٠)

وأما المترجمات المتعلقة بعلم اللغة النفسي Pyscholinguistics، فقد شارك فيها متخصصون في علم النفس، كما شارك فيها اللغويون.

ومن أوائل الترجمات في هذا المقام كتاب Le Langage et La Pensee Chez Enfant (اللغة والفكر عند الطفل) لمؤلفه "جان بياجيه" Jean Piaget، قام بترجمته الدكتور أحمد عزت راجح، وصدر سنة ١٩٥٤م. وقد تناول المؤلف فيه وظائف اللغة عند الطفل، ومحادثات الأطفال، والتفاهم فيما بينهم، وأسئلتهم... إلخ. ولا شك في القيمة العلمية لهذا الكتاب في جانبيها اللغوي والنفسي بوجه خاص، على الرغم من "بعد العلاقة بين المؤلف واللسانيات في تلك الحقبة من تاريخه الفكري؛ إذ كان منغمساً كلياً في إرساء نظريته التكوينية على أسسها النفسية الخالصة، قبل أن يُقدِّر العامل اللساني في توالي مراحل الذكاء حقَّ قدره".(١٠١)

وتخلو الترجمة من عمل تقديم لها يبين أهمية الكتاب وقضاياه العلمية، ويحدد منهجه في الترجمة، ويبدو أن المترجم اكتفى بتقديم "ادوارد كلاباريد" الذي عَرَّفَ بموضوعات الكتاب وقيمته العلمية، فاقتصر عليها ولم يشأ أن يثقل الكتاب بتقديم آخر!

وتكاد تخلو الترجمة أيضاً من تعليقات المترجم على القضايا ذات الأهمية. ومما يحمد له عنايته بالمصطلحات الأجنبية العلمية الواردة في الكتاب، ووضع ثبت لها مع ما يرادفها في العربية.

وقام الدكتور طلعت منصور(*) سنة ١٩٧٦م، بترجمة كتاب Thought and Language (التفكير واللغة) لمؤلفه "فيجوتسكي" L. S. Vygotsky، عن الروسية، وصدر عن مكتبة الأنجلو المصرية.

ويعكس الكتاب النظرية الروسية (السوفياتية) في مشكلة تطور نمو المفاهيم عند الأطفال، على ضوء العلاقة الوظيفية المتبادلة بين التفكير واللغة.

ومؤلف الكتاب يُعَدُّ مؤسس المدرسة السوفياتية في علم النفس، وأحد رواد تطور الفكر السيكولوجي العلمي. وقد وضع المترجم

---

(١٠٠) ذكر في الطبعة الأولى الصادرة في العراق (بغداد)، أن المراجع لها هو الدكتور عبد الأمير الأعسم، أما الطبعة الثانية الصادرة في (القاهرة) فذكرت اثنين من الأساتذة هما: الدكتور نصر حامد أبو زيد والدكتور محمد أكرم سعد الدين !

(١٠١) د. عبدالسلام المسدي، قاموس اللسانيات، ص ٧٥.

(*) للدكتور طلعت منصور جهد في الترجمة اللغوية، فقد قام بترجمة مقالة لـ "بوجدان دانييل آرايو" بعنوان (علم اللغة ومشكلة الوعي)، ونشرها في مجلة (العلم والمجتمع) التي تصدر عن مجلة رسالة اليونسكو ومركز مطبوعات اليونسكو بالقاهرة، العدد العشرون، السنة الخامسة، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م، ص ص ١١٨-١٢٩.

مقدمة ضافية، ذكر فيها قيمة الكتاب العلمية،(١٠٢) واتجاهات علم النفس السوفيتي، وتطوره، وعرَّف بالمؤلف تعريفاً شاملاً، وختم الكتاب بتعقيب "جان بياجيه" على آراء "فيجوتسكي" التي انتقد فيها أعماله.

ومن الملاحظات خُلُوُّ الترجمة من تعليقات المترجم، ومن عمل ثبت بالمصطلحات الواردة في الكتاب، على الرغم من الجهد الواسع الذي بذله المترجم في "الإلمام بدقائق المصطلحات كما يجلوها اللفظ العربي، أو كما توضحها لنا الترجمة الإنجليزية للكتاب". (١٠٣)

والكتاب الثالث هو Thinking and Language (التفكير واللغة) للدكتورة "جوديث درين" Judith Greene، ترجمه عن الإنجليزية الدكتور عبدالرحيم جبر، وصدر سنة ١٩٩٣م، عن الهيئة المصرية العامة بالكتاب.

ويلاحظ على هذا العمل الترجمي أنه خلا من وضع قائمة للمصطلحات الواردة فيه، كما حذف المترجم قائمة المراجع الأساسية والإضافية التي أوردها المؤلف في ذيل كتابه.(١٠٤)

أما تعليقاته فهي قليلة لا تكاد تفي بالغرض، وكذا مقدمته. وعلى الرغم من صدور الترجمة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، فليس هناك ما يشير إلى موافقة الناشر الأصلي للكتاب، كما لا يوجد مراجع لها.

ومن الملاحظات وجود ترجمة سابقة لهذا الكتاب، قام بها الدكتور عبد الرحمن عبد العزيز العبدان، وصدرت في الرياض، بالمملكة العربية السعودية، سنة ١٩٩٠م، وحظيت بإذن الناشر، ولكنها – كسابقتها – خلت من عمل قائمة بالمصطلحات الواردة في الكتاب.

والكتاب الرابع هو Psycholinguistics: Chomsky and Psychology (علم اللغة النفسي – تشومسكي وعلم النفس) لمؤلفة الكتاب السابق، ترجمه عن الإنجليزية الدكتور مصطفى التوني، وصدر سنة ١٩٩٣م، عن الهيئة المصرية العامة للكتاب.

والواقع أن مباحث هذا الكتاب لا تعدو أن تكون مدخلاً لعلم اللغة النفسي من جهة والعلاقة الجدلية بين نظريات تشومسكي اللغوية وعلماء النفس اللغوي من جهة أخرى. وقد قام المترجم بعمل مقدمة بين فيها صلة علم اللغة بعلم النفس من خلال آراء "بلومفيلد" Bloomfield، و "سكنر" Skinner، و"تشومسكي" Chomsky، كما حدد منهجه في الترجمة، وقام بالتعليق على بعض القضايا والمصطلحات التي قد تخفى على القارئ، وشرح الأشكال التوضيحية الواردة في

---

(١٠٢) للدكتور عبدالسلام المسدّي حديث جيد عن أهمية الكتاب من المنظور اللغوي. ينظر: قاموس اللسانيات، ص ص ٧٨ – ٧٩.

(١٠٣) عبد السلام المسدّي، قاموس اللسانيات، ص ٧٩.

(١٠٤) هذه القائمة أثبتت في الترجمة الأخرى للكتاب التي قام بها الدكتور عبدالرحمن العبدان.

الكتاب، وخلت ترجمة الكتاب من عمل قائمة بالمصطلحات اللغوية والنفسية التي حفل بها. وما قيل عن الناحية الفنية والتوثيقية في الكتاب السابق يقال هنا أيضاً.

وآخر هذه الملاحظات هي عدم إشارة المترجم إلى ترجمة الدكتور مجيد الماشطة (العراق)، التي قام بها قبل عشر سنوات من صدور هذه الترجمة، بعنوان (علم اللغة وعلم اللغة النفسي) لـ "جوديث جرين"، وهي عبارة عن الفصل التمهيدي من هذا الكتاب المترجم.(١٠٥)

ومجمل القول في الترجمات اللغنفسوية(*) – بصفة عامة -: أنها اقتصرت على قضية اللغة والفكر (التفكير)، وما ذاك - حسب اعتقادي – إلا أنها تمثل جانباً مهماً من جوانب اللغويات النفسية.

وهناك قضايا أخرى ذات صلة وثيقة بعلم اللغة النفسي لم تنل من هذه الترجمات ما هي به قمينة، كاكتساب اللغة، وأمراض الكلام، وعيوب النطق.(١٠٦)

وفيما يتصل بتشومسكي – رائد المدرسة اللغوية الأمريكية الحديثة – وأعماله، ونظرياته اللغوية – ونحن مازلنا في الحديث عن الترجمات في علم اللغة العام – فهناك كتاب Chomsky "لجون ليونز"، ترجمه عن الإنجليزية الدكتور حلمي خليل، وصدر سنة ١٩٨٥م، عن دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية، واختار المترجم عنواناً له هو (نظرية تشومسكي اللغوية).

وواضح من العنوان أنه مُخَصَّصٌ لدراسة نظرية تشومسكي اللغوية، في جوانبها: التاريخية، والفنية، والعلمية، وهي ما أطلق عليها (النظرية التحويلية والتوليدية) التي تبناها سنة ١٩٥٧م في كتابه (البنى النحوية) Syntactic Structures، وطورها فيما بعد.(١٠٧)

وقد وضع المترجم له مقدمة شاملة، تحدث فيها عن صاحب النظرية وآرائه اللغوية، كما تحدث عن المؤلف وأعماله العلمية، ثم تطرق لموضوعات الكتاب وعمله في الترجمة.

---

(١٠٥) نشرها في مجلة: الأقلام، السنة ١٨، العدد ٩، ١٩٨٣م، ص ص ١٠٢ – ١٠٦.

(*) اللغنفسوية: كلمة منحوتة من اللغة والنفس، وتعني علم اللغة النفسي.

(١٠٦) هناك ترجمة عن الفرنسية لكتاب L, acquisition du Langage (اكتساب اللغة) لـ "مارك ريشل" Marc Richelle، قام بها الدكتور كمال بكداش، وصدرت عن المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر في بيروت، عام ١٩٨٤م. كما أن هناك ترجمة عن الإنجليزية للفصل التاسع من كتاب Languisties for Non-Linguisties (اللغويات لغير اللغويين) لـ "فرانك باركر" Frank Parker، وهو = بعنوان The Neorology of Languages (علم اللغة العصبي)، قام بها الدكتور إبراهيم بن عبدالعزيز أبو حيمد، ونشرها في مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد ١٨، ١٤١٧هـ، ص ص ١٩٧ – ٢٦٩. وهناك ترجمة عن الفرنسية لكتاب Les Trobles Du Langage (اضطرابات اللغة) لمؤلفه "ديدييه بورو"، Didier Porot قام بها انطوان الهاشم، وصدرت ضمن منشورات عويدات في بيروت، عام ١٩٩٧م.

(١٠٧) للدكتور مازن الوعر، دراسة مفصلة عن هذا الكتاب أوردها في كتابه (دراسات لسانية تطبيقية)، ص ص ٢٢١ – ٢٧٣.

وحفلت الترجمة بالتعليقات النافعة التي وضّحت بعض القضايا الغامضة، وكشفت عن بعض الظواهر اللغوية التي تناولها علماء العربية القدماء في ضوء نظرية تشومسكي، كما قام المترجم بوضع قائمة للمصطلحات اللغوية الواردة في الكتاب، وقائمة أخرى بما كتب باللغة العربية حول تشومسكي. والملاحظ أنه ألغى ما أورده "جونز" من قائمة لمؤلفات تشومسكي وما كتب حوله، وكذلك الملحق الخاص الذي تناول فيه المؤلف تعديل تشومسكي لبعض آرائه، وأسباب ذلك. وأحسب أنه لو أبقى عليهما لكان أجدى وأنفع.(١٠٨)

وما دمنا في الحديث عن "تشومسكي" – وهو من أشهر مفكري هذا القرن – فإن أعماله العلمية، وهي من الكثرة بمكان، لا نجد لها صدىً في الترجمات اللغوية في مصر، سوى ما قام به الدكتور محمد فتيح من ترجمة لكتاب Knowledge of Language its Nature, Origin and Use (المعرفة اللغوية. طبيعتها، وأصولها، واستخدامها)، التي صدرت سنة ١٩٩٣م، عن دار الفكر العربي بالقاهرة.

ويبدو أن سبب ذلك راجع إلى تأثير المدرسة الإنجليزية في أعمال اللغويين المعاصرين في مصر رواداً وتلامذة، حيث كان الاتصال الثقافي بينهم وبين أوربا – بصفة عامة – أوثق من صلتهم بأمريكا.(١٠٩)

ويُعَدُّ هذا الكتاب (المعرفة اللغوية) من أحدث كتب "تشومسكي"، وأكثرها أهمية في تحديد الصورة التي تتخذها النظرية التحويلية الآن.

وقد وضع المترجم له مقدمة وتمهيداً. عرض في المقدمة أسباب ترجمته لهذا الكتاب، ومنهجه في الترجمة. أما التمهيد فأورد فيه قائمة ببيليوغرافية بما أُلِّفَ أو تُرجِمَ بالعربية عن النظرية التحويلية التشومسكية،

---

(١٠٨) هناك ترجمة أخرى لهذا الكتاب متأخرة زمنياً عن ترجمة الدكتور حلمي خليل، قام بها الدكتور محمد زياد كبة، وصدرت سنة ١٩٨٧م عن النادي الأدبي بالرياض، بعنوان (تشومسكي)، وكنت قد كتبت منذ أعوام مقالاً مختصراً عن هاتين الترجمتين بعنوان (تشومسكي بين مترجم وناقد)، وقارنت بينهما في ضوء اختلاف الطبعتين اللتين اعتمد عليهما المترجمان، وذلك في صحيفة الرياض (ملحق ثقافة اليوم)، العدد ٧١٠٩، الخميس ١٤٠٨/٤/١٩هـ. وللدكتور عبدالله الغذامي مقالة نقدية لترجمة الدكتور محمد كبة، نشرها في الرياض، العدد ٧٠٨٨، في ١٤٠٨/٣/٢٨، وكذلك فعل الدكتور حمزة المزيني في مقالة نشرها في الصحيفة نفسها، العدد ٧١٠٩ في = ١٤٠٨/٤/١٩هـ، ثم أوردها ضمن كتابه: (مراجعة لسانية)، ص ص ١٥٧ – ١٧٥.

وللدكتور مازن الوعر دراسة نقدية أيضاً لهذه الترجمة، بيَّنَ فيها إيجابياتها وسلبياتها، وذلك ضمن كتابه (دراسات لسانية تطبيقية)، ص ص ٢٥٩ – ٢٧٣.

(١٠٩) استأثر اللغويون في العراق بترجمة كثير من أعمال "تشومسكي" ومنها: البنى النحوية، جوانب من نظرية النحو، اللغة والعقل، محاضرات ودن... إلخ.

ويذكر بعض الباحثين أن سبب عدم ترجمة أعمال تشومسكي إلى العربية يرجع إلى الطبيعة التخصصية البحتة لمعظم أعماله اللغوية. ينظر: مقدمة مترجمي كتاب (محاضرات ودن – تأملات في اللغة) لـ "تشومسكي" ص ٩.

مستدركاً عليها بعض القضايا التي قصرت عنها الدراسات السابقة، كمفهوم تحليل المكونات المباشرة، وترجمة المصطلحات المستخدمة في النظرية التحويلية وتطبيقها على اللغة العربية. وحفلت الترجمة بالتعليقات على كثير من قضايا الكتاب، ووضع معجم للمصطلحات الفنية الواردة فيه.(١١٠)

وهكذا يبدو لنا استئثار علم اللغة العام (النظري)، بفروعه المتعددة، بالنصيب الأكبر من الترجمات اللغوية.

أما علم اللغة التطبيقي Applied Linguistics، وهو الفرع المقابل لعلم اللغة العام (النظري)، فقد صدرت فيه - فيما اطلعت عليه - ترجمات عدة، شملت جانبي تعليم اللغات، وعلم المصطلح.

ويمثل الجانب الأول كتاب Principle of Language Learning and Teaching (أسس تعلم اللغة وتعليمها)، من تأليف "دوجلاس براون" Douglas Brawn، ترجمه عن الإنجليزية كلٌ من الدكتور عبده الراجحي،(*) والدكتور علي علي أحمد شعبان، وصدر سنة ١٩٩٤م، عن دار النهضة العربية ببيروت.

وقد قدّم له المترجمان بمقدمة وضّحا فيها أسباب اختيارهما هذا الكتاب للترجمة، ومنهجهما فيها. وخلت مقدمتهما من التعريف بمؤلف الكتاب، ومن عرض مادته العلمية، ومدى استفادة العربية من النظريات التي حواها في ميدان تعليم اللغات. وقام المترجمان بوضع مسرد للمصطلحات الواردة فيه.

والواقع أن المترجمَين نقلا الكتاب للقارئ العربي بلغة سهلة ميسورة، وعبارة واضحة ومفهومة، ولعل هذا كان نتيجة للأسلوب الذي استخدماه في الترجمة، وهو ما سمياه بـ (الترجمة الاتصالية)، التي لا تهتم "كثيراً بمقابلة اللفظة للفظة، وإنما تسعى إلى أن يكون للعمل المترجم تأثير مشابه أو مقارب للنص الأصلي على صاحبه".(١١١)

ويبدو أن لهذا الكتاب أهمية في بابه، حيث نجد ترجمة أخرى له صدرت في العام نفسه الذي صدرت فيه الترجمة السابقة، قام بها الدكتور إبراهيم بن حمد القعيد، والدكتور عيد ابن عبد الله الشمري، ونشرها مكتب التربية العربي لدول الخليج بعنوان (مبادئ تعلم وتعليم اللغة)!

وفي الجانب نفسه {تعليم اللغات} قام الدكتور علي علي أحمد شعبان بترجمة مقالات عدة، كتبها مجموعة من المتخصصين في اللغويات التطبيقية، وأصدرها في كتاب بعنوان (قراءات في علم اللغة التطبيقي)، سنة ١٩٩٥م، عن جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض. وتشتمل هذه البحوث

---

(١١٠) للمزيد ينظر ما كتبه الدكتور محمد حسن عبدالعزيز بشأن هذه الترجمة في: مجلة كلية دار العلوم، العدد ١٨، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م، ص ص ٣٧ - ٣٩.

(*) يشكر الباحث الدكتور عبده الراجحي على إهدائه هذا الكتاب، وقد أفاد منه كثيراً في الجانب التطبيقي لتعليم العربية للناطقين بغيرها.

(١١١) مقدمة المترجمين، ص ١٢.

على تعريف بهذا العلم، وصلته بالعلوم الأخرى، ومجالاته، ونظريته، ومناهجه.

وقد قدّم المترجم لعمله هذا بمقدمة أوضح فيها القيمة العلمية لهذه المقالات، والنتائج التي تحققها في ميدان تعليم اللغات الوطنية والأجنبية، ومنهجه في الترجمة، وألحق بالكتاب مسردين للمصطلحات الواردة فيها (عربي - إنجليزي) و (إنجليزي – عربي).

أما الجانب الآخر من علم اللغة التطبيقي وهو (علم المصطلح) أو (المصطلحية) Terminology، وهو علم ناشئ شهد تطوراً كبيراً في الفترة الأخيرة من هذا القرن[١١٢]، فكان نصيبه من الترجمات المعاصرة – فيما أعلم – بحثين كتبهما "هلموت فيلبر" H.Felber – أحد أكثر المهتمين بهذا العلم –، وترجمهما عن الإنجليزية كل من الدكتور محمد حلمي هليل، والدكتور مصلوح.

وكان البحث الأول بعنوان The General Theory of Terminology - a Theoretical Basis for Information (النظرية العامة للمصطلحية - أساس نظري للمعلومات)، ونشرت ترجمته في مجلة المعجمية، العدد الثاني، ١٩٨٦م، ص ص ١٢٥ – ١٣٦.

وكما هو واضح من العنوان فإنه يُقدم تصوراً عاماً عن نظرية علم المصطلحية، وموضوعات البحث فيها. وقد قام المترجمان بالتعريف بكاتب البحث، والتعليق على المصطلحات اللغوية الواردة فيه.

وكان البحث الثاني بعنوان Language and the Professions. The Role of Special Language in Communication (اللغة والمهن – اللغة الخاصة ودورها في الاتصال)، ونشرت ترجمته في مجلة اللسان العربي، العدد الثالث والثلاثون، سنة ١٩٨٩م، ص ص ١٣٥ – ١٤٩.

وفي هذا البحث يكشف الكاتب عن مفهوم اللغة الخاصة أو المتخصصة، وعلاقتها باللغة المشتركة وبالمصطلحية، وأهداف البحث فيها.[١١٣]

وقد أوضح المترجمان في مقدمتهما مضمون هذا البحث، ومنهجهما في الترجمة، كما صنعا قائمة بالمفردات المصطلحية مقرونة بتعريف كل مفردة، وأثبتا المراجع التي أوردها كاتب البحث، وأضافا إليها قائمة أخرى.

وعلى الرغم من حداثة هذا العلم في الغرب، وتقدمه الهائل هناك، فإن في العالم العربي – بفضل الله – من يتابع تطوره،

---

(١١٢) لمفهوم هذا العلم وتحديد مجالاته (جوانبه) ينظر: د. علي القاسمي، مقدمة في علم المصطلح، ص ص ١٧ – ١٩، د. محمود فهمي حجازي، الأسس اللغوية لعلم المصطلح، ص ص ١٦ – ٢٨.

(١١٣) دراسات اللغات الخاصة وتحليل مضامينها من مباحث علم اللغة الاجتماعي، وهذا ما يجعل التداخل بين اهتمام علم المصطلحية واللسانية الاجتماعية أمراً قائماً، وقد أشار "فيلبر" إلى ذلك، وبيّن طرائق البحث في اللغة الخاصة في ضوء كونها موضوعاً متشابك المعارف. ينظر: اللغة والمهن...، ص ١٣٩.

ويواكب أحدث اتجاهاته، وأخص بالذكر كلاً من الدكتور علي القاسمي (العراق)، الذي يُعَدُّ فيما أعلم أول من وضع كتاباً فيه،(١١٤) والدكتور محمود فهمي حجازي.(١١٥)

أما علم اللغة المقارن Comparative Linguistics، فشملت ترجماته اللغات السامية، تاريخاً وفقهاً. ومن أوائل الأعمال الترجمية في هذا الجانب كتاب Semitic Languages (اللغات السامية – تخطيط عام)، للمستشرق الألماني "ثيودور نولدكه" Th. Noldeke، ترجمه عن الألمانية الدكتور رمضان عبد التواب، وصدر سنة ١٩٦٣م، عن دار النهضة العربية بالقاهرة.

والكتاب في مجمله يعرض – بشكل سريع – لهذه اللغات التي أطلق عليها خطأً مصطلح (اللغات السامية)، وهي: العبرية، والفينيقية، والآرامية، والسامرية، والسريانية، والآشورية، والعربية، والسبئية، والحبشية، والأمهرية، وذلك من حيث تاريخها ونظامها اللغوي.

والواقع أن الكتاب – على الرغم من وجازته – له مكانته وقيمته العلمية في الأوساط اللغوية المقارنة في ألمانيا، فهذا "بروكلمان" يعتمد عليه اعتماداً كبيراً في كتابة الفصل الأول من كتابه (فقه اللغات السامية).(١١٦)

وقد خلت الترجمة من التعليقات، ومن عمل كشاف اصطلاحي لما ورد في الكتاب.

وبعد ذلك صدر كتاب Ancient Semitic Civilizations (الحضارات السامية القديمة) لمؤلفه "سبتينو موسكاتي" Sabtino Moscati، ترجمه عن الإنجليزية الدكتور السيد يعقوب بكر، وليس مذكوراً على الغلاف أو في المقدمة تاريخ نشره، وإن كان المترجم ذكر في أحد مؤلفاته أنه صدر سنة ١٩٨٦م، عن دار الكتاب العربي بالقاهرة.(١١٧)

ويُعَدُّ هذا الكتاب – كما يذكر المترجم – أول مؤلف يتناول تاريخ الحضارات السامية القديمة، وإن كان لا يخلو بطبيعة الحال من لمحات لغوية عامة.

وافتتح المترجم عمله بالتعريف بالمؤلف، والكتاب وقيمته العلمية، ومنهجه في الترجمة. وقد حفلت هذه الترجمة بالتعليقات التي خصّص لها مكاناً مستقلاً آخر الكتاب.

---

(١١٤) هو (مقدمة في علم المصطلح)، صدرت طبعته الأولى في العراق ضمن الموسوعة الصغيرة، سنة ١٩٨٥م، وطبع ثانية في القاهرة سنة ١٩٨٧م، مكتبة النهضة المصرية. وللمؤلف ترجمة لكتيّب (مصطلحات علم المصطلح) الذي أصدرته اللجنة التقنية بالمنظمة العالمية للتقييس بجنيف، وألحقه بالكتاب السابق، ص ص ٢١٠ – ٢٦٠.

(١١٥) أصدر الدكتور محمود فهمي حجازي كتاباً في ذلك هو (الأسس اللغوية لعلم المصطلح) سنة ١٩٩٣م، عن مكتبة غريب بالقاهرة. = ولا بد من الإشارة هنا – ونحن في مقام الحديث عن الجانب التطبيقي لعلم اللغة – إلى ترجمة كتاب Lalinguistique Appliquee (اللسانيات التطبيقية) لمؤلفه "شارل بوتون" Charles Bouton، ترجمه عن الفرنسية الدكتور قاسم المقداد ومحمد رياض المصري، وصدر عن دار الوسيم بدمشق، د.ت.

(١١٦) ينظر: فقه اللغات السامية، ص ٩.

(١١٧) ينظر: دراسات في فقه اللغة العربية، ص ١٦٥.

والواقع أن هذه الشروحات والإضافات من الأهمية بمكان؛ نظراً لجدة موضوعها، والشمولية في معالجتها للقضايا التي أثارها الكتاب.(*) كما قام المترجم بعمل ملحق آخر للكتاب، ترجم فيه مقالة في الأدب الحبشي لـ "نولدكه"، وكشافين أحدهما فني شمل أسماء الأعلام، والأمكنة، والمصطلحات السامية، والآخر لغوي لما ورد في النص والتعليقات من ألفاظ ومصطلحات لغوية. وتميزت هذه الترجمة – فنياً – بمراجعة الدكتور محمد القصاص، الذي يعد من أوائل المترجمين اللغويين في مصر.

والكتاب الثالث في هذا الجانب هو Semitische Sprachwissenchaft (فقه اللغات السامية) لمؤلفه "بروكلمان" C. Brockelmann، ترجمه عن الألمانية الدكتور رمضان عبد التواب، وصدر سنة ١٩٧٧م، عن جامعة الرياض.(١١٨)

وهذا الكتاب على نقيض الكتابين السابقين في الموضوع المخصص له، فهو يقوم على مقارنة قواعد اللغات السامية في جانبي الأصوات والصرف.

وقد وضع المترجم له مقدمة عرّف فيها بالمؤلف، وأهمية الكتاب، وإسهام المستشرقين في علم اللغات السامية المقارن.

وعلى الرغم من صدور هذه الترجمة عن مؤسسة علمية (جامعة الرياض – آنذاك)، فقد خلت من وجود مراجع لها، كما خلت من التعليقات سوى النزر اليسير، ومن عمل كشاف اصطلاحي لما ورد في الكتاب.(١١٩)

ومهما يكن من شيء فإن الكتاب سدَّ فراغاً كبيراً في المكتبة اللغوية العربية.

وهناك عدة مقالات مترجمة قام بها الدكتور عرفة مصطفى، ونشرها في مجلة مجمع اللغة السريانية ببغداد.(١٢٠)

ولا أنسى – وأنا في مقام الإنصاف – أن أذكر الدكتور محمد سالم الجرح، الذي عزم في الستينيات من هذا القرن على إصدار سلسلة عامة تحت مسمى (دراسات عربية سامية)،

(*) أخبرني الدكتور محمود فهمي حجازي أن هذه الهوامش تمثل كتاباً آخر في الحضارات السامية ولغاتها.

(١١٨) صدر في هذا الصدد ترجمة عن الإنجليزية لكتاب (مدخل إلى نحو اللغات السامية المقارن) لـ "موسكاتي" وزملائه، قام بها الدكتور مهدي المخزومي، والدكتور عبد الجبار المطلبي (العراق)، وصدرت عن عالم الكتب في بيروت، سنة ١٩٩٣م، وموضوعه لا يختلف كثيراً عن (فقه اللغات السامية) لـ "بروكلمان" – السابق.

(١١٩) قام الدكتور عبدالرحمن أيوب بنقد هذه الترجمة، وكان مما لاحظه عدم وجود تعليقات أو إيضاحات للنص المترجم، وهو= ما سبق أن ذكرته، وعدم تمكُّن المترجم من علم الأصوات، وعدَّ ذلك نقطة ضعف خطيرة في الترجمة. ينظر: المقارنات اللغوية وتاريخ العربية، ضمن كتاب (تقدم اللسانيات في الأقطار العربية)، ص ١٧٣.

(١٢٠) هذه المقالات هي – فيما أعلم –: أصول "يوث" المنفتحة والمنغلقة في السريانية الأولى لـ "ي. يلو" المجلد ٢، ١٩٧٦م، ص ص ١٨٧ – ٢٢٠، بدايات الدراسات السريانية في أوربا، لـ "فرنر شتروتمن"، المجلد ٣، ١٩٧٧م، ص ص ٢٦٥ – ٢٨٧، عن المجلة الاسمية في الأناجيل السريانية القديمة لـ "تكمتسو موروكا"، المجلد ٤، ١٩٧٨م، ص ص ٢٣٤ – ٢٥٩.

شاملة لكل جوانب الدرس المقارن، لغة، وأدباً، وحضارةً، وتاريخاً، وفلسفة، وديناً، ولكن ظروف الترحال، ثم وفاته المفاجئة، حالا دون تتمة هذا المشروع، ولم يُنجز منه سوى ترجمة عن العبرية لكتاب Islamic Influences on the Jewis Worship (التأثيرات الإسلامية في العبادة اليهودية) لمؤلفه "نفتالي فيدر" Nophtali Wieder، والذي صدر عام ١٩٦٥م، عن مكتبة دار العروبة بالقاهرة.(١٢١)

والأمر اللافت غياب ترجمات أمهات الكتب في هذا الجانب، كما هي الحال في الكتاب الموسَّع الضخم Grundriss der Vergleichenden Gramatik der Semitischen Sprachen (الأساس في النحو المقارن للغات السامية) لـ "بروكلمان".

وهكذا يبدو لنا فيما تقدم من ترجمات باختلاف جوانبها وتعدد صورها، أنها نقلت إلى العربية طابعاً فكرياً يعكس الهوية الثقافية والحضارية والمنهجية للبحث اللغوي عند الغرب.

على أن هناك نوعاً آخر من المترجمات الغربية، يحمل رؤية علمية تعكس تصور علماء الغرب عن الفكر اللغوي عند العرب، كشفاً، ووصفاً، ونقداً، ومقارنة.

وهذا النوع من المؤلفات المترجمة لا يمكن إغفاله أو التقليل من شأنه فهو "باب من أوسع أبواب المعرفة، لا فرق فيه بين عربي وغير عربي، إنه باب لا يلجه إلا العلماء، بصرف النظر عن الجنس، فالعلم لا وطن له، وقد حظيت العربية بمجموعات من الدراسات القيمة على أيدي عشاقها من الغربيين، وحبذا لو استطاعت جهود مخلصة أن تتابع تعريب هذه الدراسات والتعليق عليها... ".(١٢٢)

إن من يقول إن تلك الأعمال هي بضاعتنا رُدَّت إلينا، فقوله – وإن كان يبدو صحيحاً في ظاهره – فيه مخالفة للحقيقة، ومجانبة للصواب؛ فمعرفة موقعنا من الثقافات، وتقويم الآخر لِلْمُنْجَز الثقافي عندنا، ذلك شيء لا غنية لنا عنه، ولا مفرَّ من مواجهته وتشخيصه، هذا إن أردنا أن يكون لنا كينونة حضارية بين الأمم والشعوب.

ولعل من أوائل الترجمات في هذا كتاب (العربية – دراسة في اللغة واللهجات والأساليب)، للمستشرق الألماني "يوهان فك" Johann Fuck، ترجمه عن الألمانية الدكتور عبدالحليم النجار، وصدر سنة ١٩٥١م، عن دار الكتاب العربي بالقاهرة.

---

(١٢١) هناك كتاب (قوانين الملوك) قام بترجمته عن الحبشية الدكتور عبدالسميع محمد أحمد، وصدر سنة ١٩٦٥م، عن كلية الآداب بجامعة القاهرة. وتدور مباحثه حول قوانين أحكام الشريعة المسيحية المستمدة من المصدرين المصري الكنسي والإسلامي. وقام المترجم بدراسة النصين الحبشي = والعربي دراسة لغوية مقارنة، ولكنني لم أذكره ضمن قائمة المترجمات اللغوية المقارنة؛ لاختلافه الجذري عن بقية المترجمات، وخصوصية المقارنة فيه.

(١٢٢) د. عبدالصبور شاهين، مقدمة ترجمته لكتاب: العربية الفصحى، لهنري فليش، ص ١١.

والموضوع الرئيس للكتاب هو تطور اللغة العربية ولهجاتها وأساليبها عبر الأزمنة التاريخية منذ مجيء الإسلام حتى العصر الحديث.

والكتاب – دون شك – يقدم عرضاً عاماً، وتحليلاً دقيقاً، واستقصاءً شاملاً لذلك التطور، وهو ما تميزت به الدراسات والأبحاث الألمانية في مجملها.

وتحتوي الترجمة على تصدير وتقديم، قام بأولهما الدكتور أحمد أمين، وقام بثانيهما الدكتور محمد يوسف موسى؛ تعريفاً بالكتاب وقيمته العلمية. ويبدو أن المترجم اكتفى بذلك عن عمل مقدمة خاصة به.

وعلى الرغم من خُلُوِّ الترجمة من التعليقات إلا ما ندر، وتداخل تلك التعليقات مع هوامش المؤلف، فلم يعد يُعْرَفُ هذا من ذاك، فقد جاءت دقيقة واضحة، محيطة بقضايا الكتاب، متعمقةً في النقول ودراسة النصوص،(١٢٣) بل إنها "لاتكاد تجعل القارئ يلمس أثر النقل من لغة أجنبية؛ إذ جاءت مطبوعة مصبوبة صباً، كما لو كانت تأليفاً لا ترجمة".(١٢٤)

والواقع أن المترجم بعمله هذا قدم خدمة جليلة للبحث اللغوي، والثقافة العربية.(١٢٥)

أما المصطلحات الواردة في الكتاب فلا أظن أن المترجم قد عاناها كثيراً، وربما كان هذا ما حمله على الاستغناء عن عمل كشاف اصطلاحي لما ورد في الكتاب.(١٢٦)

وبعد مُضِيٍّ ما يقرب من ثلاثين عاماً على هذه الترجمة، صدرت ترجمة أخرى لهذا الكتاب، قام بها الدكتور رمضان عبد التواب، عام ١٩٨٠م، معللاً لتكرارها بنفاد نسخ الترجمة الأولى، وما أصابها من تصحيف وتحريف وأخطاء، وإضافة تعليقات المستشرق الألماني "شبيتالر".(١٢٧)

ولا أريد أن أقف إزاء هذه القضية طويلاً، فقد أشبعت دراسة ونقداً منذ أعوام عديدة، ودار حولها جدل وخلاف كبيران، خرج بها من دائرة النقد البناء إلى الاتهام والتجريح وتصفية الحسابات – مع الأسف الشديد –(١٢٨)، وأسأل الله أن يعفو عن الجميع !

ثم قام الدكتور عبدالصبور شاهين عام ١٩٦٦م، بترجمة (تعريب وتحقيق – كما أسماه) كتاب L'Arabe Classieue, Esquisse d'Une Structure Linguistique (العربية الفصحى، نحو بناء لغوي جديد) عن الفرنسية، للأب هنري فليش اليسوعي Henri Fleisch –

(١٢٣) ينظر: تصدير الدكتور أحمد أمين، ص ق، وتقديم الدكتور محمد يوسف موسى، ص ظ.

(١٢٤) تقديم الدكتور محمد يوسف موسى، ص ظ.

(١٢٥) مقدمة الدكتور عبدالصبور شاهين لكتاب: العربية الفصحى، لهنري فليش، ص ١٢.

(١٢٦) للأستاذ محمد عبدالغني حسن دراسة ناقدة لهذه الترجمة. وكان مما لاحظه على = المترجم عدم تعليقه على بعض الآراء التي أوردها المؤلف، واستخدامه مصطلحات ومسميات على غير ما هو مألوف ومتعارف عليه. ينظر: مجلة الكتاب، السنة السابعة، الجزء العاشر، المجلد الحادي عشر، عام ١٣٧٢هـ – ١٩٥٢م، ص ص ١٢٤٥ – ١٢٤٨.

(١٢٧) ينظر: مقدمة للكتاب، ص ٣.

(١٢٨) لمزيد من التفاصيل ينظر: د. حمزة المزيني، مراجعات لسانية، ص ص ١٥ – ٤٠.

أحد المستشرقين الفرنسيين -، وصدر عن المطبعة الكاثوليكية ببيروت.

ويحفل الكتاب بالتحليلات اللغوية لقضايا تتصل بجانبي الأصوات والصرف في ضوء مناهج البحث الغربية الحديثة من جهة، ومقارنة ذلك باللغات السامية من جهة أخرى، وهذا ما أعطى الكتاب بُعْداً علمياً متميزاً، وجعل ترجمته على جانب كبير من الأهمية.

وكان لمقدمة المترجم التي وضعها للكتاب أهمية خاصة، حيث عرض فيها محتويات الكتاب، ومنهج المؤلف في معالجة الظواهر النحوية بمفهومها العام، وناقشه فيما ذهب إليه من آراء، وتوقف عند إحدى المشكلات التي واجهها في الترجمة، وهي مشكلة المصطلحات، ثم عرَّف بالمؤلف وإسهاماته العلمية فيما يتصل باللغة العربية. (١٢٩) وأحسب أن هذا الصنيع هو الأنموذج الأمثل لما يجب أن تكون عليه مقدمات الأعمال الترجمية. وقام المترجم بالتعليق المختصر على بعض القضايا الواردة في النص، شرحاً للفظة غامضة، أو فكرة غير واضحة. وأما تلك المذكرات التكميلية (كما أسماها المؤلف أو المترجم) التي ختم بها الكتاب، والتي خصِّصَت للكشف عن تفاصيل بعض القضايا التي أجمل القول فيها في النص، أو لإيراد نصوص ومناقشات فنية، فقد أبقى عليها المترجم، ووضعها في المكان الذي ارتضاه المؤلف. كما قام بعمل أدلة (كشافات) للكتاب، فوضع دليلاً للأعلام، وآخر للمصطلحات والأفكار، ودليلاً ثالثاً للصيغ.

ومادمنا في الحديث عن المؤلف والمترجم، وقبلها موضوع المترجمات العربية للمؤلفات الغربية التي خُصِّصت للكشف عن البحث اللغوي العربي، وتقويمه في ضوء المناهج الأوروبية، فإن هناك ترجمة لبحث بالفرنسية "لهنري فليش" عنوانه (التفكير الصوتي عند العرب في ضوء سر صناعة الإعراب لابن حني)، نشرت في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الجزء ٢٣، ١٩٦٨م، ص ٥٣ - ٨٩، وقام بها الدكتور عبدالصبور شاهين أيضاً.!

وهذا البحث - كما هو ملاحظ - يكشف عن واقع الدرس الصوتي العربي، أصولاً، وأفكاراً، ومصطلحات، من خلال أحد أشهر مؤلفات هذا العلم (علم الأصوات)، وفي ضوء النظريات الصوتية الحديثة لدى علماء الغرب.

وبعد هذا قام الدكتور سعد مصلوح بترجمة بحث عن الإنجليزية عنوانه The Sound Change J-Y in the Arabic Dialects of Peninsular Arabia (تغيير الجيم إلى ياء في لهجات شبه الجزيرة العربية)، لمؤلفه "ت. م. جونستون" T. M. Johnstone، ونشرت في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الجزء ٢٦، عام ١٩٨٠م، ص ١٨٣ - ١٩٤.

وكاتب هذا البحث ليس غريباً على

---

(١٢٩) كان الدكتور عبدالصبور شاهين قد عرَّف بهذا الكتاب قبل ترجمته، ونشر ذلك في: = مجلة المجلة، السنة العاشرة، العدد ١١٤، عام ١٩٦٦م، ص ص ١٢١ - ١٢٧.

العربية، ولهجاتها بشكل خاص، فقد سبق له أن كتب أطروحته للدكتوراه عن (Estern Arabian Dialect Studies)،(١٣٠) التي تعد من أهم ما كتب في موضوعها.

ويعالج ذلك البحث ظاهرة صوتية لهجية، هي تغير نطق الجيم إلى ياء، محاولاً تحديد الأمكنة التي توجد فيها هذه الظاهرة، وتقديم تفسير صوتي لذلك.

وتتوالى هذه الأعمال المترجمة لنصل إلى كتاب (العربية الفصحى الحديثة)، لمؤلفه "جاروسلاف ستتكيفتش"، قام بترجمته الدكتور محمد حسن عبدالعزيز، وصدر – حسب تاريخ المقدمة وسنة الإيداع – سنة ١٩٨٥م، عن دار النمر للطباعة بالقاهرة.

ويعد هذا الكتاب امتداداً علمياً وتاريخياً لتطور ألفاظ اللغة العربية وأساليبها التي كان "يوهان فك" قد عالجها في كتابه السابق، فهو بهذا استكمال لهذا الكتاب الرائد.(١٣١)

وميزة هذا الكتاب أن مؤلفه "عاصر الفترة التي يؤرخ لها، أو جزءاً كبيراً منها، يقرأ، ويسمع، ويلاحظ، فالعربية التي يُؤرِّخ لها عربيةٌ تجري على ألسنة الناس وأقلامهم".(١٣٢) ولأجل هذا أقدم المترجم على نقله إلى العربية متخذاً طريقين في التعليق على قضايا الكتاب، أحدهما يتمثل في تجلية ما غمض وتفسير ما أشكل من كلام المؤلف، والآخر تكملة ما فات المؤلف. وتوزعت هذه التعليقات ما بين هوامش الكتاب، وعقِبَ كل فصل من فصوله.

ومما يؤخذ على المترجم أنه لم يُعَرِّف بالمؤلف، ولم يذكر اللغة التي كتب بها الكتاب، وإن كان يغلب على الظن أنها الإنجليزية، كما لم يقم بوضع قائمة للمصطلحات اللغوية الواردة فيه.

وآخر هذه الترجمات – فيما أعلم – كتاب Ancient West Arabian (اللهجات العربية الغربية القديمة) للمستشرق الإنجليزي "رابين" Chaim Rabin، ترجمه عن الإنجليزية الدكتور عبد الرحمن أيوب، وصدر سنة ١٩٨٦م، عن جامعة الكويت.

وهذا الكتاب لدى دارسي اللهجات العربية من الشهرة بمكان؛ حيث يُعد من المصادر الأساسية القيمة عندهم، وقلما يخلو مؤلَف في اللهجات من الرجوع إليه والاعتماد عليه.

ويذكر المترجم أن من الأسباب التي دعته إلى ترجمته هو تأثره به طوال حياته العلمية. وهنا تطرح إشكالية الاعتبار الذاتي في اختيار الكتاب المترجم، ولعلي لا أكون مبالغاً في القول: أن هذا الاعتبار في كثير من المترجمات اللغوية ذات الطابع الفردي، هو الذي يتحكم في عملية الاختيار. ولست هنا أقلل من القيمة العلمية لهذا الاعتبار في ترجمة الدكتور أيوب لهذا الكتاب، بل على العكس

(١٣٠) تُرجمت هذه الأطروحة إلى العربية بعنوان (دراسات في لهجات شرقي الجزيرة العربية)، وقام بها الدكتور أحمد محمد الضبيب، وصدرت عن جامعة الرياض سنة ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

(١٣١) مقدمة المترجم، ص ٦.

(١٣٢) السابق، ص ٦.

تماماً، فاختيار هذا الكتاب مجالاً للترجمة كان موفقاً غاية التوفيق، وإنما أقصد – بصفة عامة – أن مثل هذا الاعتبار "قد يصيب الهدف حيناً، وقد يخطئه أحياناً أخرى؛ لأنه اختيار فردي لا يرتكز على معايير ثابتة، بل قد يكون للهوى الفردي، وللرأي الشخصي، والنفع المادي، القول الفصل فيه"، (١٣٣) وقد رأينا فيما سبق أمثلة متعددة لمثل هذه الإشكالية.

أما منهج المترجم في عمله فقد أبان عنه في مقدمته – كلمته كما سمأها –، وإن كنّا لا نجد قائمة بالمصطلحات اللغوية الواردة في الكتاب، على الرغم من أنه أشار إلى طريقة في ترجمة هذه المصطلحات. وخلت الترجمة من التعليقات على القضايا العلمية التي حفل بها الكتاب، وإن كان المترجم قد وعد بعمل ذلك في دراسة مستقلة، ولا نعلم – حتى الآن – هل تَمَّ هذا أم لا ؟

وتأثير هذا الكتاب واضح في بعض مؤلفات المترجم، وبخاصة كتاباه (محاضرات في اللغة)، و(العربية ولهجاتها).

وقبل أن أختم هذا النوع من المترجمات، لا بد من الإشارة إلى أن هناك ترجمات عن الألمانية لمقالات مختلفة عن علم المعاجم العربي اليوم، والأطلس الجغرافي للشرق الأدنى، وملامح دراسة اللهجات العربية في المستقبل، قام بها الدكتور مصطفى ماهر، ونشرها ضمن كتاب (حوار بين الألمان والعرب). (١٣٤)

الخاتمة والنتائج:

وهكذا نصل إلى ختام هذا البحث، الذي نأمل أن نكون قد أوفيناه حقَّه ومستحقَّه من الرصد، والعرض، والتحليل. ونجمل ذلك بالقول: أن الترجمات اللغوية التي صدرت في المشرق العربي، وبخاصة مصر، قد سدَّت فراغاً كبيراً في المكتبة اللغوية العربية، وهي – وإن لم تصل إلى درجة المأمول والمتوقع – أسهمت دون شك في تطور الدراسات اللغوية الحديثة، لا في مصر وحدها، بل في العالم العربي بعامة.

وقد تعددت صورها وتنوعت اتجاهاتها، فشملت جميع فروع الألسنية، النظرية منها والتطبيقية، وجاءت تلك الأعمال العلمية المترجمة لمؤلفات خُصِّصت لمناهج البحث اللغوي عند الأوروبيين، ونظرياتهم اللغوية، ومؤلفات أخرى في تحليل الفكر اللغوي عند العرب، ومقارنته بنتائج البحوث اللغوية لدى الغرب.

وفي ضوء ما تقدم نستطيع الخروج بالنتائج التالية:

---

(١٣٣) الخطة القومية للترجمة، ص ٧٠.

(١٣٤) ينظر: ص ص ١٦٩ – ١٧٧، ص ص ١٨٤ – ١٨٧، ص ص ٢٠٧ – ٢١١. ولا بد من الإشارة في هذا المقام إلى الترجمتين اللتين قام بهما الدكتور جعفر دك الباب عن = الروسية لكتاب (نظرية أدوات التعريف والتنكير وقضايا النحو العربي) لـ "غرانتشياغا بوتشان"، وكتاب (دراسات في علم النحو العام والنحو العربي) لـ "فيكتور خراكوفسكي"، أولاهما صدرت عام ١٩٨٠م، والأخرى عام ١٩٨٢م، عن وزارة التعليم العالي بسوريا (دمشق).

أولاً : تفاوتت تلك الأعمال اللغوية المترجمة بالنسبة لفروع (جوانب) اللغة المختلفة، فاستأثر بعض الجوانب بالنصيب الأكبر من تلك الترجمات، وبعضها كان حظّه ضئيلاً منها، مما يعني أنه ليس هناك توازن بينها.

ثانياً : اتسم اختيار هذه الأعمال – في معظمها – بالميول الشخصية، والدوافع الذاتية، والعشوائية، والانتقائية، وكان هذا أمراً طبعياً في ظل غياب مؤسسات رسمية متخصصة في عملية الترجمة.

ثالثاً : غاب عن هذه الترجمات أمهات الكتب اللغوية في الغرب، واستأثرت بعض المؤلفات الغربية بالترجمة دونما سبب علمي مقنع، وهذا يعني أن أعمالاً لغوية لا تستحق الترجمة وجدت طريقها إلى القارئ العربي، وأغفلت مؤلفات كانت قمينة بالترجمة.

رابعاً : أغلب هذه الكتب المترجمة صدرت باللغة الإنجليزية، تليها الفرنسية، ثم الألمانية، مما يعطي تصوراً عن مدى تأثير هذه المدارس الأوروبية في الفكر اللغوي الحديث.

خامساً : ثمة أعمال علمية تكررت ترجمتها أكثر من مرة، في القطر الواحد من جهة، وفي أقطار المشرق العربي من جهة أخرى، وذلك من غير ما طائل، مما يعني بعثرةً في الجهود، وهدراً للوقت، وحجباً لأعمال أخرى كانت المكتبة اللغوية في مسيس الحاجة إليها.

سادساً : افتقاد بعض الترجمات لعمل دراسة وافية عن الكتاب المترجم، ومؤلفه، وخُلوُّها من التعليقات، والشروحات، والمداخلات العلمية. وفي رأيي أن الترجمة كالتحقيق، لا تكاد تستغني عن ذلك، بل إنه ليعد من بدهيات العمل الترجمي ومسلماته.

سابعاً : خُلوُّ كثير – بل معظم – هذه الترجمات من الجانب الفني للترجمة، وأعني به عدم وجود مراجع علمي ولغوي لضمان سلامة النص وصحته. كما افتقدت هذه الترجمات – في الأغلب الأعم – للجانب التوثيقي، من حيث عدم خضوعها للإذن المسبق من المصدر الأصلي للكتاب المترجم، سواء أكان مؤلفاً أم ناشراً، وفقاً للاتفاقات الدولية بهذا الشأن.

ثامناً : غياب الدراسات الناقدة لهذه الأعمال اللغوية المترجمة في جانبها العلمي. وهذا شيء عانته – ولاتزال – هذه الأعمال، وهو أمر ليس في صالح المنجَز الترجمي، ولا المتلقي، ولا المترجِم (المرسِل) نفسه أيضاً.

تاسعاً : أبرزت هذه الترجمات قضية المصطلح إلى حيز الوجود، وجعلت منه مشكلةً خلافيةً شائكةً بين اللغويين المعاصرين، في الرؤية، والوضع، والتمثُّل، والتأصيل.

وبعد، فالحديث يقودنا في نهاية المطاف إلى الدعوة – وما أكثر ما دُعي إلى ذلك – إلى قيام مؤسسة عامة للترجمة وتكون مهمتها الأولى التخطيط والتنسيق والتنظيم لعملية الترجمة في الوطن العربي.

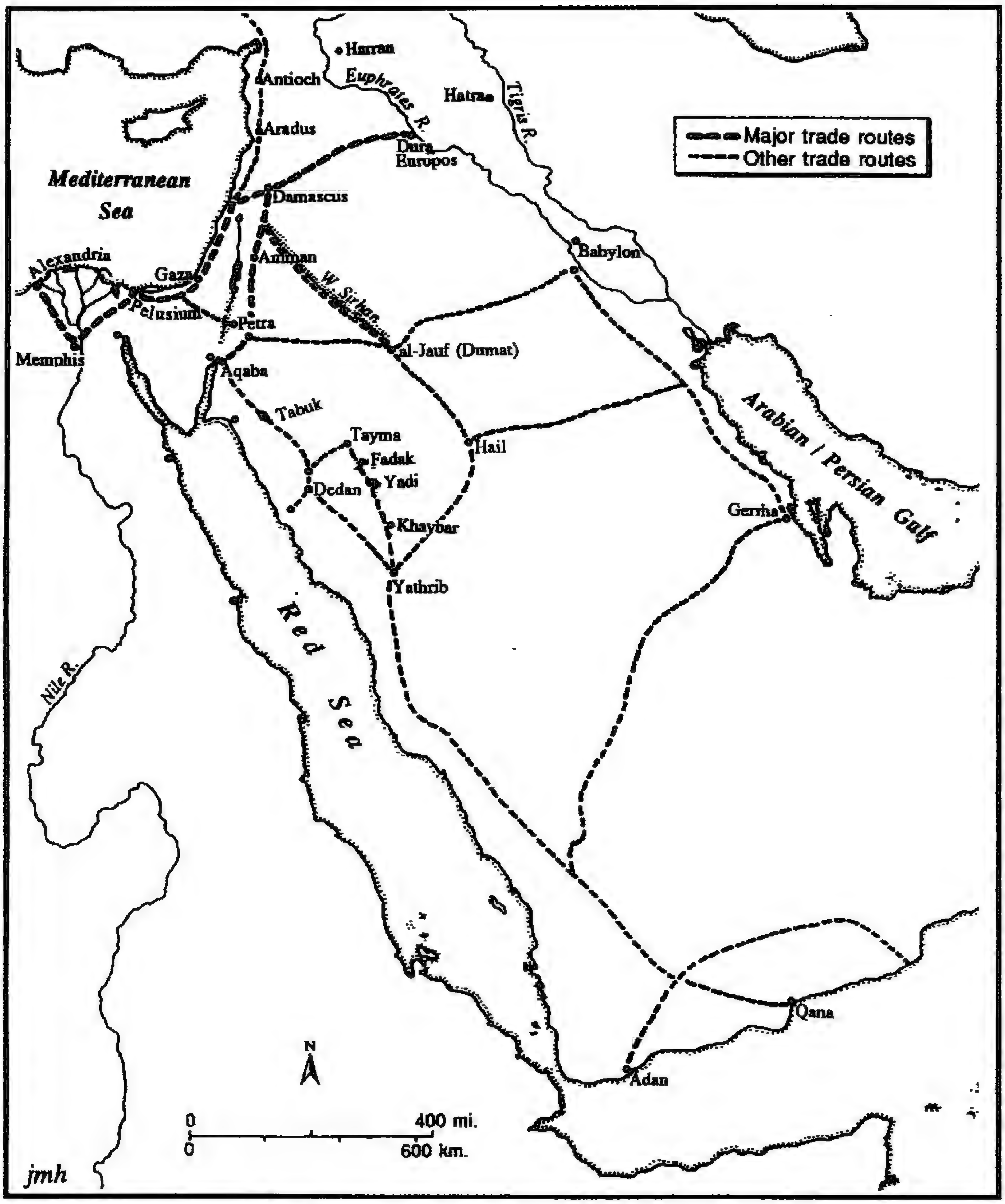
وقد قرأت أخيراً في الصحف السيارة، والمجلات الثقافية، عن عقد ندوات للترجمة والتعريب في مصر، وبيروت، والسعودية، وأقر المنتدون فكرة إنشاء مؤسسة عربية للترجمة.(١٣٥) وقبل هذا فقد قامت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الألكسو) بوضع الخطة القومية للترجمة، ووافق مسؤولو الشؤون الثقافية في الوطن العربي عليها عام ١٩٨٤م، ولكن تعثر تنفيذ بنودها، بل توقف العمل بها نهائياً! ثم طُلِبَ من المنظمة تحديث هذه الخطة، وعرضها على أولئك المسؤولين لإقرارها وتنفيذها، واستجابت المنظمة سنة ١٩٩٦م، ولم يصدر بشأنه شيء حتى الآن فيما أعلم!

ولا شك أن بلورة هذه الخطة إلى واقع عملي ملموس، وهو أمر ليس ببعيد المنال متى ما صحَّت العزيمة، وصدقت النية، وتُحرِّر من بيروقراطيات المؤسسات الرسمية، سيكون عملاً رائداً، وحدثاً ثقافياً بالغ الأهمية والجدية معاً، وسينعكس أثره على الترجمة والمترجمين، والثقافة العربية المعاصرة والمستقبلية. وإني لأرى في هذه الخطة حلاً لكثير من مشكلات الترجمة وإشكالياتها، وعلاجاً ناجعاً لكل ما تقدم من ملاحظات ونتائج في هذه الدراسة.

وأعود فأقول: إن الترجمة هي الوسيلة الفاعلة لالتقاء الحضارات وليس تصادمها، ولسنا وحدنا من يوليها اهتمامه وعنايته، بل إن جميع الدول المتقدمة والنامية تشترك معنا في هذا الهمِّ الثقافي – إن صحَّ التعبير –، وإنا لنأمل أن تتوسع القاعدة وتعم النظرة، لتصبح الترجمة في عالم اليوم أخذاً وعطاء، وألا نكتفي بالترجمة الوافدة أو المستوردة، بل ننطلق بأعمالنا اللغوية المعاصرة إلى الآخرين، عن طريق الترجمة المصدَّرة أو ما يُعرف بالتعجيم، وهي أمنيةٌ لا أظن لغة القرآن الكريم عاجزة عن أدائها، أو أن أصحابها غير قادرين على تحقيقها، أو أن أعمالنا اللغوية لا ترقى لمستوى التصدير الثقافي.

---

(١٣٥) ينظر: مجلة الفيصل، العدد ٢٦٢، ١٩٩٨م، ص ص ١١٤ – ١١٥، صحيفة الأهرام – الملحق الثقافي –، ١٩٩٨/٦/١٢م، ص ١١.



Major Trade Routes and Towns

mentioned above, he could not have opposed the word of his god, probably out of fear and devotion. During the prescribed period, he continued to consult the oracles and dream interpreters for his safe return.

This reason would explain his departure, but not his residency in Tayma, unless he was commanded by the same oracle to reside in this remote city, which by any standards- be it political, economic, religious, etc...,- was located far from the center of the Near Eastern civilization.

The religious motives are the most convincing and plausible ones among all of the motives we have discussed. When we consider the fact that Nabuna'id's ancestors where from Arabia; that Tayma and other oases in Northwestern Arabia were old religious centers for lunar worship; that the Babylonians were disrespectful of his god; that Nabuna'id was extremely religiously-conservative; and that Sin ordained him to leave Babylon for ten years, we may conclude that he chose Tayma for his selective ostracism. In the new capital he indulged himself in the deification of himself and the worship of the moon-god Sin, without having to perform the New Year Festival or any other ceremony except his own god ceremonies.

The effort to solve the problem of the Nabuna'id's sojourn in Tayma is encumbered by the shortage of the literary sources, which contain many gaps and broken pieces. Moreover, it appears that the Arabian evidence has not been thoroughly recovered. Only very few items have been recovered from excavations, in spite of the ten years of occupation by Nabuna'id, his officials, and soldiers. Thus, until the Taymaean evidence is recovered, we can not be certain of any interpretation; and the real motive(s) will remain obscured or conjectural.

probably offended the inhabitance and the image of the god Sin in the region.

Other motives have been suggested by several authors. For example, Roux supposes that Nabuna'id "was prevented by his enemies from returning to Babylon. (66)" The idea of political crisis has been advanced lately. It suggests that Nabuna'id's departure and sojourn in Tayma developed as a compromise between his adherents and enemies in order to avoid serious confrontations. (67) Thus, while he retained kingship with its prestige, he had to hand out some of his authority to his son Belshazzar. However, there is no evidence that his authority was seriously challenged to a degree that would force him to leave Babylon to Tayma. On the contrary, there are several documents indication that Nabuna'id's involvement on the state affairs by sending orders to his son, Belshazzar, who acted as regent during the absence of the king from Babylon. (68)

Another reason is given in the Dead Sea Scrolls. One of these scrolls mentions that Nabuna'id spent seven years in Tayma "suffering from a plague inflicted upon him by the true god because of his idolatry"(69). However, the length of Nabuna'id's sojourn in Tayma in the document contradict those in the other documents, especially the Harran Inscriptions. The contradiction and later date of the document does not support this motive.(70)

Column three in the Harran Inscriptions may suggest another reason for the king's departure and sojourn in Tayma. The text reads as follows:

> (After) ten years the appointed time arrived, fulfilled were the days which Nanner, the king of the gods, had said. On the seventeenth day of Tasritu"a day upon which Sin is propitious," is its (ominous) meaning.
>
> [...... ... ...]I did not stop going to the diviner and the dream interpreter. I l[ay do]wn [and in a] frightening night dream, with? the order [...]. Fulfilled was the year, the appointed time arrived, of [......]. From Teima I [proceeded? to] Babylon, [my] loraly city[......].(71)

The following text suggests that Nabuna'id's departure from Babylon was compulsory and not voluntary. The god compelled him to leave his capital for ten years and return only on "the appointed time." As a religiously motivated person, as

---

(66) P. 356.

(67) Beaulieu, pp. 184-185.

(68) Ibia., p. 159.

(69) Gadd, p. 88.

(70) Beaulieu, p. 153, الدسوقي، ص ١٩٥، ١٩٨.

(71) Ibid., pp. 151-152.

construction of Naram-Sin of Akkad (2254-2218 B.C.). The main justification for his action is that Nebuchadnezzar did not rebuild the temple upon its original foundation. [61]. This is a clear example of his religious character and devotion to ancient rituals. Therefore, the antiquarian character of the moon cult in Arabia might have attracted the devoted Nabuna'id.

If the religious motive was the main cause for his journey into Arabia, it would be partially due to the Babylonians' rejection of his god. In the Harran Inscriptions, he complains about the fact that:

> The sons of Babylon, Borsippa, Nippur, Ur, Erech, Larsa, priests [and] people of the capital of Akkad, against his great divinity offended ... [62]

This passage might offer a good incentive for Nabuna'id to abandon Babylon, but does not explain why he selected Tayma instead of Ur or any other Mesopotamian city as the capital. It is known that he could not have chosen Harran because it was under the Medes' control or was threatened by them in his early reign. Moreover, the city and the temple were destroyed by the Medes. [63]

It is interesting to consider that the moon-god Sin does not appear among the pantheon of Tayma or Northwestern Arab ditties during the Assyrian period, such as the gods Atrasmain, Dai, Nuhai, etc... Rarely does Sin appear in the epigraphic corpus from the region, though later Thamudean texts mentioned this deity.[64] As mentioned above, the epigraphical evidence suggest that Nabuna'id introduced the worship of Sin to the region, and that the god Slamu of the two Tayma Steles probably represents the god Sin. The Iskoubi no 262 reveals that Sin was unwelcome by the people to the extent that they asked for his destruction, probably as soon as the departure of Nabuna'id.

P. Beaulieu provided an explanation for this hatred without knowing of the existence of the Iskoubi Inscriptions. He proposes that if the main figure in the Tayma Steles was Nabuna'id, as concluded by S. Rashid, it could be interpreted in two ways: First, Nabuna'id was portrayed worshiping the god Sin. Secondly, the figure might represent the deified Nabuna'id. Although deification of the living ruler is rarely practiced in Mesopotamian religious tradition, there are several hints that he might have made such claim to divinity. [65] This deification

(61) Ibid., pp. 450-451 and Roux, p. 353.

(62) Gadd, pp. 14-17.

(63) Compare, الدسـوقي، ص ١٩٧, who argues for Nabuna'id's ability to reside in Harran.

(64) J. Teixdor, The Pagan God. Popular Religion in the Greco-Roman Near East, Princeton: Princeton University Press 1977, pp. 66-75, and الروسـان، محمـود ، القبائل الثمودية والصفوية. دراسة مقارنة، الرياض: جامعة الملك سعود، ١٤٠٧هـ، ص ١٧٠.

(65) Beaulieu, pp. 176-177

With regard to the religious motives, Nabuna'id is perhaps similar to the Egyptian pharaoh Akhenaten, who built the city of Amarna to worship the sun-disk Aten without any disturbance from the priests of Amun. However, the pharaoh neither abandoned his kingdom nor traveled more than a thousand KMs to build his new capital in the midst of a foreign land.

It is known that Nabuna'id was a devotee of the moon-god Sin, whom the king regarded on the Harran Inscriptions as "the king of the Gods." It was earlier that the moon-god became popular among the late Assyrian and the New-Babylonian rulers. [55]

Nabuna'id's main concern after becoming a king was to restore the temple of Sin in Harran. [56] Moreover, he dedicated his daughter to the service of the temple of Sin in Ur. The New Year Festival was neglected from the beginning until the seventeenth year of Nabuna'id's reign. The principal objective of the festival upon which the prosperity of Mesopotamia depended is the king's submission and praise to the god Murduk.[57].

The important point is that the festival could not be performed without the king; therefore, Nabuna'id may have decided to abandon Babylon, partly to avoid participating in the festival, which would have placed Murduk above the moon-god Sin. However, in the last year of his reign and only after three years of his return, he performed his religious duties, probably in order to reconcile the different factions and to unify the Babylonians against the Achaemenid forces. [58] Similarly, he gathered all Mesopotamian gods in Babylon for the defense of the city.

The decision to reside in Tayma has been justified as a result of the religious importance of the region in Near Eastern culture. Lunar worship was very popular in Arabia; and Northwestern Arabia is considered as an early center for the moon cult under different names. [59] Moreover, the Arameans of Harran and the inhabitants of Arabia were somewhat comparable religiously and ethnically. [60]

Nabuna'id also had a great passion for ancient religious practices. For example, he had to excavate until he reached the foundation deposit of any temple before restoring it. One text tells that he destroyed the temple of Samas in Sippar in order to rebuild it, according to the original

(55) Lewy, p. 461.

(56) It is not clear whether Nabuna'id restored the temple in the first year, in the third year, or after his return from Arabia. See, Lambert, pp. 58-59 and Gadd, p. 48.

(57) For the ritual of this festival and the king's role, see Roux, pp. 365-369.

(58) Lambert, pp. 60-61, compare, however, الدوري، ص ١٩٧, who argues for Nabuna'id devotion for Murduk and that the king did not intentionally neglected the festival.

(59) Stephanie Dalley, "The God Sulmu and the Winged Disk," Iraq, 5 (1987) p. 85ff. and Lewy, pp. 443-450.

(60) Lewy, p. 426.

In additions to his strive to control the caravan trade he had another economical reason. The production of minerals was an important factor in the history of North West Arabia since the thirteenth century B.C. Archaeological surveys have revealed numerous sites of mineral exploitation in the region. (49) Therefore, the combination of mineral production, exportation of local commodities, and control of South Arabian caravan played a significant role in the first half of the first millennium. They were responsible for incursions from neighboring powers into North West Arabia.

These encroachments culminated in the Nabuna'id's invasion and occupation of the area in the sixth century B.C., a step that had never been accomplished. This step of direct control was definitely a major departure from the Egyptian, Assyrian and Babylonian policy of indirect control of the North West Arabia. (50) Jawad Ali even suggests that Nabuna'id was probably contemplating the conquest of South Arabia in order to control the sources of the Arabian wealth. (51)

A passage in the Harran Inscriptions supports the economic motives. In that passage, Nabuna'id states that:

> In plenty and wealth and abundance my people in the distant tract I spread and in prosperity I took the road to my own land. (52)

It is not clear whether this claim was true and how much wealth the king carried to Babylon. However, it is reasonable to argue for the economic motives, as a decision to expand and enlarge the New-Babylonian empire, similar to other empires in the Near East.(53) Unlike the neighboring regions to the east and the north of Babylon, there was no major power in Arabia; and the nearest power, Egypt, was incapable of challenging Babylon. Thus, Nabuna'id could achieve wealth and fame as a prudent conqueror equal to famous Assyrian and Babylonian rulers.

However, W. Lambert rejects the economic motives on the basis of Nabuna'id's ability to dispatch his army to control the region, which would not necessitate the long absence in Tayma. (54) Similar to his Assyrian and Babylonian predecessors, he was able to conduct the campaigns, achieve his goals of incorporating the region within the sovereignty of the kingdom, and acquire as many spoils as possible, without having to dwell for ten years in Tayma.

(49) Dayton, p. 255 and Bawden, 1992, pp. 12-13, but compare P. Parr, 1993, pp. 51-52, who minimizes the impact of mining activities on the region.

(50) Bawden, 1992, pp. 14-15 and Parr, 1987, pp. 49-50.

(51) جواد علي، ص ٦١٥.

(52) Gadd, pp. 15-17. Beaulieu suggests the following translation. "In abundance, plenty, and prosperity, I led my people from remote uplands and I took the road to my country in peace," p. 152.

(53) Beaulieu, pp. 180-181, مرعي، ص ٣٦.

(54) PP. 62-63.

the region against the Achaemenids [39]. During this period, the Arameans constituted a large portion of the population in Mesopotamia; even Nabuna'id himself was an Aramean. [40] However, this motive should be ruled out for two reasons. First, Nabuna'id, according to the Persian Verse Account, killed the king of Tayma and waged war against the other cities in the region.(See above) This violent approach of destruction and enslavement would not have helped him win the inhabitant's sympathy. [41] Second, the Achaemenids had not been threatening Babylonia prior to his departure to Arabia.

Some have suggested that the king's sojourn in Arabia may be considered as one of these measures to recover the economic condition. When Nabuna'id ascended to the throne, the Babylonian economy was severely feeble. The Harran Inscriptions mention that the country was starving and that the people were suffering from fever and famine.[42] H. Saggs points out that from 560 to 540 B.C., there was rapid inflation in Babylonia and that prices doubled as a result of wars and building activities.[43]

To solve this problem, Nabuna'id adopted several measures. He appointed government officials in temples to make sure that he receives the royal tithe and taxes, which alienated temple priests from him [44]. Moreover, Nabuna'id's own estates were contracted to the temples in return for fixed annual payments. [45]

The Medes' and, later, the Achaemenids' control over the old trade routes across northern Iran, and along the Arabian Gulf prevented Babylonia from benefiting from trade transactions going through these areas. [46] Therefore, Nabuna'id decided to move to the west to control the caravan routes running from south Arabia through the peninsula before branching out into three principal routes: to Egypt, to Syria and Palestine, and to Mesopotamia. [See the map]

J. Eph'al stresses that the early campaigns of Nabuna'id in Arabia were simply conducted to ensure control over the whole region and in particular to ensure regular caravan traffic along the desert routes [47]. From this period, there are several documents indicating well established caravan traffic between Babylonia and Tayma. [48]

---

(39) Roux, p. 365 and Julius Lewy, "The Late Assyro-Babylonian Cult of the Moon-God and its Culmination at the Time of Nabuna'id," Hebrew Union College,19 (1945-46) p. 436, الدسوقي، ص ١٩٨-١٩٩.

(40) Lewy, pp. 425-433.

(41) مرعي، ص ص ٣٦-٣٧، و جواد علي، ص ص ٦١٥-٦١٨.

(42) Gadd, pp. 20-21, الدسوقي، ص ص ١٩٩-٢٠١.

(43) Pp. 147-148, 285.

(44) Roux, pp. 371-372.

(45) Saggs, p. 147.

(46) Ibid., p. 285, الدسـوقي، ص ٢٠٠ and for the sea trade along the Gulf, see مرعي، ص ٣٧.

(47) P. 181, 190-191.

(48) Eph'al, PP. 190-191.

date of his return can be established more precisely, since Nabuna'id states in his Chronicle that he returned during the seventh month of his regal year. Comparing the different pieces of the evidence points out that this would fit with the thirteenth year of his regal year, or October 543 B.C.[32]

The Persian Verse Account indicates that Nabuna'id was faced with resistance in Arabia, because he:

> Killed the king of Teima (Tayma) with the [sword] and slaughtered the herds of the inhabitants of the city... He entered and established his residence, while the forces of Akkad[... [That] city he made glorious and built [... Like the palace of Babylon he built [.. [33]

Although the ruins of this palace with its huge wall which surrounds the city are found, the palace can not be compared with that of Babylon's, at least in architecture and style.

Tayma became the capital of Nabuna'id, and the Babylonian troops were dispatched to colonize other cities: Dumat, Fadak, Yadi, Khaybar, Dedan, and Yathrib. [34] [See the map] These cities or oases are located a long the caravan trade routes running from south Arabia into Egypt, Palestine, Syria, and Mesopotamia.

For a decade, Nabuna'id dwelt in this large area, receiving embassies from Egypt, the Medes, and the nomadic tribes[35]. Inscriptions from the environs of Tayma indicate that the king made several campaigns against the people of Dedan, Nabayat, and Massa[36] in order to control the caravan routes and centers. [37]

In the Harran Inscriptions, written after the king's return to Babylon, Nabuna'id states that "ten years I went about amongst them [the nomads] and to my city of Babylon I went not in" [38] During these years, the New Year Festival was neglected, probably to punish the Babylonians for their improper treatment of him and the god Sin. After ten years, Nabuna'id returned to Babylon, and the reason(s) for his return is less ambiguous than the reason(s) for his withdrawal to Tayma, which will be covered by the rest of the paper.

Some scholars have suggested that Nabuna'id was aware of the growing Achaemenid power; therefore, he went to Tayma to secure an alliance with the tribes of

(32) Beaulieu, pp. 149-169.

(33) Lambert, pp. 25-29

(34) Gadd, pp. 80-85; Reed and Winnent p. 91

(35) Gadd, PP. 76-77.

(36) For those Nomadic groups and their locations, see Eph'al Appendix A "The Nomad Groups".

(37) Reed and Winnent, pp. 90-91.

(38) Gadd, pp. 26-27.

more sophisticated than the usual nomadic center.(26) It must be stated that the majority of scholars characterized Tayma as an important urban center before the conquest of Nabuna'id, and as early as the Assyrian period. (27)

Nevertheless these sources can be characterized as incomplete, since they contain many gaps and obscure details. Due to the inadequacy of documents from this period, it is not clear when Nabuna'id went to Arabia, as we shall discuss. The most important Babylonian documents are: the Nabuna'id Chronicle, the Harran Inscriptions, and the Persian Verse Account.

The Nabuna'id Chronicle, originally covering the whole reign, is not complete. Records covering the period from the end of the third year until the beginning of the sixth year and from the twelfth year until the fifteenth year are missing. The seventh-year states that the king was already in Tayma which is repeated in the ninth, tenth, and eleventh year.(28) Therefore, we do not know when the king went to Tayma or when he returned, except that it must have occurred between the third year and the sixth year and that his return must have taken place between the twelfth year and the fifteenth year of his reign.

However, the account of the third year, which has a broken segment, records Nabuna'id' campaign into Syria and Palestine and mentions a place called "Dammu." Dammu have been identified with Dumat al-Jauf, about 280 miles north of Tayma (29). The Persian Verse Account, a hostile account directed against Nabuna'id(30), records that in the third year, he went to Tayma after appointing his eldest son Belshazzar as regent for him in Babylon.(31) Belshazzar was loyal to his father and when Nabuna'id returned to Babylon he stepped down from the throne.

The last attempt to solve the chronological problem relies on analysis of series of texts associated with Nabuna'id, his son and regent Belshazzar, and other officials in Babylonian cities. P. Beaulieu concludes that he went to Tayma at the end of the third year and early fourth year of his reign, probably in January or February 552 B.C. This date coincides with the beginning of the western campaign that started with the conquest of Edom. The

(26) PP. 98-101.

(27) For example, Bawden, 1990, Livingstone, pp. 100-101 and J. Dayton, "The City of Tayma and the Land of Edom," Bulletin of the Institute of Archaeology, London University 8-9 (1968-69) pp. 255-256, but compare P. Parr, 1993.

(28) A.K. Grayson, Assyrian and Babylonian Chronicles, New York: J. Augustin Publisher 1975, PP.104-111, and W.G. = Lambert, "Nabuna'id in Arabia," Seminar for Arabian Studies, 3 (1971) p. 54, الدسوقي، ص ص ١٩١-١٩٢.

(29) W.L. Reed and F.V. Winnent, Ancient Records from North Arabia, Canada: The University of Toronto Press 1970, p. 22 and Lambert, p. 55.

(30) Gadd, p. 79.

(31) Eph'al, p. 86 and Lambert, p. 58.

Nabuna'id in the area. [20] Moreover, he convincingly argues that the main figure in the Tayma Stele represents Nabuna'id and not the god Sin. He reached this conclusion by analyzing the dress and style of the depicted figure in the stele which closely resembles other known images of Nabuna'id from Babylon and Harran. [21] Beaulieu also suggests similar conclusion on the basis of Nabuna'id's character who was influenced by the great rulers of the past such as Sargon of Akkad who was defied after his death [22].

The recently discovered inscriptions in the Rum region, south west of Tayma, are the only direct evidence from the region for the presence of Nabuna'id in Arabia. The Rum region is located on the trade routes between Tayma and al-Ula, ancient Dedan, which was included in Nabuna'id's campaigns. Prior to their discovery, scholars had to depend on other sources from Syria and Iraq, which led some scholars to reject the notion that Nabuna'id would have deserted his capital for a remote place like Tayma. [23]

The Iskoubi Inscriptions no. 27, 169 and 177 were written by two persons who describe themselves as friends of Nabuna'id, the king of Babylon.[24] The inscriptions do not reveal any information about the activities of the New-Babylonian king, but they clearly confirm his presence for the first time.

The inscriptions, Iskoubi no. 27, 153 and 262 mention the moon god Sin. Iskoubi suggests that it was Nabuna'id, who introduced the god Sin to the region for the first time, and probably forced the worship of the deity on the inhabitants.[25] A second inscription, Iskoubi no. 27, mentions Sin after other deities indicating a lesser status for Sin. However, the writer of Iskoubi no 262 requests the help of the god Nahi for the total destruction of the god Sin. The inscription clearly suggests that the god Sin was probably unpopular or at least unacceptable to some of the inhabitants.

The previous discussion shows how meagerly is the evidence from Tayma that reveals neither much information about the activities of Nabuna'id in the area nor the reasons behind his stay. In fact, most of our evidence about the incursion is derived from sources outside the region.

Tayma and the Arabs appear quite frequently in the New-Babylonian writing, in view of the limited number of records from other periods, that A. Livingstone has listed at least fifteen references. He concludes that these references reveal the importance of the site as an urban center and represent a picture

---

(20) رشيد، ص ص ١٣٥-١٤٠.

(21) رشيد، ص ١٢٩-١٣٣.

(22) PP. 176-177.

(23) Subhi A. Rashid, "The Babylonian King Nabonidus in Tema," Sumer 33 (1973) P 173.

(24) Khalid M. Iskoubi, An Analytical and Comparative Study of Inscriptions from "Rum" Region, South West of Tayma, Riyadh: Ministry of Education 1999. (Arabic)

(25) Ibid., p. 79, 505.

or priests, does not resemble Mesopotamian architecture and planning. The closest parallels in style and planning of al-Hamra are those of Arabian tradition from northern Arabia.(13)

Tayma has also yielded important evidence from the sixth century B.C. The German traveler J . Euting and the French C. Hubber discovered the famous Tayma Stele in 1884 AD. (14) During the excavation of 1979 H. Abu-Duruk discovered a similar stele. They both resemble each other in dimension, style, and themes; and on the basis of iconography, they were attributed to the reign of Nabuna'id.(15) They reveal important information about the religious activities in Tayma during the sixth century B.C.

The most dazzling question is the absences of Babylonian artifacts, writing or clay tablets, since Babylonian documents indicate the sending of regular consignments of goods to Nabuna'id.(16) One document mentions the payment of fifty shekels of silver to a certain individual who brought a camel and his provisions for Tayma during the fifth year of Nabuna'id. (17)

Even the discovered pottery yielded very few shreds that bear any resemblance to New-Babylonian style and technique, considering the large number of officials and soldiers in the service of Nabuna'id. The classification of pottery shreds yielded only 8 pieces that can be associated with the New-Babylonian ceramic tradition. (18) G. Bawden, however, does not classify any of the ceramic finds as Babylonian ceramic. On the basis of structure, form, and style, he associates most of the Tayma ceramic corpus with Northwestern Arabia ceramic assemblages from the Late Bronze and Iron Age periods. (19)

However, S. Rashid associates one jar and an incense burner, which were not found during excavation, with the presence of

(13) Ibid., p. 53.

(14) It was Euting who discovered the stele and not Hubber as commonly written. Moreover, the stele was not found on Hadag well, but on Qasr Talihan. For more information on the Tayma Stele, see يوليوس أوتينج، رحلة داخل الجزيرة العربية،ترجمة سعيد فايز السعيد، الرياض: دارة الملك عبد العزيز ١٩٩٩م، ص ص ١٦٠-١٦٢.

(15) Abu-Duruk, p. 63 and Bawden, 1980, PP. 83-84. But Peter Parr, 1987, argues that the Tayma evidence, especially from al-Hamra, is not adequate enough to date the complex to the New Babylonian period, and suggests the fifth century B.C. during the Achaemenid period, pp. 55-61.

(16) A. Livingstone "Arabians in Babylon/ Babylonians in Arabia: Some Reflections a Propos New and Old Evidence," in L'Arabie Preislmique et son Environnement Historique et Culturel." Actes du Colloque de Strasbourg 24-27 juin 1987, T. Fahad (ed.), pp. 98-99 and Beaulieu, pp. 158-159.

(17) Livingstone, p. 99.

(18) Abu-Duruk, p. 70, 77.

(19) Bawden, 1980 PP. 98-99. For discussion of North West Arabian pottery, see G. Bawden "Continuity and disruption in the ancient Hejaz: an assessment of current archaeological strategies," Arabian Archaeology and Epigraphy 3 (1992) PP. 1-22.

The ability and the character of Nabuna'id are a matter of dispute among scholars. While some historians stress his weaknesses and incapability, others are impressed by his qualifications as a statesman, an army general, and a reformer, who unsuccessfully tried to strengthen and prevent the decay of the empire.(8) However, from the Harran Inscription,(9) it is obvious that he was not popular among his citizens, mainly because of his religious reforms which aimed at promoting the worship of the moon- god Sin over other Mesopotamian gods.

Before discussing the Babylonian evidence it is important to discuss archaeological and epigraphical evidence which have been recovered from the city of Tayma during the last decades. Although the evidence does not provide direct information about Nabuna'id's activities, they shed some light on the episode as a whole. It is expected that further excavation and survey would reveal important historical documents from the area.

Despite Nabuna'id's long residence in Tayma, he left very few archaeological evidence in the city. The principal monument from the sixth century B.C. is Qasr al-Hamra, or al-Hamra palace which archaeologists have associated with Nabuna'id. This conclusion is based on the artifacts found during the excavation, such as pottery, inscriptions and historical records, but there is no direct evidence that could be identified it with Nabuna'id.(10) However, it must be stated that there is disagreement among scholars about this date. For example, Peter Parr, in several articles, has criticized the evidence upon which this date was established.(11)

The complex consists of a fairly sized building of about 35 x 10 m., which is surrounded by a huge wall of over 7.5-km in length. According to the excavators, the building, which consists of several rooms, was mostly devoted to religious activities.(12) They also conclude that the complex, which was supposed to accommodate the king court

---

(8) H.W.F. Saggs, The Greatness that Was Babylon, New York: Hawthorn Books 1962, pp. 145-148.

(9) C.J. Gadd, "The Harran Inscriptions of Nabuna'id," Anatolian Studies, 8 (1958) pp. 35-92 pp. 26-27.

(10) Hamed I. Abu-Duruk, Introduction to the Archaeology of Tayma, Riyadh: Dept. of Antiquities and Museums, 1986, pp. 23-24 and 53-54. The first excavation of the site was conducted in 1979 and the report was published by G. Bawden and others, "Preliminary Archaeological Investigations at Tayma," Atlal 4 (1980) 69-106, especially pp. 92-99.

(11) Peter Parr "Aspects of the Archaeology of North-West Arabia in the First Millenium BC," in L'Arabie Preislmique et son Environnement Historique et Culturel, actes du Colloque de Strasbourg 24-27 juin 1987, T. Fahad (ed.), pp. 39-66, and "The Early History of Hejaz: a response to Garth Bawden," Arabian Archaeology and Epigraphy 4 (1993) PP. 48-58.

(12) Abu-Duruk, p. 96.

figure in western Asia. Yet, this mighty empire was to fall shortly after his death. Nebuchadnez-zar's successors were weak and incompetent, and within seven years three rulers were killed through conspiracies or revolts.[(2)]

Nabuna'id (556-539 B.C.), a nobleman and an army general, was the last Babylonian king. The most interesting and puzzling episodes from this period was his devotion to the moon-god Sin, and his abandoning of the glorious Babylonian capital, Babylon, for ten years, in favor of the oasis of Tayma in the Arabian peninsula.[(3)]

The purpose of this paper is to discuss the motives behind Nabuna'id's residence in Tayma, including political, economical, and religious ones. Other points such as his early reign, the site of Tayma, and his character are essential for this episode.

The relation between Arabs and Babylonians started before the emergence of the New-Babylonian state. The Assyrian king Assurbanipal (668-627B.C.) launched several campaigns against the Arabs, because they assisted the Babylonians by sending an enforcement to Babylon.[(4)]

After the rise of Babylon, the alliance changed into animosity and war with the Arabs. Nebuchadnezzar conducted several expeditions against the Arabs who probably resisted his expansionist policy in the region. Nebuchadnezzar's campaigns have found their ways into Muslim chronicles of the 9th and 10th century A.D.[(5)] Thus, the Babylonians had been well-acquainted with the Arabs before Nabuna'id became the new ruler.

Nabuna'id, who was about sixty years old, ascended to the throne in June 556 B.C. through a conspiracy in which his predecessor was killed. He was not a member of the royal family of Nebuchadnezzar, and his mother was the high priestess in the temple of Sin at Harran.[(6)] During the first three years, he led several military campaigns into Syria and Palestine. He also restored many temples, especially the Harran temple which the gods Sin and Marduk had instructed him to do in his dream.[(7)]

---

(2) Georges Roux, Ancient Iraq, 2nd ed. New York: Penguin Books 1980, p. 351 and P. Beaulieu, The Reign of Nabonidus. King of Babylon 556-539B.C., London: Yale University Press 1989, pp. 86-104.

(3) For a complete survey of the Arabic sources and travelers accounts about Tayma and its location, see صـــبحي أنور الرشيد "دراسة تحليلية للتأثير البابلي في آثار تيماء،" سومر ٢٩(١٩٧٣)١٠٧-١٢٥.

(4) I. Eph'al, The Ancient Arabs, Jerusalem: The Magnes Press, 1982, pp. 143-144, 159.

(5) جـــواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج١،ط٢ ، بغداد: مكتبة النهضة ١٩٧٦م، ص ص ٦٠٧-٦١٠.

(6) Roux, pp. 352-53; Beaulieu, pp. 67-85, and خـــالد الدسوقي، "نابونيد" الدارة ٢(١٩٧٦) ص ص ١٩٠-١٩١، عيد مرعي، "بابل في عهد نابونيد آخر ملوكها،" مجلة دراسات تاريخية ٦٣-٦٤(١٩٩٨) ص ص٣٠-٣١.

(7) Roux, p. 355.

Age, Vol. 11, Part 2, 7 – 20 (2001)

NABUNA'ID'S SOJOURN IN TAYMA: THE MOTIVES*

Dr. ABDULLAH A. AL-ABDULJABBAR

Abstract:

Nabuna'id (556-539 B.C.), the last New-Babylonian king, abandoned his capital Babylon for ten years (552-543 B.C.) in favor of the city of Tayma in Northwestern Arabia. Since he did not provide any explanation for this change of capital, scholars have been advancing several theories.

It is the purpose of this paper to review previous contributions to the subject of the motives behind Nabuna'id's sojourn in Tayma. These motives include political, economical and religious ones.

Finally, it is suggested that religious motives inspired Nabuna'id to leave his capital, especially because of the religious character of the king. However, the available evidence can not explain his decision to reside in Tayma.

The discussion will depend on the analysis of recent archaeological and epigraphical evidence from Tayma as well as literary sources from Mesopotamia. Other points relating to his early reign, his character, and the site of Tayma are essential for this episode.

By the end of the seventh century B.C., the Assyrian Empire was rapidly declining and losing its control over Egypt, Syria, Arabia, Sumer, etc. The New-Babylonian kingdom (626-539 B.C.) soon replaced the decaying empire and became the supreme power in western Asia. [1]

Nebuchadnezzar (605-562 B.C.), the second New-Babylonian ruler and one of the most famous figures in the ancient Near Eastern history, invaded Egypt, subdued the Medes, and became the principal political

* The author would like to thank Dr. Abdullah Al-Husani, K.S.U., for reading this paper and correcting the spelling and grammatical errors.

(1) For the most detailed and recent work on the rise of Babylonia, see Grant Frame, Babylonia 689-627 B.C.: A Political History, Leiden: Nederland's Institute, 1992.

Age, Vol. 11, Part 2, 1 – 20 Eng., 1 - 162 Arb. (2001)

Contents

English Section

القسـم العربـي

Consultants

All MSS should be addressed to :
- Mars Publishing House,
P.O. Box : 10720, Riyadh 11443,
Saudi Arabia.
The Arabic Publishing & Distribution House Lts.
49 Goldhawk Road
London W12 8 QP
England

ANNUAL SUBSCRIPTION RATE :

- Saudi Arabia	S.R. 100
- All Arab Countries	U.S. $ 35
- All European Countries	U.S. $ 40
- U.S.A. & Canada	U.S. $ 45
- Australia & South Asia	U.S. $ 50

Ages

A Semal - annual Journal of Historical, Archaeological and Civilizational Studies

VOLUME 11
PART 2
JULY 2001
RABI' II 1422

Published by : Mars Publishing House London

Notes to Authors

1- "Ages" is a Semiannual journal published by Mars Publishing House and issued from its office in London.

2- Manuscripts should be submitted in triplicate, typewritten double spaced and no paper of A4 size (21 29.7 cm), on one side only. All pages including tables and illustrations should be consecutively numbered.

3- The maximum limit of an article is 30 pages (about 7,000 words), with regard to the editing of books, the maximum limit is 50 pages (12,000 words).

4- An abstract of about 200 words should preface each article in Arabic and English.

5- Maps, figures and illustrations should be drawn with indian ink on white drawing paper of sufficient thickness to be acceptable for printing, with regard to photographs, These should be printed on glossy paper.

If the photographs are coloured, then the original slides are recommended.

6- Sub-titles and other phrases and idioms intended to be printed in bold face type should be underlined by waveyline, while the titles of books and periodicals should be marked by normal line.

7- Punctuation (Period, colon, semicolon, comma, interrogation and exclamation marks, etc.) should be carefully written. In general, MLA Style should be followed.

8- Footnotes :

Notes should be typed double spaced on separate sheets at the end of the article, list of bibliography is not recommended. Each note is intended to read like a sentence, without internal full stops. The general sequence of a note should have the following form :

Articles :

* G.R.D. king, "Some Reflections on the Umayyad Wall - Mosaic Tradition" Ages, vol. 1, part I 1406 A. H./ 1986 pp. 1-12.

* G. Caton Thompson, "Some palaeolichs from South Arabia", Proceedings of the Prehistoric Society, London, 1953 XIX, pp. 217f.

* Max Weber, the Protestant Ethic and the spirit of Capitalisms, trans. Telcott Persons (New York : Scribner, 1958), p. 17.

* S.Y. Fisher, the Middle East - A History, 2nd ed. (New York : Alfred A. Knopp, 1969) pp. 133 - 134.

Name(s) of author(s); title of the chapter or part of the book ciede; title of the work; name(s) of editor(s), tranlator(s) and compiler(s); edition used; the series; the number of vulumes; place of publication, publisher and date of publication; vulume number; and page number(s).

After mentioning the first full reference not, the shortened form is recommended. This form consists of the author's Last name alone, followed by relevant page numbers (23) Ali, pp. 18-27.

The once popular abbreviations (op. cit, in work cited and loc. cit. in the place cited) are now considered superfluous. If two or more works done by the same author are cited, citation should include a shortened form of the title after the author's last name.

(26) Ali, The all - parties, pp. 18-27. Notes should be numbered consecutively throughout the paper starting from 1 without using astrisks or other symbols; In text, the number of footnotes should be typed slightly above the line and after all punctuation marks.

In case of book lacks printed publication information or pagination, indicate this by using one or more of the following abbreviations : n. p. = no place of publication, n. p. = no publisher, n. d. = no date, n. pag. = no pagination.

9- Originals of articles or essays sent for publication in the journal will not be returned, whether published or not.

10- Articles and essays have been sppeared within the Journal according to technical considerations irrespective of the position of the writer.

11- Since the Journal has been published semiannual and distributed according to a fixed schedule, it is necessary to collectedit and print the materials in enough time prior the time fixed for distribution of the journal.

12- Articles or essays or translations which has been previously published are not accepted for publication and the materials accepted for publication in this journal cannot be published in other journals without prior written permission of the Chief Editors.

13- Articles may be written either in Arabic or in English.

14- The Chief Editors ask researchers and writers to follow these guidelines in order to assist the editors to perform their task and to achieve their objectives. Non-compliance with these instructions would oblige the Chief Editors to reject the Article.

15- The final page proof of the articles should be checked by the writers, against the original MSS with no changes (addition or deletion), and returned with in 48 hours if so desired by the Chief Editors.

16- The writer of each article or essay will have a copy of the issue in which his article or essay is appeared, free of charge.

17- All MSS should be addressed to :

- Mars Publishing House, P. O. Box 10720, Riyadh 11443, Saudi Arabia.

- The Arabic Publishing and Distribution House Ltd., 49 Goldhawk Road, London W128 gp, England.

Ages

A Semi - annual Journal of Historical, Archaeological and Civilizational Studies

VOLUME 11

PART 2

JULY 2001

RABI' II 1422